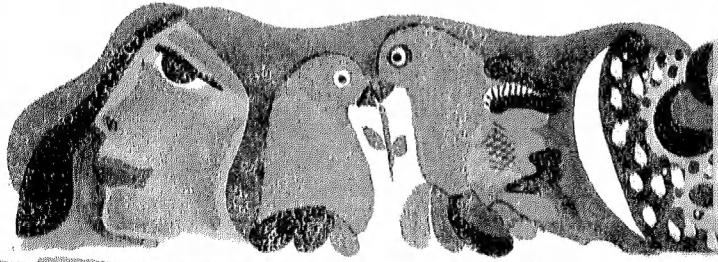


كتابات



# جمال ساختران

المجلد  
الثاني



0003526



Bibliotheca Alexandrina

أرض أرض

## وقف الزمن

يقلُم : الدكتور على الراعي

وقف الزمن في قصة جمال الغيطاني الأخادة : « أرضن - أرضن » وقف عند التاسعة والنصف . نزل صاروخ صهيوني فأصاب آلة الزمن وأوقف العقارب عند التاسعة والنصف .

ومع أن أحشاء الآلة قد خرجت فقد ظل شيء ما بداخلها يتحرك ، ويتحرك ، ثم يعود إلى الوقف عند التاسعة والنصف !

وأصاب الصاروخ آلة البشر أيضاً . أصاب أسرة مصطفى أبو القاسم ، مدرس التعليم الابتدائي بقرية كفر عامر - محافظة السويس ، فأيادها . ومات آخرون . وقد الفلاح عبد المنعم أبو العطا السمع والنطق .

---

وجاوز الصاروخ الحد . فأصاب المجتمع القديم في الصميم مجتمع ما قبل ٥ يونيو . وإذا كان بعض هذا المجتمع لا يزال باقياً حتى الآن فهذا هو ظاهر الأمور فقط . أما باطنها فهو رغبة تجتمع . تختسد . تتحج . تغل . وتستعد لإزالة آثار العفن والتواطؤ ، والتراثي وكل ما أدى إلى النكبة ، مما يقع في الناس ، وأعمال الناس ، ومنظّمات الناس .

والصاروخ نفسه ينظر إليه جال الغيطان متأملاً . كأنما هو مخلوق جيل ! ينظر إليه كما نظر الشاعر وليم بليلك في قصيدة له إلى النمر ، تبرق عيناه في الظلام . به الجمال الوحشى كله والشر الرابغى كله . والأذى الذى لا دافع له .

ولكنه أيضاً رمز للإنجاز عند الأعداء . ورمز التحدى لنا . تحدى هذا الصاروخ .. هو نذير الموت لا مفر من مواجهته مرة أخرى ، بعد أن فشلت المرة الأولى في سيناء .

والقصة توضح في قصد فن رائع ، وفي صور مركبة – تنبع من لاوعي المدرس ومن وعيه على السواء ، وتعبر عن إحساسه بصحر وإحساسه بالعالم معاً – توضح أن المجتمع القديم أعجز من أن يواجه تحدى الصاروخ . أيواجه بالطبيب الذى يكشف على حالة عبد المنعم بالروتين ؟ أم بالبك المأسور ، الذى يسمع شكوى المدرس مصطفى أبو

---

---

---

القاسم في خليط من الإشراق والزراية؟ أم بالمسؤول الكبير الذي يأمر بأن يحضر الفلاح عبد المنعم «إليهم» في غد، ليحول إلى المستشفى، فيهرع إليه تابعه ومعه قلم حبر جاف، ويسجل أمراً لا رصيد له. إذا أردنا أن يعود للفلاح عبد المنعم أبو العطا سمعه ونطقه، فعلينا أن نغير الرجال، والأعمال، والمنشآت. وأن تكون لنا الإرادة وأن نسلح بالصدق.

قصة جمال الغيطان أدخلت البهجة إلى قوادي. هذا هو الأدب الثوري الحق، الذي نبع من النكبة مباشرة. أدب واع، متزن. ما بالقصة من حزن يكفي كي يخلق حبيطاً. ولكن القصة – كالجواهرة النادرة – تختزنه كلها في محيطها الصغير، وتتألق به، وتضيء كاللمسة السوداء.

حزن دفين، متكبر، لا يسكن لأنّه لا فائدة من البكاء. وأنّه يعرف طريقةً آخر أجدى من البكاء.

والي جوار هذا الحزن، حب دافق لأرض هذا البلد، وناس هذا البلد. يتمثل في الإشارات الكثيرة، الدقيقة – التي تبدو عابرة – لأحوال البسطاء، وعاداتهم، ورغباتهم. وأفكارهم وكلها تبدى النقد وهي لا تدرى. يقول عم خليل الجرسون في وصف ما حدث:

«وكما تعرف يا سي مصطفى، يجيء الطيران عادة في التاسعة والنصف أو العاشرة صباحاً. الظاهر أنهم يعملون بمواعيد كالموظفين».

---

---

---

يتسنم المرء لدى هذه الفكرة الساذجة — رعايا — ولكن ما فيها من نقد  
لا يفوته مع ذلك .

كان من أسباب فرحي بهذه القصة ، ما تختلف لدى من إحساس  
عقب قراءتها بأن أيدي الشباب قد أخذت تصل إليها الرسالة الفنية  
أخيراً . وأن هذه الأيدي لم تكتف بتسلم الرسالة ، بل مضت بها خطوات  
في سبيل التعبير الفنى الناضج عن عالم هذا الشباب .

عالم لا يدرك أبعاده الحقيقية إلا هم وحدهم . عالم يأخذ من منجزات  
الماضى الثورية ، ويقضى بها ليحقق المزيد من الإنجازات .

باختصار شديد ، أنا سعيد !

(روزاليوسف يناير ١٩٧١)

## أرض .. أرض

نشرت في روز اليوسف ديسمبر ١٩٧٠

فعلا ، التاسعة والنصف

كما قالوا ، أكدوا ، أنها التاسعة والنصف .

في النصف بعد التاسعة ، هل ضحكت أنا ؟؟ هل اجتزت باب المطافة التعليمية ؟؟ وقفـت أمام حـدى أـفندـى أـصرـفـ المـرـبـ ، أـقـولـ لإـبرـاهـيمـ أـفـنـدـىـ شـكـراـ بـعـدـ اـحـسـائـىـ فـنجـانـ القـهـوةـ ؟؟ أـسـتـشـقـ الشـهـيقـ ، أـطـرـدـ الزـفـيرـ ، لـاـ أـدـرـىـ بـالـضـبـيطـ ، مـاـ أـعـرـفـ ، أـتـقـ مـنـهـ أـنـىـ لـمـ أـوـجـدـ مـعـهـمـ ، لـمـ أـقـعـدـ حـولـ الطـبـلـيـةـ آكـلـ الجـبـنـ وـالـفـوـلـ أـشـرـبـ الـخـلـيـبـ مـنـ يـدـ أـمـىـ ، فـيـ التـاسـعـةـ وـالـنـصـفـ أـوـلـ النـهـارـ ، يـصـلـ قـطـارـ الرـكـابـ إـلـىـ ضـواـحـيـ الـمـدـيـةـ

---

---

الصغيرة ، احتجزوه قليلاً عند المزلقان ، يعبره رجال ونساء وأطفال ، التاسعة والنصف لم تتوقف حركة العمل ، باخرة تقترب من ميناء ، تزعق صفارات ، تصر عجلات ترام عند منحني ، ويقفز طفل يبيع الكبريت فوق السلم ، يتاءب المسافرون في الطائرات ، شاب يغازل وامرأة تمنع ، تاجر يساوم ومدير يتآمر يختلس وعطرور تسكب من إناء إلى إناء ، أنفس دخان تتبدل ، تكتكة آلات كاتبة ، قهوة تلون مذاق الأفواه وموظفات ينسجن التريكومي في التاسعة والنصف يبدأ العمل في بلاد بعيدة جداً عنا في نصف العالم الثاني ، وتشتعل النار في الأعشاب على جانبي قスピان القطارات .

.. في التاسعة والنصف مشروط طبيب يشق بطن الإنسان ويطفو كلب ميت فوق مياه الترعة القرية من القناة فيقول جندي لا بد من إزالته لأننا نشرب من هنا وطفوه ضار ، بالضبط في تمام التاسعة يرمي الفراغ جبلًا من المتغيرات وزنه ألف ألف رطل ، يخمن الرجل في الحفر في الدشم في خنادق المواصلات ، الرمي فوق بور توفيق ، يؤكّد آخر أنه فوق مدينة السويس نفسها ، يضربون البيوت في تمام التاسعة والنصف .

قلب أم يرقب الأبناء لحظات الإفطار ، أمي أنا تعبّر فناء البيت تحمل الماء من الزير إلى أخوتي أنا سعيد . أخوتي أنا فتحى وإبراهيم ، أخوتي

---

---

---

على وعادل وحسنى ، أختى فتحية ، أختى أنا ، أنا مصطفى أبو القاسم كلما سألنى شخص وأنا أدور مسكاً ييد عبد المنعم أبو العطا ، أقول أنا مصطفى أبو القاسم من كفر عامر محافظة السويس ، عبد المنعم هذا فلاخ لا يسمع ولا يرى منذ التاسعة والنصف عندما ذهبت إلى الزقازيق ونأت المسافة بيني وبين أخوى وأمى إلى الأبد ، أبد التاسعة والنصف المحلق في سماء عمرى عندما طلع من هناك ، تدرك آلات الصماء وتروسه وقلاؤظه وأسلامكه وبطارياته أسماء أمى وأخوى وأوصافهم واحداً واحداً ويعقدته الصلبة القاسية غاص فى السقف وعيدان الخطب والفراغ ما بين السقف والأرض ، الأرض .

أنا مصطفى أبو القاسم لم أسمع الدوى ولم أر الشظايا واللهب بل رأيت عموداً طويلاً أبيض مصنوعاً بعناية ودقة من أنقى أنواع الألومنيوم ، ولم أر الأرواح لحظة طلوعها ، أهالى القرية أيضاً لم يرواها وسكان الزقازيق والقاهرة وطنطا وشطا وبلبيس وقنسفيس وزوار الحسين وسيدي أحد البدوى وأهل البر وخلوقات البحر والنداهات والعجائز وكتبة المحاكم والطواحين ، إنما هبط ثقل مر مدبر يثقب الامعاء والأحشاء والعمر المقبل والمنقضى والأمال ، ويحرق نسمة تبشر بذهب القسط ، وعجنء البرد ، وأمنية لم تتم عندما لمح الخبر فوق الجسر فى عيونهم وفي البيوت ، والطريق وفضاء أبدى ، غهل الدم فى عروقى ، ورأيت أهل البلدة أفراداً

---

وعيوناً وحزناً صامتاً لا يعرف كيف ينقل الخبر ، وأنا قضيت عمرى أروح وأجيء فوق الجسر لكننى أراه لأول مرة بأرضيته الرمادية ، وسورة الخشبي ، والخفر الصغيرة أمامه من الناحية الشرقية ولا حظت بعنابة كافة النبات على جانبي الترعة والغريب أيضاً أننى رأيت سرياً من اوز أيض ينبع جناحيه بعد طلوعه من الماء . امرأة تمشي متهملة غير وراءها ماعزاً سوداء ، طفلة يمسن عوداً من قصب وكلباً ينبع ودخاناً يطلع من أحد البيوت ، ورأيت اللحظة التي أمر بها الآن خارج الزمن مجتمعة متصلة بقوامها التوبياء وعروق سوداء رفيعة وأبر وشوك ، لحظة هي زمن قائم بذاته ، لا أول له ولا آخر بلا بداية أو نهاية ، قلت كيف أذكرها لو عشت مائة عام ، غير أننى رأيتها بعيقى العمر نفسه تماماً كما أعيشها الآن ، بروقة الجلو وشعرية عنقى وطعم النحاس المجذزراً والتجاه الريح الخفيفة . الباردة التي جاء لحظتها تماماً فعرفت أننى تقدمت في العمر قدرًا لا يحسب بالستين وإن كل ما عشته قبل الآن يتسمى إلى أجيال شديدة البعد لا صلة لا علاقة لا رابطة بيني وبينها . أدركنتى بدايات الشتاء ونحن أول أغسطس ثامن شهور العام ، أقول جاءتى بدايات الشتاء لأن سبتمبر يل أغسطس ولا أحسبه من شهور الصيف أبداً ، أبداً ، ولذا أحسب سبتمبر من شهور الصيف أو هواؤه أرق وأشرب ماءه فاذكر أيامًا حلوة راحت منى ، صباحها فرح ، سلؤها بلا غيم ، ناسها يضحكون ، راحوا مني راحوا ، قال

---

---

رجل عجوز هو الحاج حامد صاحب التخليل وشجر البرقوق والتفاح قال  
أنتي رجال يمكنني الصبر ، بدا لي القول سخيفاً وفاض مجالس ، لم أنظر  
إليه ، لم أنطق حرفاً ورأيت الورق وعیدان القش فوق الأرض وتساءلت  
لماذا لا أدرف دمعة يليل ملحمها طرف لسان ، لكنني لم أبك ، كأنني ودعت  
أمى وآخرى وأنا أعرف أنتي سارجع صباح اليوم التالي وأسمع الخبر من  
ال الحاج حامد وال الحاج حامد بالذات وعندما نزلت السويس من شهر وجاء عم  
خليل الجرسون ورأيت وجهه مهموماً ، فعلا عمره سبعون هل أعطيته من  
عندي أكثر ، وسألته عن الحال فقال إن حادثاً جرى اليوم وكان فظيعاً  
فقلت إن كل ما يجري اليوم فظيع يا عم خليل ، هز رأسه وأمسد صينية  
النحاس المثلثة بأكواب الشاي الفارغة وفناجين القهوة وزجاجات  
الكوكا كولا .

قال لا يا أستاذ ، قال إن نجارة في المثلث عاد إلى السويس بعد أن  
ضاق به الرزق ولم يطق التهجير أو قل انه لم يعرف كيف يعيش هناك ،  
رجع إلى هنا يصلح نافذة أو مقعداً ، أى عمل يحتاجه فيه أحد ، يحمل  
 شيئاً أو ينظف مكاناً ، يعني يلقط رزقه من هنا وهناك ، جاءنى مرة هنا وقال  
امسح لك القهوة وتعطيني ما فيه التصبيب ، والله يا أستاذ أعطيته من جبيني  
ما قسم به الله ولم أسمح له فهو يقاربني سنًا ، المهم أن امرأته وأولاده  
الثلاثة ، بتاً عروسة وأخرى في العاشرة وطفلاً ابن سنة على باط أمها ،

---

جاءوا لزيارة وياتوا ليترين وفي صباح الثالث جاء عندي هنا ، توقف أمام هذا المطعم واشتري فولا وطعمية محشية وخبزاً وأثناء وقوفه جاء الطيران ، وكما تعرف يا سى مصطفى بيج ، الطيران عادة في التاسعة والنصف أو العاشرة صباحاً ، الظاهر أنهم يعملون بمواعيد كل الموظفين جاءوا وضربوا المنطقة ، وفوق البيت ، فرق البيت بالضبط يا سى مصطفى ، كان القبلة نزلت بخيط من الطائرة إلى الأرض ، ألف رطل قلبت البيت ، وسكت عم خليل ، قال إن الرجل رأى أولاده يخرجون بعد أربع ساعات من الغارة فوق طاولة عيش ، نصف الأم الأعلى ، يداها يا سى مصطفى كان الحياة بقت فيها تضم أبناؤها الثلاثة ، حتى ابنتها الكبيرة ، السليم الوحيد فيهم الطفل ، آه يا أستاذ لورأيت عينيه إيتها مفتوحتان على آخرها ، أنا في حياتي لم أر عينين مفتوحتين كما رأيت عيني هذا الولد ، كالبرقوق ، تراها وأنت واقف بين الرجال فتخاف ، يا سلام ، الولد يسأل عينيه يا سى مصطفى عن سبب موته في أول العمر ، ولماذا جاء إلى الدنيا إذا كان موته سريعاً بهذا الشكل ، أنا في حياتي لم أر طفلًا يموت فربنا لم يعطى ولم يأخذ مني ، لكنني رأيت موق أنا ، لحظتي في عينيه ، ظننت أن دموعي خلصت من زمان لكنني نحت عليهم كلمرأة أما أبوهم فلم يرد على أحد ، نزل عليه سهم أسكنه ، إذا أمسكت يده يطأو عك ، تأعره بالمشي يمشي ، القعود يقعد ، لكنه لم ييك أبداً ، وعندي سمعت عم خليل قلت أتصور أن

يحدث هذا لأى إنسان في العالم أما أمري واحرق فلا يمكن ، وكما مررت ثلاثة أعوام رأينا فيها القنابل والطائرات وما زلنا أحياء » فستمضي ثلاثة وثلاثون عاماً أخرى والأعمار باقية ، حتى في أيام الدراسة » وأنا أقيم بعيداً عنهم أصبحوك كل صباح في الزقازيق وأعرف أنهم بخير وأسأل القادمين من كفر عامر أو الجناين وأخطف رجل آخر الأسبوع لأشرب حليب الصرع الطازج » وعندما سمعت الخبر وتغير لون المواء والفراغ ازداد اتساعاً وخواه » رأيت الأب النجار لا يبكي دمعة » ورأيت شفتيه متلاصقين شاحبين من جلد جف وطبق الفول بين يديه لا يجد أنوارها تمضغه .

في تمام التاسعة والنصف ، تتدفق العربات في الميادين ، لا يوقفها موت ولا رحيل إنسان ، ألف روح آدمية عن العالم ، يضحك الناس » يدمعون ، تساقط نقط الماء من الزير إلى الصفيحة الموضوعة تحته » ويد جهولة في مكان قصى تضغط زراً أسود اللون أحمر أو أصفر أو ربياً تشد مقپضاً فيطرد من الثبات صاروخاً طوله كرجلين متملدين فوق الأرض » يطلع بطيناً وكأنه لا ينوي الأذى ، يعبر الأعمamar والذكريات وصور الطفولة المنسية وعبر الأغانى القديمة ونداءات الليل ولمفة المسافرين » جوفه مليء بتروس وأسلاك متداخلة في أنايبيب مبطنة بعاده بيضاء طرية وعندما أمسك الضابط بالعامود المعدنى الأبيض قال إنه من أثقل أنواع الألومنيوم ودرجات

---

---

القلاؤوظ دقيقة جداً تدور حولها صاملة مسدسة رمادية والعامود يحفظ  
اتزان الموت المخلق .

يحفظه في تمام التاسعة والنصف ، طال نظر الرجال الذين يرقبون  
ما أفعله ، ما أقوله ، سألت بمحض خفيف ومالوا برق وسهم ليقتربوا مني  
ويسمعوا ولا يتبعونني كما يتصررون ثم يطلبون أن أكرر بصوت عالٍ  
ما قلت ، فأكملوا أنها التاسعة والنصف ، وقلت كيف حالم عندي ،  
عندما ، عندما ، ولم أنطق بل رفعت أصبعاً بيضاء كالجليل ، نظروا إلى  
بعضهم وحارروا ، وسمعت نهنة امرأة لم أر وجهها ولم أعرف من هي  
وسمعتها تتقول آه يا حبيبي يا الطاف فعرفت أن أمي الطاف ذهبت  
وحكى الشيخ خالد فأكمل أنه جرى عندما سمع الإنفجار إلى البيت ، وقال  
زيдан انه كان يمرث الغيط لكنه أسرع إلى البيت وجاء جنود الموقع  
القريب ، ورفعوا معهم الأخشاب والحجارة ولم يفك أحد في القباب  
الزمنية ورأيت عم خليل في المقهى ، يسكت ، تقاحة آدم في حنجرته  
تحريك من أعلى إلى أسفل ويلع ريقه ثم يصف كيف تنددت امرأة النجار  
فوق طاولة العيش بلا نصف أسفل ، كان جسمها شطر نصفين بسكن  
جزار ماهر ، ولابد أن صرخة أمي ان وجدت الزمن لتصرخ في تمام  
الناسعة والنصف أصلق الأصوات في وجه الزمن وأكثرها رعباً وحناناً  
وخوفاً ورجاء مكتوماً ووداعاً ورغبة فيبقاء الآخرين . صرخة صبيحة ،

---

---

---

آلام أمي أصدق ما تردد منذ أن دب آدم هنا واستمع إلى الرياح والضباب  
وسقوط الصخر من فوق الجبل ، وجميء الليل ثم النهار .

قال عمران انه رأى عبد المنعم يدقق دمًا من وجهه كما ينساب الماء في  
مجرى صغير وعبد المنعم يقف قرب البيت عندما نزل صاروخ أرض -  
أرض ، وأنهى الحنان والرقة والعمر الطويل وتعرية العتب وخنافس  
الآخرة وبهجة العيد وأيام رمضان والاستيقاظ آخر الليل لتناول السحر  
وأكلة البوري كل ثلاثة وصوت يطمئن على الأبناء قبل النوم وشاي المساء  
ترشهه أمي على مهل ، تسرح في السواد العقيم الراقد فوق البيوت والترعة  
والموقع والطرق التي لا يمكن التحرك عليها بعد آخر ضوء والانفجارات  
البعيدة والطيران المحوم كالغربان في السماء تسمع الصدى ولا ترى أجسام  
الألنيوم المحلقة ونداءات العساكر وهدير عربة قريب ثم توقفه فجأة .

أمي تذكر أيامها الأولى قبل أن تأق إليها ، ترى دخول أبي قبل جميء  
الليل ومتذليل به لحم وخبيز ياق به في تمام التاسعة والنصف ، وتنيت لوأن  
ما أسمعه وجه إلى شخص غيري ، أو تردد صداته في مكان بعيد عننا ، بعيد  
جداً ، وسألت روحي بدهشة ، بحيرة ، بخوف ، لهذا هو موت  
الأحباب ؟ وعندما مررت بعامي الثامن أو التاسع عشر هل كنت أعلم أن  
ما جرى سيجري ؟ وقلت آه لو يعرف الواحد ما سيأتي في العام الثلاثين ،

---

---

---

ليس كل ما سوف يقع ، إنما الكبير من الأمور ، لو أعرف لأخذتهم معى  
إلى الزقازيق ولعدنا معاً ، نقف أمام حطام البيت وتقول أمي « كتب لنا  
عمر جديد » وتنثر القول النابت لأولياء الله ونفضى ليلة لا نائم فيها » غير  
أنهم ذهبوا وتركون فرعاً ناحلاً جافاً يتيمًا انقضى في كل لحظة مرتين  
ولا تهتز شعرة في جفن الدنيا » ولم يقطع انسان أنفاس سيجارته .

بالضبط في تمام التاسعة والنصف لم أقل حرفاً ولم يومي « رأسى وقال  
الشيخ حامد مرة أخرى ان الأعمار بيد الله وقال زيدان والله لا نتركه وحيداً  
ربما عمل في نفسه حاجة وقال آخر لم أعرف وجهه مع أنني في القرية أعرف  
الإنسان من بعد كبير في الظلام ومن طريقة تردد أنفاسه حتى وشكل  
خطواته » لكنني لم أميز من قال ان مصطفى سينام عندي فجاوبه آخر «  
البيت أوسع عندي وحفرة المخبأ أكبر فلو حدث شيء في الليل نزلنا كلنا  
وقالت جلت نجمة وليست أمي أو أم أي إنما كل عجوز هنا أقول لها  
يا جلة ، قالت كنت أقعد مع المرحومة كل ليلة ، زغر إليها الرجال في  
العتمة لم أرهن إنما أحست حلة نظراتهم ، نفذت إبرة عمدة طويلة تفجر  
مرارق وناءت عظامي بحمل المم .

أمي الآن ، الآن ، تمام التاسعة والنصف .. مر .. مرحومة .

قلت فجأة » خلدون إلى عبد المنعم أبو العطا ، فأخلدون .

---

قابلنا جندي ، قال انه من الخطر مثينا جماعة في الظلام ربنا نزلت دانة  
ولا يكتننا التفرق وقلت ماذذا يحدث أكثر مما حدث ، وألقى أحدهم السلام  
ورد آخر لم أعرفه ولم تتمهل وإنما أسرعنا وأصغيت إلى الصراصير  
المدسوسة في الميшен على صفقى الترعة ، ورأيت وجه عبد المنعم أبو العطا  
من شاش وقطن وقمash أبيض ، وقلت لو ، لو ، لو ان أمي أصبت أو  
أحد من اخوئي أصيب لرأيته الآن كما أراه ، قال طبيب الجيش الشاب إنها  
جراحة أولية ولا يمكن نقله ظهر اليوم لأن الطيران قطع الطريق علة  
مرات ، قلت سأذهب به إلى الزقازيق ، إلى المستشفى الأميركي ، وقال  
طبيب الجيش ، المستشفى هناك أكبر هل تعرف أحدا؟ قلت أبداً ، قال  
إن العملية هنا تكفى الآن لكن حتى يرجع سمعه ويصره فلا بد من  
إمكانات أكبر لا تتوفى عندي ، قلت هل يعود سمعه ويصره يا دكتور فنظر  
إليه وقال محتمل والأمل كبير جداً في رأيي ، قلت سأذهب به أنا ، قال  
سأرسل معك عربة الكتبية الجيب ، فقلت له ان المرحومة لو عاشت  
وجريدة لأرسالت معى العربية طبعاً ، رأيت عينيه بوضوح لحظات ، ثبات  
حقبيها وهزة سريعة من رأسه ، رعشة صوته ، البقية في حياتك ، حيائني  
أنا . وفي الليل أصغيت إلى بقية مياه مفاجحة ، انقطاعها ، رجل نائم  
يتواه في مكان قريب يتاؤه متألاً من شيء ، أجدهله ، ورمي الماء ، ربياً يموت  
ناس في هذه اللحظة تماماً ، يفارقون الدنيا ، غير أن لم أر روحًا عند الأفق

الظلم تطلع إلى السماء المثلثة بنجوم كثيرة ورأيت نجماً كبيراً يلمع بوضوح  
ولو نظرت إليه الليلة التالية من نفس المكان رأياً أجده أو لا أجده ، وانقلت  
نجم من ثقب ما في السماء مخلفاً ذيلاً من لب ، ذكرت اسم الله فهنه روح  
شديدة مطرودة وقلت من يلدي ، رأياً هذه النجوم أرواح أحباب يرقبون  
أحوالنا غير أن لم أرقب أمني ولا أخونق وأثق أنهم يرونني وبخت بلا فائدة .  
عن لعب أمضغ به طعاماً أحضروه إلى ، لم أحترك ، وسمعت انفجارات  
قرية ورأيت وهجاً وخططاً حراء متشابكة كأن الدنيا تعجل يانهاه كل  
ما تحويه وفي ندى الفجر قالوا دعا واحداً منا يذهب معك قلت أبداً ولا بد أن  
يعود إليه السمع والبصر ليصف ما جرى ورأى تمام التاسعة والنصف وفي  
العربة رأيت قدمي عبد المنعم المشققين هولا يملك أرضاً في البلد ولا حتى  
جذع نخلة ، إنما يعمل في أراضي الآخرين ولا ابناء له ولا أب يعرف  
وكلت أسأله من أبوك ؟ لكنني رأيت صممه فاحتضنه بذراعي واستقر  
العرق تحت إبطيه مالحا ، رأياً احتفظ برائحة من وقف بقربهم قبل عجيء  
الكائن الحديدي الطائر من الأرض وللأرض .

وفي الرزاقيق دخلت من باب المستشفى العمومي وطلعنا إلى طبيب  
شاب لا بد أنه حصل على الشهادة الإعدادية نظام الثلاث سنوات ودخل  
الثانوى وحصل على التوجيهية بمجموع كبير قسم علمي ، ودخل الطب  
وقضى به سبع سنوات ، قلت فلاأسأله عما فكر فيه ورأاه يوم الأربعاء في تمام

النائمة والنصف ، وبالتأكيد سينظر إلى بدهشة فالحقة قائلًا إن أمي واحمق السبعة .. وبدا غير راغب في الحديث ، شرحت كيف أصيب عبد المنعم فدار حوله وهو لا يعرف أي شيء عن أو عن عبد المنعم وأسئلته سماعته إلى ظهر عبد المنعم وإلى صدره وأصغى قليلاً ولم أر داعياً لوضع السماعة في الذي يشكوه في بطنه أو ظهره ؟ آلامه واضحة لا تخفي وتأكدت أن ثمة طريقة أخرى يمكن الكشف بها على عبد المنعم أبو العطا لكن الطبيب الشاب لم يقم بها إما أمره أن يتزلج ببابه ويقى عبد المنعم لا يتحرك ، كرر أمره ثانية ، ويقى عبد المنعم واقفاً ، انسان أصم أعمى ، لا يسمع ، لا يدري ما يفعل به ولا معه أو أمامه أو وراءه ، عندما أمره مرة ثالثة بضيق بصوته عال ، قلت انه لا يسمع يا دكتور وكأنه تذكر ما قلته عندما دخلنا الحجرة فجاءت كلماته سريعة عادية ولو جاشه آخر يشكوا صداعاً أو أسهالاً أو المآق طرف الأصبع لكشف عليه بنفس الطريقة وضع السماعة على الظهر والبطن في النائمة والنصف ، ولا بد أنه يحب المعرضة التي دخلت إليها ونظرت إليها ثم خرجت ، كلت أقول لا تنتظري إلينا بضيق ، عبد المنعم لا يسمع ولا يرى ، قال الطبيب لا بد أن تذهب به إلى مصر . رأيت وجهه وعينيه ويديه كل ما فيه ينطوي بالعجلة ويقول أخرجها ، ولا بد أنه لا يسكن في الزقازيق إنما أهلها في مصر ومحني إلى الزقازيق في قطار النائمة والنصف ، يقطع المسافة في ساعة وربع ساعة ، ربما يتعجل

---

---

إنتهاء الكشف على المرضى ، ربما استطاع اللحاق بقطار الثانية إلا الثالث  
ليلحق في مصر بالبنت التي يحبها فعلاً لأنه يتظاهر بحب المرضية الشابة ،  
ودخلت علينا ثلاثة مرات وكل مرة تلتقي نظراتها ، وتنفست رائحة البنج  
والأدوية وبخار الفلايات الصغيرة ، والقطن المنزوع عن الجروح .  
ورأيت الوجه المغلق بالقطن والشاشة يدور حوله لا يدرى صاحبه أين هو  
ولماذا تتقل قدماء من هنا إلى هنا ومن صاحب اليد التي تشده أو توقفه  
فقلت يعني ألا يمكنك ورد بجفاء لا يمكنه وأمسكت بذراع عبد المنعم أبو  
العطاف ومشيت به في الممر الطويل ، على جانبيه تجلس عجائز يحملن في  
الهواء ، بحثت عن لافتة تحمل « مدير المستشفى » ، ولقيت بجوارها  
عمرضاً ضخماً قال انه ليس سهلاً مقابلة سيادته وهل اختل نظام الدنيا حتى  
يجيء رجال يسحبونه مريضاً ليقابل البك المدير ، إن كبير الأطباء من  
الصعب مقابلته فما بالك بالمدير نفسه ؟

قلت ان عبد المنعم حالته خطيرة ، وأن اليهود أفقدوه السمع والبصر ،  
ولا بد من مقابلة مدير المستشفى ، قال اسمع يا جدع انت ، رأيت الإهانة  
وفي اللحظة نفسها داس بلاط الممر رجل أبيض يرتدي معطفاً أبيض ونظارات  
طبية إطارتها مذهبة ، اقتربت منه ، في ملامحة طيبة ، اقتربت وأفرغت في  
صوق كل ما يمكن من وجاء وتودد ومذلة حتى ... ونظر إلى عبد المنعم وقال  
أعتقد أن الدكتور مملوح على حق عندما رأى ضرورة ذهابه إلى مصر ، قلت

---

---

---

لكنه لم يمس رأسه ، لم يكشف عليه فعلاً ، ابتسم ابتسامة مهذبة كالقطن الطيب ، آسف يا أخي فهذا من اختصاصه ، إنه مسؤول الجراحية ، وخجلت من إطالة حديثي معه ، بينما وقف عبد المنعم أبو العطا يلدوس الأرض بقدمين لا حذاء لها ، وجهه المكفف لا يدرى أين يتجه ، ودخلت الحجرة ولمست كتف الطبيب الشاب ونظرت المرضية إلى بثبات ، قلت إن اليهود أفقدوا عبد المنعم سمعه ونظره .

فصاح غاضباً ، وهل هو أول الجرحى أو آخرهم ، قلت بهدوء .

ما الذي فعلته في التاسعة والنصف يوم الأربعاء الماضى .

ولم يدعني أكمل إمازעق ، امشي يا ولد تحن في مستشفى أميرى وليس مستشفى للأمراض العقلية .

وأنا مصطفى أبو القاسم لست ولداً ، أنا مدرس من كفر عامر ومعنى دبلوم معهد المعلمين وأنا الذي أزعق في وجوه التلاميذ يا ولد وليس الطبيب ، غير أن خفت فبعد المنعم وأنا بلا سند ، بلا عطاء ، ولو أن الطبيب كشف على عبد المنعم أبو العطا بعيناه وقال اذهب إلى مصر إلى السندي إلى الهند إلى آخر بلاد الدنيا لضيّت لكنه وضع السماعة على الظهر والبطن وما هذا بالكشف الصحيح فلا بد أن الأمر لم يتنه هنا ، عدت إلى المرض الضخم فزعم وأعلن أن اليوم شرم ويراه أسود اللون فأحاطت عبد المنعم بندراعى ومشينا مسرعين وربما تسبّبت في أيامه حتى أنا لا أدرى كيف أشعر بأنه تالم في هذه اللحظة أو

---

---

---

توجع ، أو جاع ، أو يرحب في جرعة ماء ، هي لحظة الاحضار نفسها بمسلدة ، بيني وبينه سد لا أراه ، أبطأ خطواتي ، ولم أذهب إلى مدير المنطقة التعليمية وعمل يتصل به ويعرفني ولو تفوه وربما يتوسط لنا أو يعرف مدير المستشفى الأميركي ، ولكنني مشيت ولم أر أحداً حتى وقفت أمام المركز وقلت البك البك المأمور موجود فقال الجندي أنه بالداخل ولم يكن البك المأمور موجوداً إنما المأمور الذي يقصد الجندي ضابط مجلس على مكتب بن اللون قديم الطلاء تفرشه قطعة من قماش الجوخ الأخضر وفوق شماعة خشبية علق عليها رأسه وستره الخارجية وليعت ثلاثة نجوم ذهبية على كتف السترة الأيمين المواجهة لنا ، قرأ ورقة . ثم ورقة أخرى ، بجانبي عبد المنعم لا يرى ولا يسمع ولا يقدر على الكلام ولو أنه متزوج وأنجب أطفالاً لصار في بيته مناحة الآن لكنه لم يتزوج ولم ينجب وأنا لمأتزوج ولم أنجب ومن النافذة دخلت أصوات الطريق « نداء باعة » خناقة أطفال صغار ، عربة مسرعة ، أصوات النهار عندما يتعجل بالرحيل ، نهاية النهار تلخيص أبيدى للبعد وفارق الأحبة وبنهاية الأعمار فجأة قبل الأوان .

أمام الطوب المحروق والخشب المتضم وجروح الأرض لم أصدق أن ما أراه بقايا بيتنا ، حزمة ثوم سليمة تماماً حلتها أثراً غالياً ، بقايا ملابس ضاع زهاء ألوانها ، لم أعرف أى اخوات ارتداها ، شد أطرافها واحتال بها ، حلقة نحاس منبعثجة ، يد ضخمة مجهلة لوطها وملايتها حفرأ صغيرة ، علبة لحم محفوظة ملقاة فارغة ، أرى نفسى عندما اشتريتها وجلست في القناة أدير

---

---

---

مفتاحها الصغير واحرق يرقوني ، أمى تصبح من الخارج ، هل انتهيت من فتحها ؟ وجاءني الحزن عفياً قوياً قاسياً في موجات متالية كهجوم انتشاري ٠ حزن يجفف اللبن من صدور الأمهات ويعيده إلى نهود العجائز ١ آه من لون النهار الراحل المبتعد .

الناسعة والنصف ، خرست أصوات الدنيا ، قال الضابط لفظاً واحداً كمجيء الطيران فجأة على ارتفاع منخفض ، بورغت ، قلت أنا مصطفى أبو القاسم ، مدرس ابتدائي بقرية كفر عامر محافظة السويس ، وحقى يتأكد ويصدقني ويثنق أننى لا أكذب عليه ولا أفكّر حتى في الكذب عليه ، انخررت بطاقتي الشخصية ، وبطاقة عضويّي في نقابة المهن التعليمية ، وبطاقة اشتراكى في القطار ، لم ينظّرهم إلّا قال ، نعم ، ورأيت أنه يطلب مني أن أحكى له كل شيء .. قلت باختصار كالعنوانين .

في الناسعة والنصف ماتت أمي واحرق السبعة .

دارت أصابعه حول بعضها ، وبعد حسمت قصیر لم يرفع عينيه عنى وكأنه لا يلحظ عبد المنعم أبو العطا سأل ، أين ومتى ؟ قلت ضربهم اليهود بصاروخ أرض - أرض وهم يفطرون صباح الأربعاء ١٩٧٠/٨/٣ ، أمسك بطاقة الشخصية ، تمعن فيها ، ورأيت النهار وجهها حزيناً شاحجاً ينسحب بسرعة من وراء النافذة ، يهجر الدنيا ، قلت متمهلاً ، لم أحضر إليك من أجل هذا ، إنما جئت أشكوك طيب المستشفى الأميركي ، وما وجده قليلاً ، سألني ألا زال

---

---

---

هناك فلاحسن؟؟ قلت في الجنابين والقطاع الريفي بالاسماعيلية والسويس  
عندنا ، سأله لماذا لم تهاجروا ، قلت إن الأرض تحتاج الرجال وكل واحد رزقه  
هناك وأن الأرض في السويس مالحة ولو تركت شهراً واحداً لطلع فيها الحلفاء  
والميش واحتاج اصلاحها زمناً طويلاً ، قال إنه من قلة العقل أن يبقى الإنسان  
في مرمى الملاك هل هذا اسمه كلام .. ولم أقل نعم؟ ، لم أقل لا؟ ، ورأيت  
إنحني يسرعون من البيت إلى الغيط ، وشكة صغيرة تنسق في قدم أمي ،  
تمجلس على جانب الطريق ، تحاول اخراجها ، أعود اليهم في الأجازات مع  
إنحني طلبة المدارس ، ترقينا أمي ، يتوسط ذقنهما وشم أحضر باهت كالعمر  
المتقضى .

سأل الضابط ، لماذا تشكوك طبيب المستشفى ، قلت باختصار أيضاً ، إن  
عبد المنعم أبو العطا هذا أصيب وجئت أعالجه لكنه كشف على الظهر والبطن  
ولم يلمس عينيه أو أذنيه المصابتين فعلاً وصرفنا ولا بد أن يرجع إليه سمعه  
ويصره لأعرف ما جرى في التاسعة والنصف ، هز رأسه ، رنت ساعة كبيرة  
سبعين دقات وقررة كالمعنى ، نذير الليل الأسود.المقبل ، قال ارجعوا في  
الصباح ، ودارت الأرض بي نصف دورة أخرى وتقدمت خطوتين .. قلت  
أرجوك أن تتخذ اللازم لأننا درنا كثيراً ولا أعرف ما جرى له .

---

قال ارجعوا في الصباح ، ورأيت النهار مذبوحاً تماماً بالفتوص والمناجل  
والرصاص والشارط والليل يسد الفراغ كله ، ويصبح الأبدية ، قلت

يا ميدى هل يرضيك هل يهون عليك أن يفقد الانسان سمعه ويصره فلا يسمع ولا يرى تخيل أنك ، لكتنى آسف جداً تخيل أنى أنا لا أسمع ولا أرى ١ وعلى وجهه بدا شبح ابتسامة خفيفة ، قلت ارجعنا الصباح ، ورأيت كلماته أيدياً تشنقني ، أوامر تمنعني من التقدم ، كمامات بنج تخرس البوح في صدرى . قطارات تدهس عبد المنعم وتدهسنى ، ولا بد أنه لا يريد ازعاج نفسه وربما ضايقه أحد قبلنا فائز صرفنا ، وعند الباب سمعته يقول ، كلها عشنا شفتنا وفي الطريق بدا الليل صارماً قاسياً ينوى الشر ، نجومه غامضة ٢ باهتة ، غير واضحة ، ليست كما نراها في كفر عامر ، والبشر حولنا يمضون رؤوسهم إلى الأمام ، يتسمعون الممس ٣ . وحوش يضمرون الأذى ، آه يا عيون ترانى ولا تدري من أنا ولا مصاب عبد المنعم أوبلواه ، عبد المنعم غارق في ليل أبيدى ، وفي صدرى دق قلبي يوم ضلوعي كشظية من حديد ساخن ، عبد المنعم سيرجع إلى الجنائن ، لن يعمل ، لن يتسلق العخيل ، لن يجئ البرقوق ولا التفاح ، كيا أى لم أسمع صوت أمى ، ولن أشرب الشاي كل مساء من يديها وكأن لم أسمعها ولم أرها ولم تتجملى ولم تأت إلى الدنيا قط وإلا .. فاين هي وكيف ذهبت مع اخوات مرة واحدة؟ وبعد سنوات لا أذكر ملامعها ، وشمها الأخضر ، طول قامتها ، ويبصيق الناس بعد المنعم أبو العطا ويطردونه من طريقهم وربما عطف عليه بعض الأسياد فالقمهه رغيفاً وقطعة لحم في الأعياد أو الموسام ، ومن يلزى ربما رجه أطفال صغار يولدون الآن وصاحبوا خلفه محدثين ضجة لا يسمعها أبداً ، ولا أسمع منه ما جرى ،

---

---

ماحدث ، في قام التاسعة والنصف ، ولو قلت لشخص ما بعد عشر سنوات أو خمسة أو ستة وأحدة حتى ان أمى ماتت واتخوى السبعة الطالب منهم والمزارع وأختي الوحيدة ، كلهم ذهبا ، لنظرروا إلى بشك وقالوا مجنون أو يحاول استثمار عطفنا ، بل ان لو مضيت الآن إلى المدن الكبيرة وركبت العربات وأوقفت في الطرقات وزعمت أن يصلقوني وأن يعالجوها عبد النعم أبو العطا ، فسيضحك الشبان ، وتعالى الفتيات بنظراتهن .. ويقولن القوم .. حيل جديدة للتسلو ، فهل يعقل أن يفقد انسان أى انسان أمه واختوه السبعة في وقت واحد ، ولماذا يبقى هو ، وإذا حكى لهم مقاله عم خليل عن النجار وأمرأته وعياله الثلاثة لقالوا تخاريف مجنون أو عجوز عبر السبعين بستين ، ولو قالوا أين نجارك العجوز ؟ احث ما قاله عم خليل في العصر أصفر اللون الكثيب الذي تردد فيه طلاقات المأوزر .. لا نرى الفدائل إثنا نسمع صوت خروجها ثم انفجارها بعد ثوان .

قال عم خليل ان الأب كان يأتى عندي هنا ويجلس صامتاً يشرب العسل وسمعته ينطق لأول مرة منذ يومين عندما تلفت حوله وقال بصوت عال « السلام عليكم » وقال أنا سازور الأولاد ، وذهب إلى أبنائه ، وبعد أن قرأ الفاتحة خط رأسه وأغنى بجانبهم ولم يقم ، قلت بصوت عال .

مات يا عم خليل ؟

قال ولم يحط منطق .

يرحمنا الله أجمعين ..

ولابد أن الطبيب في الوقت ذاته ، التاسعة والنصف الآن ، يعشى في شوارع القاهرة ، يتمدد أمام التليفزيون ، يسمع نشرة الثامنة والنصف ، أو يقف متأثراً أمام دار السينما ، ربما ترقد ذراعه في ذراع حسناء بيضاء ، بينما يقرأ الضابط أوراقاً أو يشرب شايَاً ، آخرون في المقاهي يتحدثون عن نجوم السينما ، المعضلات التي تقابليهم في حل الكلمات المتقاطعة ، النوى الليل سيحَا محى في روحى ، الضابط لم يعطنى بطاقة وأنا والآن ضائع مجهول الشخصية ، بلا أم ، بلا اخوة ، ولا أحد يسأل عنى ، إذا تأخرت أو تأوهت في نومى ، أو فاجئني كابوس ثقيل ، من يواظننى ، لا أحد ، لا أحد ، الويل لى لن يواظننى أحد وأموت مكتوم الأنفاس ، أما عبد المنعم فلن يسمعني ، هو بلا بطاقة شخصية طوال عمره وتمنيت لو أشرح حالى لهذا الطويل الأصلع ، والجالسون بالمقهى الغرباء الواقعون في شرفات الفندق ، المدينة المزدحمة ، لا عرض لها ولا طول في أعيتنا أنا وعبد المنعم أبو العطا ، أشكو لقاطع التذاكر في الأتوبيس والوجه داخل إطارات . الصور والركاب والمقاعد والتلال الرملية وأسلفت المودة ، وآه لو ينطق عبد المنعم فيصف كيف طارت الشظايا بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة في التاسعة والنصف لتصبح حدأً لما فات من عمرى وما هو آت .

ولم أرد سؤال من قابلوني عند الجسر أو الكوبرى وكلما عدت من إجازة أتفحص الوجوه وأسأل عن الناس لا بد أن اسمع خبراً واحداً أو اثنين وعندما ألتقي برجل أو امرأة أو طفل أقول في عقلي .. ما زالوا على قيد الحياة ، لم أتوقف لحظة ومضيت إلى بيت قديم هجره أصحابه وجلست فيه ومعي عبد المنعم أبو العطا ، أصغي إلى أصوات الليل وضجة النهار الريفي ، أسمع الأقدام تجري إلى الحفر ، عنف الانفجارات ، الدانات ، الهدوء ثم الأصوات البشرية الأولى تنادي بعضها ، أعرف أن أصحابها أفلتوا من ملاك الموتى وفي البداية كانوا يصيحون علي . مضى الوقت ونسوني ولم أعد أرى إلا حليمة صاحبة أمي وأخت طفولتها وعمرها ، تأتي إلينا بالطعام نيناً وتسويه ، تغسل ثيابنا ، عبد المنعم جالس لا يقول حرفًا ، هو الصمت نفسه ، العالم بالنسبة إليه متزوع الحنجرة ، مبتور اللسان ، الدنيا حوله مطموسة الملامح ، تغرق في سواد لا تبلده انفجارات أو ضجيج أو اندفاع عربات ، جاءنا الشيخ حامد ، أصغيت إليه ، أصغيت ، إنما انتظرت بإصرار أن تظهر أمي عند الباب وراءها اخوتى ، آه لو جاءوا ، لن أفارقهم أبداً ، أحيط بهم أيامي ولحظاتي ، معنا عبد المنعم ، ومنذ حين لم أعرف مقداره لم تحدث انفجارات ليلية أو نهارية وأصغيت إلى عربات درجال يزعرون وصبية آخرون يعودون إلى القرية وعرفت من حليمة أن

الضرب توقف لملة وأن القوم لا يعرفون هل ترجع الحرب أم لا ؟ رأيت أمي تقول يجب أن تتزوج ، فقلت زاعقاً آه يا أمي ، آه يا اخوتي لو أنكم رحلتم في زمان غير الزمان ، ويفيت أنا لعرفت كيف أرثيكم وأنشر حزني في العالم كله وأشرك البشر أجمعين في البكاء ، في النواح ، نسيت وجه الطبيب الشاب ، ملامح الضابط ، مدير المنطقة التعليمية ، نسيت شكل الصحف ، ولا أعرف العلامة المميزة لجريدة الأهرام من الأخبار وهل توجد صحف أخرى وهل أصدروا صحفاً جديدة ، وكلما سمعت الراديو سمعت الغناء والشيق المنوال بلا حساب والأحاديث وتتكلف المذيعين . الأصوات تسد أذني فلا تسمع ، طوال الوقت حديبي إلى عبد المنعم أبو العطا ، أنظر إلى عينيه المغمضتين ، هو لا يسمع أو يرى . إنما أثق أنه يراقي ويصفى إلى . وفي صباح ولا بد أن الصباح بالخارج فهذا الزحام لا يحدث ليلا ، سمعت أصوات ماكينات ، ويريق أصوات ، أهي قافلة سفن ؟ أين يوم الجمعة واكمالنا حول الفطير المغموس في اللبن ، أصبت عيني بالباب . رأيت أمامه رجالاً كثريين . خفت ، أنا بلا بطاقة شخصية وبينهم رجال بوليس . ناداني الشيخ حامد . تواريت أكثر . دخل مسرعاً ، همس في أذني أن رجلاً كبيراً يزور القطاع ، أخبره بحالى واعتكافى حزناً على أمي واخوتي السبعة فجاء يعزيني . ومن التوق بل من الواجب السلام عليه وتحيته ،

---

---

قلت أنا بلا بطاقة شخصية يا شيخ حامد ، قال مغناطساً ، بلا فضائح ..  
تعال معى .. شدلى إلى الفنان الخارجى ، رأيته ممتنعاً بكثيرين يرتدون  
قمصاناً وينطلونات وأحذية بنية اللون وسوداء » يلتفسون حول سعادته  
كالجحرة حول المغنى « كل منهم يريد أن يبدو أكثر قرباً ، يظهر بجواره  
في الصور الملقطة هنا ، لم أعرف وجه سعادته أو مناصبه ، المصورون  
يتفزون ويرفعون آلاتهم في حركات سريعة هجيبة ويميلون إلى الخلف  
ميلاً شديداً ، ويرتكزون إلى الأرض بأذرعهم » خفت ، ربما كسروا  
 شيئاً في البيت ، سعادته غير مهتم بهم أو متتبه إليهم وإن بدلت كل  
حركة ، كل وضع يقوم به ، مخصص لهم حتى يبدوا في الصور بشكال  
مختلفة مهيبة ربما يتخيلاها الآن نظر سعادته إلى ..

هو جامد القوام قصير ، صافحتي بنصف ذراع ممدودة .

قال البقية في حياتك ، لحظة خروج الكلمات من شفتيه تذكرت ،  
أسرعت إلى الداخل ، جرى ورائي الشيخ حامد ، عدت ممسكاً بذراع  
عبد المنعم أبو العطا » قلت لسعادته ان الطيب كشف على عبد المنعم  
من ظهره وبطنه ، ولم يهتم الضابط عندما شكرت إليه الطيب ، وعندما  
رجعنا إليه لم نجده ولم يسمعنا كبير أو صغير ، كدت أذكر سحب بطاقة  
الشخصية » خفت ولم أنطق » وقال واحد من الواقفين حوله ..

---

---

يعنى .. ماله .. ماله ؟؟ لم أنظر إليه ، وجهت حديثي إلى سعادته مباشرة ، شرحت ، أين ومتى وكيف أصيب والعلاج اللازم له ، التفت سعادته قال يا صبرى ، وأسرع شاب يمسك ورقاً وقلمًا ، نعم يا أفندي ، وقال سعادته اكتب اسمه وليجيء غداً لنحوله إلى المستشفى ، همهم الواقعون مستحسنين قرار سعادته وخططاً رجل غليظ الرقبة لم أره أبداً من قبل ، أشار إلى عبد المنعم أبو العطا ، وأظنه أشار تاحيقى ، صمت الجميع ، وقال الرجل وهو ما زال يشير إلينا ، هذا رمز عظيم لصلابة الفلاحين الذين تحملوا الصعب وعاشوا هنا في هذه القرية أيامًا بالغة العنف والقسوة ويقوّا رابضين في الساحة أمام العدو

## إجازة (٧٢)

نشرت في المساء ١٩٧٠

قالت ..

ـ كل مرة لا نعرف ميعاد أجازتك ..

ـ في المساء الحالى من الضوضاء ، الهدوء ..

ـ سريرك لم يتم عليه أحد ..

رائحة الليل ، بقايا النهار الشتوى نفذت إليه ، ملمس الفراش ،  
الأثاث القديم ، عيناً أمى تفحصنى ، أقول بالصمت ، بالإشارة . سليم  
أنا يا أمى « لم أجرح ، لم أمت » ، قالت إن هانفأ يلح عليها منذ يومين ،  
يقول لها ان فريد سيصل ، من ليلتين لا تمام إلا متأخرة تترصد الخطى

في الحرارة ، فوق السلم ، رأته في المنام ، آه .. يتحرك ضيق في روحي ، ينبع حزني ، يدفع ضجيج سينين بعيدة إلى مسمعي ، لست غريباً ، لم أطف في الأرض ، لم أرحل بعيداً ، لم أقض شهوراً مبحراً في محيط ، لست غريباً ، لكن ، نظرت أمي ، أسئلة أبي ، تورم في نفسي غربة أكرهها ، توسع هوة ، تقول إن ما كان بيننا لن يرجع ، لو أصل فلا تحرر أمي ، لا تبدى اهتماماً زائداً ، لا تفكير فيما يجب أن أكله ، فرحة مذبوحة من الجمعية أو كيلو كبدة وقوانين ، يلح أبي في الاستفسار ، أضخم له الأمان ، أنقى الخطر ، اختلق الردود لأطمئنته ، أسنادت أمي ملابسى الداخلية ، رائحة القطن الذى لم يخرج من الدولاب مرة ، نظراتها العاجانية السريعة ، ارتعش الدم من وريد قلبي ، طويت بعقلها سبعين ساعة مقبلة ، رأيت اللحظة التى أقطع فيها الحرارة ، أستدير عند المنحنى ، ثم أختفى عن عيني أمي ..

\*\*\*

صوت مذيع الآن تمثيلية العاشرة والنصف .. أمه تسند ذقnya إلى يدها ، ترسم بيدها خطوطاً وهمة فوق الحصيرة ، لا تخرج كثيراً ، تذهب معه إلى سينما الكواكب مرة كل عامين . قال .. تصوروا .. أمي لا

---

تذهب إلى السينما إلا مرة كل سنتين .. قال رياض .. هنا نذكر أنها لا تذهب إلى السينما لأنها لم تر المسرح أبداً .. وأنك لم تشتري كرداً من الذهب ، وعندما تراها تنسى .. أغمض عينيه ، الصحب في أدنيه ليل الحرب ، حتى لحظات المدورة ، تصبح بالعنف القليل الذي لم يبدأ بعد .. قال ليس صحيحاً .. ليس صحيحاً .. ماهر في ركن الملاجأ ، انتهى من الخدمة حالاً ، لا يعبر عنها في خاطره بالكلمات ، ربما قفز فجأة ، يصبح .. ياسلام .. الله .. يدركون أن أمراً غامضاً لا يعني شيئاً بالنسبة لهم أثارة .. فرح .. كدر .. حزن .. ذكري بعيدة ، وجه فتاة عابر رأه مرة .. محادته يغمض عينيه .. يتحسن وجهه ، يعود ملارقاً في صمته ..

\* \* \*

ثم قال حسان انه ظل بالمقهى حتى الواحدة صباحاً ، لم يرى عندما جئت ، قلت لأنني جئت من ناحية الكفر ، مررت على مسجد أم الغلام ، من نوافذه رأيت عينيها ، يسيل منها حزن فادح ثقيل ، ربما فرحة لأنها افتقدت رأس مولانا سيدنا الحسين ، ضحكت فتاة في شرفة علوية .. نادت امرأة .. يا أمينة .. يا سيدة أمينة ، ولم يجاوها أحد .. مرت ثلاثة فتيات ، وتعرف كل شيء عن بنات الجمالية ، هذه قرية فلان ، ابنة الحاج .. يغرق فيها بينما أدق التفاصيل عنهن .. قال حسان ضاحكاً .. لا زال الحى بخير ، نصف ضحكة على وجهي قلت من خلاتها ، إن مستوى

---

---

---

الجمال في ارتفاع مستمر ، صاح حسان ، كأننا نبدأ الحديث في هذه اللحظة .. أهلا .. أهلا ..

قلت .. كيف الكلية ، قال مسرعاً انه أصيب بانفلونزا ، حادة جداً  
الزمه الفراش سبعة أيام ..

- تصور يا فريد .. سبعة أيام أقضيها بعيداً عن الشوارع .. غمز  
بعينيه ، ابتسمت ، بينما الشتاء ييلل البلاط المضلع بضمته الرمادي  
الصافي ، أبدت جزعاً مسطحاً كلوح الثلج ، قال ان الآلاف ماتوا  
بالأنفلونزا في روسيا ، سمع أن يموت الإنسان بانفلونزا ، قال ربيا نوعها  
هناك غير هنا . يقول ماهر بعد لحظات صمت ، ماذا لو أحصينا عدد من  
قتلوا دفاعاً من مصر منذ أن نزلها الإنسان ، كم ؟ نصدر بهم بياناً يطلب  
المستمعون ، تستمر إذاعته مائة عام بلا توقف ، قلت ثموت ولا ندرك  
آخرهم . قلت عندما أعود إلى عمل في مصلحة الآثار ، أطلب البحث  
عن بقاياهم . انش الأرض من رشيد إلى فيلة ، أهدم البيوت بحثاً عن  
ملائخهم . قال حسان ان جماعة سكنا في درب الفراخة ، لم يابنة هي  
الجمال بعينه ، قال ان على الجرجاوي الرجل العجوز والمحامي الشرعي  
القديم تزوج فجأة بعد أن ظل طول عمره أعزب ، من تظن التي تزوجته ؟  
قلت لا أدرى .. قال هانم . الحلوة التي تصغره بأربعين عاماً ..

\* \* \*

الصباح الباكر جداً ، صاف ، عذب كالحليب ، عيون الفمام  
الرمادي معلقة في السماء ، فجأة .. يعلو أزيز آلات الإنذار الصغيرة ،  
يتلوى عبر الحفر ، طيران .. طيران فوق الجزيرة ..  
إلى الحفر .. كله إلى الملابسي ..  
رأسه أقل من مستوى الأرض ، هدوء ما قبل الملائكة .  
وشيئن الموج .  
رياض : لماذا الآن بالذات ؟ .  
فريد : أنت خائف ..  
رياض يغمز بعينيه  
فريد : ماهر من الفجر راح يفتر مع عاطف في كفر الشيخ ..  
رياض يهز رأسه ، ينهار جانب من الصمت ..  
فريد : بنظراته يقول الـ M - طيشتك ..  
المنيا تضرب ..  
رياض : اسمع .. ملعون أبوهم .

\* \* \*

«رجل قصير عند عطة الأتوبيس » حرکاته رسالة حائرة مطولة بلا  
عنوان « عيناه شقان رفيعان في بناء أثري قدیم ». .

## سالئي : أى مواصلة تروج المحطة ؟

ثوان عابرة ، ياه .. هل نسيت ، أبدأ قلت ٦٥ ، عندما رأيت لون العربات الأخرى ، بذا غريباً ، الرجال حول باائع الفول « يتناولون البصل » عم سيد قادر على خدمة العشرات في وقت واحد ، لورأيناهم معاً ، ماهر ، رياض ، لقلنا .. مصر تتناول افطارها ، أراهن أن وفة عم سيد عمرها ألف سنة ، يسأل ماهر .. ألم تعثر مرة في حفرياتك على باائع فول ؟؟ قلت بمحنتها الجدية طبعاً ، ضحكتنا ، قلت إننى لا أتعامل مع جدران قديمة ، وزخارف تركية ، أو فارسية جامدة » مرة أشرفت على ترميم بيت مملوكي قديم ، عمره حوالي ستمائة سنة ، في الظهر ينصرف العمال ، أبقى أنا ، صدقون يا أولاد كنت أرى فيه الحرير ، والأكل ينزل إلى الأغراض في المضيفة ، والسفقا يحيى بقرب المياه كل صباح ، وأحياناً أبقى حتى الليل لأسمع القرآن يرتل منذ ستمائة سنة » مرة طاردن صاحب البيت ، سيده ، أنه كبر تجاري الغورية ، طبعاً أنا غريب ، وأشار ماهر بأصبعه إلى رأسه .. هذا أول إل .. ضحكت .. أبدأ .. أبدأ .. قلت .. لاحظ كبير المفتشين هذا فأمر ببنقل إلى المكاتب ، لكن لم يمر شهر حتى عدت إلى البيوت القديمة ، والجوانع والزوايا » وأسلحة المياه ، من الصباح أقوم اليهم ، زمن داخل الزمن ، قالت أمي ، أصبحت تقوم مبكراً ، قلت تعودت ، سالت ، أين تذهب ؟؟ أتمنى .. بالضبط ما

---

أريده .. رؤية الحركة في ميدان الحسين ، الصبية الصغار أمام جامع أم الغلام يقبلون نوافذ الضريح ، خشوعهم غريب ، يتهدون من قراءة الفاتحة ، يلثمون ظاهر أيديهم وباطنها ، ينطلقون ، يملأون الطريق فجأة زعيقاً وضجة ، كأنهم لم يقفوا كالتماثيل منذ لحظات ، حارات الجمالية لحظات الصباح الأولى ، طالبات مدارس ، من أعوام في ذهاب اليومي إلى الكلية أبلع ريقى .. أقبض زمام قلبي ، آه يا حمى المريض ، ذوى .. أخيراً قلت لوفاء . صباح الخير ، قالت أهلا ، هي قالت أهلا ، لم أزد حرفاً ، بعد أيام صباح الخير ، نظرت إلى بعينين يعلوها حاجبان علقاً بعناية ودقة ، مطت شفتيها ، لم تخفي ..

\* \* \*

قال ماهر .. يعني لم تمش مع بنت ، لم تدخل مع أية واحدة السيناها ، قال فريد .. أحبيت كثيراً .. لا أذكر عددهن ، لكن من طرف واحد .. سأله .. يعني لم تعرف النساء أبداً؟ قال فريد .. هذا أمر مختلف .. ضحك ، والله شخت قبل الأوان يا فريد .. تدخل رياضن في الحديث ، عرف الكثيرات أحب بعضهن حباً حقيقياً ، مع ذلك ينسى الأن أسماءهن ، أليس هذا عجياً؟؟؟

---

---

---

- والله نسيت أسماءهن ..

• • •

« توقع هجوم جوى مع أول ضوء ، درجة الاستعداد  
القصوى . . . »

• \* \*

تحتوبهم الملاجىء ، رياضن صامت ، مقلل بعذاء دعى إليه في  
الظهيرة ، عند صاحبه مدحت جندى لم . ط ، لحم محفوظ بالملكونة ،  
بصل خلل وخبز ساخن ، من فتحة « المزغل » ، فريد يرقب النساء ،  
وحيدة ، حائلة اللون موحشة ، جبل بخظر ، بعيداً تراكم غيم ، لا  
يرى الأفق من هنا ، حدود الأرض والسماء العالم كله مركز هنا ، مد عص  
هنا ، في صخور الجزيرة ، قواعدها ، في الحفر ، شباك التمويه ، المدن  
البعيدة ، أجهزة الراديو في المقاهى ، شوارع قرى الصعيد ، الداعية  
المتجولون بأقلام الخبر ومشابك الغسيل البلاستيك ، هنا كمساربة  
القطارات ، المسافرون الأغраб ، جنود الشرطة العسكرية عند تقاطع  
الطرق ، هنا ضريح أم الغلام ، مقام سيدى مرزوق ، في الهواء دعاء  
الشيخ بعد آذان العصر يصعد إلى السماء البنفسجية ، اللهم ساحنا فأنت

راحِم ، ولا تعذبنا فأنت علينا قادر ، يصفعي فريد ، يسمع نبض العالم  
الثاني ، صيحات الجمهور في معرض أوزاكا ، هدير طائرة في ميونيخ ،  
احتياك الزحافات بالجليل فوق سيبيريا ، الطبول زعيم القردة في الغابات  
الأفريقيَّة ، ربما انقضت حياته ، لا يرى شيئاً من هذا ، لكنه يسمعه هنا .  
كل هؤلاء يعرفون أى صمت في لحظة آخر ضوء ؟؟ تغير الألوان بسرعة  
تقسو ، لون دخان دابة الماء ، يتسرُّب الاعباء إلى السماء ، يفقد النهار  
بريقه ، يعجبه تعبير آخر ضوء .. لم ينسِّل بعد ، البرد ينحدر إليه عبر  
المعطاف الثقيل ، غروب كل يوم مختلف ، لم يحمل بروزه أبداً ، حتى في  
الأيام التي قضتها هنا ..

• • \*

تماماً ، موت السكتة كآخر قطار ليل ، ينزل الليل ، يختفي ملامح  
الأشياء ، يذيب الصخور ، فوهات المدافع المنطفئة يغير الأفكار ، تختفي  
الأشياء ، يعيد اكتشافها من جديد ، ليل عفن موغل مسكون بوحوش  
القرش : تدب الدماء في شعاب المرجان ، يتكلم البحر ، يوقظ الميت من  
الأحساس ، فجأة ينصلُّر السواد ، أصوات الفليز الصفراء الوهاجة ،  
تفضح الخفي ، تنطلق الرصاصات الكاشفة الحمراء ، نقط دم ، تروح  
غاضي إلى بعيد ، توخر العتمة ، ينزل الليل ، يقطر حزناً ، ترقص ،

---

---

حقداً ، يوغل كماء البحر إذ يطبق كالخيمة المتهارة على الغريق ، في جوف الليل ، يطوف فريد ، يرقب حدود ، حواف الجزيرة ، ربيا تسللت الصفادع ، يفحص السواد ، يوقن تماماً أنه لم يتعد عن أمه أبداً ، وأنه لو استدار وراء هذا المرتفع ، سيلقاها ، تقعد القرفصاء ، ترتعش أهداب عينيها ، عادتها عندما تنظر إليه صامتة ، تحببه .

سقط شيء ما ، قفزت من سريري ، بالضبط .. انفجار دانة ١٢٥ ملل ، قال صوت خفيض أنت في البيت رائحة المدوء حولك ، والليل فوق البيوت هاديء ، ناعم ، كنسيج القطيفة ..

\* \* \*

تابعوا الفيلير يشق الفراغ الأسود يبقى معلقاً في الفضاء ثوانٍ .. قال رياض أنا أحب الجزيرة ، تمنى ماهر لوزارها قبل الحرب ، قضى في هدوئها يومين .. لكن عمله في مصنع الآثار بالاسكندرية ، لا يتبع فرصة السفر له ، دمنهور لم يرها ، يتمنى لو دار في الصعيد .. حلمه ، أن يركب طائرة تخرج به من الخلود ، يربط حزام الأمان ، يقرأ اللوحة الحمراء .. منوع التدخين .. يسمع المصيف .. الآن ثبيط .. في باريس ، روما ، جنيف ، لوجانو .. الآن يا سادق نحن .. نحن هنا ..  
ضحكوا .

---

---

قال فريد ..

- اسمعوا .. فيها بيتنا .. نسمى الجزيرة بأسماء البلاد .. بلاد مصر ، هنا سوهاج الموقع المجاور أسيوط .. ثم المنيا .. الفشن .. مغاغة .. كفر الشيخ .. فوه .. دسوق ..

نشطوا ، احصوا المحافظات والقرى التي جاءوا منها ، وزعوا الأسماء ، قال فريد ان وفاء التقى بها هنا ، عرفها هنا وكلمها وابتعدت عنه ، تفتيش الآثار الذي يعمل به على بعد خطوات ، أما الحسين صاحبه فمقامه عند أكبر صخور الجزيرة .. الواجهة لجزء وعنة البحر ..

تأكل معنا يا ماهر؟؟

لا .. أنا معزوم في أسوان ..

\* \* \*

- الم . طفى أسيوط تشتبك مع العدو ..

- الهجوم فوق الجزيرة .. فوق مصر كلها ..

\* \* \*

هل تعبر؟؟ يعني عبرت القناة؟؟ قلت أنا لم أعبر ..

أطرق الحاج اسماعيل ، قال جلال انه عندما يتأمل في إمكانية العبور

---

فلا يصدق ، قررت شفتي ، نظرت إليه ، تسأله .. كيف يعودون ؟؟  
صمت ، قال ، لا بد أنهم مخيفون .. قلت من ؟؟ قال .. الذين  
يعبرون .. قلت أبداً أعرف كثيرون عبروا ، إنهم عادوا رجلاً يمشي أحدهم  
في شارع قريب الآن .. زعنق جلال ، وصلة سكر يا رئيس .. التفت  
حسان ، هل حقيقة أنه في هذه اللحظة تدور اشتباكات في القناة ؟؟ قلت  
بالتأكيد ، بسط الحاج راحة يده .. كأننا نعيش في آخر الدنيا ، قام محمود  
البنان ليغلق دكان البن المطحون والشاي ، آه لو أقوم ، أنا ، أطبق  
الوسادة على رأسى ، تضج شوارع المدينة في عقلى ، الألوان ، النساء ، في  
ميدان العتبة رأيت وجهها يشبه وفاء ، تتعلق صاحبته بنراع شاب ، رأيت  
الأسى في الأنوار المصيّة ، رأيت ماهر غارقاً في صمته ، بعد نزول الأجازة  
مع رياض ، سأله حسان ، هل تخاف من القاتل ، ضحكـت باختصار  
كموجـ الأنباء .. كـرـ جـلال .. حـقاـ خـافـ ؟؟ قـلتـ فـي الـبـداـيـةـ لـكـنـ بـرـورـ  
الـوقـتـ يـعـتـادـ إـلـيـانـ كـلـ شـىـءـ ، ضـربـتـ الـأـرـضـ بـمـقـدـمةـ حـذـائـىـ ، اللـيلـ  
فـوقـ الطـريقـ ، لـكـنـ رـأـيـتـهـ لـحـظـةـ الصـبـاحـ ، اـنـتـهـاءـ إـلـاـجـازـةـ ، يـجـلسـ الـوـاـحـدـ  
مـنـاـ مـعـ أـهـلـهـ ، أـصـحـابـهـ ، مـشـحـونـ بـرـغـبـةـ الـحـدـيثـ ، لـحـظـةـ شـعـورـهـ بـالـخـطـرـ ،  
انـفـجـارـ قـبـلـةـ الـأـلـفـ رـطـلـ ، لـزـوـجـةـ نـيـرـانـ النـابـالـ ، بـيـدـاـ الـحـدـيثـ ، تـشـلـ  
الـأـلـفـاظـ ، الـحـدـيثـ عـنـ الشـظـاياـ ، إـلـبـطـاحـ لـحـظـةـ سـمـاعـ الصـفـيرـ ، غـوصـ  
الـجـسـمـ فـيـ الـأـرـضـ ، صـيـحةـ التـحـذـيرـ لـزـمـيلـ ، انـخـضـنـ رـأـسـكـ ، فـجـأـ ..

يسهم المستمع ، يفكر في أمر ما ، كبير ، صغير ، يشغله ، يلفظ كلمة لا تمت إلى الحديث ، تتقطع الصلة ، تعلو جدران الاسمون المبطنة بالضجر ، يلسع البرد جسمى ، أهى الرغبة في البكاء ، العويل بلا توقف ، يتحدث سيد عن خناقة كبيرة في خان الخليل ، أخبرنى حسان بالأمس ، انهم ضبطوا في غياب عربة مرسيدس مشحونة بالمخدرات ، كانت تقف في ميدان الحسين ، زفوها إلى القسم ، أخبرنى أن مدحة بيانولا بائعة البوريك هربت ، لف عليها طويلا ولم يبل منها ضمة ، دوخته هو ، وقبلت عويس الفران أما محمد فيتا فعرض عليه أن يحضر بعض الزغاليل وعنده في الدكان متسع ، بشرط .. بعد الواحدة صباحاً ، سأل الحاج اسماعيل فجأة ، نظراته تقول .. صدقنى الإجابة ، هل الطائرات المعادية تسقط فعلا .. قلت طبعاً .. رأيت بعينى سور مستير سقطت ولم يصدر بها بيان ، اتسعت شفتيه في خط ضيق يرسم الشك عبر وجهه ، قال يا ريت كلامك حقيقي ..

\* \* \*

الهجوم الجوى مستمر فوق الجزيرة ..

يلتهب حد الأفق ، انفجارات دنانات الم . ط . في السماء .. كل من الدخان ، غامقة ، ثابتة ، كالحجارة ، تسائل رياض ، لا توجد

موقع جنوب الجزيرة .

أى شئ يضر بونه هناك ..

• • •

صوت أمي لحظة الوداع ، لا قبلات ، عينا أبي العجوز ، عواطفنا  
لا تعرف الحركات سبيلا للتعبير عنها ، بصمت نزلت السلم ، اللفافة  
بيدي ، فرحة ، بسطرمة ، جبن رومي ، تدمع أمي في الشرفة ، أثني من  
هذا ، ليس ذلك ما يصنع حزناً في لوحى ، ماذما إذن ؟؟ ضجة نزول الليل  
الذى أفارقه ؟؟ اختناق الشوارع بالعربات الملائكة ، السادة في المقاعد  
الخلفية ، راقصة جديدة ، تحتاج إلى من يلمعها ، لقاء السحاب ،  
السحاب يتلقى ، الصديد يقطر ، العمر ثوان ولا سنين يا حبيبي ..  
يا حبيبي ؟؟ ماذما إذن ؟؟ الأمان الرخيص ، حفلة الثالثة أمام السينما ،  
أقدام الرجال الملفوفة بأحذية حمراء ، حراء فعلا ، هل تصدق يا ماهر ،  
هل تصدق يا رياض ؟؟

والله لا نعرف .. كان هذا العالم لا يعرفنا ..

أهو الأسى لحظة مجيء الصباح ؟؟ ذكر الوجه البعيد النائي كأطراف  
العالم ، وفاء التي لا أمر بعقلها حتى مجرد صورة ؟؟ أحبيبها . لكنها  
علاقات مبتورة ، يقضى عليها بيمضي جراح ، الحب القديم جبل يناطح

---

---

سأءلا آخر لها، حوله صخور صلبة لا نرقى إليه، ياه حتى المرات البسيطة  
لم يعرفها ، أما سعيد فلم يضاجع امرأة قط ، ضحك ماهر ، صاح فيه ،  
أعرف كيف تحمل مشاكلك في الصعيد ، زام سعيد ، اسكت يا ماهر ،  
عيوب يا ماهر ، ما الذي يقتصر المرأة ، كأنها مقدمات صداع فظيع يقترب  
إلى ، يرفع حد الهملاك ، فوق الأزهر ، جامع أبي الذهب ، الماذن ،  
أعمدة هائلة مستقرة آمنة تنسد الفراغ ، يتجمع الناس حول طفل صغير ،  
يتشنح ، يتقلص ، صاح رجل .. انظروا اسمه وعنوانه مكتوبين بالكريبيا  
فوق قميصه ، ناصية سليمان عامرة ، ماذا يدور في شارع الليل ، الآلوف  
تنفق في طريق المحرم ، على مرأى من الأقدمين ، غداً .. صفحة كاملة عن  
الأغنية الجديدة ، السوالف هي الموضة ..

« قلت لك اسمعى كلامى .. يوم واحد تقضيه فى  
الإسكندرية .. لك ما ترغبين ، مدير يختنق مع صاحبته فى بانيو .  
هل هذا وقت إثارة المشاكل .. هل هذا وقته .. المعركة أهم ..  
صاحب رجل الشريفة شريفة منها جار عليها الزمن .  
ضرب شاب المنضدة بقبضته .. أعطنى واحد براندى ..  
قال مدحت صديق ماهر .

---

---

تصور عندي حساسية ضد الخمور .. محكوم على أن أعيش عمري  
بوعي كامل .. شيء مزعج طبعاً .

تتأمل النساء قوائم الطعام في الفنادق الفاخرة ، ترفع امرأة حاجبيها .. يا سلام .. والله مبروك خطبت لمن؟؟ .. ابن عائلة؟؟  
تأني العreibات في الطرقات ، ضرب شاب أسمر طيب الوجه جبهته ،  
زعق في الشارع الخالي .. يا سلام .. يا سلام لو تتحقق الأمانيات .  
يلمع التيوون مزيفاً .. العمر ثوان والأسنين ، فجأة تقول البنت  
من خلال الراديو . حققت لي كل آمالى .. لما جبت لي ساعة كامي ..  
كل آمالى .. ساعة كامي .. كامي .. كامي ..

\* \* \*

رياض يفرش المشمع ، تدب أقدام الجرذان في الملجأ ، وقعاها لزج ،  
ينام ماهر . ربما يصفعى .

قال فريد ..  
الخندت قراراً ..

لم يرد رياض ، عندما يقدم الواحد منهم على شيء ، صغيراً كان أو  
كبيراً ، يقف متصلباً ، خارج الملجأ ، قرب الصخور ، يعلن ، اليكم  
القرار التالي ، « سافتح علبة اللحم الأخيرة » ، بعد الظهر سأنزل

---

لأستحم » « في أول إجازة سأكلم بنت الجيران » ثم يقومون بعزف مارش عسكري بأفواهم ، الآن .. لم يرد ماهر ، أورياضن ، الليل فوقهم غريب ، بارد ، كهف أسود موحش من الجليد » قال فريد حزيناً ..  
لن أنزل اجازة أبداً .. أبداً ..

\* \* \*

أدلى متحدث عسكري بالبيان التالي :

قام العدو في الساعة التاسعة من صباح الخميس بهجوم جوي عنيف على جزيرة شدوان ، التي يبلغ طولها ١٦ كيلومتراً ، ويتوارح عرضها بين الثلاثة والخمسة كيلو مترات ، ويوجد بها قفار مدن لإرشاد السفن ، منعاً من اصطدامها بالشعب المرجانية ، واستمر العدو في القصف الجوي لمدة أربع ساعات متالية ، مستخدماً طائرات الفاتشوم ، وسكاي هوك الأمريكية الصنع ، وتمكن تحت هذا الغطاء الجوي من إنزال كتيبة مظلات منقولة بالهليوكوبتر ..

ولا يزال القتال مستمراً حتى ساعة إعداد هذا البيان ..

\* \* \*

أمام المزغل . تماماً كم المسافة ؟؟ ثلاثون متراً ، المليوكوبتر ، جرادة ضخمة مبعة ، أرى الهواء ، دوائر الهواء حول المراوح » اندفعت

---

---

خارجًا ، يتزف رياض ، الدم لا يطيق البقاء ، يهرب منه ، اصطدمت  
رصاصة بالصخرة ، ارتدت ، صريرها حاد ، تفلت الطائرات من  
الفراغ ، لولبية التزول ، من صفاء السماء تهوى ، أى موضع يحيط عليه  
لسان النار ، فقط ، المنيا ، قنا ، قوص ، أم الدلفنجات؟؟ يحترق سيدى  
الفولى أللأ ، يتزف الحسين دمًا ، لا يفيق ألف عام يتزف هنا ، ذهب ماهر  
منذ الصباح إلى أسوان ، موقع الـ م . ط . المجاور للفنار ، تلتهب  
الجزيرة ، تنتصر ، لم أعرف أرضًا إلا هنا ، لم أعرف الإجازات ، تقاطع  
الطرق ، تلتهب القرى هنا ، تخترق ذكريات طفولته ، محطات السكك  
الحديدية التي وضعناها ، تخيلناها ، صهاريج المياه ، يتذليل سلم قصير ،  
أى الصور تتدفق إلى الذهن؟؟ رائحة الدخان ، احتراق نشرة الخشب ،  
لون البيوت ، الآن — بالضبط ، البداية ، لم أشعر بشئ ، تقول أمي ،  
سرقة السكين ، ماسورة الكلاشنکوف بلا معنى ، الزناد لا يدفع  
طلقة ، بواحد اسهال عنيف ، قنابل الألوف — الثلاثة آلاف رطل — تنظر  
فوق أيامى ، يبرد الكون في أذن ، ضغطت المدفع ، دفعته ، رميته في  
اتجاه الأقدام المستديرة ببطء ، حول الجرادة المهولة المدومة .

\* \* \*

---

---

« يا جند الصاعقة .. استسلموا .. »

« أنتم محاصرون من جميع الجهات .. »

« ستعامل الاسرى معاملة حسنة »

• • •

« وبلغت خسائرنا حتى ساعة اعداد هذا البيان خسرين فرداً .. ولا يزال القتال مستمراً حتى الان » .

• • •

يجيد العربية تماماً ، يقتل أمي فوق طشت الغسيل ، يفجر الرحم ،  
يخرج المولود قبل الأوان ، يخنق ضوء الغسق ، يوثقني ، ينجز الضلوع لتنطل  
الجفون منفرجة ، طريقى اليك يا أمى وعر ، ينزف . القار ساخن يملأ  
الفراغ فيما بيتنا .

• • •

« قالوا : تقدم من الفنار .. قف هناك بحيث يصبح ظهرك إلينا » .

• • •

الآن تماماً الرابعة ، ريم الخامسة أفتر لحظات النهار ، تهجرها الرقة ،  
تفجر الكلبة ، أشد الأكدار حزناً ، ترثي الأمانات ، أموت ، لا تتد

---

---

الأصابع لتسيل الجفنين ، لو جاء الموت بعد مائة سنة ، فوق سريري ، أى  
أفكار تخفيه عندئذ ؟؟ يهوى القلب بين الضلوع . عندما أخرجوا رياض  
بذا جسمه ضئيلاً ، لم أره بهذه الضالة أبداً . كان فارغاً ، تتحرك أطرافه  
كيفها شاعوا ، أيه .. بذا سهلاً ليناً ، مطيناً . ما آخر كلمة قالها ، منذ  
بداية المجهوم لم تتبادل كلمة . أغمضت عيني ، أعرف ما يفعلونه ،  
يمشون الجوف ، الألغام . يقبلونه على وجهه . آه لو اندفع اليه . أذوب  
معه . انفجر معه ، أوتفقاً عمرى ، لم أر الفنان من قبل كهله اللحظة ،  
كل شيء يبدو غير ما هو ..

\* \* \*

« نريد أن نعرف .. هل زملاؤك بالداخل .. أقنعهم بالتسليم » .

\* \* ■

تنقص المسافة ، طلقات متفرقة ، تتبع بعضها ، يخفق قلبي .  
يخفق ، ما الملائم التي تميز وفاه .. لماذا خفق القلب عند رؤيتها هي  
بالذات .. هنا رأيتها عند طرف الجزيرة الجنوبي ، عند الشاطئ ، مشت  
تنابط ذراع شاب يشبهني ، تسائلت بحسنة كاوية ، لماذا يتميز عنى ..  
تقصر المسافة ، أخوض في عمرى ، هنا مضيغت الأرغفة الساخنة ، هنا  
صررت عجلات القطار عند سفرى مع أمى إلى بلدنا ، انتظرت أبي عند

المنحنى ، تسلقت أشجار الدوم الأجد ، تعلقت بعنق أبي ، أذكر وجهه  
شاباً ، بطانة جاكته ، دفعت المرواء إلى صدرى عند خروجي الصباحى ،  
أفتشر عن حفائر الآثار ، هنا بكتت عند مقام أم الغلام ، قال الشحاذ  
الأعمى في حارة الوطاويط رينا ينصر الإسلام ، صاح أحد المارة ، إذن  
احلف ، فصاح والله العظيم . والله العظيم .. والله العظيم هنا عرفت  
وداع الأصحاب ، أغلن الفنان خالياً ، من بقي به .. ضائع رياض ،  
مقهور .. موثق أنا ، اختلت الأشياء ، نظام الدنيا لم يقم ، خرست  
أصوات الفراغ ، تنوح المياه ، يطفو القرش بلا رفيق ، يتزلف دم الشهيد  
من جديد ، مذاق صوت أمي .. حس أمي .. نسيته ..  
قطع الخطوة الأخيرة بيته ، وبين الفنان ..

\*\*\*

ثانية ، أو جزء على الألف منها ، رعشة عقرب في ساعة معصم ، لم  
أره ، لم يتتجسد ، انبثق أمامي ، ماهر ، لم أقل لفظاً ، لم يقل كلمة . لم  
يصلنا حوار ، يتقلب البحر في صدرى ، تلكمى يد ، البلاط كبير  
مضلع ، يرقد فوقه ، يجت鱗ن مدفنه ، لم نقل شيئاً ، لكنه قال .. رأيتك  
من فتحة الجدار ، وقلت له بعيني ، بعروقى ، بدمعى الذى يتفجر من  
ذراعى ، رأيتك يا ماهر ، رأيت مصنع الآلات ، شوارع اسكندرية ،

---

أيا مك على شاطئ البحر ، الأشجار التي لا توجد إلا في الإسكندرية وهواء  
الإسكندرية ، ورمل الإسكندرية ، وعطر الإسكندرية ، كل ما عرفته في  
الإسكندرية يا ماهر أنت ترقد في هذا كله ، تقرأ اللافتة ، منوع التدخين  
من فضلك ، تفك حزام الأمان ، تنظر من النافذة المستديرة ، ترى  
الجزيرة من ارتفاع ثلاثين ألف قدم ، لا ترى شيئاً ، إنما كل شيء  
اختصر ، بتر بقسوة ، مجرد صفحة في أطلس خريطة ، يدفق الدم من  
جرح كبير في ضلوعه ، أي دم هذا ، لن يوقفه أحد ، يمنعه أحد ، آه لو  
اندفع إليك ، لو عندي آخر يشبهك ، أقول لك هي ، عمرى يا ماهر  
أمامي في هذه اللحظة ، مرکز ، ملخص بقسوة تفرى مصاريف ، لم  
تسألني عن أسرق ، لم أعرف شيئاً عن اخوتك ، عمرك الأول ، أعرف  
كل شيء الآن ، ترتعش حواف أيامى ، ترتجف سينيف . لم أحاب بشراً كما  
أحببتك الآن . هنا الوطن ، آه يا ماهر ، توافقني غير أن البكاء متعدة  
نائية ، زعقوا ، زعقوا ، يتقيتون في الهواء ، داخل الفنان ، شبابي دفنته  
هناك ، وضعته خلف الطلاء ، تحت البلاط ، لن يعشروا عليه ، جسمى  
جرح واحد ، اقتربت منهم ، يتخلون وضع الرمي ، الشفة الخامدة تجز  
الرؤوس ولا عاصم ، ماهر يلمس الزناد ، عيناه صافيةان ، لا يكفي  
الدم ، لكنه واع تماماً . كان حليق النقن ، خبيط دم رفيع كعلامة

---

---

---

استفهام ، كبصمة ، بجوار فمه ، هل عشت هذه اللحظة من قبل ..  
أين .. ريا في منام ..

\* \* \*

وأضاف جاي بوشينسكي مراسل شركة اذاعة وستجهاؤس وجريدة  
شيكانجوج نيوز .. وكان مصاحباً للقوات الإسرائيلية يصف بعض  
ما رأه ..

.. وحين انتهت ذخيرة أحد المواقع ، وكان به جنديان ، قتل أحدهما  
وأسر الثاني ، ثم طلبوا منه أن يذهب إلى مبنى الفنان ليقنع من فيه  
بالتسليم ، ثم عاد الجندي المصري ليقول لهم انه وجد المبنى خالياً .. وعلى  
الفور توجه ضابط إسرائيلي وعدد من الجنود لاحتلال المبنى « وما كادوا  
يدخلون من الباب حتى فوجئوا بالثيران تهال عليهم من مدفن رشاش ..  
كان بالداخل جندي مصرى جريح آثر أن يقاتل حتى النهاية » بعد أن  
رفض زميله خيانته .. والإبلاغ عنه .. وفي موقع آخر .. .

## عصفور الشتاء المهاجر

نشرت في «المجلة» ١٩٧٠

### الرصد والاستطلاع

.. رفيعة العنق ، مجدةلة الضفائر ، تجربى ، بيدبها تنبش الأرض ،  
جلبها قديم متتسخ ، منقوش بورود حمراء كبيرة جف لونها ، حول  
معصمها غوشة حمراء ، يحيى هواء وديع ، يلمس أشجار التفاح  
والبرقوق ، يرعش أطراف الخطب فوق بيوت القرية ، يلوى دخان  
الأفران ، هدوء يحوى الإنفجار المرتفق ، تجربى ، تجربى ، طفلة ،  
صغيرة ، خطواتها فوق التراب خفيفة ، لا تختلف أثراً ، بصمتها وجريها  
ولعبها تقول حديثاً طويلاً ، لا أسمعه هنا في الحفرة ، أراه بخفقه القلب ،

ارتفاع الدم في الأوردة ، في الشريان ، كان أركب قطاراً يهدى سرعته  
عند مروره بزلقان مدينة هادئة ، جدران بيotta نظيفة ، النوافذ مغطاة  
بستائر هشة في لون الضباب توحى بما تحويه الحجرات الداخلية من هدوء  
ناعم منسال خشب ، أما الطرق فمر شوشه بماء الورد ، أنظرها من  
وراء زجاج نظيف براق ، في خطواتها ، نظراتها السريعة الحائرة ، طريقة  
جريها ، تقول لا بيت لي ، أنا طفلة لا أخرج من باب واحد اعتدت روبيته  
كل صباح ، لا يأويني فراش أحفظ لون غطائه ، رائحة وسادته ، عيناي  
تعلقان كل مساء بسقف جديد ، أحياناً الفراغ ، في عمرها الصغير أرى  
حواري صغيرة ، أشم رائحة صابون منبعثة من ملابس منشورة في  
الشرفات ، حلقات ذكر يتتردد فيها اسم الله ، ذوبان الوجد ، نزهة  
غروب ، هنا ، حواف المخفرة ، خنادق المواصلات ، أكياس الرمال ،  
مزاغل الرؤبة ، كمر الحديد يتخلل أسقف الدشم ، تخربى من جديد  
فاري نفسي طفلاً صغيراً فوق عجلة ساقية خشبية محملة بالقواديس يتدقق  
منها الماء ، أصفعى إلى دقات مدخلته وببور الطحين ، هي ، هي ،  
لتركيز وسين يضىء المصايبع ، يشعل الوهج في الأفوان ، في صبحتها ،  
خروجى الصباحى إلى كتاب القرية ، رائحة المياه فى ميضة الجامع ،  
الذكريات ملمس الجبهة لخصير المسجد ، أسمع صوتها فيتفرق حزنى إذ  
ينحنى صوت الرجل المسن ، وفي بود الفجر يملىء من فوق المثلثة ، أورفي

---

فراغ الجامع ، بعمق ، ينعد من الجماد ، يخلق عند الأفق « علم الإنسان  
ما لم يعلم » الفجر يظلل البيوت ، غير اللين الرائب ، الرهبان الفقراء  
يشون فوق الطرقات الزراعية ، السلام يا أباانا ، الصياح في الأسواق «  
مرور أيام الربيع ، الظهور البطئ » لنجوم السماء ، انفلات نجم وحيد  
يهوى مطروداً ، لو قلت هذا لأصحابي لرعنوا متعجبين .

مجرد طفلة عابرة .. ترى فيها هذا كله ..

أصبح في وجوههم ..

بل أكثر ، إتها دعاء أمي ، لمسة يدها فوق جبيني .

أسندت منظار الميدان إلى عيني ، امتلأت العدستان بملائهما ، في  
عينيها بريق طفولة ، نيش يديها لأكواخ القش يثير أياماً ناثية ، قطعاً لم  
أعشها ، يبعث أيام العمر الأولى التي هجرتني أنا ، ضاعت مني أنا ، من  
العريف عوضن ، الرقيب محروس ، على ، عادل حكمدار طاقم الماون ،  
حتى الملازم سمير ، ها هي تفتح فمها ، ريمًا تصيح ، تنطق لفظاً ، حرفاً  
واحداً تقول فيه آلاف الكلمات ، بوجهها خطوطها المتوضّبة ، تروي  
ما جرى لحظة بلحظة في كل يوم مر منذ بدء الخلقة ، تعرف ما تمناه كل  
حي عاش هنا ، وقعت عيناه على نفس الأرض ، الموت ، الحرب ،  
الوباء ، هجرة القوم إلى بعيد ، الزرع ينتت رقة ، أمانيات ، زغاريد

---

---

---

أفراح بعيدة ، آهات ليلية مجهلة المنبع ، شيخ طيبون ، نساء عمرن  
كثيراً ، أطفال ماتوا قبل أن يولدوا ، مضوا لكتهم تجسداً إلى أبد أوراقاً  
وغضوناً ، صاحبى الصغيرة السمراء التي لا أعرف حتى الآن ، من هي ؟  
تنادى كل حى باسمه ، حتى الطير ، النبات ، حجارة الصوان ، أعمدة  
الرخام من أبوكى يا بنية ؟ لا بد أنه يستمد خبزه اليومى من وقع أنفاسك  
على ساعديه اذ يحتويك ، همسك عندهما تطلبين جرعة ماء ، عروس يدير  
جهاز التليفون داخل الملاجأ ، الرنين متقطع الانفاس ، ربما تهمس لها  
الأرض بما لا أدريه ، تعرف وجودى هنا ، إننى أرقبها منذ أربعة أيام ،  
أعرف متى تظهر فوق الطريق المترقب فى أوقات ما بين الغارات ،  
لا تجهلى ، تعرف أننى في مثل هذا الوقت ، في بيتي البعيد ، أخاف من  
رحيل النهار ، يهجرنى الضوء ، أسأله ، هل يحيى وهيج النساء من  
جديد ؟ أخشى نزول الليل وزحفة الخبيث إلى الفراغ ، أشرب شاي  
العصير ، أنزل ، عند المقهى أرقب الميدان ، أتتبع الرجال والنساء . أسأل  
عئياً في ذهن كل منهم ، غير أننى لا أقدر على التقادم فارتدى ملوكاً محسوباً  
مقهوراً .

\* \* \*

---

---

بريد حربى :

سماء ، تصور ، اسمها سماء ، سألتها .. ما اسمك ؟ لم تجب ، مال رأسها الصغير ، طرف إصبعها بين شفتيها ، رأيت خجل العمر الأول . صوتها يعبر صباح يوم جمعة هادئه بناء في الخلق حتى ساعة متاخرة ، يوم لم يعرف ضجيج الحرب أبدا .

اسمي اسمى سماء ..

في خطاب قديم أرسلته اليك آخر شهر من شهور الشتاء ، قضيناه في موقع آخر بعيد ، تخفيه أشجار ما نجو ، حدثتك عن عصفورة صغيرة ، ضئيلة ، لونها أسود كمياه ترعة في ليلة بلا قمر ، لكن مقارها الصغير ، حبة القمح ، الشعير ، الارز ، لونه أبيض ، أيضا ذيلها ، خطوها وثبات رشيق ، التفت إلى ، كأنه يصحو من غفوة فجأة ، قال ، عصفورة غريبة ، لحظة صمت ثم قال ، ربما لا يوجد في مصر كلها الآن إلا هذه ، عرفت يا صاحبى أن أسرانا عديدة لا أول لها ولا آخر جاءت أول شهور الشتاء من آخر بلاد الدنيا حيث الشتاء لا يحتمل في أطراف العالم ، أسراب لا تراها أنت في المدن ، إنما تحيى إلى الحقول ، أشجار المانجو ، الجزر الصغيرة المتباude في بحيرة المترلة القرية ، غير أن هذه العصفورة بالذات لسبب ما ، لا أعرفه ، يجهله الملائم سمير ، كل من رأها ، أنت أيضا ،

---

تخلقت ولم ترحل ، بقيت وحيدة بعد عودة أصحابها ، لا بد أن علم دراسة الطيور أطلق عليها اسمها لا بد أنها تنتهي إلى نوع ما ، في أي بلدة عاش ، أي خصائص تميزه ، أيضا عمرها مختلف عن عمرنا ، كم ؟ ومتى تدركها الشيخوخة ؟ كيف تموت موتا طبيعيا إذا لم تصيبها رصاصة صياد ، سعادتها هل يعرف المشيّب ، عينها الصغيرتان ، كيف تبدو الدنيا من خلالها ؟ انعكس فيها جليد ، ثلوج ، عبرت بحارا عريضة ، مشت فوق بيوت منحدرة السقوف ، حول كل منها حديقة صغيرة ، مراكب صيد السردين الصغيرة ، مدن عائمة ، يستطيع الملازم سمير إمساكها فهي تبدو متعبة ، ربما طاش عقل ، اكسر ساقها بطلقة ، تخىء البina أسيّرة ، غير إننا لم نعد يدا ، رأيناها مرة ، ثم ثلاث مرات ، خلال غارة طويلة بدت بلا نهاية ، حطت عند حافة الملحاج ، لحظة مقدارها غمضة عين ، طارت ، ضاعت تماما ، منقارها ياصاحبي التقط غذاءه من دمي ، ذكرتني هذه العصفورة مثلما بك أنت ؟ بالقرى ، بالمدن ، المهدوء ، والضجيج ، المسافرون الأغرب ، عازفو الآلات الموسيقية في الفرق الريفية المتجلولة عبر الموالد والأسواق ، الطائرات ، انبثاق الدوى من أفواه المدافع ، كلهم ملخصا فيها ، ربما وقعت في فخ ، أطلق عليها النار ، اغتالتها الأيام الحادة التي فشلت في المرب منها .

---

تذكر أني حديثك في ليلة بعيدة عندما سهرنا في مقهى صغير أول شارع محمد على ، قلت أنت انه أعادك إلى زمن بعيد لم تعشه ، كل شيء فيه ، المقاعد والمناضد والزبائن ويلبات الإضاءة ، ترجعنا عشرات الأعوام ، لا يمكن أن تنسى طبعا لم تنس ، في عمرى الأول الطفل ، أمسك طرف جلباب أمي وغصى إلى السوق ، وبابور الطحين ، ماكينة المياه ، دائيا حتى في الجبانة ، أرى الخضراء ، تحيى إلى بيتنا ، تدق مغلاق الباب ، تعطيها أمي رغيفا شعسيا ، تردها عنا ، تقول أمي إنها بنت ضائعة بلا أب ولا أم ، لو اخترت لا يسأل عنها أحد ، تروح ، تحيى ، لا يهم ، كنت صغيرا لكنني تمنيت لو تزوجت الخضراء ، من أجلها سرقت حبات الدوم من صومعتنا ، الترمس والخبز ، ضربتني أمي ، آخر مرة رأيتها عندما جئنا مصر لنقيم مع أبي ، وافقة بجوار تكعيبة البوص فوق الجسر ، قالت لأمي ، مع السلامة يا سيد ، صوتها يدمع أي والله يدمع ، قالت بسرعة .. الله يسلّمك يا خضراء ، في الحلوzone سمعت أمي تهمس ، ربنا يستر طريقنا آخر ما نشوفه من البلد ، نشوف الخضراء ، في مصر ، قلت ، نفسي أشوف الخضراء ، بكير ، بقيت أتوقع رؤيتها نافع ، لا تذكر من البلدة إلا بتنا ضائعة ، بكير ، وصاحب عيال المدينة ، في طواف حول مقام السيدة تقسية ، الست فاطمة النبوية ، ربما رأيتها عند المقام ،

---

---

منحنى حارة ، تطلع من قبو ، تنزل من عربة عندما قالت أمي إنها بلا أب ، بلا أم ، حررت كيف يعيش طفل بلا والدين ؟ وهل يوجد في العالم طفل لا أب له ولا أم ؟ تقريرا يا قabil عرفت كيف جاءت المفبراء ، كيف عاشت وحيدة مقطوعة الجذور ، أوشك في لحظات كثيرة هنا على استرداد طفولى ، أدنو منها ، مع يقين أنها وهم ، لم أعشها ولا أقل لم أين هي .. آه .. أين ذهبت ؟ أجبني يا قabil .. حتى خلال تصيف المدفعية ، دانات الفوسفور التي تحرق حشا الصمت ، تقبله ، تووضع سنتين عمرى الأولى فجأة ، تحىء برقة مشعة لها وهج ، لكنها تضيع في لمحات ، عندما رأيت سهام . كذبت نفسي ، لم أمر بمثل عمرها أبدا ، أبدا سهام ، ستظل على حالمها طول العمر ، لن تشيخ أبدا ، سهام يا مصطفى لو مررت طول اليوم ببيوت القرية ، لن يقلق عليها قلب ، لن تتردد صورتها في ذهن أب أو أم ، لن تسمع صوتها يدعوها لتناول طعام .

\* \* \*

### قطاع :

يتوجه الفليرز ، في البدء قبضته ضوء ثاقب ، يحرق الليل ، يشغل اللون البرتقالي ، يعرى الظلام « يكشف ما خفي ، ينشر الوهج اللزج » يشد العيون ، أرقبه ، انطفيء ، انطفىء ، كن بربدا وسلاما ، يضيئ ،

---

يعود من جديد ، يجرب صدر الليل ، يثقب سقف العالم القاتم ، لا نرى الطائرة نفسها ، غير أن الفليز التارى كاشف الطرقات والأمنيات والدشم « مهلك الامهات » مبيد الأجنة في الأرحام ، يقول أن جسماً معدنياً يطير متولاً متقلاً ، ضبع جائع ، يبنش الكون بحثاً عن سماء ، تخرج الدنات من مدافئهم مكتوب فوقها ، سماء « سماء ، الماون الثقيل والخفيف مقصدته هي ، الماوزر ، الشظايا ، النابالم ، الآلف رطل » من يأت بالطفلة أبنة الأربعية أعوام . سماء « حية أو ميتة ، له ملك الأرض ومن عليها » من يصيب سماء إصابة مباشرة تخross أنفاسها ، تقتل طفولتها ، له الأمان ، له السلام ، نعطيه كنز الذهب وصوامع الفضة ، أخفيتها في ركن قصى من ملجتنا الحصين ، أعدنا لها فراشاً صغيراً تتمدد فوقه ، الآن لا تفارق الموقع ، تطارد الجرذان ، لا تخافها ، في المدورة تحكى أقصاص صغيرة كلواكب ، حلية فضية ، يردد عروض ، الأطفال أطهر خلق الله وموقعنا آمن ما دامت سماء فيه .

أقول ، أخاف عليها ، عندما صاح الملازم سمير .

بلغ عن حاضر ..

يرد الحكمدار ..

قام يا أفتدم .. جاهز الضرب ..

---

---

ترتج • تشق الأرض ، تبدل النساء بسباء غير النساء ، توالي القذائف  
مطرودة من أفواه المدافعين ..

بلغ عن حاضر ..

يرتعد الماء ، يحترق ، مطواة هائلة في الفراغ ، تشطره ، أزعن ..

ادخل الملجأ يا سباء ..

يرتد المدفع ..

اضرب ..

فوق صندوق آخر تقف ، يداها وراء ظهرها ، عمرى الرفقاء البكر  
الفرح ، الايام الندية ، في همسة زمن تبول ، تنفى إلى بعيد ..

ادخل الملجأ ..

لا تسمع ، ابتسامة العمر الأول ، دقة واحدة حزينة لساعة كبيرة ،  
بندوها يهتز في بهو منزل كبير ، قديم بلا أصحاب ، سباء ترقب الدائات  
تخرج من الصناديق ، الدانة في حجم طفل أكبر منها باربع سنوات ..

تمام أفنديم ..

اضرب ..

الرأس الصغيرة تميل قليلا ، تخلق لعينيها زاوية رؤية مختلفة تنفس  
بديها ، تنزل ، تسند ظهرها إلى الصندوق ، كأنها ترقب أنها الحالسة أمام  
الفرن ، تخفي الوقود ، تدخل أثراص العجين إلى الوجه ، تتظر خروج  
الارغفة الساخنة ، رائحة أوان الفخار ، سهاء تجربى ، تحمل الحطب ،  
تحلب عنزة ، تسقى دجاجا . عندما رحت أشير إلى أجزاء المدفع ،  
سألتها ، عرفت اسم المدفع .. آه .. أطبقت شفتيها على أصبعها ،  
قالت .. الم .. الماون ، خرجت المخروف رقيقة ، ملودة ، تقطر  
طفولة ، رقة ، فرحا خفيا ، مناجاة الأشياء ، لو أنني أنجبت طفلا .  
سيلفظ الاسم بنفس الطريقة ، يتراجع برأسه الصغير تماما كما فعلت ..

اضرب ..

عبوة كاملة ش . ف .. فاصل عشرين ثانية بين القذيفتين .

اضرب ..

يهوى علينا الليل ، ترمي سفن مسافرة في الفراغ الكوني ، مجهلة  
لا نراها ، لا ندرى مقصدتها البعيد ، يسيل سواده لزجاجي لون العسل ،  
يضى النهار ويحيى الليل يضيع النهار ويتسلل الظلام زائرا غريبا ثقيلا  
لا نرغبه ، نهمس تحته ، لا تعلو أصواتنا ر بما دل صوت على مكان  
صاحبها ، لا نشعـل لها أو سيجارة ، لا تبرق عقارب ساعة ، كلها

---

---

علامات تدل ال�لاك الطائر ، تلمسني نظراتها الصغيرة ، تنساب عبر الحفر ، فوق أكياس الرمال تنشر فرحا خفيا يلون أيامنا كاكية اللون ، في صباح طازج ، ريقه حلو ، كالافتخار بالزيادي على شاطئه ، هدوء يلغى الحرب ، ينفي الخطر ، الدم ، الموت المرتقب ، اضرب ، حاضر ، الخرائق ، نباح الكلاب المذعورة قبل جنى الطائرات بثوان ، بحثها عن الملاجيء ، التصاقها بأقرب إنسان ، تتلمس فيه الأمان ، أى أمان ؟ في هذا الصباح أرسى قائد الكتيبة يستدعينى ، أمسكت يدها ، عبرت معها الحفر ، كأنها ابنة حانية تحمل طعاما إلى أبيها في أقصى الحقول ، مررنا بششم خالية ، موقع هيكلية ، مرابض مدافع ، صاح أصحاب الجنود ، أعطانا حسين علبة توفى صغيرة ، بدت خجولة ، دارت حول ساقى ، تخفي نفسها ، عبرنا بيوت القرية الفقيرة ، أشجار خوخ ، نباتات محروقة بالفوسفور ، لم تسألى إلى أين تمضى ؟ اذ تنام أراها ضئيلة الجسم ، أكثر مما تبدو عند يقظتها ، ضعيفة ، رقيقة ، نزلنا ملجاً قائد الكتيبة ، ضربت الأرض بقدمى ، رفعت يدى بالتحية .. كأنها تسأى ، لماذا أفعل ؟ قام سيادته ، دار حول المكتب البسيط تلوثه بقع حبر جافة قديمة ، مقشور الطلاء ، ربما صاحبه أحد مدرسي القرية .

اقعد ..

---

---

ترددت . رأيت الود في ألفاظه ، ساء تدبر عينيها في الملاجأ الخفيض  
المطبق على الأنفاس ، الجدران المبطنة بالأسمنت والأحجار وأكياس  
الرمال ، من طبق صاج أبيض به ثمار مشمش ، تناول حبتين ، واحدة  
 لها « دستها في جيب ثوبها الصغير » ابتسם سيادة الرائد .. كلية الأن ..  
 هنا كثير غيرها .. كلية الأن ..

\* \* \*

بريد حربي - ١٤ -

.. عندما طلبني سيادته مصيّت اليه ، العصر يحتل الفراغ والرمال  
والدشم ، راديو صغير فوق المكتب يبعث أنغاماً رمادية اللون « آتية من  
مكان ما » ، بالتأكيد حجرة مغلقة مبطنة بعيدة جداً عنا ، أصغيت إلى  
الصمت المثقل برائحة الرمال ، قلت له أنها يتيمة الأب والأم ، قلت إن  
والدهما مات في غارة ٢٧/٤ التي أغارت فيها ستون طائرة على الموقع  
القريب . أما أمها فغادرت الدنيا بعد مجيء ساء إلى العالم ، قلت إن أبيها  
جاء إلى القرية مهاجراً من الصعيد ، فهو ليس من أهلها الأصليين ، حتى  
أمرأته من قرية ناحية بليس ، إنها بلا أقارب هنا ، يقولون إن خالها يعيش  
في أبي قرقاص عاماً بمصانع السكر ، لم يره أحد أبداً ، أطرق سيادته  
وقال ، رباعاً لا وجود له ، قلت يمكن جداً يا أفندي ، قلت إن أبيها عمل

---

أغلب وقته حملاً ، يستأجره ، أصحاب الزرع والأرض هنا يخلع نخلة من جذورها ثم يشقها نصفين ، قلت ان الحظ يسعده أحياناً فيستأجره بعض الناس ليجتمع ثمار البرقوق والممشمش ، يعرى تعریشات العنبر ، قلت .. نعم ، عاشا بمفردهما في آخر بيوت القرية ، هل تعرف سعادتك عشرة البوص التي تقابلتك عند دخولك القرية من ناحية الجسر الخشبي الصغير فوق الترعة ، ليس الجسر الكبير ، إنما الصغير ، هز رأسه .. نعم .. بالضبط أعرفه ، وفي الخارج شيئاً فشيئاً يقترب المغيب ، لم أر ذهاب الشمس إنما أحسست بابتعادها ، هجرتها للعالم ، حررت فيها يفكراً ، في المرة السابقة ، عندما جئت ومعي سهام ، أخرج حافظة أوراق بنية اللون من جيب سترته ، فيها بطاقات أشخاص ، ودفتر تليفونات ، تصاصات ورق ، طابع تمنعة لمحته ، قلبها ، أبرز صورة طفل صغير ، تأمله قليلاً قبل أن يهدء بالحافظة ، يطل من خلالها طفل في الثالثة ، قل الرابعة على الأكثر ، شعره يغطي أذنيه ، في عينيه تساوز ما وكأنه يتظر إجابة لن تأتي ، قال أتعرفين يا سهام هذا مصطفى ابني ، أبديت اهتماماً ، وكان لا بد أن أبدى اهتماماً ، لكنني عندما رأيت عيق الطفل تمنيت لو أطيل النظر إليه ، قرب الحافظة من سهام ، قال .. ابني .. ابني ، اعتدل واقفاً ، ضحك ، هل أزوجه لك ، أغمضت عينيها ، انتفع ركن فمهما عندما مدت لسانها داخله ، التفت إلى .. تصور أن عينيها في لون

---

---

عيني مصطفى بالضبط ، كل ما أتمناه أن أنجب أختا لمصطفى ثم أكف  
أليس هذا حسنا ، هزّت رأسى ، بالضبط ، عندما وقفت أمامه  
بغردي ، حررت فيها يفكّر ، أقسم لك أن رأسه يشتعل .. لا ، ليست  
أحزاناً ، إنما .. ماذا تسمّيها أنت ، المشاعر هنا تختلط لما نوعيات  
خاصة ، ربما تذكر موقف بعيدة ، قرية ، بقايا أنغام تربست في أعماق  
النفس ، ربما صبيحة طفل ، ضحكة مصطفى ، كلمة قيلت من عابر  
محظوظ ، نظرة من جندي ذاهب إلى الأبد ، اختفى ، لم يبق منه غير حديث  
متبااعد يتناوله أحياه معذودون يذكرونـه ، وبقايا مهمات ، أمور ، صور  
صغريرة يذكّرها ، تمرّ به ، تراءى له ضئيلة لكتها حارة كثieran النابالم ،  
احتراق الجلد الحى واللحم ، ربما قلت في نفسك ، لماذا ؟ أنا شخصياً  
لا أدرى ، إنما أثق من هذا ، المهم ، أنه قال بود ، عندما تكون الحالة  
هادئة .. تعال مع سهاء .. أراها دقيقتين .. أرى عينيها بالذات  
وترجعا ..

\* \* \*

«أمر» :  
تفصف الكلمات .

---

---

تحجب الشمس وراء غيم ، يفسح الطريق لحداد عفى أبي الظل  
نار محمرة ، المياه في الأفواه كاوية .

توقف النافورات اطلاق مياها في الميادين المتباudeة .

ينسل التيار من الأسلاك ، تخرس الأضواء .

لا زعيق ، لا عتاب أصدقاء ، لا صيحات وداع .

أو أحزان عشاق تبوح عن نفسها ..

مياه الامطار تصير بنية اللون ، جيرية القوم ، ترسل إلى الفزاغ عطنا  
ونتنا

الشلالات تسلل ، اليابيع لا تتدفق .

يوقف المسافرون الفرحون بالرحيل إلى الجبال المغطاة بالثلوج ، حيث  
الفنادق هادئة .

النساء جميلات مستباحات ، والعيش نعيم طرى .

يفك المسافرون أحزمة الأمان ، توقف المحركات ، تهجر السفن في  
عرض البحار .

تخلى المركبات ، يطفو السمك ميتا .

---

---

---

لا فرحة بلقاء ، لا بهجة بعوده الأسرى إلى الديار بعد غيبة أعوام .  
يلزم كل حى مكانه ، في الكون كله ، لا يفارقه قط ، يعلق إلى رقبته  
قرمتين ثقيلتين من خشب الصفصاف ، يبنى حول نفسه أربعة جدران  
وسقفاً من الإسمنت الأصم ، يبقى حتى يجف النخاع يرروح الدم من  
العروق .

تقطع الاوتار ، يخربن النغم ، يلقى العازفون آلامهم ، لماذا الغناء ؟  
لا صوت في الأذان غير حشرجات روح تذبحها الشظايا .  
ليفارق الرجال النساء ، النشوة خيانة ، الفرح عهر ، نسيان لهم  
خسة .

عيون البشر وسط رؤوسهم فلا يعرف الانسان أمه من أبيه أو بنيه .  
يخرج السجناء ، ترفع آلات التعذيب ، تفتح عناير المعتقلات  
ما ذاقته سباء ، مارأته ، فيه آلام الكون المقلبة لمدة ألف ألف عام ، القطن  
لا يطل من اللوز الأخضر ، تساقط الشمار ولا يجينها أحد ، يعيد كل  
صياد أسماكه إلى البحر .

---

---

تصباعد الاسئلة من النجوع ، الكفور ، القرى ، المدن ، خيام  
البلو الرحل .

أين راحت الايام التي ضحكت فيها ، لعبت ، خجلت ، ابتسمت ،  
أطرقت ، بكت ، رقصت ، سالت عن غيبة الأب فقلنا أبوك حتى يعود .  
ليسأل طين الحقول ، كيف هو الملائكة ثقيلة باترا حادا من الفراغ ،  
كيف تسمع النجوم ، الأفلاك ، قوانين الطبيعة الخفية ، كيف تحضر من  
بعدها الحياة ، كيف ، كيف لا يدرك كل حي ما أدركها .

ليسأل نواح الطيور اليتيمة المهجورة من رفاقها ، البكتيريا وحيدة  
الخلية ، دقات وابور الطحين ، صرير عجلات القطار عند التوقف ،  
الضوء الضعيف المنبعث من مكاتب التلغراف في الريف أيام الجنود  
عند تقاطع الطرقات العسكرية ، كراسات الصغار ، الحروف المرسومة  
بالطباسير ، دروس الصباح .

لتتواء الأجسام بهم عظيم ينقل الأعضاء ، تتفجر الاراحم بالآلام  
لا يطيقها بشر ، تصطف الحوامل في الطرقات صفوفا ، يلقطن ما في  
أرحامهن .

لماذا يأن إلى العالم طفل جديد ؟

## الظما

نشرت في الأداب ١٩٧١

حتى المواء كف عن المروء بين الشواهد الرخامية ، لم يبق إلا صوت  
الحبيب معلقاً في الفراغ ، يعطر الأفق ، ينفذ إلى ربيتها ، أوردة قلبها ، كما  
ينفذ خيط رفيع من ثقب إبرة ..  
أمي .. عطشان .. اسقيني ..

لن تنسى مذاق حسه أبداً ، ثقل بضغط كفيفها ، تنسقه واقفا  
بكامل « ثيابه » ، لحظة مجئه في الإجازات ، اكتمال الدفء في صالة  
البيت ، بروزته تتبدل وحلتها ، خلاصة ما مضى وما تبقى من عمرها ،  
الآن تعرف أن زملاءه كذبوا عليها ، تتوه نظراتها في أশواك الصبار ،  
الأسماء المنقوشة بحروف سوداء ، تواريخ الرحيل عن العالم ، الآن ..

هذه اللحظة ، تماما ، طلال لم يعد متسلدا ، الشهور المتقضية تدق أنها لو  
كشفت عنه ، تلقاء على حاله ، في حدقتي عينيه آخر نظرة ، أما الدماء  
فحارة طرية ببرقة أطفال لم تخف .. من فوق الجدار تناولت الابريق ،  
تدفع عنه الظماء ، حراسيف السمك التي تغطي الحلق والفم ، قال  
زملاؤه انه رحل مرتوي بلا أوجاع ، رمت قليلا من الماء فوق التراب تطهر  
فم الابريق ، الصقت أذنها بسطح الرخام البارد ، الشتاء يكتفي البرد ،  
تقف وحيدة في كهف جليد ، أصعدت ، تسمع بضم الروح  
الواهن ، ستة شهور يؤله الظماء ولم ينطق إلا اليوم ، الحبيب لم يشا  
إزعاجها ، ناداها بحس خفيض فيه خجل واعتذار ، عيناه تزحان  
المكان ، ينظر إليها من طوب السور الآخر ، عند الركن الأيمن تراه طفلًا  
يحبه ، قالب سكر ، ثمرة برتقان يرتدى البنطلون القصير ، تمسح الخيط  
اللامع الوائل بين فتحتي أنفه وشفتيه ، تحت شجرة الصبار الخضراء  
المؤلمة لعصب النظر ، رأته جالسا في شرفة البيت والوقت عصر ، حوله  
هالة من غمام شتوى فيه أسرار ، يقول انه شرب الشاي في أماكن كثيرة ،  
لكن كوب الشاي الثقيل حلوا المذاق ، الذى يشربه من يديها لم يذق مثله  
أبدا ، ينام دائمًا وقت العصر ، اذا لم يفجأ ولو حتى نصف ساعة ، تحرقة  
عيناه الليل بطوله ، الآن ، تسمع وقع أقدامه ، يملأ المكان ، لورحلت  
إلى طريق خال أو مزدحم تلقاء ، في عطارات السفر ، قوارب التزهة ، عند

---

الجسور ، حديثها اليه ، وصله ، سمعه ، ياه .. وكيف تشك في هذا ، عمره هنا ، طفلا رأته ، شابا عفيا ، ضاحكا ، باكيا عندهما امتدت يدها عليه مرة واحدة ، هل تصدق أنها ضربته ذات يوم ؟؟ رأته في الثياب العسكرية ، يدقن دم الشباب ، ثم صندوقا ملفوفا بعلم ينزل بطريقا في هواء مقلل بنوبة رجوع فادحة ، منبعثة من بروجى نحاسى ، الآن تسمعه لاهنا .. أمالت الابريق .. إشرب يا خويا .. اشرب يا حبيبي .. اشرب يا رجل ..

ييكي الابريق ، تسقى الفجوات المستطيلة الصغيرة بين النواح الرخام . ينام ، اذ يسمع خطواتها في عمق الليلي ، تغير الصالة إلى المطبخ ، يصبح ..

اشرب .. اشرب يا ماما والننى ..

لماذا قالوا انه لم يظماً أبدا ، في الفراغ العتيق يومها ، في خفق البيارق السوداء ، في النواح كادت تهلك ، احتضنتهم واحدا ، واحدا ، أحد ، ابراهيم ، حسن صاحبه زميل المدرسة والطريق ، سهر الليل والتدريب ، الكلية ، سألتهم لا يتركوها ، ألا يدعوهما وحيدة ، ما تخافه ، ترحبه ، نزول الليل عليها ، خطرو ساعاته فوق روحها ، تعلم ، تعنى ، ان العالم كله خلا من طلال ، صحيح يا حسن لم تضر

---

روحه معدبة ؟؟ هل ذكرني ؟؟ متى ، متى بالضبط ؟؟ آخر كلمة قالها ركن  
العمر ، تعريةة البيت ، سند الأيام القاسية ، يهمها جداً أن تعرف آخر  
كلمة ، كيف نطقها ؟؟ وإذا لم ينطق لسانه فما نوعية الصوت الذي صدر  
عنه ؟؟ ما الذي كانت تفعله ؟؟ تفكّر فيه وقت انفجار الملائكة حوله ؟؟  
قال حسن ان لسانه لم ينطق إلا بذكرها هي ، ناحت ، مضخت الحجارة ،  
عمرها تمهد طويلاً لهذه اللحظة ، غير أنها في أول ليل الوحشة ، جاء في  
اغنية قديمة ترامت إليها من بعيد تتعنى أحباباً عملة بالبوص والخطب ،  
غرباء يعبرون الجسر ، يركبون جالاً عملاً بالبوص والخطب ، غريباء  
الدار ، يرحلون من نجع إلى نجع ، غناً لهم أبكاهما طفلة ، تبكي ،  
دعها يفيس منه النهر ، تنوء بحمله السماء ، يزحّم بلدتها في حشا  
الصعيد ، يقوض أساس بيتها ، طلال سافر إليها مرات ، يرى جدته ،  
الأقارب ، خاله يحيى ، كل عيد أضحى ، غروب الوقفة يتنتظره طلال ،  
يقول انه يشم رائحة الخبيز في الأفران ، القمع في الصوامع ، يسمع وابور  
الطحين ساعة الصباح لحظة رؤيه خاله ، ترقّبها فرحة ، لا بد أن يسافر  
طلال ، يمشي معه في البلدة ، تضرّب صدرها بيدها ..

يمسدوه يا حماد يا خربا ..

يلوح بيده المطلة من كم جلبابه الواسع ، الناس لن تسعها الفرحة  
عندما تراه ، ثم يقول بعد صمت يوش فيه الوقد ..

أربى لك رابحة وأجوزها لك .. اجدعن ..

يا ريت يا خالي ..

يصفر الهواء ، لا بد أنه يرى نفس الصور ، ما تراه هي يدلو له ،  
عيناه بصره في الدنيا ، شظايا الأيام البعيدة يدهسها الأن قطار وحشى ،  
يلوى القضبان ، يغرق في الترع العميقه ، بعد ذهاب أصحابه والنساء ،  
والاقارب ، ليس معقولاً أن يقضوا بقية العمر معها ، جاءها طلال بدرأ  
منيراً ، وريحا طيبة ، وغناء شجيا ، وشمساً تسعي بالدفء إلى عمرها ،  
في عينيه لون الطفولة ، نادته ، زارها في القرية ، قهوتها الصباحية ، الماء  
الذى يذهب بظمتها ، البرودة المخففة عنها آلام القيظ ، لم يقل لها طلال  
كفى عن البكاء ، لم يفه حرفاً ، في هذه الليلة ترامى إليها عوبل قطار  
بعيد ، رجا ديزل يعبر الخلاء خارج المدينة ، انقبض قلبها ، نادت امرأة  
على ابنها من شرفة علوية ، أدركت أنها وحيدة حتى القرار ، بلا طلال ..  
صاحت ..

أنا ضايقتك في حاجة عشان تسييف بدرى .. بعد العمر دا كله تروح  
مني ..

لو تمشى وراء أحمد ، حسن ، زملاءه ، تبحث عن الذى شيع الملائكة  
إلى نجم الصباح وحيدها ، شخص بعينه لا بديل ، تلديقه ما رأه وحيد

عمرها ، اتسعت ابتسامة طلال ، يتنفس لو يسد يده ، تقدمت منه ،  
تقدمت ، لكن المسافة كما هي ، جدران البيت وحوش تزحف اليها ثلوجية  
النظارات ، كان يغيب عنها شهرا ثم يجيء أربعة أيام اجازة ولا تفجعها  
الوحدة ، تعرف أنه يضحك في مكان ما ، يرقد يشرب شايا ، يأكل رغيفا  
وشربيحة سجين ، لكنه في لحظة بعينها ، بعد أيام معدودة تخسبها على أصابعها  
أثناء شربها القهوة أو عندما تطبق الوسادة على رأسها ، لحظات ما قبل  
نومها ، حتى يجيء الأحد أو الاربعاء ، السبت ، يطرق الباب ، عندما  
طلع صباح أول يوم لا يتنفس فيه طلال الماء ، خرجت بمفردها ، تنهي  
بحمل البيوت ، تفضح الواح الزجاج وأسفلت الطريق ، لا تصدق أن  
 شيئاً جرى ، يومها عرفت عم اسماعيل الحارس ، وامرأته ، ألقت السلام  
على طلال ، قعدت إلى جوار الشاهد الرخامي الجديد ، في اليوم الثالث  
تساءلت مفروضة ، كيف نسيت الشاي؟ جاءت بمقد الكحول ، في نفس  
الميعاد توقفه ، تلا الأكواب ، السكر تذيبة بتأن ، تسقى عم اسماعيل  
امرأته وعياله ، تروي شاهد الرخام ، أحيانا تقعد امرأة عم اسماعيل ،  
تحكي لها ، تسل وحدتها ، اذ تحضى إلى السوق ، تولى وجهها ناحية  
طلال ، تسأله عن حاله ، تحكي له كل ما جرى خلال يوم مضى ، سفر  
حسن أفندي على إلى أسيوط ، روحية جمارتهم وتليغونها الجديد الذي  
ادخلته ، وزعت ثرتها على الجيران كلهم ، تتحدث فيه بصوت عال قرب

---

---

النافذة متابهية ، مجىء نجمة شقيقة صباها من البلدة ثم سفرها بعد يومين ، خروج سكان البيت مع بعضهم إلى السينما يوم الخميس » مدرس جديد يتردد على مدينة ابنة أم صبرى ، قبل نطقها اسم « مدينة » يتسلل إليها تردد ، تخاف أن تذكره بها ، في الشهور الأخيرة لا حظلت أنه يسألها كثيرا عن مدينة ، هل تراها أثناء غيابه ؟ قالت له .. والله مدينة بنت حلال يا طلال ..

سكت ، ضحك ، أم صبرى نفسها أحسست ، قابلتها فوق السلم ، سألتها عن صحتها وعن ..

ازاي سى طلال .. ربنا يحرسه ومحرس اخوانه ..

والنبي بيجي أربع أيام بس .. يغفوتوا زى الموا ..

لويفضى نفسه كل يوم نص ساعة .. ويداكر لمدينه انجليزى ..

أبدت اشفاقا ولم يغب عنها مقصد أم صبرى ، ثمة قلق راودها ، لكنها انتظرته عند عودته ، لحظة تغييره ثيابه ، برج دفعته في صدره ..

عندي أخبار حلوة .. تفرحك ..

أصغى ، لم يفتحها تسلل الدم إلى وجهه ، ياه .. لا تذكر ما قاله ، نسيت ما قال ، الانفجار الوحشى يحرق الزهور ، يغرق مياه الشرب

---

---

بزيت مسموم .. تعرف انه ينجل .. تخاف أن تنقل اليه أخبار مدحمة ،  
ترجف اذ توشك على ذكرها ، ربما تالم في رقتها ، خاصة ، الخبر الذى  
سمعته من امرأة عبد المادى باائع البيسى كولا عند الناصية .. ما دريت  
يا حتى .. شعراوى اللى بيشتغل فى الجمرك انكلم على مدحمة ..

سهمت ، تبرعت دواء مرا ..

وأهلها قالوا ايه ؟

يا حتى .. حد لاقى يجوز بناته اليومين دول ٩٩٩

جاءت اليه ، النهار كله تبكي ، ربما سأل عن سر حرقتها ، تخاف  
مواجتها ، ترى في عينيه ارتباكاً عند ذكر مدحمة ، آماله فيها ، هى تجها ،  
تود لوراتها باستمرار ، ألم يذكرها طلال آلاف المرات ، لكن .. هل يخفى  
عليه شيء ٩٩

في قنامة العصر ، وقت اعداد الشاي ، همست للخلاء ..

ما علهمش يا طلال .. أنت أحسن منها ..

سمعته يقول مرتضا ..

وذهبها ايه يا ماما .. زينا يسهل لها ..

سكت ثم عاد صوته هامسا ، متغرا ، طفلا يجيبو .

---

---

---

ما فيش أي حاجة بيفي وبينها .. أنا حق ما خرجتش معها مرة .  
تلقاها مش عارفان ..

عاتت بصوت انتزع امرأة عم اسماعيل ، جاءت ، احتضنتها ،  
وعندما أخبرتها ناحت امرأة عم اسماعيل نفسها ، الآن .. تفرق السهراء  
في لون هو خلاصة الأحزان ، فرغ الابريق من الماء ، تسأل الفضلاء  
والبدران والأشجار والنبات النامي في الفناء ، كيف لم تعرف ظماء إلا  
اليوم ؟ كيف ؟ شهور كاملة لم تسقة جرعة ، صحيح أنها تحني بالشاي  
والافتخار وطعم الطعام ، خاصة السمك الذي يجده ، توزعه على عم  
اسماعيل ، فقراء قايتباي ، لكنها لم تسمعه إلا اليوم ، آه يا عذاب  
السنين ، يقوم طلال كل ليلة ، يخرج إلى الطريق ، دملؤه لم تخف ، روحه  
ظمائى ، يسأل المارة ، عابرى الطريق جرعة ماء فيخاف منه الرجال ،  
يفزع الأطفال ، تسقط الحامل جنينها ، لا يقلم له مخلوق جرعة ، يزعنق  
وتنام هي ، كيف تفارقه عند غروب كل يوم ولا تمضي الليل بجواره ؟  
طلال شرایین كبدها ، ظمائي ، طلال نجم بعيد خافت يرتعش بردا في  
سماء مهجورة ، لا شمس فيها ، طلال نهار شتوى عمره قصير ، فرحة  
طفل لم تتم ، ضياء عين انطفأ ، هوى الابريق من يدها ، دارت بين  
شواهد الرخام ، الاسهاء وتواريخ الرحيل عن الدنيا ، أبدا لا يؤنس

---

---

---

ووجدهه إلا هي ، تبحث عن ابريق مملوء ، أبدا لا تلقى ، أطل غلام من  
البوابة الحديدية ..

والنبي شوية ميه يا حبيبي .. شوية ميه أخوك عطشان ..

خاف الغلام فاختفى ، خرجت إلى الطريق ، المواه ملء بالتراب  
كالمدم الجاف ، طلال حولها ، تسمعه الأن ، تشرب صوته الظامى ، أنها  
الأرض وينابيعها ، شلالاتها ، مساقط المياه لن ترويه إلا إذا اندفقت من  
يديها هي ، عمر امرأة ضاربة ودع ، نادتها ، لم تسمع ، الطريق خال ،  
الاصوات ولت ، لون السماء يضيئ ، امرأة عم اسماعيل ، عم  
اسماعيل ، لا أحد ، كيف يتقضى العمر بسهولة ، كيف ؟ تعبير  
الصفوف إلى طلال متعرثة الخطى ، تسمع نبض حنجرته ضعيفا وأهيا ..  
آه لو تمطر السماء ، تمد الكفين ، تجمع بهما جرعتات تسقى الحبيب ، إن  
ولت عنه ثانية ، رجفة عين ، فهي هجرة أبدية لا تطيقها ، ظمما يدرك  
الجنين في الحشاء ، لن تمضى حتى يرتوى ، رقادته يقطنها الشوك طلما يعذبه  
الظلماء ، مالت .. احتوت الرخام بين يديها طفلا باكيًا غريب الآبوين ..

## المغول

نشرت في روزاليوسف يناير ١٩٧٠

يا أهالى مدينة أوترور ..

نزل جند المغول من الجبال ..

وأحاطوا مدینتكم

انتبهوا

لا يخرج أحدكم ولا يدخل

ساعدوا جنود الشاه وحامية المدينة

---

---

باذن الله سيردون الخطر ..

انتهوا

وما النصر إلا من عند الله

● ● \*

خطا خارج التجويف الضيق ، رجال قصار ينظرون اليه يمتد المر  
خلفها في النهاية ثلاثة درجات ، تقدم أو لهم بيده قطعة قماش مبتلة أحاط  
عينيه بها أمسك ذراعه أين يقف الآخرون « دفعته اليد الغليظة . أى  
الاماكن في البرج تلوسها قدماه ، برق ضوء أزرق طارت نجمة صغيرة  
داخل فراغ أسود هلامي ، أسرعت خطواته ، أثر اللحم الذى صفع  
عنقه ، يسرى تحت جلد زجاج مشبور ، كاد يقع عندما توقف فجأة ،  
اصطبغت قدمه العارية بحاجز ..

اطلع .. اطلع .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. اجرى ..  
اجرى ..

الشيخ في وجه الحجرة ، الصبيان يضع كل منهم لوجه الخشبي على  
قدميه ، كان يجلس دائماً في نهاية الغرفة إلى جانب النافذة المطلة على  
الطريق ، ينظر من خلال القضبان ، من بعيد « فوق البيوت ، يعلو البرج

---

---

---

جسم حجري نحيل ، يعلو صوت الشيخ ، ولا تدرى نفس ماذا تكسب  
غدا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ؟؟

صباح أوتورو ميل بالندى ، الابيوت تنفس ربيعاً لون الكهرمان ،  
أوز يعبر الطريق ، الرجال يخرجون ، يتطلعون حولهم ، نسى بعضهم أن  
يقول بخاره .. صباح الخير .. الرعاه لم يخرجوا إلى المراهى ، بخار يقون  
أمام خان المدينة ، كان من الضروري أن يرحلوا صباح اليوم ، خرج  
مولانا علاء الدين ، وقف عند مدخل المسجد .

\* \* \*

انزل .. انزل .. لا .. تضربوه ..

\* \* \*

الخاشش الصغيرة الخضراء في قلب المدينة ترتجف لكثره  
ما يضحكون ، يسخرون ، يظن العجائز الجالسون على مقربة انهم  
يسخرون منهم ، ينتهي أحد سلاير من تقليد بعضهم ، يقف صبية صغار  
يقصون أصابعهم ، يأسفون لا يستطيعون مشاركتهم الفسحك .

اندفع رجل عجوز عارى الصدر ، عمزق الثياب ، وقف في وسط  
الميدان الكبير ، الرجال يجلسون منذ الصباح ، يكتشفون لحظة بعد  
آخرى ، أن المسافة التي يستطيعون التحرك فيها أصبحت محدودة ، رفع

---

---

الرجل يده .. صاح .. سينزل غضب الله على أوتورو لأنكم فجرتم  
وما راعيتم ذمة ..

\* \* \*

.. لم أكن أظن أن شابا هزيلا مثلك له مثل هذه الأهمية ..  
انتظروا .. قلت لا تضربيوه .. هو سيتكلم .. سيقول لنا كل  
ما نريده ..

احتکاك الاحدية الثقيلة بالارض الصلبة ، أى الحفر تضم أجسام من  
أخلوهم من الحشد الكثيف ، يوم الم Shr العظيم ، خرج مولانا علاء  
الدين إلى الطريق ، توکأ على عصاه ، مشى اسماعيل بجواره ، فوق  
المدينة مغرب أصفر وقتيم ، الليلة لا تشبه أى ليلة مرت من قبل ، من  
داخل الجدران تسررت إلى الطرقات أصوات النساء اللواتي لم يفارقن  
بعضهن منذ الصباح ، انتقلت كل منهن إلى الأخرى عبر أسطح المنازل  
الملاصقة ، عند نهاية الطريق ظهر جزء من سور المدينة ، لا يليو الخطط  
مجسا بل ان واحدا من أهل المدينة لم ير بعينيه واحدا منهم ، لكن هذه  
الابواب المغلقة تجسد ما يقف وراءها ..

بعد الشیخ الأن .. ابعده .. لا .. هو سيتكلم ..

\* \* \*

---

---

أصفعي اسماعيل إلى شمس الدين ، يتحلث عن بلاد تمشى فيها  
نساء جلودهن في سواد الليل ، عرايا كما ولنtern أمهاهن ، وهناك جزر في  
عرض البحر المحيط بها قيات أبكار كأنهن الأقمار ، شعورهن مربوطة إلى  
أشجار ضخمة يصحن إذا ما أشرقت الشمس .. واق .. واق .. تبارك  
الله الخلاق .. يكررن النساء إذا ما لس القرصن الآخر مياه المحيط ،  
أصفعي اسماعيل ، بدت له بلاد بعيدة رجالها قصار القامة ، المساجد قبائها  
من ذهب ، مآذنها تطعن الفراغ ، هل يكفي العمر بين حواري أوتورو .

انطق يا اسماعيل ..

أحقيقى يا شمس الدين أن هناك عالم غير العالم ، ناس غير الناس ،  
مدينة لا يطعن هواءها برج أصم لا يعرف من يعيش بجواره ماذا يموي  
« وكم يكفى من الزمن حتى نعبر البحر المحيط » ومتي ترسى المراكب على  
شطآن نشعر فيها أنها وجدنا حياة غير الحياة .

قال مولانا علاء الدين ..

لو دخلوا المدينة .. لن يجدوا غنائمهم بسهولة .. أتفهمنى  
يا اسماعيل ..

---

صاحب محتجا ..

لكن أسوارنا قوية يا مولانا ..

\* \* \*

ارتفع صوت آخر ، بارد ، ملمس الحديد لحظة سقوط الثلج وسط الليل ، رائحة عرق لزج تبعث من ناحية اليد اليسرى .  
لا تزيد ايذاءك .. أنت ضعيف .. لن تحتمل .. أنت مسكين  
وتبدو هادئا ..

ولست مشاغبا كالآخرين .. آه ..

— أنا اسماعيل فخر الدين الرازي .. طالب علم يا سيدى ..

\* \* \*

هواء ساخن خرج دفعة واحدة من صدر قريب ، تدحرج جسم ثقيل ، صفر شء ما ، أقدام تروح ، تخىء ، كلمات متتابعة من حنجرة قريبة مزقة مملوقة قينا ، من أى الشبان الذين لم يمر يوم من حياته إلا ورآه ..

— هو .. إسماعيل الرازي .. إسماعيل يعرف كل كبيرة و ..  
صغيرة ..

كان مع مولانا علاء الدين خطرة بخطوة .. أخبرهم يا إسماعيل  
فتقدنا .. تقدنا كلنا يا إسماعيل .. انطلق .. تكلم .. أى .. قل  
 لهم .. أى .. آه .. آآآآ ..

\*\*\*

اندفعت امرأة عجوز إلى مولانا علاء الدين ، الصقت شفتيها بيده .  
كتفها نحيلتان ، جسمها يرتعش ، ما الذي جرى يا مولانا .. ولدى لم  
يصل .. صحيح لا أحد يدخل ولا يخرج .. همس مولانا ، عيناه على  
السور المصمت ، نسوة يرفعن أصواتهن بالدعاء في مكان بعيد ...  
 جاء المغول يا ابنتي .. لا يخرج أحد ولا يدخل ..

\*\*\*

الثالث والعشرون من شهر آرام ، سنة هوكار ، الموافق لمرور ستمائة  
سنة بالضبط على خروج مولانا وسيدنا حبيبنا محمد رسول الله ﷺ . من  
مدينة الكفار مكة ، مصطحبًا صديقه وصفيه سيدنا أبي بكر رضي الله  
عنه ، قاصدين المدينة في هذا اليوم والشمس لم تصل بعد إلى منتصف  
السماء ، دخل ثلاثة رجال من المغول إلى حجرة حاكم مدينة أوترور المثلثة  
البارزة من السور ، تطل على الخلاء بواسطة ثلاثة نوافذ متسعة من  
الداخل ، تضيق من الخارج ، نبع كلب من بعيد ، نزل صمت ، أستد

---

الرجل الغارق في الزرد ذقنه إلى يده ، .. لم تخترموا سفراً عنا فذبحوهم من قبل ، وهذا ليس من خصال الرجال ، فلتعلموا اتنا جند الله في الأرض ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، نحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى ، فتحنا البلاد ، وقهروا العباد ، وهبنا الله حكم الريع المسكون من العالم ، لا فائدة من المقاومة ، افتحوا أبواب مدحبيكم فلم تصمد أمامنا حصون ، ولم تنتصب قلاع ..

\* \* \*

ضحك .. ضحك .. ضحك .. يعلو .. يعلو .. يعبر الفراغ يثقب الجدار من يدري ؟ هل كان فعلاً ضحك ؟ آت من بعد سحيق ، لا بد انهم تسعه عشرة ، يتجمعون عند ناصية بيت منها ، بقایا خان يتتصاعد منه دخان ، يشربون الخمر المصنوع من لب الخيل ، هل سمع بكاء طفلة .. أنفاس المدينة المكتومة هسيسها يخترق الجدران كأنه من عالم غير العالم ، دنيا غير الدنيا .

كثيراً ما أنسد رأسه إلى حافة السرير ، في الطريق صوت خطوات ، يعودون من سهرة مبكرة ، غناء بعيد من الطريق الآخر للبيوت ، يعلو ، يقاطعه صوت خطوات ، آلة موسيقية سريعة محمومة توشى بجسم راقصة يشقى ، تناوه امرأته في البيت المقابل ، أو المجاور يصيح رجل يا رب ..

---

يغمض إسماعيل عينيه ، لكم تبدو أصوات الليل غامضة مجهلة ،  
بل مجىء النهار يصبح باائع اللبين ، نادى رجل يخرج من بيته القريب ،  
يا ساتر يلين الفراش تحت جسمه ، بالقرب من السرير يستقر كوب لبن  
أبيض دسم مملوء إلى الحافة ، محل بالسكر ، لا تنساء أنه أبدا تصايد صبية  
صغار يذهبون إلى المسجد الكبير ، يقرؤون وينكتبون على يدي مولانا علاء  
الدين ، تماما كما كان يفعل منذ خمس عشرة سنة ، تنمو الضجة في الخارج  
عندما رشف آخر ما في كوب اللبن ، مسح الماء من فوق وجهه ، بدت له  
الحياة هشة طرية في رخاوة العجين . بعض النهار في السوق الكبير وإذا  
ما نزل الليل ، إلى مولانا علاء الدين .. أو أصحابه .. نزعوا العصابة  
المبللة ، أمام وجهه تماما .. مسافة تساوى سمك الأصبع ، وجه  
مستدير ، أصفر عريض الوجنتين ، ضيق العينين ، شاربه رفيع يتسلل  
حتى يلامس الصدر المغطى بقطعة جلد بنية اللون ، حول وجهه فراغ  
غامض خليط من أشياء غير معروفة ، لكن ثمة ما يقول ان الرجل من  
جنس غير جنسه ، ربما ثيابه غلظ ركبتيه وقصرهما ، لاستدارة وجهه ،  
أسنانه ، عيناه ، نظراتها الحادة ، اليدان العري熹ستان وقطعتا الجلد  
المرصعتان بدوات معدنية يضاء تحيطان بالمعصم ، والله لو تخفي في صورة  
امرأة جميلة من آخر بلاد الدنيا وعشى في السوق مثيرا شهوة الرجال وغيره  
النساء ، لو حط على النافذة في هيئة عصفور وليد ، لو اخند صورة مولانا

---

---

علاء الدين الذى يعرف وجهه كل حى فى المدينة ، لو قلب الوجه شوه  
الملامح ، أزال الرأس ، لعرفه .. عرفه .. مغول أصفر الوجه ، حتى لو  
صرخت هذه الصبحكة المفتعلة الكاذبة التى تكشف أسناناً لونها لبني اخيل  
وأطلق فيها رائحة الروث والزنخ ..

أغمض عينيه ، اختفى الضحك ، بئنا ناموا ، السكون كالجليد فوق  
المراعى ، لا يرى بيوت المدينة المشوهة الخلقة ولا الطرقات التى نزل عليها  
الخراب ، لكن يحس ما بها يسمع وقع خطوات الرجال الصفر قصار  
القامة ، تماماً كما كان يشعر بهم ولا يراهم أيام الحصار ، في المساء نهاية  
الأسبوع الأول يجلس الشبان في صحن المسجد يسمعون مولانا علاء  
الدين ، يعرف تماماً أى جنس يقف وراء الأسوار ، زمان من عشرات  
السنين قبل أن يولدوا زار صحراء الجوبى ، رأهم وصاحبهم عندما غاصت  
جيوشهم في بلاد الصين العظيمة كما تغوص السكين في قلب زيد ، قالوا  
أسواننا حصينة ، دحرج مولانا حبات مسبحته ، لكم أحب المدينة ،  
لا يريد أن يرى لأهلها ما رأه في بلاد الخطأ حيث لم يصمد امبراطور هذه  
البلاد العريضة أمام هؤلاء المغول ، أتعرفون ما يظنونه عن أنفسهم لعنة  
الله في أرضه ، قال محمود غلوش .. في كل ليلة تخرج فصائل من جنود  
الحامية وتذبحهم ثم تعود .. سأل الرجل هل رأى أحدكم هذا بعينيه ؟

---

لم يردوا ، انصرفا . جاء ثلاثة أثرياء من المدينة لمقابلة مولانا علاء الدين « عندما خرج اسماعيل إلى بيته لم يكن الليل قد أوغل تماماً ، لاحظ والدهشة تملؤه أن ثمة نساء ينظرن حاسرات من التوافد ، أمام بعض البيوت » خرج رجال عجائز تجاوزوا المائة سنة ، رجاء من عليهم عام بأكمله لم يفارقا حجراتهم ، لكنهم الآن لا يفارقون الطرقات ، ذرات الغبار تتضاغد في الهواء لم يعتنِ هواء المدينة بمثل هذه الصورة من قبل بل إن هذه الحرارة الشديدة في ذلك الوقت من السنة أثارت قلقاً وحزناً ، العجائز يهزون رؤوسهم ويقولون إن الله لم ير بعد شيئاً من غضبه للمدينة المحاصرة ، قرب بيته رأى امرأة عجوزاً تمشي ، تلتفت حولها ، المفروض أن يصل ابنها وزوجته أول أيام الحصار من مدينة خوارزم ، أغفلت دونها الأبواب ولا بد أنها غاصب في حشد المغول الكثيف يسأل كل من يقابلها ، مشعة الشعر ، تائهة النظارات ، أمسك معصمتها ، سيعودون يا أمي ستفتح الأبواب غداً ، عندما تندد ، تدفقت موجات التعب تعبره بانتظام ، لماذا يبدو أكثر اهتماماً من غيره ؟؟ تقريباً عاد محمود غلوش إلى سيرته العادية ، أيضاً ثناء الدين ، شمس الدين ، السهر في حي بنات الخطأ ، هل لقربه من مولانا علاء الدين أم لإحساسه بالخطر لكن الخطير يهدد الجميع .

---

الكل تضمهم مدينة واحدة ، قالت أمه والنوم يرمي حبات رمل تحت جفنيه .. هل مشى الكفار وفتحوا المدينة ، سكت ، سألت أمه ، قالت أمه والصبح قد جاء منذ مدة طويلة ، ارحم نفسك ، أنت تحهد نفسك ..

تقول أمه وأصعبها يرسم خطوطاً غامضة غير مرئية فوق الحصير ..  
عمرك يمضى يا اسماعيل .. خمس وعشرون سنة مرت على هذه الأيام التي نزل فيها الثلوج كالحجارة من السماء حتى قلنا ان الله يرسل علينا طيره ، وحجارته ، ولدت أنت ، خمس وعشرون سنة مرت على نزول الثلوج ولم تتزوج ..  
تقول أمه ..

أى بنت تمناك زوجاً لها ..  
قالت أمه ..  
الكفار يحيطون بالكل وأصحابك كان شيئاً لا يغيرى حولنا .. فلماذا أنت ..  
نظر إليها ثمة جفاف في حلقة ، عيناه متسعتان كأنهما تردان سوياها بنفس الكلمات ..

---

---

انكمش في ركن الزنزانة شديدة الضيق ، ارتفع الصياح في الخارج ٠  
شتائم ، ضحكات ، أيد تصفق ، كم العدد ، ربما اثنان ، ربما عشرة ٠  
توقف الأقدام ، فتح الباب ، رجل قصير عريض الكتفين ، من فمه  
خرجت كتلة البصاق ثقيلة لزجة ، لم يقادها اسماعيل بسرعة .

يا ابن الكلب ..

هل نقلته الآن ؟؟

هيا

ازداد جسمه انكمashaً ، الكدمات الزرقاء على جلده النحيل تورم ٠  
الصدر يتفتح ، ركلته قدم في بطنه ، لم يرفع وجهها ، وضعوا الشوك في  
طريقك يا حبيبا وسيدنا فلان ، الصخر تحت قدميك ، طردوك من  
الطائف ، ورموك في الهجير بالحجارة حتى سالت الدماء من جبينك الصافى  
فظللتك الغمامه أبد العمر .

لو له أخت لاغتصبناها أمامه وسمع تأوهاتها بأذنيه ..

مقطوع من شجرة .. حتى لا أم عجوز ..

لن يفيد الدعاء ، لن تبدل الأرض ، الأجسام في الأصفاد ،  
والسرابيل من قطران والشفرة الحامية تقطعنا ، ولا عاصم من المغول ٠ في  
الليل بعد أن نام فعلا قام فرعا كما لو أن الرح نزل فاختطفه ..

---

وجه أصفر يطل من الباب ..

أجلك قرب يا مختنث ..

\* \* \*

ما الذي يريده بالضيبيط خس وعشرون سنة مرت على نزول الثلوج  
شبيه الحجارة وثمة شيء يعذبه لكن ما هو؟ المشي فوق مياه المحيط؟  
الغوص في باطن الأرض حتى ملامسة قرن الثور الذي يحمل العالم كلة «  
الانطلاق في الفراغ بلا رجوع في القبة الزرقاء ، المشي بين الناس » فوق  
رأسه طاقية الأمال والأحلام ، يرى الناس ولا يراه أحد تامله لأجسام  
جوارى الأمراء والأحلام . يرى الناس أثيابهن ولا يستطيعن رؤيته ذهابه  
إلى سمرقند ، يسأل الشاه في خلوته أن يحيى « إلى أوتورو » الناس فيها  
يسمعون عنه ومع هذا لم تكتحل عيونهم بمرأة ، يرجووه فشلة أعمار تنقضى  
ولا يراه أصحابها وإذا يصبحه يسأله النظر بعين العطف إلى حكامه وعماله  
في البلاد ما عاد العباد من رعيته يطيقون صبراً بظلم متولى الحسبة الذي  
يمجلس تحت أضخم شجرة في البلدة يفرض على كل رأس ما تدفعه حتى  
الرعاة الذين لا يمتلك الواحد منهم غير ما عز يتيمة ، ربما يزيد الوثوب في  
الفضاء « عبره بخطوة قدم واحد ، يجد نفسه في بلاد الخطأ البعيدة حيث  
المدن العظيمة » القباب العالية كل ما حكى عنه مولانا علاء الدين ، من

يدريه ، ربما الرحيل في الزمن ألف عام فيرى حال الناس » وهل يبقى العالم ، وكيف تقوم القيامة وما صوت النفح في الصور ، وهدأة الأرض وقد بقيت خراباً يباباً أربعين ألف سنة قبل أن تحيى الفضة الثالثة في الصور فيصحو الجميع ، آه لو يصل إلى هذا اليوم الذي لن يعرف فيه أمه ، لم يتصور ذلك أبداً » خليل له انه الوحيد الذي سيمد يده لأمه ، حتى أبيه الذي مات سنين الوباء ولم يره ، سيعرفه ، ياه هل سيكفر ، كيف وعذاب هذا اليوم البعيد شديد ، تدخل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضيع كل ذات حمل حملها » وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، دائماً لا يتخيل أبداً أن أوتورو المادئة ستعرف الخشر لكنه في ليالي السهر سواء مع محمود غلوش أو في صحن المسجد عند مولانا علاء الدين ، ييرق خاطر أمام عينيه ، لن تمضي الحياة هكذا ، ترى ما الذي سيحدث بالضبط ؟ لا يعرف ، متى ؟ ومن أين له أن يدرى ، حتى بعد الحصار ، الناس تدور حول نفسها في المدينة ، الاطمئنان يعود إلى الوجود ، الأبواب لا تزال مغلقة برغم هذا فقد كان الخطير غير المرئي ، وراء الأسوار ، يبدو في لحظات هائلة ، خفياً يخفق قلبه بالخوف على المدينة ، كل رجل ، امرأة فيها ، لكم يحبهم ، يخاف عليهم ، على المبانى ، المساجد التي كثيرة ما رکع فيها ورفع يديه طالباً التوبة من رب العالمين ، عندما مشى في السوق الكبير ، أمام حان نفتح أبوابها ، يقف سبعة أو ثمانية رجال ،

يعرفهم تماماً ، يضحكون ، ألقى السلام » بعد عشر خطوات توقف ، التفت إلى الخلف ، رجال من أوتورو يقفون عند الحان ، الهواء راقد ، سخونة يقسم عجائز المدينة انهم لم يروا طوال عمرهم مثلها ، لم تتشير في الجو إلا بعد الحصار ، أقسم آخرون أن الوباء سيطلق نفسه فيحصد أهل البلد حصداً ، لكن وقه الرجال ، اتكاء أحدهم . ضحكة خافتة شديدة لا يبين . كأنه يراهم في يوم هاديء يير ، قطرات مطر ربيعي منعش ، لحظة من لحظات يوم لم تكن المدينة مهددة فيه بأى بشري أصفر السحنة ، اندفق الدم من قلبه ، ثم انقبض ، هز رأسه ، دخل بيته وكان المغرب يقترب « حاراً ، ممتلئاً بالغبار ، سمع أنه تتمم ببعض الدعوات » وكان السقف عالياً .

\* \* \*

يا أهل أوتورو وسكانها ..  
اطمئنوا .. فأسوار المدينة حصينة ..  
ولا بد أن يرحل المغول قبل مجيء الصيف ..  
فهم لن يتحملوا الحصار ..

---

---

اطمئنوا فأسواركم حصينة ..  
ولن يقهرها الكفار أبداً ..

• • •

تجمع الرجال حول الراعي عزق الثياب ، حلقوا فيه ، أطلت النساء ،  
بعضهن شابات ( وهذا يحدث لأول مرة في أوبرور ) من التوافد .

هل رأيتها بعينك .. بعينك يا رجل ..  
نعم والله .. وحياة أولادي ..

دخل محمود غلوش بيته قبل أن ينام طلع فوق السطح ، نزل فناء الدار ،  
فتح الغرف ، صومعة الغلال ، نظر تحت السرير ، تأكد من إغلاق الباب  
جيداً بالضبة الضخمة ، في البيت المجاور خيم الضيق على روح ثناء الدين ،  
أول ليلة يقضيها بلا سهر ، بلا ضحك ، لكنه من الأفضل ألا يخرج ، من  
يدرى ، ربما طعنه أحد هؤلاء الصغار الذين ظهروا في المدينة في القلام عندئذ  
يموت ويروح على نفسه .

تخلل مولانا علاء الدين لحيته بأصابعه ، النهار خارج المسجد يمضى  
قتيلاً ، لا أمل في رجوعه ، ذرات الليل الرمادية تكتفه ، فراغ المسجد يمتلىء  
برائحة لم يشمها إلا منذ الحصار .

---

---

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. لا يعرف أهل أو ترور حقيقة المغول ، كفار وأى كفار . من يرهف السمع باستطاعته أن يصفى إلى تقلب جسد المغول في مرقله خارج الأسوار ، من يتقن لغته يمكنه أن يعرف أى أحاديث يتداولونها إذا ما نزل الليل أما من يقف فوق سور أو ترور فيمكنه أن يميز الشعرا الصفراء من السوداء في رأس كل ذى وجنتين عريضتين وشارب مدلل وعينين منحرفتين .

همس اسماعيل .

لأول مرة منذ أيام كثيرة يلتئم الجامع ويفترش المصلون أرض الشارع ..

الليل في عيني مولانا وديع هادىء رائحة الكافور تطير من بعض البيوت القرية ، وثمة عطر غريب خفى ينبئ من الحصير القديم الذى فرشت به أرضية الجامع الكبير .

وما أخبار المغول ..

قال اسماعيل ..

قذفوا اليوم السور الشرقي بحرارات النفط .. سلاح جديد لا نعرفه ..  
لكن عساكرنا لم تتمكنهم من طلوع الجدار ..

---

قال مولانا علاء الدين ..

اذهب واحضر أصحابك الذين طلبوا الجلوس معى ..

\* \* \*

أشارت اليد إليه بعد أن نزعوا القماش المبلل ، الوجه ونفس الابتسامة ، صمع لزج ثقيل ، الفم ، العينان كل ما فيه ، لا يمكن أن يكون إلا المغول جنس آخر غير جنسه ، من عالم غير العالم ، لا يعرف شيئاً عن عمره لا يعرف كم يحب أمه ، خفقة قلبه لحظة رؤيته رجل يمشي حافياً يطأ الجموع من وجهه ، حزنه الرقيق الغامض لحظة ذهاب الشمس وسؤال تائه ، هل تعود ثانية أم يخيم الليل إلى يوم القيمة ؟ لا يعرف بهجهة لحظة الانطلاق في مراعي المدينة ، لا بد أن يتسم أولاً ، يضحك يقترب منه ، ثم يضربه يشتمه ، ولن يتكلّم لن يرد حق لو كانت أمه ، هذا المخلوق وجاه في أرض غير الأرض بلد غير البلد ، لو سخلق في دنيا غير الدنيا ، حتى لو عاش في بلاد واق الواقع وراء جبال قاف لو كان يهودياً ، نصراانياً مسلماً كافراً كما هو يعبد الشيطان .. فيها هو الا مغولي يده قصيرة ثقيلة لا تتحرك إلا لتشير أو تتكلّم .

؟؟ من

أحمد سلار .. عيناه ، جنديان ، فم يقطر دماً ، دفعه المغول والصمع يقطر من شفتيه ، قربوا رأس اسماعيل منه ، ما الذي يصدره لسان أحمد

---

---

حشرجة ، وسوسنة ، لا يعرف ، آه لا تدع صوتك الواهن يطلب منه ما لا  
يعرف ، شفرة بيضاء حامية قضيرة .

انتحوا عينه .. افتح يا كلب .. لا بد أن ترى ما ستفعله بك ..

قلدت رجال المدينة كلهم في الميدان ، لكم سخط عليك العجائز من  
يقلدك الآن ؟ تروح الشفرة وتحيى ، تمسك بها اليد الغليظة بين عيني اسماعيل  
وفخدلى أحمد سلار من الجسم الميت خرجت صرخة كأنها ليست منك ..

قل لهم يا اسماعيل .. قل لهم أين السد .. آه السلاح .. أحد ..  
انقذنا .. كل .. آه ..

انتحوا عينيه .. انظر ..

امتدت يد المغول بقطعة اللحم الصغيرة الحمراء الرخوة تهزها أمام  
عينيه ، ثبت السوداد فيها ، تدفق الدم نافورة بين ساقى أحمد سلار ، وكبسوا  
الجرح بالزيت المغل والقلفل .



سكان أوترور يا كفرا ..

يا من لم ترعوا ملة ولا حرمة دين ..  
يأمركم خان المغول العظيم بالخروج ..  
الأغنياء الفجرة والعامة الأنجلاء ..

لن يبقى أحدكم في المدينة ..  
أخلوا البيوت من كل حي حتى الحيوانات ..  
توجهوا إلى الخلاء خارج الأسوار ..  
لا بد من إحصائكم يا من ختم دين الله ..  
ولاثبات ولائمكم لبلاء الله وسخطه عليكم ..  
خافقان المغول العظيم ..  
اخرجوا .. اخرجوا ..

\* \* \*

في لحظات العصر الصفراء البعيدة ، يسمع مولانا علام الدين يحيى  
ذكرياته ، زمان الوباء في أحد المدن البعيدة التي قضى فيها مولانا سنين عديدة  
كان المرضي يتأنلون لحظات بعد ظهور أول أعراض المرض عليهم ثم يموتون ،  
كانت الجنائز تمشي صفوأ ، صفوأ حتى أنهم حملوا كل عشرة موقن على  
عربة يد واحدة وكانت المدينة تخلو من سكانها حتى انه كان يمشي ساعات في  
شوارعها وطرقها حتى يلتقي بأدمي ، ورأى بعينيه مياه المطر تنزل وتثبت  
الحشائش فلا تجد ماعزاً تأكلها ولا رعاه يقطعنها ، وعندما حزم مولانا ثيابه  
واعتزم الرحيل منها ، وعندما أصبحت المدينة وراء ظهره ، التفت إليها رأى  
هواءها وقد امتلأ بالوباء ، في هذه اللحظة تماماً أدرك أنآلاف الناس ماتوا

---

---

blasib ، وهل حقاً ماتوا شهداء ، وما قيمة أن يموت الإنسان شهيداً أو غير  
شهيد ، يضحك مولانا ، يقول انه عندما فكر في ذلك لعن الشيطان وحمل  
حزمة ثيابه وراء ظهره ، وأطلق صيحته في الهواء العريض ..

قال مولانا أنتم لا تعرفون المغول كما أعرفهم أنا ، لن يكتفوا بإبادة  
عساكركم لكنهم يقصدونكم أنتم ، أنا أحب أوتورو فقد عشت فيها عمراً  
كاما ، ولا أطيق أن تخيل ما يجري فيها لو ..

قال أحمد سلار ..

أنت تعرف أن أسوارنا قوية ..

قال ثناء الدين ..

يقف عليها عشرون ألف جندي ..

أنشد مولانا علاء الدين ذقنه إلى راحة يده « لكم ساح في بلاد الله ببطولها  
وعرضها .. لم يمر عام إلا وطاف بيت الله والتلقى بأصحابه الذين يطوفون  
بالعالم كله ولا يلتقي بهم إلا مرة واحدة في السنة ، وصل إلى اطراف العالم  
حيث الليل ستة شهور والنهار ستة شهور والكلاب تجرب المركبات على أرض  
كلها من الثلج » عاش في مدن بعيدة يقضى الانسان إليها أربعة شهور في بحر  
مالح لاعمار فيه » في شبابه خاض صحراء الجوي ، عاش بين المغول زمناً  
عرف أى لسان يتكلمونه ، رافق جيوشهم التي أغرتت بلاد الصين .

لا تعرفونهم .. ليسوا بشراً .. تماماً كالطاغعون أو الفيوضان أو الحريق .

---

فِي صَحْنِ الْجَامِعِ ارْتَعَشَتْ شَعْلَاتُ الضَّوءِ الْخَافِثَةِ ، الْلَّيلُ هَادِيٌّ .  
صَمَتْ كَهَاءُ الْوَرْدِ يَكْمُنُ فِي زَوَابِي الْجَامِعِ ، قَالَ أَسْمَاعِيلُ ..  
النَّاسُ كُلُّهُمْ يَصْدِقُونَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي رَأَى مِنْذِ لِيَالِ النَّارِ الَّتِي قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ (ص) أَنَّهَا سَتَخْرُجُ أَخْرَى الزَّمَانِ قَبْلَ الْقِيَامَةِ ..  
قَالَ مَوْلَانَا عَلَاءُ الدِّينِ ..  
أَعْرَفُ .. وَلَمَّا امْتَلَأَ الْجَامِعُ بِالْمُصْلِيْنَ أَمْسَى وَالْيَوْمَ ..

● \* ●

لَا يَصْدِقُ أَحَدُكُمْ مَا قَالَهُ بَعْضُ الْكُفَّارِ .  
إِنَّهُمْ رَأَوْا مَغْوِلاً فِي شَوارِعِ الْمَدِينَةِ الْحَصِينَةِ .  
أَطْمَشْنَا يَا أَهْلَ أُوتْرُورِ ..  
أَسْوَارُ مَدِينَتِكُمْ لَا تَنْفَذُ مِنْهَا غَلَةٌ إِلَّا بِعِلْمِ جَنْدِنَا ..  
لَا يَصْدِقُ ..

● \* ●

خَرَجَ مَوْلَانَا عَلَاءُ الدِّينِ مُتَوَكِّلًا عَلَى ذِرَاعِ أَسْمَاعِيلَ ، رَاهَ النَّاسُ ، انْحَنَى  
بِعْضُهُمْ يَقْبِلُ يَدَهُ . جَالَ بَعِينِيهِ فِي السَّاحَةِ الْوَاقِعَةِ أَمَامَ الْجَامِعِ ، الرَّجُالُ  
يَجْلِسُونَ أَمَامَ الدَّكَاكِينِ الْمُفْتَوَحَةِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْارِقُوا أَمَاكِنَهُمْ أَبْدًا ، تَزَاحِمُ النَّاسُ

---

---

حوله في الفراغ انعقد غبار رمادي رمي ظلاما خفيفة على الأرض ، صاح  
رجل ..

ستقوم القيامة يا مولانا .. ظهرت نار آخر الزمان ..  
صاحت امرأة عجوز ..

الشمس تطلع من الغرب وتنزل في الشرق يا مولانا ..

ارتفعت هممة الواقفين ، انقبض صدر اسماعيل ، حقاً هل تشرق  
الشمس من نفس المكان ، المدينة مغلقة ولا يدري أين يمنه من يسراه ،  
ارتجفت لحية مولانا علاء الدين ، أصغى إلى دعوات الواقفين ، تكاثر الجمع  
حتى كاد الطريق أن ينسد ، تسائل أحد التجار الغربياء الذين لم يستطيعوا  
الرحيل إلى بلادهم ، هل ستقوم القيامة ولن يروا أولادهم وأسرهم ،  
اغرورقت عيونهم بالدموع ..

صاحت امرأة ..

هل ينصرنا الله على ياجوج وماجوج اللذين سلطها الله علينا ..  
هز مولانا رأسه ..

وما النصر إلا من عند الله ..

• • •

---

صرخ رجل مغولى طويل القامة ، ر بما صاحب مركز ..

---

---

حتى شيخك اللعين لا تعرف أين ذهب .. كل زملائك وأصحابك قالوا  
انك لم تفارق طوال عمرك ، يا نحس .. والآن لا تعرف أين هو .. لونخنا  
فيك لطرت .. وترفض الكلام .. اسمعوا .. مولانا الخاقان سيرحل بعد  
أيام .. انتهوا منه بسرعة .. بسرعة .

ثناء الدين صديقه أصحابه القديم ، قصير ، أصفر الشعر ، كان  
اسماعيل يغطي رأسه دائمًا بطاقية يقفون في عرض الطريق ، صفاً واحداً ،  
يمحددون نقطة يتهم عندها جريم ، ينظرون بطرف عيونهم إلى بعضهم ،  
يقرأون الفاتحة ، إذ يتهمون من التلاوة ينطلقون .

هي .. وصل ثناء الدين أو لهم .. يمر شيخ المقرأ ، يكتفون عن اللعب ..  
عيونهم إلى الأرض ، يستدرون صامتين ، يبتعدون ، إلى أين ؟ الساحة  
الكبيرة تحت سور المدينة .. الوقت ما بين العصر والمغرب ، الصمت بحيرة  
بلا قاع ، المدوء كمناحة عاطت فيها ثناء المدينة كلهم ..  
أدخلوا محمود غلوش بعد لحظات ، دفعوا إلى يده سيفاً في يد ثناء الدين  
سيف آخر .

بدأت يد مغولية ترتفع وتنزل على ظهر اسماعيل ، ضرب هين لين ،  
يرجف عموده الفقرى ، لا بد أن نظل عيناه مفتوحتين حتى يرى العراق حتى  
النهاية .. فجأة صاح ثناء الدين ..

---

---

قل لهم أين السلاح وذهب المدينة .. انتهت أوتورو وسنموم كلنا  
يا اسماعيل .. لماذا تسكت .. لا فائدة من صمتك .. تكلم . انتهت  
أوتورو ..

\* \* \*

في حي الصيادين نشب عراك يا مولانا ..  
لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .. اللهم اكفنا شر الحصار .  
الرعاة يستدون ذقونهم إلى أياديهم ، أغفلت الأبواب وما عاد في الامكان  
المخرج إلى الخلاء ، من أحد صيادي الوعول تعثر في قدم راعٍ كانت  
مهدودة ..

تشى كالأعمى ..  
الشارع اشتراه أبوك ..

احترم نفسك ، يعني من أنت ، التحى بالأيدي قام الرعاة ، بعض  
الأغراط عن الحى دخلوا العراك ، نزل رجال من بيوتهم ، تلفتوا حولهم «  
يندفعون فجأة ، صرخ الأطفال ، صاحت النساء ، في حي النساجين نشب  
عراك آخر ، بل ان بعض العمال الذين كانوا يبنون بيتهما كبيراً لأحد أثرياء  
المدينة ، فجأة راحوا يهدون ما يبنونه » يقدرون المبنى بالطوب ثم تعاركوا مع  
بعضهم حتى سالت دمائهم ..

---

---

لا حول ولا قوة إلا بالله .. كان جلود الناس ضاقت عليهم ..

\* \* \*

أبداً لن تعود طرقات أوتورو ، البنيات في الصباح غير ما تراه في العصر ، في الليل ، أبداً لن يمشي عبر طرقات المدينة إلى حي بناط ، خاصة في أسبوع الحصار الأخيرة ، عندما عرف كل شاب في المدينة أنه يستطيع أن يضاجع فتيات في سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة في بيوت ، الخطأ ، أبداً لن يجلس على المرتفع خارج المدينة يرقب نزول الشمس وراء الأفق البعيد ، الجندي يروحون ويحيطون تحت الباب يستعدون لاغلاقه .

ندي الصباح يليل الطريق ، فرسان التركمان يرقبون النساء عند النواصي ، هواء البلدة رائحة العنبر تهمس أمها .. وصل تاجر من الهند ، اخرج معى لأشتري منه قماشاً أسود خفيفاً ، في ساحة السوق يجلس يرقب بعينين قلقتين ، البضاعة يقلبها الزبائن ..

كان هذا جرى في غير أوتورو ، صيحات الصغار ساعة الصباح في بلد آخر ، زعيق الرجال في عالم غير العالم وحتى مولاه علاء الدين ، أين هو ؟؟ ضاعت المدينة ، نكست المآذن ، نكحوا الطرقات ، وسأل المخاقان أحمر اللحية رجاله عند رؤيته المسجد الكبير ..

وما هذا القصر

---

فقالوا له هذا بيت الله ، عبر الباب الواسع بحصاته الأبيض المثقل  
بكتل من الذهب ..

هل وجدت حقاً البنيات ؟ منحنيات الطرق ، المشريات ، وإنما فاين  
مضت هذه الأيام ؟ أين راح المشى في العصر ، ساعات النهار ، القراءة ،  
انتظار قلب حلو في رقة الندى ، أين ما تخيله ، أين ما كان يحلم بها تؤنس  
وحدهته في الليالي الطويلة الباردة المثلثة بثلوج يضياء تنزل هشة طرية من وراء  
نافذة البيت الصغيرة ، أين الصوت الذي تمنى لوناداه ؟ أين منه القلب ؟ أين  
لهفة الروح إذ تطلب منه أنه يترجح ، نعم .. لكن من ؟ أين القلق  
الغامض ؟ ما الذي سيجري غداً ؟ أين فرحة القلب لحظة لقاء صديق  
غاب ، أين الحزن عنديما مرضت أنه ، ورفعت إليه وجهها كله تعابيد وعيين  
مستسلمتين فيها وداعه وحنان ، نخلة تمبل بجلدها ، كسيرة بلا طرح ،  
لحظتها أدرك أنها عجوز ، وأتها قضت عشرين عاماً بلا زوج ، ولم تخرج من  
البيت إلا مرات قليلة ، بل أين أنه ؟ أين حبل الحياة ؟ أين عصبها ، أين  
صوتها أين ترقد ؟ أين هي أين ؟

\* \* \*

قال المغولى طويل القامة ، صورته هادئه لا يهتز ..  
اقطعوا أصابعه .. اجتزوها بالموسى .. اسحبوا لترأ من دمه  
واكبسو مكان الجروح بالفلفل ..

---

---

---

توقف لحظة ، اقترب منه انحني حتى كادت ملامحه المقولية أن تلامس الوجه النحيل شبيه الشمع ، أنت صغير وتحيل لا تحتمل .. ولو قلت لنا ما نريده فيعدك مولانا بتحقيق كل ما نريده ولن يقضى عليك ، ثم لماذا تحتمل أنت كل بلاء أو ترور .. : ومع ذلك فساقطع أصابعك .. وهذه بداية .. ليس الآن .. لكن بعد حول قصير .. وعلى العزم فكرفي كلامي يا اسماعيل ..

■ \* \*

كان العيون ترى النساء والفراغ أول مرة ، ارتفع صوات النساء والبنات والأبكار ، خافت خيول المغول فيهن ، التف سوط ذو سبع شعب حول وجه امرأة قصيرة بدينة » وجهها ملئ بالوشم ، يدلر أنها لم تخرج عمرها كله من او ترور » لمعت سيوف قصيرة .

لم يعرف الأطفال المكدسون فوق الأرض الصغيرة إن كان النهار يتقدم أو يتاخر ، لم يكف صراخهم ، وترجرجت الدوائر السوداء في عيونهم ..  
أين الأم .. أين الأب ، الأخوات ، رائحة البيوت ، دفعه الليل وحرارة القوم ، صاح الأسير المسلم في الرجال ..  
— من منكم لديه جواهر أو سلاح لم يخرج به .. فليحيط خارج الجموع ..

---

صالح أسير آخر ..

— البنات الأبكار هنا .. النساء هنا .. العجائز ..

جالت العينان الضيقتان في الجمع الذي تحول إلى كتلة عوبل خانق من كالوباء ، كشفرة تلامس قلباً ما زال يخفق . نزل القائد المغولي ، ينظر إلى الرجال الواقعين : أشار إلى عدة شبان تقدم منهم جند ، أخرجوهم ، في السماء يتراكم غمام أسود . الحرارة تصاعد من الأرض وتنزل من الفراغ مع أن الصيف ما زال بعيداً . أشار القائد المغولي إلى شاب نحيل الجسم « كأنه لم ينم منذ أيام عديدة سأله عن اسمه ، طلب منه أن يرفع صوته » اسماعيل ، صالح صوت الأسير المسلم ..

— اظهروا جواهركم وسلاملكم .. لا تخفوا شيئاً والا ..

\* \* \*

بيت من طابقين ، رمادي ، تمحته ، دكان مغلق ، آخر ما رآه من المدينة ، أثارت الأقدام العديدة سحابات من الغبار ، لن ينسى وجه أمه لحظة أن شدوها من جانبه ، حتى لو مزقوه قطعاً أكبرها في حجم حبة الفاصوليا ، وحملوه للرخ ونثروه فوق ألف بلد لم تصرخ ، لم تبك ، ثقة غامضة في وجهها تجعلها على يقين أن ابنها سيتدخل ، هب هواء كالماء الساخن الدسم يكبس ما فوق الرؤوس ، كلبوا أيديهم ، كم العدد ، عشرون ٩٩ لم يدر ، أين أمه ، حتى لو وقف في الصفوف الأولى لن يراها بوضوح ، أسوار أوترور يتضاعد

منها الدخان » مهدمة مبقورة » تمنى لو رأها لحظة ، ثانية حتى مولانا علاء الدين أين هو ؟؟ في الجامع ؟؟ أم ركب حماره ، ولن وجهه إلى مدينة أخرى ليبدأ حياة أخرى ويقضى فيها عمرًا مديدةً ، آه يا مولانا علاء الدين ، ضاعت أوتورو ، وذاب العمر كرغوة صابون في صحن ماء ، قطعة ثلج صغيرة رممتها في بركة ، لحسة حلوي امتصها صبي ، ورقة شجر جفت وهرستها أقدام مغولي ، طير شمع أزرق يعلو حتى اقتربت من الشمس فانصهر ، خمسة وعشرون حولاً كاملاً اندثرت في أوتورو ..

\* \* \*

إلى جند الخاقان الذي وهبه الله ملك الأرض ومن عليها : . أباخ الخاقان المعلم <sup>ُ</sup> وزوج برجالها ونسائها وأطفالها وبيوتها ومخادعها وخارتها وطعامها ومجوهراتها وأبسطتها وأثاثها وخضرواتها . . وفاكهتها وجوامعها وقصورها وكتبتها ومحازنها وشوارعها وحاناتها ومعاصرها وكل من فيها .. جوارى وعبيد وسادة .. أئن عشر يوماً كاملاً ..

\* \* \*

اسماويل .. سنضيعك في حجرة بها ألف عقرب .. تكلم ..  
وجه آخر ، ابتسامة مفتعلة ، شارب رفيع مدلل » أسنان صفراء عينان

---

---

ضيقتان منحرفتان ، كل ما فيه لو ابتهج ، لو تجسد ، أنا الأمان ، أنا الأمان ،  
فلن يؤكـد إلا مغولـيه ..

قل لنا أين السلاح .. أين ذهب المدينة الذي اختفاء دروشك  
العجوز .. طول الليل والأم الفلفل الذي كبسوا به يده المبتورة ، وعدم  
الرقاد على الأرض التي فرشوها بباء وسخ ، تبرق بقايا أوتورو أمام عينيه ،  
احتربت أوتورو ، هاجر أو سافر أو مات مولانا علاء الدين ، لن تقوم البيوت  
بعد ذلك أبداً أمر قاطع لا شك فيه ، لن يلمس الجير الأبيض طوب الجدران  
الرمادي فرحاً بعودته رجل حق أمنية العمر وزار بيت الله تعالى ، لن ينطلق  
الباعة في طرقات المدينة متادين على الليمون .. الحسن ..

لن يهتز رد في شابة حلوة ترقب الناس من وراء حجابها ، لن يتبدل  
الرجال انفاس النرجيلة إذا ما هوى الليل فوق المدينة ، أبداً لن ترتفع  
ضحكات الشباب . أوتورو ملعب لكلاب نزلت من البراري .. من التلال  
أفقدـها اختفاء الإنسان عقلـها فانطلقت تلتهم كل لحم طرى .

\*\*\* \*

.. مولانا إلـخاقـان سيجعلـك ترى مـا لا عـين رأت ولا أذن سـمعـت ..  
مائة من الجنـوارـي الأـبـكار .. وقصـراـ في أي مـلـدـ تـشـاء .. أنت تـعـرفـ كـلامـ  
الملـوك ..

---

---

---

اسماعيل .. ملعون إلى يوم القيمة .. ترانا نموت ولا نتكلم . قل لهم  
أين الذهب ..؟ قل لهم أين السلاح ..؟

سبه احسان قلش قبل أن يخلعوا لسانه بالكلاليب من أساسه ، في  
الحجرة المغلقة فوق أرضها أبللة بالماء ، بكي ، سنوات طويلة لم تتدفق  
دعوعه بمثيل هذه الغزارة عدا ليلة بعيدة صحا فيها من النوم وكان الصباح  
ما زال هادئا ، باعة اللبن لم ينادوا بعد طوال الليل يحمل حليما لم يكف فيه عن  
البكاء ، حاول أن يتذكره ، لم يعرف ، حاول مرة ثانية لم يدر ، شتمه احسان  
قلش ، سبه ، آه للعمر المنقضى ، لماذا يتحمل كل هذا ، أهى رفقة مولانا  
ستين طويلة ، يتذكر الآن مشيه في طرقات المدينة ، لا يختلف عن أي منهم ،  
انها نبوءة المنجم العجوز التي ردتها أمه طويلا ، ابنك سيرى أمورا عظيمة  
حتى لا يرى تخلص وجهه ، فليعرف المغول كل شيء فليقل لهم أين  
الصناديق ، ما المهم في ذلك استباحها جند الخاقان اثنى عشر ليلا واثنى عشر  
نهارا .

قال مولانا علاء الدين ..

يتفنن الملاعين في إبادة سكان القرى التي يفتحونها ، فإذا ما قتلوا  
السكان جميعهم أحرقوا مخازن القمح حتى يموت جويعا من لم تقطع رقبتهم ،  
وفي مرة جعلوا رجلا مسلما يؤذن للصلوة من فوق مئذنة القرية التي قتلوا من

---

---

---

أهلها عدداً كبيراً .. عندئذ خرج من تبقى منهم ظناً أن المغول قد رحلوا  
فذبحوهم عن آخرهم .

قالوا العجوز يخفر .. أسوارنا حصينة ..

\* \* \*

لو نام ، نام ، الأيام المنقضية ، بعد كل استجواب يلقونه في الزنزانة ،  
يستعيد ملامح الذين عذبهم أمامه ، فرح خفي ، بهجة لأنهم لم يستطيعوا  
انتزاع كلمة منهم ، الآن خفت الأصوات تماماً ، ترى كم من البيوت  
تبفت ؟؟ وكيف استياحروا المدينة لا يذكر شيئاً فيها ، حتى موقع بيته نسيه  
 تماماً ، حتى ملامح أمه العجوز باهتة مطموسة ، كانه لم يرها غير مررتين في  
حياته . وجوه لم ير أصحابها غير مرة أو مررتين تبلوه واضحة كأنهم أمامه ،  
والثلثة التي تعطن الماء بقدمتها الرفيعة المدببة ، قائمة أم هوت ؟؟ كان  
كوب اللبن ممتلئاً ، آه لو عرف أين رحل مولانا علاء الدين ، يظهر بعد أيام في  
مدينة بعيدة لم ينلها المغول ، يعيش بها عمراً كاملاً ، يصبح واحداً من  
أهلها ، ينظرون إليه فيتذكرون أنهم كانوا يرونه من الصغر ، هل ثمة نغير  
بعده ؟؟

أي صوت يخترق مثل هذه الجدران ؟؟  
أهم اشخاص يتكلمون ..

---

---

---

ضحكات بعيدة ، غريبة مختلفة ، ربما بعد ، ربما الليل النهار طنين  
غريب ، ملعون .. ملعون .. لماذا تسكت وقد انتهى كل شيء ؟؟  
ملاعين رأت .. ولا اذن سمعت يا اسماعيل ..

يزداد الطنين ، لزاجة الأرض المبللة ، كفاه ليستا منه ، يداه ثقيتان ،  
صوت خطوات ثقيلة ، رعا يقتربون ، تجاوز زنزانته واحتلطا كل شيء بالطنين  
الغريب الغامض ، وكانت الأرض لزجة وثمة طرق خفيف طری في الرأس  
يمجعل نومه بعيدا نائيا ..

## مناجاة ليلية تحت هذير المدافع

نشرت في جريدة «العمال» أبريل ١٩٧٢

قال الرائد عادل :

— أغار الطيران على الأسفلت ، قطع الطريق ..

تضيق عيناً مجدى ، شرائط الحديد القاسية تضم الملاجأ ، يرى شريان الطريق يتفجر ، يتفحّم الضوء ، الشظايا تلهب الماء ، الدانات غير المرئية لحظات رحيلها القصيرة ، يسند يده ، فراش الرائد عادل صلب ، ضيق ، لا يتسع إلا لشخص واحد ، منضلة صغيرة يقضاء باهتهة كالعزلة ، كوب بلاستيك وردي ، خرائط ميدانية ، مصباح معلق لا تنفذ ذرات ضوئه قط ، وإنما تحولت إلى دليل للهلاك المبين ، كيف يقضى الليل

---

---

هنا ، يطرق الرائد عادل ماداً يديه في اتجاه الارضن ، قليل الكلام ، منذ بدأ زيارته لم يتبدلا إلا ألفاظاً قليلة ، مشاعره ضئيلة ، ترجحه موجز ، هل سيقضى الوقت كله معه ، غدا ، ربما بعد غد ، يضيق مجدى بصمته ، بداية النهار لا تسق مع نهايته ، يرى ميدان التحرير في الصباح فراغا شفافا ، العربية الزرقاء الكبيرة ، مفارقة القاهرة ، التدخول إلى بطن الصحراء ، الطريق متى صار يشير إلى مركز السماء . وعدّ غامض بالوصول الوشيك ، لكن العجلات لا تكف عن طيه ، مجدى يرى شوارع الاسماعيلية هيأكل . صمت ، سكون خبيث .

قال الضابط المرافق : « لو بدأ القتال الآن سترون الكثير »  
« ستكتبون عن انفعال حقيقي بالخطر » رجف قلبه ، مال زميله هامسا ،  
« أفضل لو انقضى اليوم هكذا » ، سأل مجدى ، أهي الزيارة الأولى ، قال  
صاحبه : « الأولى لا تخسب ، زرنا التل الكبير ، أول مرة أدخل  
الاسماعيلية » ، قال آخر متطلعاً حوله بقلق : « هل تنطلق صفارات الإنذار قبل مجىء الطيران » ؟ ، يبقى سؤاله معلقاً ، أصفع مجدى  
منتظراً سماع انفجار ، رؤية طائرة مخلفة ، في القاهرة ، في صالة الفندق  
الصاخبة بالأصوات ، بروائح الطعام ، البارفان ، يبدأ الحديث عن  
الجبهة بين أصدقائه الصحفيين والكتاب أمراً مشوقاً ، يتحدث صابر دائيا  
عن أخيه ، ينقل عنه ، يصفون حول الموائد الأنيقة المتنقلة سرجاجات

---

البيرة » كؤوس البراندي الصغيرة ، الساندوتشات ، مناديل الورق ،  
يمارلون رؤية عالم مختلف ، واقع مغایر يصل إليهم عبر البيانات العسكرية  
جافا مبسورا ، دقات التیکرز ، هل يعرف الرائد عادل كيف يعمل  
الشیکرز ، ما أبعد صالة الفندق » يراها الآن مجدى بلوية متائف ،  
لا ينصرفون قبل الثالثة صباحا . من نوافذه الفسخة ترق خيوط الضوء ،  
أحدث موديلات السيارات ، من بعيد يرحل النيل رحيلاً أبداً ، لا بد أن  
السيارة في القاهرة الآن » تأوى فارغة إلى الجراج ، يفكر كل منهم في  
عنوانين المقالات ، « الذهاب إلى المطهر » العودة من المطهر » تقرير من  
الجبهة ، أيام في الجبهة » ، يجلسون إلى الصديقات ، يتحدثون عن الموقف  
بعد الزيارة ، رؤيتهم لليهود ، الطيران الذى لا يهدأ ، لا ينزل الأرض  
أبداً أربعاً وعشرين ساعة » كيف واجه كل منهم لحظات الخطر ، أدركته  
حسرة ، لا يدرى متى سينزل المدينة ، في أول النهار انقض قلبه ، رأى  
الجنود يمشون متمهلين ، يتطلعون إليهم ، يمضون ، هناك ما هو أكثر  
أهمية من الالتفات إلى جموعة كتاب وصحفيين ، قال أحد زملائه :  
« أغطية الرأس عادية ، الجنود في الصور التي نراها يرتدون الحوذات » ،  
مجدى بعض شفته ، ربما يتحدثون الآن عنه « لسوء حظه طلب زيارة موقع  
مدفعية » ، (الموقع بعيد ، قطع الطريق بعد وصوله ) ، يقبض حادة  
الفراش ، لو يتحدث عادل ، عيناه تنظران في اتجاه مستقيم كالفوهة ، هذا

---

---

السكون لم يصادفه أبداً . يتسلق تماماً مع ملامح الرائد عادل ، مجدى يرى حجرة نومه ، اغلاقة التوافد ، الستائر المسدلة ، الضوء ناعم في المرأى الخارجى ، تتسرب ليونة الفراش إليه ، يغوص في عالم طرى لا يعود منه إلا في العاشرة صباحاً ، أو الخامسة ..

يتصل زين التليفون .

يغير مجدى جلسته . يعقد يديه أمام صدره .

- آه .. بالضبط .. اسمع يا سيد ، قل للليس أن يرسل «نمرة» عشاء زيادة .

عندى ضيف .. آه ، قل لهم لا داع لإخراجنا . بالضبط .  
سنصورك وتظهر في الصحف .

يفارق التليفون ، طيف مرح في عينيه ، بشارة لحن يولد ، مقدمات خبر فرح ، سحابات دخان فوق مواقع العدو تقول لعيون المقاتلين ، جاءه الضرب في الصميم ، يتناول وسادة كاكية اللون ، من حقيقة جلدية يخرج فوطة حراء ، منطقة بدوائر صفراء ، وزرقاء .. ينقل صحفاً ودفتراً كبيراً ..

- تفضل .. يمكنك النوم في أى وقت ..

---

---

---

«أى نوم» كلماته لا تزيل الحواجز ، إنما تدعمها «الرائد عادل يغطي دورقا زجاجيا ، مجدى يرى السيارة تقف في الميدان» ينزل زملاؤه «على وجوهم إرهاق سفر ، تدور عيونهم .

- أنا عادة لا أنام الآن ..

- آه .. خذ راحتك ..

تضايقه بساطة اللهجة «أين هو حتى يخاطبه هكذا .

- وأنت ؟؟

يستدير الرائد عادل .

- لا وقت محدد ..

يسرى طين ، دفعات هواء باردة مجهولة المسبع ..

- مضى عليك وقت طويل ؟

- أين ؟؟

- في الجبهة ..

- سنة وسبعة شهور ..

سنة وسبعة شهور هنا «تسعة عشر شهرا ، إذن ليضغط مخاوفه ،

يعلم بالعودة سالما بلا خلش .

---

---

## تبعد حركاته رياضية متسلقة ، هل يتسع الوقت هنا لممارسة الرياضة؟؟

قال الرائد عادل ، إنه لم يمارس الرياضة بشكل منتظم إلا بعد دخوله الكلية الحربية ، الرياضة الوحيدة التي أحبها طوال عمره ، المشي ، أحيانا يشرع في المشي وحده من مصر الجديدة حتى المعادي ، يسمى هذا اختراق الصالحة .

- أقصى المسافة كلها بمفرده ٩٩

يصغى عادل ، أصوات لا يسمعها مجدى ، عبئا يحاول التقاطها ، يخشى انقطاع الموار .

قال عادل ، أنه يلتقي أحيانا بالجيران فلا يعرفهم ، أيامه في القاهرة قليلة ، أصحابه كلهم من الدفعة تخرّقو ، البحر الأحر ، أسوان ، السويس ، أحدهم في موقع لا يبعد إلا كيلومترات معدودات ، لم يره منذ أربعة شهور ، يحن إليه يود رؤيته ، ميعاد إجازة كل منها مختلف .

مجدى يهدى اهتماما ، اللقطة انسانية ، مادة جيدة لموضوع جذاب ، بالتأكيد لم يخرج بمثلها واحد من زملائه ، الآن .. يدثراهم ليل القاهرة ، بعضهم يغسل وجهه بياء يتدقق من صنبرون فوق قمته دائرة حراء « البخار الفاتن يدغدغ الوجنتان » مرة أخرى يتد غطاء الصمت ..

---

---

---

الساعة الآن التاسعة ..

تدور أصابع عادل حول بعضها . يستمر صمته .

- الليل هنا دنيا قائمة بذاتها ، سواده جدران تتواли بلا نهاية .. فعلا النجوم كثيرة كثيرة جدا ، أين تختفي عندينا في المدينة .

لو نظرت طويلا لا مكتفى أن ألح الفروق بين النجوم ، لكل نجم  
شخصية ، تماما كالبشر ..

يتسم عادل ..

بعد لحظات ، قال إنه يكره الليل ..

يتصل رنين التليفون معدنيا حادا ، يمسك ورقة ، يتحسس جيوب  
صديريته ، يخلع مجدى غطاء قلمه ..

- نعم .. نعم .. تمام .. شكرًا ..

يضيق مجدى بجمود الملامح ، يحاول النفاذ إلى خبايا الموقف ، ربما  
يخشى ازعاجه ، يخاطر عادل فجأة ، يخرج « يغوص ثقل داخله ، ماذا  
يجرى ؟ لم يخلع حذاءه حتى الآن ، رأى صالة البيت ، قمم الأشجار على  
الطريق ، مد أصابعه ، يفك الرباط ، لكن .. ربما اضطر إلى الخروج ،  
يعود بعده ، يبرد الصمت ، ضجة بعيدة !! بعد أسبوع ، في مثل هذا

---

الوقت تماماً . بأى مكان سيلقى نفسه ، ليلة فاسية ستزوده بحكايات ، موافق لن يمل ترديدها ، ربما تدخل سهام إلى صالة الفندق الآن ، تحتوى البهو الفسيح بعينيها ، تمد الخطوط ضاحكة ، يقوم صبزى ، فتحى ، تزيح الشال الأسود والمحفوظ بخيوط لامعة ، تسند ظهرها إلى المendum الوثير ، تتبه فجأة « الله كتم في الجبهة » .. يقوم مجدى ، يروح ويبحى ، في الملاجأ ، دبيب خطى رفيعة لا يدرى مصدره ، يقشعر جلده ، فشران؟ كلماتها تأتيه هنا ، « أحكوا لي شفتم ايه » ، تskت قليلاً ، « آه والنبي نفسي أروح الجبهة » ، « نفسي أروح الجبهة » .. يبدو له الأمر مثيراً للضيق ، في الوقت نفسه يود لو ترقى الآن ، تعرف موقفه الصعب . ليست هى فقط ، صديقاته في النادى ، زميلاته يرى الدهشة المزوجة بالإعجاب فى عيونهن .

يدخل عادل مسكا بأوراق ، هل خرج بها أم بدونها ٩٩

- طيران فوق الضفة الشرقية ..

- إسرائيلي؟

تبه مجدى إلى حركة جسله مع خروج اللفظ .

- طبعاً ..

قال عادل : لم يحدث اختراق حتى الآن ، قال إن الطيران بدأ غيغافى البداية . لكن العادة تكسر حلة الأشياء كلها ، حتى الموت ، الآن .. يختلف الأمر ، سكت ، قال إنه لا يوجد من خطر الطيران . ضحك ، إنه سلاح سافل تعودوا عليه . قال عادل إن الظلام مكتمل في الخارج ، هذا أفضل ، القمر بغيض هنا ومحکروه ، معه ينشط الطيران . تبدو لياليه طويلة حادة كالزجاج المكسور . قال عادل : الغريب أنه في أشد لحظات الخطر ، تبرق مواقع غريبة ، إذا تأملها الإنسان فيما بعد ، تعجب ، تسأله . كيف لم أع من حيائني إلا هذا الموقف بالذات ، عند خروجه الآن ، تذكر موقفا لم يستغرق إلا ثوان ، عند دخوله المصعد منذ ثلاثة شهور . رأى امرأة قاسية الملامح انه لا يعرف سكان البيت ، ربما جاء سكان جدد في غيابه ، عندما هم باغلاق الباب ، سمع صوتا نحيلا ينادي ، لحظة يا أفندي ، لحظة يا أفندي . دخل طفل حافي القدمين . يرفع ذراعا صغيرة إلى أعلى ، ليدفع التراب عن أطراف جاكته زرقاء ، أزرارها نحاسية صفراء . يجف ياقتها خط أبيض غليظ ، قالت المرأة هناك سلم خلفي ، قال الطفل ، ماعلهش ياست ، وكان صوته غيمة قاتمة ، يوم شتوى يكسو المدينة ، مع حركة الصعود البطيئة تنسال الظلال ضوء يقترب ، يبتعد ، يتسع فمه الصغير ، دهشة بكر حقيقة . رقبته نحيلة ، أصبح يده يكثف الالتفاف حولها ، احكام أسارها ، في عنقه

ارهاق ، انكسار طويل ، قال عادل أن يداً خشنة قبضت قلبه ، وخز لم يأته لحظة ذهاب ثلاثة من رجاله ، رأى اللحظة ذاتها ، جرح كوفي ، عيناه تدوران ، قطعتا زجاج بارد ، جنوده ، يتظرون ، وصمتهم دهشة أولى ، حيرة عصور نائية البعد أمام الرحيل المفاجيء ، كيف حدث ، هل ، أحقا ، لو ، لو أن .. غللهم أسى ، ناء بجسله ، جتنا ، يداه غصنان يابسان ، بلا عرق أو عصب ، يفك أزرار الجيب العلوى بصديرية الجندي الأول ، يخرج لغافه فضية تحوى قطعة بسكويت التفافاته ، لون وجهه ، تماما كأثر قديم تحرك بعد دفن آلاف السنين ، على مهل بدأ يأكل ، يمضن البارود والدم والاشتباكات الليلية والزعيم الغامض ، وصوت الجنزير فوق الرمال والثوانى الحبل بخطر ، لحظات لا تنتهي إلى زمن مفهوم ، إلى دنيا فيها بشر ، أما الأسى فداهمه بعد حين ، لم تصده دشمة ، لم تدكه حصون ، مرأى صبي يجهل اسمه ، أضناه ، أرهقه بالذكرى ، بدأ يرثى رجاله ، لم يفتح نوافذ حجرته ، زعن بأسمائهم واحدا ، واحدا ، واحدا ، استعاد الملامح . حركة العينين الخاصة بكل منهم ، في عربات المترو ، في الميادين شاهقة الاوضواء ، في الطرقات المادئة والخوارى يبحث عن السمات ، ربما كان رحيلهم حلما ثقيلا يتبدل إذا صادف محروس ، أو حسين ، أو كمال ، يلقى أيها منهم أمامه ، يصافحه يتساءل أى صدفة سعيدة ، يدعوه إلى كوب شاي في مقهى دافئة ، يحيى ،

واسع أحذية يخبط الصندوق الخشبي ، يضحك بعض رواد المقهى .  
يصبح الجرسون « ويرسل الراديو أغانيات قديمة » ، قال عادل تتدفق الوجوه  
لكن عيناً ، عند الطابق الثاني خرجت المرأة تلعن العمال الذين لا يكفون  
عن اللعب في المصعد ، لو استمر الأمر سيموت السكان من طلوع  
السلم ..

دقة من زين التليفون ، تتبعها دقات .

مجدى يرى قاعات مزدحمة بغرقها ضوء ومرايا ، أيدى وأكتواب مضلعة  
الحواف ح悱 ثياب ، قهقهات ، رواحة عطور ، يلمس المطرب الشاب  
أوتار حارة الرغبة كلما تقدم الليل ينأى رحيله مستمر لا يهدأ ، عادل  
يُخفض صوته ، يطرق حافة المنضدة الصغيرة بأصابعه .

— أتدرى يا عادل بك ؟؟

. ابتسامة .

— عادل من فضلك .. أنت الآن شريك خطر ومواجهة .. يعتقد  
مجدى أصابعه فوق رأسه ، كلمة خطر .

— أحياناً ألقى نفسي في بادئ ، حول صخب ، أصحاب ،  
وشرب .. هل تشرب ..

— أحياناً ، اذا سمحت الفرصة ..

— بين الأصحاب ألقى نفسى وحيداً « جزيرة متولدة معزولة ، لو  
بادلتهم الحديث تزداد عزلتى ، لكن الصمت هنا وحشى ... يقبح ..  
— أنت شخص الآن ما أشعر به أحياناً في صالة سماع الموسيقى ..  
يلحظ مجدى الآن أصبح عادل ، يتحرك على نغمة الصوت ، يشير إلى  
أعلى .. إلى أسفل ، في حركة دائرية .. لكن ، أى موسيقى ؟؟  
أهوى البشارف والموسحات القديمة .

— عندما تنزل اجازتك ، أرجو أن تزورني في الجريدة .... دائماً تأليف  
دعوات مجانية وغالباً لا ذهب ..  
لكن هل تهوى الموسيقى القدية فقط ؟؟

قال عادل ، أحياناً .. يسمع السيمفونيات في الراديو ، لكنه رأى  
عروض باليه عديدة بمفرده يفضى إلى دار مبنى الاوبرا القديم « كرر  
مجدى — لا بد من مرور عادل عليه ، قال عادل إن الموسيقى الشرقية تثير في  
نفسه غبار الزمن ، وجد صامت ، قال عادل انه رأى البيت خاوية » مع أنه  
قضى اجازاته كلها وحيداً طوال الاعوام الثلاثة الأخيرة يعود يفتح  
النوافذ ، النهار كاللحليب ، يرقب البيوت ليلاً ، ينظف الأطباق ، يشم  
رائحة المطبخ يفتح أوعية السكر ، لم يزحف التمل إليها ، يقبض حبات  
الارز ، ينقل أطباقاً صغيرة إلى مائدة تتوسط الصالة مغطاة بمفرش أبيض ،

تناثر فوقه ورود حراء كبيرة ، في يوم منقض عادت به أمه من السوق ، سألته ، ما رأيك : قال ، كل ما تشربه يعجبني ، قبض حافة المائدة ، كيف لا يذكرها كثيرا ، رأى الصالة فسحة بلا حد ، يلسن آثار أنفاسها ، حجرتها مغلقة ، قام ، رطوبة بلاط الصالة تنفذ إلى باطن قدميه ، يعلو بوق عربة ، يصبح طفل صياما متسللا ، ينقطع فجأة ييدو حلما ، وما ، على مهل يفتح الباب ، يراها أول النهار تقلب السكر ، ترشف قهوة ، تنقض الغبار عن جاكته ، يراها في اغفاءة العصر ترحل رحيلها قصيرا إلى أقصى الصعيد ، تستدعي أيامها الأولى ، تخوم حول مدينة الإسكندرية ترى البحر بعين الدهشة الصامتة ، والله قضى زمانا بها ، تركب قطارات سريعة ، تطوى حقولا ، تلقى بالدوم في الصومعات ، تستظر عودته ، القماش الأبيض الخفيف يحيط وجهها ، دائما تستند بظهورها إلى الجدار ، يتلألأ الطلاء بجلابتها ، سنين العمر كله تجسست أثرا لا يمحى ، ابقاءه العرق والظل ، قال عادل انه رأى الخشوع القاسي ، يدب فيه دم ، ترقه الأن ، تصيب ، تزرع فلا يسمعوا ، رجاله الثلاثة ، يحيطونه بحنو ، لا يعرفون إلا الابتسم ، راحوا معا وكأنهم تواعدوا ..

( انفجار .. )

— تقريرا في القنطرة ..

— طيران؟؟

— بالضبط ..

— لكن الانفجار ثقيل ..

ألف رطل ..

ألف رطل؟؟

— يستخدمها الطيران كثيرا ..

— يتوقف تأثيرها على طبيعة المكان وما يحتويه ..

دوامة في اليابسة ، تنثر ترابا وحجارة ، فوق وجهه زحام تغييرات  
صامتة ، ميراث خفي يلقى بجسده الإنسان ، منبطحا قبل الانفجار ،  
مجدى لا يدرى إلى أى نقطة وصل الليل ، يرى مذياعا صغيرا ، زملاء  
الرحلة يصفون إلى خبر موجز ، ( وأغارات طائرات العدو على مواقعنا  
في .. لمدة ثلاثة ساعات ) .. دهور تمضى وأحقاب زمنية تائى .. تمضى  
هنا في لحظة ، يولد العالم في اليوم مرات ، يبدو وهما صلبا ، ترسم  
الطائرات خطوطا من الضجة ، عندما تدق الساعة عشر دقائق غدا .  
صباحا ، في الراديوهات ، في الميادين سيقوم ، يعانق عادل ..

( انفجار .. )

---

---

— مدفعينا .. الشغل الحقيقي يبدأ بعد الثانية عشرة ..

يصنف مجدى إلى خروج الدانات « إلى لفظ الشغل ، ينفذ إلى  
أيقاعه » الشغل هنا يعني القتال ، في كل مكان يتغير ، يتبدل ، الجهد  
الإنسان المتنوع .

( انفجار .. )

بدا حادا قويا ، ترددات الصوت تقلب أمعاءه « حاول أن يتذكر »  
من اقترح فكرة الرحلة في البداية « من بالضبط ، بيز عادل رأسه ، يطلق  
آهه » قال ان محروس في تمده بذاهنا ، واثقا ، كأنه يضع الخطط  
لمستقبل آت ، كان رأسه على وشك ايماعه قصيرة ، لا اصابة في جسده ،  
لكن « خلف الأذن الأيسر ، بصمة حمراء قانية طريق سلكته الشظبية  
بدقة » رسم لها من زمن سحيق ، سافرت سنين عمره كلها لتصل إلى هذا  
الموضع بالذات ، دقات دم بطيئة .

— عندما تصطدم قدمي العارية بحافة مدينة ، يسرى عرق الألم وعرا  
في جسدي ، انهال بقبضتي على الصدمة ، اقتل الألم بالألم .

( انفجار .. )

يبدو الليل غامضا مثلا ، مجدى يرى عادل جالسا إلى جواره في مقهى  
هادئ ، صمت عذب ، يتبعان مرور الفتيات ، يتراجع مجدى إلى

---

الوراء ، يبدى عادل اقتراحًا ، يذكران الصبي المفتقد ، الامل المرتجى ، يرسمان مشروعًا لا يقبل التأجيل « ألا تفكري الزواج » .

وبناءً ، ضيجة السهرات ، مروق الأضواء عند المنحينيات ، غير العطور ، قال عادل انه لن يتزوج إلا بعد الحرب ، انه يعرف احدى الفتيات ، ضحكت ، قال انه يعرف هدفه تماماً ، صمت ، يسند مجدى ذفنه إلى راحقى يديه ، قال عادل ، اسمها هدى ، اذ تلقاه يرى في عينيها انتظارا لما سيقول ، رقيقة كسبيلة ، كدفعه البيوت ، تتضرر ألفاظ الحب ، ويخفق قلبه ، يود لو يعبر عن نفسه ، كما هو ، كثيراً ما تقع الالفاظ أسيرة عند طرف لسانه ، تطرق خجله ، هنا في ضيق الملل يذكر ايماءة رأسها الخجلى ، عندما دخل عليه سالم ، أحد جنوده الصعايدة ، قال إن الضرب شعل حرائق عند العدو لم تهدأ منذ الصباح ، لم ينفها ضوء النهار ، وإذا استمرت حتى الليل ، سيراهما الجميع لها برتقاليا ، قام عادل ، قال انه احتضن سالم قبله .

(انبعار . . . )

يقوم عادل ، مجدى يرى يوماً بعيداً من طفولته ، يقف فوق سطح البيت القديم ، السماء صافية جداً ، وهناك في المنتصف تماماً ، خطوط رمادية ملتوية بطيئة ، صاح ثعابين تطير ، رفع أبوه عينيه ، ظلامهما بيده ، هز رأسه ، هذه طيور ولكنها تبدو كثعابين ، قال مجدى إذن هي ثعابين .

— عادل .. ما الذي دفعك إلى احتضان سالم ؟؟

( انفجار ثقيل بعيد )

— لا قاعدة تحكم هذا ..

قال ، يتوقف القتال ، تطوف عيناً الإنسان بالمكان ، تنطبع الأشياء على الحدفين كأنها المرة الأولى التي تدرك أن هذا حجر ، هذا حديد ، تلك أكياس رمل ، تسمع نداءات ، أحاديث هنا ، لا بهجة تعادل سماع أصوات البشر بعد توقف قتال ، وعندما يلتهب الفراغ ، تضبط المسافات ، تحدد القطاعات ، ينبعق زعيق أصوات غامضة من حناجر الرجال ، أول مرة تعجب ، ما معناها ، ما مقصدها ، حروف الكلمات معجونة ، متشابكة ، معناها لا يكتمل إلا بحركات اليدى ، انفجار الدنانات ، الطفولة ، الميلاد ، الامل في السفر ، رغبة عن الوعى ( انفجار ) دنيا بأكملها ، شوارع طرقات ضيقة تلمع تحت المطر ، حارس يشأبب ، بضاعة في فترينة مظلمة ، بيوت تضمها رمادية الشتاء زجاج مغلق ، شمس وبحر ( انفجار ) ، إلى جوار أمه ، يمد نظره قطار يندفع بمحاذاة حقول خضراء ، يشير بأصبعه ، يبدو إنسان ضئيل كدموعة ، يد عجوز ألقى بوسط الخضراء ( انفجار ) كيف لم يصل إلى دلالة ما رأه لحظة حدوثه ؟؟

---

---

( انفجار ، انفجار ، انفجار بعيد ) .

يتكرر صفاء النهار ، القمر لم يختف والشمس تتقدم في السماء ، في خط مائل تنزلق الطائرة ، كأنها أفلعت منه ، من القمر .. ( انفجار .. )  
لو أنه لم ير الصبي الصغير ، هل كان سيعانق أثر أمه الغالى ، يرى شى  
رجاله ، يمشي في الطرقات تأكله الرغبة في رؤية هدى ، ( انفجار ) ،  
الآن تبدو الدنيا هيئة ، رأى أياما لم يروها هم ، لم يعرفوا طعمها ،  
عاشها . بدونهم ، ( انفجار ) ركوب قطارات ، رأى صاحبته ، أطعمة  
متعددة ، قال في ظلال الضوء الناعم انه لا يفهم في الصيدلية ابتسمت  
هدى ، ( دوى شديد متلاحق ) أشقر ، يطالعها دائمًا في الآتوبيس ،  
وهنا .. ( انفجار .. انفجار ) ويسقط يسبق الطلقة ، اهتزاز الفيلرز  
وتعلقه في الهواء ، خطوا الرجال فوق الضفة الأخرى ، بعد رحيلهم ..  
( انفجار ) لن يخاف ، لن يعيًا ، هل أصابت الدانات أهدافها ، تحيى  
تقارير الاستطلاع مبشرة ، يسمو ، أنجز عملا ( انفجار .. انفجارات  
متلاحقة مضمومة متواالية ) رجاله ، منهم شكري ، يدخل عليه يوميا ، في  
وقت بعيته ، يسأل كم الساعة الآن ، ينظر اليه ، يقول بنفس اللهجة ،  
ال السادسة والنصف ، ينظر إلى معصمه ، يدير المفتاح الصغير ويسأل ..

## شكاوى الجندي الفصيح

نشرت في مجلة الملال أغانيس ١٩٧١

.. و بتاريخ ١٩٦٧/٧/٧ عينت بالشركة موظفا فيها بورش الآلات الفنية ، و قمت بعمل خير قيام ، حتى استدعان الوطن اعتبارا من ١/١ ١٩٦٨ ، فلبيت نداء الواجب ، ومنذ هذا التاريخ كنت أصرف نصف مرتبى كما يقضى القرار الجمهورى بهذا ، وفي ٣٠/٦/١٩٦٩ أنيت المدة القانونية لخدمتى ، سنة ونصف سنة ، وأصبح يحق صرف مرتبى كاملا ، وعندما حضرت اليوم الى الشركة فوجئت بالصراف يخبرنى ، اسمك ليس في كشوف المرتبات ، سالت مدير المستخدمين ، وتبين أن سيادتكم أصدرتم قرارا بفصلى ، ولم أعرف السبب ، مع انى قائم بعمل خير قيام ،

⟨ ١٤٥ ⟩

---

---

ويشهد روائي بهذا ، ولم يوضح أحد ، لماذا فصلت ٩٩ وظنت أن  
المقصود بالقرار شخص آخر يشبه اسمه اسمى ، لكنني عندما عدت إلى  
مدير المستخدمين ، أكد الخبر ، اليوم يتهم تصريح اجازتي ، وأعرف أن  
وقتكم لا يتسع لسماعي اليوم ، لهذا أكتب الطلب المرفوع اليكم على  
عجل ، راجيا النظر إليه بعين العطف .

وتفضلوا بقبول فائق التحية والاحترام ،

مقاتل : مدير الطحاوى .

١٩٦٩/٧/٧

\*\*\*

.. وحدث أن أوما سامي سكرتير المدير العام لشركة الألبان برأسه ،  
قال لفطا واحدا ختصرا :

- اطمئن ..

وحاول المقاتل مدير اضفاء ارتياح على ابتسامة أبداها ، تمنى لو لفظ  
السكرتير الشاب ألفاظاً أخرى ، لكنه اشتعل بالنظر إلى ملفات أنيقة كتب  
فوقها بخط منسق «للعرض» وعندما دخلت فتاة جميلة يصحبها عطر

---

---

شفاف الرائحة ، أیقن بضرورة انصرافه ، وإلا بذا ثقيل الدم ، قال  
كلمتين :

- أرجوك .. لا تنس .

سيسر سامي السكرتير الشاب عندما يرجوه أحد الناس أمام فتاة جليلة

• • •

بريد حربى  
السيد/ مدير الشركة العامة للإليان ..  
بعد التحية :

يا سيدي المدير ، أرجو وصول خطابي وأنتم في أتم صحة وهناء ، قبل  
استرسالي أعرف لو أن أحد الموظفين قرأ ما كتبت لقال ، ليس هكذا تبدأ  
الخطابات الرسمية ، لكنني انتظرت رد الشركة على الطلب المقدم اليكم في  
١٩٦٩/٧/٧ ، لم أنجح في مقابلتكم ، قلت فلا فتح قلبي لكم ، أحكي  
عن حيّاً ، أقص ظروف ، لا أخفي أمراً من أمري ، لهذا التماس العذر  
لو خرّجت عن الصيغة الرسمية ، وألتّمّس العذر مرة ثانية لو تغير الخبر من  
أزرق إلى أحمر ، أعرف أنه عيب كبير ، لم أعلم هذا عند التحاقى بالعمل  
مباشرة ، وإنما حدث بعد شهر من عمل بالشركة ، أن كتبت ملخصاً

خطاب مصدر اليكم ، لم أكتب الخطاب نفسه بالحبر الأخر ، إنما رقمه وما يحويه في السرکي الخاص بالبوستة ، استدعيت الى مكتب المهندس الحسيني ، خشيت الأمر عندما نظرت إلى وجهه ، بدا ساخطا ، تسأله خائفا عما ارتكبته ؟ خطر لي ، ربما كتب تقريرا يشير فيه إلى عدم صلاحيق للعمل ، عندئذ أفصّل ، خاصة وأنني وقتها لم أقض مدة الاختبار التي اعتبر بعدها مثبتا ، والمدة كما تعرف ثلاثة أشهر ، ثلاثة أشهر لا يحق بعدها فصل العامل أو الموظف ، رأى المهندس الحسيني وتساءل بدهشة عما تعلمناه بالمدارس ؟؟ اندفع الدم مسرعا في شراييني ، انعقدت الحروف على لسان ، امتدت يده بالسرکي مفتواحا ، رأيت ساعده غليطا ، كثيف الشعر ، علا صوته موضحا أن سرکي المدير لا يمكن اطلاقا الكتابة فيه بخط أخر ، أي مكانته رسمية يستعمل فيها القلم الأخر خطأ قام ، المسموح له باستعمال الحبر الأخر ، واحد لا غير ، سعادة المدير نفسه . وأخرج عددا من الخطابات رسمية ، مكتوبة بخط مرتب ، تحمل تأشيرات عديدة بالحبر الأزرق ، فيها عدا خطوطا قليلة كتبت بسرعة ، في أسفل الصفحة أو أعلىها ، باللون الأخر ، عرفت عرفت خطك يا سعادة المدير ، في لحظات الراحة بعد الغداء أجلس إلى زملائي الموظفين ، نحاول تقليد توقيعات مدير الإدارة الفنية ، والسيد مدير المستخدمين ومدير إدارة البحوث الدقيقة ، وفعلا نتقنها ، لكن امضائك انت ، انت

بالذات ، حير غريب ، خطوط بسيطة جداً ، لا تعقيد فيها ، مع هذا  
نعجز تماماً عن كتابة مثلها ، وعندما أرى قرار فصل ، لا أصدق أن  
امضائك استقر على ورقة تحمل قراراً يحرمني من أكل عيشي ، امتناع  
مرتبني ، وبقائي بلا عمل تترتب عليه أمور عديدة لن أحفر واحداً منها ،  
و قبل استطرادي أرجو توضيح ما ذكرته ، الخالص باستعمال لوينين مختلفين  
في خطاباتي إليك ، أنا يا سعادة المدير في بور توفيق ، وبور توفيق ليست  
مدينة كافية المدن التي عرفتها ، هنا يفصلنا عن العدو مجرى مائى ضيق ،  
لا تتبينه الا عند الوقوف قرب حافته مباشرة ، لومشيت على بعد قليل من  
الشاطئ ، سترى بعض المبانى عند العدو ، وكأنها فوق الأرض ذاتها ،  
لا تفصلنا عنها القناة ، هنا لا تجد مبنى من طابقين ، لا نوافذ خشبية ،  
ألواح زجاجية ، لا يقف جدار لا يمتد سقف ، لم يعد يقوم سلم ، يقول  
ضابطنا ، كانت بور توفيق من أحل المدن ، من يدرى .. ريا جتها  
يا صاحب السعادة وقت المصيف ، الآن الحضور إليها مستحيل ، دائماً  
أرى بور توفيق فتاة جميلة ، يتدقق وجهها حياة ، تجبرى فوق شاطئ  
رمل ، تلهو ، تتجه دائماً إلى البحر ، تقف فوق قارب يقسم الماء قسمين ،  
يجيل الأزرق إلى زيد أبيض ، فجأة يطلع قزم ، كبير الأنف والرأس  
يقدفعها بباء النار المركز ، ينصره اللحم ويهلل بنياً في لون الشيكولاتة ،  
رأيت مدننا بعيدة رحل إليها سكان بور توفيق ، عندما رحلوا ذهبوا على

---

عجل لم يجمعوا أشياء العمر الصغرى ، تناولت علب الطعام المحفوظة ،  
حطام أطباق الصيفى ، بقايا أسماء حفروت ، عثرت على موقد بريموس  
صالح ، نستعمله الآن ، لا أمتلكه أثما يخدم السرية كلها ، وجدت  
صورة ، الاهداء عليها « إلى عزيزى فوزى .. لعلك تذكرنى » .  
فالذكري ناقوس يدق في عالم النسيان .. حدى » .

لم أعرف فوزى ، لم أعرف حدى الذى أطل علينا من الصورة مستدا  
ذقنه إلى يده ، تساءلت كيف هان على فوزى أن يلقى صورة صاحبه  
حدى ، سالت ، أتعرف أحدكم صاحبها ؟ راح كل منهم يتذكر ،  
حاولنا من ملامحه ادراك ، فهو متزوج أو أعزب ؟ عامل أو موظف ؟  
وحولنا يحيى الليل البطيء من البحر ، من خليج السويس يرافقه صمت  
الأيام الأخيرة من عمر الدنيا ، الصمت عميق بالستين ، الصمت هنا  
كامرأة الحامل في نهاية شهراها التاسع ، يفاجئها الطلاق ، في طياته  
انفجارات موت ما قبل الأوان ، دانة المدفع لا تنذر باقتراحها كأنهيار بيت  
قديم ، تتحى كموت السكتة ، أسبق من برق ، أحد من صرخة فزع في  
خلاء مزروع بالتخيل ، الشظايا تنشر بسرعة ، بعضها في حجم رأس  
عود الكبريت ، الآخر كما جور العجين ، أحد أصحابي يا سعادة المدير  
استشهد بجوارى ، والاستشهاد وصف خفف للموت ، للفرق الأبدى ،  
أرجو ألا أزعجك ، بحدوثى عنه ، أعرف أننى أثقل عليك ، لكن

---

تحملنى ، اسمه سعيد يا سعادة المدير ، كمسارى في هيئة السكة الحديد ،  
أمهور طباخ رأيته ، في نهار بعيد وقف بجوارى في نقطة الملاحظة ، نسيت  
اخباركم اننى مقاتل فى وحدات الاستطلاع أرقب العدو ، المهم ان سعيد  
بقى على حاله عند الانفجار ، نظرت اليه ، غبار ودخان وذهاب  
الشباب ، رائحة اجهلها تخفى نفسها ، ناديته لم يجب ، زحفت اليه ،  
 أمسكت ذراعه ، لم ينطق حرقا ، جسمه سليم تماما كأنه يختطف اغفاءة من  
عناء الدنيا ، ينام متسلدا في يوم ثقلته الحرارة ودخان مجھول النسب ، أخيرا  
لمحت الدم ، ثقب صغير في جيبيه يطل على الأبدية ، يسيل منه دم شديد  
الحمرة ، لا يخرج في خطوط رفيع ، انا على فرات ، ضئيل كمصابح عربة  
ريفية ، متقطع كضوء قنار يختفى ، يعود ، عين حمراء تتحشف نفسها  
لحظات في سواد غادر تخاذ الصيادين ، تكشف أماكن شعب المرجان  
الخفية ، ت Shi بالقاع القريب ، بزيارة العمر القصير ، مات سعيد  
يا سيدى ، قبيل نومي أراه ، في اغفاءة الظهير الحميم ، يوم قربنا ، سيظهر  
فجأة ، أرى بعقلى ثقب جبهة الرأس ، تسرب السنوات منه فابكي  
بقلبي ، لو بادلته مكان وقوف لتفقد الشظية في رأسي أنا ، الموت هنا  
صدفة ، بيت الكمان حول أعمارنا ، اذ يطلع النهار ، نرى الشمس  
وجها جميلا حنونا ، رغمما ساختنا لا يمس ، تقول أعماقنا ، ما زلتنا نعيش ،  
رأينا يوما جديدا ، ترى ما الذى سيجري اليوم ، هل سنرى النهار

الجديد ؟؟ لو ذهب واحد منا ، نحاول تذكر ، آخر مرة رأيناه آخر لفظ ،  
ما تمناه ، نراه روحًا ظاهرة جناحها مغمومان في دم حار لا يجف الا يوم  
القيمة ، الآن ، كلما صحوت على صوت انفجار ، أو غارة دب جرذ فوق  
وجهى ، اذا رأيت حلما ثقيلا يزحف الى كثبابة كريهة المنظر ، أتذكر أمورا  
عديدة ، بالذات منذ عودق من اجازق الأخيرة ، في الليل المهجور من  
القمر ، أقف في نقطة الملاحظة ، أرقب انفجار المذهب ، أرصد الصوت ،  
أعد همس البشر ، هدير الآلة ، الصمت الغريب ، يتعدد فيه صوت قطعة  
صفيح يهزها الهواء ، تصطدم بجسم حديدي في بقايا ورشة ، منذ لحظات  
رأيت وهج نيران بعيدا في سيناء ، شعلة برقةالية اللون في حجم قبة  
اليد ، بين الحين والحين تتضخم الى أعلى ، تعود الى الثبات من جديد ،  
قدرت المسافة ، أبلغت مركز المراقبة ، قضية اليد النارية هذه كتلة طب  
تعصف بمخزن ذخيرة ، سمعت جنديا يصبح « حريق عند العدو » تسأله  
عن السبب « ربما حادث .. ربما عملية لرجال منظمة سيناء ». أصبغت  
الي مياه القناة ، السمك يطل علينا ، لا يصيده أحد فأصبح سمينا ، في  
النهار يعوم متبححا ، متهدلا ، لو غفوت قليلا ، سيمرق قزم شائه ، كلما  
تخيلت العدو أراه قزما كبير الرأس ، يمشي ، يمشي ، حق ..

\* \* \*

عندئذ توقف سامي ، السكرتير الشاب ، نظر إلى الطريق ، العربات ، المارة قائلًا بغير إيل هواء اسكندرية ، لن يمضى وقت طويل الا وتزدحم المدينة ، يلدي ضيقه من الصيف يقول .. من يعرف مديتها لا يأن إليها في الصيف ، أحب الشهور أبريل ، مايو ، سبتمبر ، والشتاء كله ، عاود النظر إلى الأوراق الصغيرة ، بدير الطحاوى فيها يعلم موظف صغير ، لا يحق له مخاطبة سعادة المدير هكذا ، نظر إلى الفتاة ، درج مكتبهما عريض غير مغلق ، تقلب داخله مجلة ، راديو أغفلته الآن ، البرنامج الموسيقى أنهى ارساله منذ ربع ساعة تقريبا ، بعد التحاتها بالعمل حاول كثيرا إيجاد موضوعات للحديث ، لا تدفع الحوار من جانبها ، اجاباتها محدودة ، تنتهي فجأة ، عادة تصاحبها هزة رأس ، عندما جاءت ضاقت بها ، لم يعد الشخص الوحيد الذى يحق له الدخول على سيادته ، أو النظر من الفتحة المستديرة التي تتوسط الباب المكسو بالجلون الأخضر لينظر ، أمشغول سيادته ؟؟ أيكتب ؟ هل خرج الضيف من الباب الآخر ؟؟ هل أنها سيادته حديثه التليفون ، يعلم أنها جاءت بتوصية من رئيس مجلس ادارة المؤسسة العامة للشحن والتغريغ ، انه صديق قديم لسيادته ، بل يقال ، ويسعد القول صحيحا ، أنها زملاء دراسة ، سهير تمت بصلة القرابة بعيلة الى رئيس المؤسسة ، اذن .. لا بد من توثيق العلاقة بها ، قطعا زارت بيت سيادته مع قريتها ، من يدرى أى

كلام تنقله اليه في المكتب عندما تدخل اليه ، تخلو به فترة ، المزعج ان سيادته لم يسأله عن أحوالها ، لم يستقصن أخبارها كما يفعل بالنسبة لبقية الموظفين والعمال ، ماذا يعني هذا ؟؟ الثقة التامة بها ، ربما أدى وجودها الى التقليل من أهميته ، ينقل يوما الى مكاتب الموظفين ، لا بد من النفاذ اليها ، وكما يتقى ، لا توجد امرأة تستعصى على رجل ، لكل منها طريق خاص يتحتم عبوره ، الآن لا يهمل أى تقدير في مظهره ، الشعيرات الزائدة بوجهه ينفيها تماما ، لكنها لا تشجع على تبادل أى حديث ..

— يبدو ان العالم اختل يا مدموازيل سهير ..

رفعت رأسها ، تململ عطر ..

— واحد اختل عقله وتصور البك المدير صاحبه . وراح يكتب في خطابه كل ما يرغبه ..

\* \* \*

.. يهاجم أبي ، تكتم أمي شهقة ، يستثير إلى أختي ، هنا تقشعر كتفاي ، يسرى رمل ساخن كالشنجايا في سلسلة ظهرى ، أرى القزم يوثق يدي أختي ، صافية نسيت أخبرك عنها ، صافية عندها الآن أربعة عشر عاما ، ربما تتزوج في العام القادم ، البنات يتزوجن مبكرا في الريف ، بالطبع سيحتاج أبي إلى تقدّم أكثر من دخله هذا العام بالذات ليشتري

---

---

جهازاً لصفية أحق التي تنتظر رجوعي في الاجازات ، تنتظر ما أحضره  
معي ، لا أدخل عليها بيدى فارغة ، مرة آخذ شال قطن أحمر ، زجاجة  
عطر ، كيلو حلوى من طنطا أفرج جداً عندما أرى التماع عينيها ، أسمع  
دعاءها ، تحاول تقبيل يدي ، يتغلبى خجل فأمنعها برقة ..

وأذكر في نقطة الاستطلاع ، أقول في عقل انك لا بد صحت  
الأوضاع ، اصنفني ، أعدت اسم ، الى كشف المرتبات ، الغيت قرار  
فصل ، صحيح أن رد الشركة تأخر ، لكنني أثق أن اعضاءك البسيط ،  
توقيعك الأنثى ، استقر أخيراً فوق قرار يرجعنى ..

\* \* \*

لم يحدث أن أبدت اهتمام كهذا منذ وصولها ، قام ، توسيط  
الحجرة ...

— ما الذي يقوله سعادته عندما يرى خطاباً موجهاً اليه بهذه  
اللهجة ...

ابتسمت ، أبدي حماساً .. سألت ..

هل أرسل خطابات أخرى ..

— أول خطاب ..

وصلني خطاب من أبي ، وقلت من قبل انتي لن أخفي عنك أمرا ، وكما قيل لي فذاكرتكم لا تنسى أتفه الأمور » وكلنا نذكر يوم نزولكم الى الورش ، تطمئنون على سير العمل وتصادف ان عاملا ترك مكانه على ماكينة السحب ، خرج يقضى حاجته ، لم يشا أحد من زملائه أن يؤذيه ، انتظر حتى مررتهم عليه ، دار حول الورشة ليقف أمام ماكينة السحب حتى لا ترى المكان خاليا ، وتوقفتم أمام العامل ، نظرتم اليه مرة واحدة ، سألتكم ، ألم أرك منذ لحظات ٩٩ اصفر وجه الرجل ، اعترض وخصوص من مرتبه أسبوع ، أما زميلاه ثلاثة أيام ، وقيل رأفت بها ، وعندما مررت بي ، أول مرة أراك عن قرب ، لا يفصلني عنك غير متر واحد ، انتظرت أي ملاحظة ، لكنك لم تتوقف كثيرا عند الماكينات التي أشرف عليها ، بعدها حصلت على مكافأة نصف شهر ، وهذا دليل على قيامي بعمل خير قيام ، أعرف قوة ذاكرتكم لا تنسى اسما ، أو ملامح وجه ، لا تنسى فصلي ، في أوقات عديدة هنا ، وقوفي بنقطة الاستطلاع ، انتقالى عبر الخنادق ، نزولى في حفرة عند التهاب الهواء ، أقول ربما ينهى سعادة المدير موضوعى الآن ، أقول هذا ولم يصلنى أى رد ، بالأمس قرأت خطاب أبي انقبض قلبي ، اسودت الدنيا في وجهى ، رأيت كثيفه تنوعان بحمل المهم ، يمشي ، فوق الجسر تعبير عربية أجرة ، أنا لست من ركاها ،

لَا أَهْلُ مُرْتَبِي ، أَرْبَعَةُ عَشَرَ جَنِيْهَا وَخَسْنَةُ وَأَرْبَعِينَ قَرْشًا ، ثَمَانِيَّةُ لَأْبِي ،  
جَنِيْهَا لَأْمِي ، خَمْسَةُ أَحْتَجِزُهَا ، وَالْخَمْسَةُ وَالْأَرْبَعِينَ أَشْتَرِي بَهَا حَلْوَى ،  
أَبِي لَا يَنْفَقُ الْجَنِيْهَاتُ كُلُّهَا ، يَدْخُلُ مَبْلَغاً لَا أَعْرِفُ مَقْدَارَهُ ، أَخْطَارُ الزَّمَانِ  
كَثِيرَةٌ يَاسْعَادُهُ الْمَدِيرُ ، رَأَيْتُ أَبِي يَمْبَلِي إِلَى جَذْعِ شَجَرَةِ قَدِيمٍ ، بِجُوارِهِ مُحَمَّدٌ  
أَفْنَدَى مَدْرَسَ الابْتِدَائِيِّ ، يَمْلِي عَلَيْهِ مَا أَقْرَأَهُ أَنَا فِيهَا بَعْدَ هَذَا ، أَخْبَرَنِي أَبِي  
أَنَّهُ يَنْتَوِي ، إِذَا سَهَلَ اللَّهُ الْأَمْرَ ، أَنْ يَبْيَغِي الْحَجَرَةُ الْعُلُوَّيَّةُ الْمَهْدَمَةُ فِي  
الْبَيْتِ ، أَخْبَرَنِي بِدُعَائِهِ لِي فِي مَسْجِدِ الْقَرِيبَةِ ، أَنْ يَضْعِفَ اللَّهُ فِي طَرِيقِ أَوْلَادِ  
الْحَلَالِ ، أَنْ يَفْكَ عَدْدَ أَمْرَيِ ، أَتَظَنُ يَاسْعَادُ الْمَدِيرُ أَنَّهُ أَخْبَرَتُ أَبِي  
بِقَرْأَرِ فَصْلِ؟؟ صَدَقَنِي ، خَجَلْتُ أَنْ أَقْلِهِ إِلَيْهِ ، لَا تَتَصَبَّرُ ضَيْقِي  
وَحْرَجِي عَنْ دُخُولِ الْبَيْتِ ، لَا أَدْرِي مَا أَقُولُهُ ، مَا الْفَظُّهُ ، تَعْنِيتُ لَوْ  
أَقْتَرَضْتُ مَبْلَغاً يَوازِي مُرْتَبِي ، أَعْطَيْتُهُمْ مَا تَعُودُتُ كُلَّ شَهْرٍ ، وَلَكِنْ مِنْ  
يَقْرَضُنِي يَا سَلَامُ يَا سَعَادَةُ الْمَدِيرِ ، عَنْدَمَا تَرْفَعُ أَمِي يَدِيهَا ، تَدْعُونِي بَعْدَ أَنْ  
أَعْطَيْهَا الْجَنِيْهَ ، لَا شَيْءٌ يَدْفَعُ الدَّمْعَ إِلَى عَيْنِي فِي بُورْ تَوْفِيقٍ ، هَنَا عَنْدَ  
السَّاتِرِ الرَّمْلِيِّ ، عَنْدَ الْحَدِ الْأَمَامِيِّ ، إِلَّا هُنَّ .. أَمِي .. أَنَا لَمْ أَحْدِثُكُ  
عَنْهَا يَا .. .

هَنَا تَرَاجَعُ ضَاحِكَا ، يَدِهِ تَمْسَكُ بِالْوَرْقَةِ ، أَصْبَعُ مِنَ الْيَدِ الْأُخْرَى  
تَشِيرُ إِلَى الْخُطَابِ اسْتِهْنَاتِ مُتَابِعَةٍ ، كَأَنَّهُ يَطْعَنُهَا طَعْنَةً خَفِيَّا ..

- وَصَلَنَا إِلَى سِيرَةِ الْأَمِ .. يَا سَلَامُ سَلَمُ ..

سهير لا يخفى عليها ما في ضحكته من افتعال « صحيح الأمر مسل »  
لكن . لماذا الضحك بهذه الصورة ؟؟ يحاول اثاره اهتمامها ، أن يسلو  
خفيف الدم ، يمكنها اسكاته بكلمة تخفف من سروره المفتول ، لكن لا  
داعى ، رجعا دخل إلى سيادته ، ويعتباره أقدم منها ، أكثر فيها لظروف  
العمل ، رجعا يحاول نقل تبرير عن كفأتها ، ثم التشكيك فيها ، بالتأكد لم  
يغدر سيادته بالمجلات ، بالراديو ، والأحاديث الطويلة في التليفون ، هو  
نفسه بجواره راديو كبير يفتحه أحيانا بعد استئذانها لسماع أغنية ،  
أو برنامج ما من الأذاعة المحلية ، في مرة سابقة تناقشت معه ، هي تميل إلى  
الأغان الأجنبية ، تحيد الفرنسيسة تماما ، لكنها تسمع الأغان الانجليزية  
والمندية واليونانية ، سألاها ، هل تفهم المعان ؟؟ قالت ، ما يهمني لحن  
يهزني ، كلمات الأغان تتشابه أما الألحان فمتنوعة ، بعد أن كاد يتوقف  
عن الضحك ، خبطة سطح المكتب بأصابعها النحيلة الطويلة .

ـ إنما صدقني يا أستاذ سامي ..

ـ مدموازيل سهير .. أنا وانتي تقضي معا وقتا أطول مما تقضيه مع  
أهلنا .. سهير .. أطالب وأستميت في مطلبى هرفع الرسميات ..  
أسبلت جفنيها ، الكلمات توافقها ابتسامة

ـ يمكن .. ها .. هات صاحبنا .. قلت لي اسمه سهير ..

---

---

— بدبر .. آه بالفببط بدبر .

« .. أربعة أمتار قماش ، كستور ، يكـة ، لحظتها تحار عينها ،  
تنسال منها رقة تمس عصب الوريد ، تبسط الكفين ، تطلب السر ، أمنى  
تخرج إلى السوق ، تبيع التموج والقول ، مجادل الرجال تقسم الأيمان ،  
أقول ، لو جاتت إلى بور توفيق لن ترعنها شظية ماسحة ، دانت الآف  
رطل ، زحف النابالم اللزج البطى ، لن يرتعن قلبها ، لن تصرخ ، حياتها  
يا سعادة المدير صلدى اتفجر مرهق طويل لم يهدأ بعد ، في رأسها سؤال ،  
يلركها أينما ذهبت يياقتها كالكمين المتقن ، ما الذي تعله للقد ؟ أى طعام  
يأكله الأولاد ؟؟ أى قسط لابد من تسليمه ؟ هنا أحيايت أمنى أكثر ، لرجع  
البيت ، أعطيها قطعة المريسة ، تقضم طرقها تبتعد عن ، أعرف  
ما تفعله ، تقسمها ، تمد نفسها إلى أحق مع أن نصيبياً معنى ، لقمة الخبز  
حنظل في فمها ، علقوا إذا لم نشاركها فيها ، هذه المرة يا سيلي ، لم أجلس  
معها بعد العشاء ، لم أعطها الجنيه ، لم تطلب مني أبداً ، حق الجنـه  
لا تنفعه على نفسها ، تسد به بعض حاجات البيت ، لو شرفتني يا سعادة  
المدير في بيـق ، وهذا مستحيل ، فستجلس على كرسى خشـى يواجهـه  
آخر ، اشتـرتـها أمنـى ، أصـحـابـيـ يـمـيـونـ ، عـيـبـ أنـ يـمـلـسـواـ فوقـ الحـصـيرـ ،  
أما الكلـمـ الصـورـفـ فـبـاعـتهـ إـيـامـهاـ اـمـرـأـةـ دـلـلـةـ بـالـتـقـيـطـ ، رـيـاـ اـمـتـدـتـ الـأـقـاطـ  
عـامـاـ ، لـكـنـ مـاـ يـمـيـيـ » يـسـرـ الـبـيـتـ ، لـوـ سـأـلـتـيـ عـنـ أـمـنـيـ حـيـاتـ ، لـزـعـقـتـ

---

بأعلى صوq ، هناف بور توفيق ، أن أضمن أياما قليلة لأبي ، لأمي ، يخلو  
قلباهما فيها من الأسى ، بعد أن ضيفرته الأحوال ، أسد ديوتها ، أسترد  
مصاغ أمي الذي جاءها عبر أجيال عديدة ويعانه للصياغ في البندر ،  
والخلخال الفضى ، لكن كيف أفعل ، وقد فصلتني يا سعادة المديز ..  
أخشى الا يصدقني أبي ، يظن أن واحدة من أهل البندر لفت على  
وأغوتني ، أبي لا يمانع في زواجه لكن المفروض أن أخبره ، لماذا تجري  
الأمور في الخفاء ؟

\* \* \*

— سأشرب شايا يا سهير .. وأنت ؟؟

— مرسي خالص ..

— الرجل يتظر . شاي أو قهوة ؟؟

— والله شربت من ..

— من فضلك اسمح لي ..

— ياه طيب .. كوكاكولا اذا سمحت ..

\* \* \*

.. رأيت البصاق الناري ، الدخان يتجمد في الهواء كحجارة  
اسمية ، تنفجر داناتنا حول عرباتهم ، ينبعش منها دخان ، اطلالة  
شعيرات القطن المفاجئة من لوزة خضراء مغلقة ، دانة مباشرة في السيارة  
النيران البرتقالية في البداية ، اختلاطها البطيء بدخان أسود سائل  
كالبترول ، جاءت ريح من الخليج قومت مساره لممتهن في اتجاه واحد ،  
وهنا .. جاء الطيران ، هدير الأعلى المخيف ، دائماً الطيران يا سعادة  
المدير تبدأ مدفعتنا فيردون بالطيران ، تحركت الخوذات في الحفر ،  
الصوت يحوم ، يشوه وجه الصباح المادي ، شفرات حادة تقطع السماء  
الزجاجية ، طلقات الفكر تونجز النهار ، رفعت رأسى ، رأيتها رأيتها ،  
نقطة بيضاء غيل متزلقة في خط مائل ، بنعومة فوق خط غير مرئى ، عند  
حد معين ارتفعت فجأة ، رمت حولها فوق طريق بور توفيق -  
السويس ، الطريق مقلوب الحشا ، اخطى الحديدي فوق التوت قضبانه  
وانفصلت ل تستقر مرفوعة في الهواء ، يدخلها لوطها ، سلم من جبال فوق  
حطام سفينه عبث بها هواء غضوب ، فوقه انبطحت مرات ، رأيت الموت  
غفيا ، في وجه صاحبى سعيد ، عندما رأيتها أول مرة ، عرفت أنه جاءنا  
ليموت ، انه يمر بدنيانا مروراً عابراً سريعاً ، تساءلت عندما وحل ، لماذا  
المجيء أصلا؟؟ جزنت ، تذكرت الخطير الفادح ، عندما عبر الطرق في  
الاسكندرية ، أخاف لودھستنى عربة ، من يعطىهم نقودا؟؟ الآن رعنى

---

أكثر ، لا يحق لأبي صرف معاش ، أو مكافأة لأنك فصلتني يا سعادة  
المدير ، مع أنني قمت بعمل خير قيام ، بهمني جداً أن يصرف ..

■ \* ■

زجاج مغلق لا يمنع رائحة البحر من العبور ، زرقاء فيها يود وانطلاق  
ورحيل .

— سهير ..

صوته خافت هامس ، توحى النظارات وتفتح ..

— كنت سأتحدث إليك في الثانية صباحاً ..

— ياه ..

عندما رآها أول مرة ، متشائمة ، مدحمة بقرابة لا تمُس ، هل تصمُور  
أنه سيقول يوماً ما قاله الآن ؟؟

— قبل نومي شعرت برغبة عنيفة يا سهير ، أن أسمع صوتك آخر  
الليل ، لكنني أمسكت نفسى ، أعرف أى ازعاج يمكننى أن أحدهه  
عندكم .

تداعب مفتاح الراديو ، تعلو موسيقى خافتة كأنها التردد بالبوج بسر  
دفين ، عيناه ترسلان معانٌ ناعمة كالبرياتين ، هامٍ لحظات يهمس فيها

---

بحافت الكلام ، يدعوها الى مكان قصى ، مضاء بنعاس المصايبع ،  
فراغه همسات وضحكات مقاجئة تقللت من غمار نشوة ، الان ، لا يذكر  
اللحظة التي ذاب فيها الجمود في البداية ، كان قبل دخوله المكتب يقضى  
وقتا يعد فيه موضوعات يمكن أن يطرقها معها ، لكن عجز الخطابات مهد  
الفرصة ، أتاح الطريق ، لم تسها بعد ، لا يقرؤها الان ، اعتاد رؤية  
الختم الثالث تسللها هي ، تضعها في الدرج ، ربما تلقيتها ، تصر على  
قراءتها ، لن ينسى ابدا لحظة انتهى فيها من قراءة احد الخطابات قال  
ضاحكا :

— تسمحي يا مدموازيل سهير ..

إياعة باريسية أنيقة ، على شفتيها ابتسامة ود مقطر ..

— من فضلك .. سهير .. سهير بس ..

\* \* \*

« .. تباطأ عنى ، ولا تدرى ما يثيرى لي يا سعادة المدير ، لا تعبدنى  
الى عمل ، شهراً ولا تسمعنى ؟؟ كل يوم جديد يؤكّد فصل ، وكما  
تعرف فالعمل غطاء من يرتعش ببردا ، أنفاس تردد من يمنعها يختنق  
الشهيق والزفير ، نصحتي زملائى بارسال شكوى الى المسؤولين أكدوا  
حقى فى ارسال شكوى الى رئاسة الجمهورية ، حتى الان لم أفعل ، أكتب

اليك لتصلح خللا ، لترق ثوبها انقطع ، لتصل غشاء تهتك ، لنفحص  
جرحا ، لتوقف نزيفا ، لتصبم ملحف طعامى لمدرصيفا يحمى السائرين  
من مركبات لا ترحم ، أكتب لتبث الحياة في ضوء فنار والا هلكت  
السفن ، لتكسو مسجدا عاريا بالمحصير ، هل يصلك صوت خافتا من  
هنا ؟؟ أعرف أن فصل موضوع صغير جدا بالنسبة لشاختك . لكنه عندي  
الولادة من جديد ، النار تحت الخيز ، عمل في الاسكندرية خندق يحمي  
هنا ، دشمة لا تنفذ منها شظايا الأيام ، فكيف تفصلني ؟؟ الغاء القرار  
لا يحتاج منك الا الى جرة قلم ، أقل من نقطة مداد أحمر ، كيف  
لا تفعل ؟؟ هل غضبت لأنك أكتب بالداد الأحمر ، ألم أقل لك انني في بور  
توفيق ، أنبوية الخبر الأزرق جفت وانتهت ، من أين آتي بمثلها هنا ؟؟ لا بد  
من اقام الخطاب ، استعملت أنبوية اللون الأحمر ، أتراك غضبت  
لكى أطمئن نفسي ، قلت ربما سافرت الى أوروبا في العامين الأخيرين  
قمتم برحلات الى الخارج لتسويق المنتجات ، فتح أسواق جديدة ، البلاد  
في أمس الحاجة الى العملة الصعبة ، لكن منها طال غيابك سترجع ، قلبى  
يمدثنى انك الان في الاسكندرية ، تذهب يوميا من التاسعة ، تجلس فى  
المقعد الخلفى للسيارة ، تقرأ الصحف ، فى المكتب تطلب القهوة ، بعد  
قليل تطلب الثاني ، كما نعرف جميعا تشرب حوالي ثلاثة فنجان يوميا ،  
الفنجان ثمنه قرشان ، ستون قرشا ، ثمانية عشر جنيها شهرياً ومائة

سيجارة ، أعرف انك تشرب نوعاً جنبياً لا أذكر اسمه « يقول العمال ان  
ثمن العلبة منه خمسة وثلاثون قرشاً ، خمس علب يومياً ، جنيهان الا ربعة  
اثنان وخمسون جنيهاً تقريباً في الشهر أعرف مشاغلك الجسم » أوقن انك  
في الاسكندرية ، لكنك يا سيدى .. لا تسمعنى ..

\* \* \*

- ضربنا الرقم القياسي يا حبيبي ..

- كم الساعة الآن ٩٩

- الليل على وشك الدخول في الرابعة .. نتحدث من الواحدة ..

- سهر .. لن أضع السماعة ..

- والشغل ..

- ياه ..

\* \* \*

« .. الخطاب الثالث وصلني ، أبي قلق يا سعادة المدير ومعه حق «  
الرزيق خافت شحيح ، أنت أب ، تخيل انى ابنك أعرف ان ابنك يتلقى  
العلم في أوروبا ، طبعاً الفارق بيني وبينه عريض وفادح » في رمضان منذ  
عامين أقامت الشركة افطاراً ، حضرته وخطبت فيه أنت مبتدئاً كلمتك ،

أبنائي العمال والموظفوون ، اذن اعتبرتني ولدك ، هل تقبل أن يتوجول ابنك في باريس بلا نقود ؟؟ هل ترضى أن تشتهي نفسه رحلة الى بلدة بعيدة مع فتاته ولا يقوم بها لقلة نقوده ؟؟ هل تعرف الراحة يا سعادة المدير ، لو علمت بتهرب ابنك من دعوة أصحابه للرقص ، لقلة ما يبيده ؟؟ لكن كيف يحدث هذا ؟؟ أى قصور أصحاب عقل ؟؟ أنا لم أحلم بزيارة باريس ، أنت تجهلني . لا تعرفني ألم تقرأ خطاباتي ؟؟ هل سد أزيز جهاز التكيف أذنك ؟ ألم تقرأ ما كتبت ؟؟ أنت تبتز يداً أمدتها الى أبي ، مستحيل ان تعتبرف ابنك ولو لحظة ، ابنك يرى العالم أول عمرهاناً لم أحلم بركروب بحر أو جو ، لم أمش مع فناء ترتدي جاكيت شمواه في محطة الرمل لم أجلس الى أنشى تدهن جفنيها بلون أزرق ، أنا لا أقرأ الصحف الانجليزية ، لا أجيد لغة ، تعليمي لم أتلقيه في أوروبا ، او في مدارس أجنبية ، لكن هذا لا يعني فصل كالنفاية يا سعادة المدير ، أنا لم أدخل الفنادق الكبيرة ، لم أحفل بالكريسماس في شقق بها سلام داخليه ، أى عام جديد لا يأت الا بالهم ، نسأل دائمًا ، ماذا تفعل غدا ؟؟ بأى أرض ثوت ؟؟ أنا لم أتناقش مع صاحب حول المرسيدس أو الفيتات ، أيهما أفضل ؟؟ يا سعادة المدير أنا لم أويبرا في حياني ، لا أرى الافلام في دور العرض الكبيرة ، لن تعرفني ، لكن يجب أن تسمعني ، هل أنوح ، ليت للبراق عيناً فيرى ؟؟ كيف تصفعى الى ؟؟ لو جشك سيدفعنى عنك

---

---

سکرتيرك الشاب ، انت تقيم في بروج مشيدة ، أفق يا سعادة المدير ،  
لا تغمض عينيك ، ولا تسد أذنيك ، اضغط مقبضا خفيا ليتمليء المكان  
بالنور ، ارم التقاوي لتبث الأرض ، بأى حق تقضلى؟؟ كيف  
تؤذيني؟؟ اقلب الصفحة التي تأبى مفارقتها ، أنت تقصف آمال أبي ،  
انت هجوم صاعق على نهاية عمره الشقي ، أنت طيران منخفض لا تندر  
اما تحرق آمال أخي ، تغير على البهجة في عيني أمي لحظات عودتني ، أنت  
جزرير يدهس مرارق ، أعددت كمينا ناجحا لم يخطيء لحياتي ، تذهبني  
ولا تدرى ، أفق أفق ، أفق ونجني .... .

« .. تعلو ، تعلو ، لكن إلى متى؟؟ حتى يدركها ، ترثى فوق  
الرماد الناعمة المشبعة بالشمس ، بالرخواة ، انقلبا ليواجهها ساءه  
أغسطس ، أى متعة ، أى رغبة في الانطلاق ، بلا توقف فوق أمواج  
البحر ، يحيط الخضر المبلل بذراعيه ، عيناهما واسعتان ، شفتاهما موطن  
المتعة ، أرضن بكر لم تكتشف ، غرس فوقها أعلامه وألقى ترحاله ، أحيانا  
عند خروجه من مكتب سيادته ، يميل إليها فجأة ، بشفتيه يلمس شعرها ،  
تحذر .. يا عجنون يا عجنون ، أتحبني فعلا؟؟ يحيطها بذراعيه ، يصفي إلى  
سخونة الأنفاس ، أطفال يلعبون بكرة حمراء ملونة ، البحر غافل ، تائه في  
الافق الثاني ، رائحة شواء ، بيده يكوم الرمل فوق ساقها ، يوزع الذرات  
فوق النعومة الملساء المبللة ، اعتدلت فجأة ، مصمصت شفتيها ..

---

— سأرجع إلى حبيبي .. إلى حبيبي البحر ..  
لم يرد راديو قريب يعلو .. وإلى خطيبته منال .. إليكم جميعاً « زى  
الموا » .

— هنا في المتنزه أعود إلى طفولتي .. ليتنى بقىت طفلة ..  
يدرك الآن أطراف أصابعها ، يغطيها بالذرات الصفراء التي  
لا تنتهي .

— لكن قل لي ..  
لو استمر قليلاً لصاحت من الللة » « وخدتني ومشينا » والفرح  
يضممنا » .

— ألم يرسل خطابات أخرى ؟؟  
تقرب يده من حافة الأصابع ، تقلصها ، تبسطها من جديد  
« وبقيت وأنت معايا » الدنيا ملك أيديه .. .  
الشمس رأس بلا جسد في سماء متوجهة .

— ياه .. أما زلت تذكريه ..

— توقعت حضوره في أي وقت ..

---

---

— من ٩٩

« آه من الموا يا حبيبي آه من الموا » .

— هذا الشاب المقصول .

— اي .. اي .. أنت تنسى دائمًا ..

« طلبها أيضًا الاخ نصر وعروسه عايدة » .

— آه .. ريمًا أفق .. غلبه العقل .. هل كان في ..

— بور توفيق .. كان يذكرها دائمًا .

« ولئن رباب مع أجمل التهان بالخطوبة » .

— بور توفيق .. يا سقى .. ريمًا ..

— اي .. اي ، لا يا سامي .. اي .. سامي ..

ضحك ، ضحك . يده مستمرة في دغدغة باطن قدميه .

« زى الموا .. آه يا حبيبي زى الموا » .

---

---

— اسکت یا روحی .. سامی .. الله .. ای .. ای ..  
قامت تعلو ..  
« آه .. زی الموا .. » .

# حكايات الغريب

أجزاء من سيرة  
عبد الله القلعاوى

〈 ١٧٥ 〉

---

## • تقرير عام عن الأعمال القتالية للمجموعة السابعة •

.. من المعروف أن جميع من تحدثوا عن هذه المجموعة أطلقوا عليها اسم «مجموعة القلعاوي» بل إن المتخصصين و منهم بعض قادة الوحدات والقطاعات التي عملت من خلالها المجموعة ، و طيارو الميلوكتر الذين اشتراكوا في نقل الرجال ، كلهم لم يستخدموا الاسم الرسمي عند حديثهم عنها ، لهذا فإننا نميل إلى الأخذ بتلك التسمية التلقائية التي رددها المواطنين أيضا .. فأعمال المجموعة لا تقتصر على نوع خاص بينهم - بغض النظر عن الاسم الرسمي المستعمل في المكاتب السرية وخطابات الشؤون الإدارية - وكما تفيد مصادرنا في الأرض المحتلة أن العدو أطلق عليها اسم رمزي وهو «الفرقة الخاصة» ومن الثابت أن معلوماته حول المجموعة مضطربة جدا ، لم ترق إلى مستوى اليقين من وجهة نظره ، ويرجع هذا إلى أسباب عديدة ليس هذا مجال تفصيلها ، لتقد اتسمت الأعمال القتالية بلامع خاصية وحق نستطيع الإمام بطبعتها لا بد من إشارة أولية إلى مسرح العمليات .

---

## ١ - نطاق العمليات

جرت العادة والقواعد العسكرية على تكليف كل وحدة مقاتلة بمهمة معينة يحدد لها إطار معين يضم أهدافاً متنقلاً للتعامل معها ، ينطبق هذا على كافة التشكيلات بدءاً من السرية إلى الفرقة إلى الجيش ، لكننا لا نجد هذا منطبقاً على مهام مجموعة القلعاوي . يبدو قولنا واضحاً من الخريطة الضخمة لمصر والبلاد المحيطة بها والتي تحتل - حتى الآن - جداراً بأكمله من غرفة القلعاوى ، صنعت هذه الخريطة من الجبس البارز الملون ، حملت دبابيس حمراء صغيرة فوق أسماء بعض المناطق بسيناء ، كل دبوس يعني عملية تمت ضد هدف ، توجد مجموعة أخرى من الدبابيس الخضراء وهذه تعني أهدافاً سوف تهاجم ، من الخريطة يتضح أن مسرح عمليات المجموعة بسيناء كلها . وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدداً من أبرز الخبراء العسكريين الذين زاروا البلاد بعد الحرب وتوفروا لديهم بعض المعلومات أبدوا دهشة وإعجاباً بالمجموعة ، ونورد فيما يلي تلك السطور التي كتبها الجنرال هان كريستيان ، رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية والعسكرية ، الذي زارنا خلال الفترة القصيرة الماضية .

« .. يبدو واضحاً أن تلك المجموعة من الرجال قد خلقت لنفسها قوانينها الخاصة ، إذ حطمت الكثير من القواعد العسكرية المتعارف

---

عليها ، وللأسف غير متاح الآن الاطلاع على ظروف تكوينها وعملها .. » .

ونقول إن مجموعة القلعاوي هاجت أهدافاً تقع في رأس محمد بأقصى الجنوب من سيناء . وأهدافاً أخرى في بالوظة ورمانة شمال شبه الجزيرة ، في لسان التمساح ورأس العش ، وسدر ، وإيلات ، وعلى امتداد منطقة الخليج ويقول الذين عملوا مع القلعاوي إن الخليج لعبته ، وتتردد أقوال لم نذكرها كحقائق مفروغ منها - لأسباب عديدة - أنه قام بعديد من المهام في مناطق مختلفة من العالم ضد العدو الصهيوني ، ليست بالضرورة أعمال قتال ، إنها تضم مهام استطلاع وتعقب بعض العناصر المعادية ويوجد عدد من البرقيات لدى أسرته وصلت في الأسابيع التالية ليوم الجمعة ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، من فدائيين فلسطينيين ، ومقاتلين من جنسيات مختلفة ، وقع بعضهم بالأحرف الأولى ، وإذا ما أتيح للمهتمين بسيرته مقابلة قادة الوحدات الذين واجهوا العدو من رأس العش شمالاً حتى واقعنا المطلة على البحر الأحمر ، فإنهم سيسمعون قولاً يتردد كثيراً « لقد مر القلعاوي من هنا » ، أي أنه يستخدم المنطقة التي يرابط فيها التشكيل كقاعدة انطلاق ، سيجدون أنه عبر في توقيتات مختلفة فمن نقطة معينة تقع في مواجهة لسان بحيرة التمساح عبر مع الرجال أربع مرات خلال فترة زمنية قصيرة ، عبر في الصباح ، في الغروب ، في الظهيرة ، في منتصف الليل ، أول ضوء وفي

---

---

---

آخر ضوء ، ونظراً لأهمية شهادة هؤلاء القادة نورد فيها بيل بعض ما قالوه ، ومعظم هذه الشهادات جمعها رجال القلعاوى على أشرطة كاسيت صغيرة بهدف الاحتفاظ بها كوثائق .

\* \* \*

يتحدث العقيد أركان حرب (م . أ . ع) قائد تشكيل مقاتل في منطقة البحر الأخر .

... أتذكر هذا الوقت بدقة فالثوانى والدقائق ذات أهمية خاصة ، بالضبط الساعة الثانية صباحاً وخمس دقائق عندما وصل القلعاوى ورجاله ، الليل عندنا مختلف لا يوجد أى مصدر ضوء صناعى على بعد عشرات الكيلومترات ، لا يسلو لا معاً إلا النجوم وضيؤها الخافت وعددها الكبير . كل شيء يعمق صوت الليل حتى صوت البحر الغامض عندما يصطدم بالشاطئ الصخرى ويرتد عنه ، يحوى تحذيراً . هنا يكتسب الصوت الأدمى العادى أبعاداً ودلائل ، إن تسعل فهذا يثير انتباه الكمامين والدوريات المتنقلة وجندول الملاحظة لهذا .. (فترة صمت) .. أوشك الآن أن استعيد الأصوات المحدودة الخافتة التي صاحبت بجيء عبد الله عند الرجال أكثر مما قدرت ، وقف صامتاً ، لم يصدر أمراً بصوت عالٍ ، يتحرك كل منهم وكأن ثمة إتصال خفى يشدهم

إليه ، كأنهم يقرأون في وقته ، في استدارته ، في عقد يديه أمام صدره تعليمة أو أوامر معينة ، أذكر وقع خطواتهم الخافتة ، يمرون أمامي ، لا تبدو منهم تفاصيل إلا للحظات مارقة . يتوجهون إلى القوارب الراقدة في البحر والظلام ، كأنهم يتوجهون لقتال الليل نفسه ، يدخلون فيه . سمعت الكثير عن القلعاوى ، لم أره ، هو أقدم مني باربع دفعات كما أن مجال الخدمة الخاصة جعلني لا ألتقي به . لست أنا إنما معظم زملائى حتى زملاء دفعتي ، إذا ذكر أحدهنا أنه رأه فيقترن هذا بعمل قتالي ، إذا رأه أحدهنا ليتبدىء إلى ذهنه خاطر لا يمكن نفيه .. الله ، إن القلعاوى ما زال يعيش ، في هذه الليلة وقف على مسافة متر واحد من القلعاوى ، لم أسأله عن المهمة التي سيقوم بها الآن لأن من طبيعة أعماله السرية ، أو الطرق التي يسلكها في الناحية الأخرى ، مهمته محدودة تعطية الرجال أثناء الإبحار وتأمين عودتهم .. ( صمت ) أرى القلعاوى وكأنه أمامي ، عيناه تنظران في خط لا يجيد ، وجهه كان متطلعا إلى أعلى باستمرار حتى لو أطرق ، يبدو كأنه يقف دائمًا في وضع صفا ، حذاؤه جلدي ، ثيابه مشدودة إلى جسده ، سترته مليئة بمحبوب عديدة . هو مصمم هذه الشياب ، تتسع لأكبر عدد من القنابل والذخيرة وأدوات القتال عندما اتجه إلى نقطة إلإبحار لاحظت شابا قصيرا خفيف الحركة يتبعه . صوت المجاديف . هدوء السواد لا يكشف اتجاههم ، ثقل الليل ، لا فرق بين

---

---

المياه والأرض . المادة واحدة فيها عدا رائحة البحر . أصغيت طربلا ،  
إبحارهم أضاف عمقا للظلم والليل . هناك فوق نقطة معينة ، في اتجاه  
محدد .. يتحرك القلعاوى ..

■ \* \*

نص محادثة لاسلكية جرت بين القلعاوى .. وأحد الضابط الكبار  
الذى وقف يتابع عملية للمجموعة من فوق الشاطئ الغربى للخليج ، تم  
تسجيل هذه المحادثة فى ديسمبر ٦٩ .. فكت رموزها فيما بعد .

القلعاوى : مستمر ..

الضابط : نشاط الطيران فوق المنطقة .. أفضل التقدم نحو مكان  
الإبحار .

القلعاوى : استطلاع المدف ضروري ..

الضابط : انهى العملية .

القلعاوى : ( صمت ) .

الضابط : عدى يا عبد الله .. عبد الله .. سامح وليل فى انتظارك ..  
( القلعاوى يغلق الجهاز .. )

■ \* \*

---

---

يتحدث المقاتل (ل) أحد رجال المجموعة :

بعد أن اختارنى للعمل معه . وفي أول لقاء به . قال إن هذه المجموعة سوف تحارب عدو مصر في كل مكان . وتلاحمه وتصربه ، الجميع هنا يقضون أيامهم إما استعدادا للقتال أو في حالة قتال فعل . كل منهم جاء إلى الحياة ليقتل . طلب مني أن أحدهم عن نفسي . وفي البداية ظننت أنه يريد الإمام بالمعارك التي خضتها لكنه رفع ملفا أزرق ، قال إنه يضم أكثر مما سأقول ، فهمت ، حدثه عن والدى . عن الخطابات التي أرسلها كل شهر إلى عيالى . ما اشتريته لهم في بداية أجازاتى ، حدثه عن انتظار أهلى عند الجسر ، عن رائحة الغيطان الليلية ورائحة الصحراء ، لون المساء فوق قريتنا الأصوات الليلية في الجبل ، مرور الهواء بين شقوق الصخر وتدحرج الحصى وما يتركه في النفس عواء ذئب ضال أو باحث عن فريسة ، تكلمت عن الساقية القديمة التي ركبتها طفلًا ، ظننت عجلتها ضخمة جدا ، والبشر بلا نهاية ، بعد سنين كلها مرت بها أدهش وأنا أرى بثر طفولى السجقة مجرد حفرة ، حدثه عن رائحة الفول الأخضر وامتلاء الكوب حتى الحافة بالماء وصريح عجلات الترام عند المنحدرات وحدود المدينة وأول امرأة نراها بعد عودتنا تمشي في الطرقات الآمنة ، الرجال فوق أسطح القطارات . وعشرات الصبية يركبون جرارا زراعيا . فلاحت حملن قصصات المؤنة وذهن لبناء قاعدة صواريخ . صوت عجوز منهن

---

تقول « ما هو ده حيجوش البلاعنا » ، جندي مجلس الترقفباء فوق رمال الصحراء ، نفس جلسة أبي بجوار المصرف المجاور للزراعية ، لم يستوقفني ، لم يستفسر . لم يطلب إيضاحا ، لا . . . لم يصمت ، أذكر الموقف الآن فأذكر أنه بادلى الحديث مع أنه لم يلفظ حرفًا . تجعيدتان عند ركني فمه كأنه أصفع إلى خبر مؤثر . أو حزن قديم أو تساؤل محير أو حين إلى مسقط رأسه . يقولون إن هاتين التجعيدتين ظهرتا بعد موت عاصم زميل دراسته . زميل الكلية . مؤسس المجموعة معه وساعدته الآئم في كافة العمليات التي تمت حتى ذهابه في مياه الخليج . سمع صوت سقوط جسم في الماء ولم يسمع أحد صرخة أو استغاثة ، منذ هذا الحين اختفى عاصم ، كثيراً ما لمحته يقف عاقداً يديه ، أراه من بعد ولا أترين ملامح وجهه . لكنني أثق من وجود هذا البحث في عينيه ، ريان يستطلع . أرضاً لم تظهر بعد . يستمر واقفاً لفترة ثم يستدير فجأة ، لا أستطيع أن أتخيله يمشي متسلكاً في ميدان مزدحم ، يسافر إلى مصيف ، يدخن سيجارة أو نرجيلة بمحضها . كما عرفنا أن القلعاء لم يحصل على أي أجازة ميدانية منذ عام ١٩٦٧ . مع أنه ينظم أجزاءانا بنفسه ، وينبع من يسافر بعيداً يومين إضافيين حتى تكفي مدة السفر ، أقول الآن إنني عندما أفارق المجموعة متوجهها إلى بلدتي أشعر بخجل لأنني أسافر وأتركه . في أيام الجمعة يجيء مع سامح وليل ، تعرفها ويعرفان كلاً منا باسمه ، لماذا يوحى لنا سامح ؟

أراه دائمًا كانه رجل كبير صغير الحجم ، عندما جلسنا في صالة البيت . أضم شفتي بأسنان جاء ممسكاً عدداً من النياشين والأتواء وراح يقدمها إلى الحاضرين متتحدثاً عن المناسبة المرتبطة بمنع كل منها إلى القلعوي الآن يتحدث كل منا إليها بالטלيفون مستفسراً عنها إذا احتاجا إلى شيء ما ، أدير قرص التليفون متوقعاً صوت القلعوي وعندما يرد سامح أو ليلى أحاول أن أبدو ظريفاً ، يقولون إن القلعوي يتصل بها قبل خروجه إلى العدو لكن لم يره أحد بمدتها . عندما يغلق الباب تبدو شظايا الضوء من خلال المساحات البيضاء التي يهت من الطلاء الأزرق « يطلب شايا ، دخلت عليه مرة . رأيته منبطحاً فوق الأرض . حوله خرائط ، كتب مفتوحة لم تغلق ، مساطر أقلام ملونة ، أدوات هندسية ، شريط طويل من صور فوتوغرافية متعرجة ربما التقاطها بنفسه إذ إنه قام بتصوير بعض أهداف العدو بمفرده . أنا لم أصحبه مع أن مهمق القتالية تغطيته خلال الهجوم في الليل . في الصباح . في العصر . بمجرد انتهاءه من وضع خطة العمل . تصبح مجرد أوراق جاهزة للتصديق عليها من قبل المستويات الأعلى . نراه يخرج من المكتب ، يتحدث إلى بعضنا ، يصعد التبة الرملية بسرعة ، يقود دراجة بخارية يلف بها أرضن التدريب مرات ، ومرات . يدرك الرجال أن ثمة خطة اكتملت . لكل منهم دور محمد الآن . إن القلعوي يبدو مرحباً . خفيفاً . ربما صاح على أحد الرجال بدون أية مقدمات يسأله عن

أحواله ، ١ عن صحة أولاده ، مصاريف المدارس ، ربما استفسر عن أحوال أم مريضة بالسكر أو أب يعاني متابع الشيخوخة . عن تفاصيل مشروع زواج تبعي خطواته بسبب عدم الحصول على مسكن أو متابع مع أهل العروس . في البداية يفاجأ المنضم إلى المجموعة حديثاً بأسلوب القلعاوي المفاجئ . المباحث تماهاً كهجومه أو ظهوره فجأة وراء خطوط العدو ، اعتدناه ، يعرف كل شيء عننا ، أسماء أطفالنا ، ١ عدد الأقساط التي يسددها كل منا ، بل قيل إنه يحدد دور كل منا طبقاً للحالة النفسية للفرد . أثناء عبورنا المياه أو مشينا فوق الأرض هناك . برغم تباعد المسافات بين الأفراد . فإن القلعاوي يتمثل الحالة النفسية التي عليها مقاتل الاستطلاع في المقدمة أو فوزي وحسان في أقصى المؤخرة تماماً كالقلب يدفع الدم إلى أقصى أطراف الجسم لكن هل يرى الدم أثناء وصوله إلى أطراف الأصابع ؟ كل مقاتل باتجاه المدف كوحدة مستقلة . شعور يتملّكه بأن القلعاوي يراه . يدرك ما يتزدد بين طيات نفسه ، يزداد في الخوف ، دقة الشجاعة . شجن ذكري معينة . ماذا يجعلني للمشي أيامًا ؟ أفي في قتال ، ماذا يجعلني أفقن أنني عشت بما يكفي ولو فقدت عمري فسوف أقبل هذا ببساطة ، أهوا الوطن ، الحقد على العدو ، أو التاريخ الذي جعله القلعاوي مادة في برنامج تعليمينا ، أهي طريقة حديثه عن شهداء المجموعة وضرورة الثأر لهم . يقول أحد زملائي . بعد

كل حديث للقلعاوي أشعر أنني ازددت ثقافة ووعيا . يقول القلعاوى باستمرار ، لا بد من معرفة العالم ، هناك شىء مباشر يمكننى أن أشير إليه . أمسكه بيدي ، أحسه . أشعر بوقع نظراته . له كيان وحركة وجود . يمكننى القول إننى أفعل هذا لأننى كفء ، إننى عند حسن ظنه ولم يخطئ فى اختياري مقاتلا إلى جواره . أرى القلعاوى أثناء سفرى واقفا فى خصبة الحقول ينظر إلى المجهول من خلال منظاره ، أراه بينما فوق نقطة ما من سيناء . تفاجأ بهجوم مضاد . أتقدم منه . أقول له . . . « يا أتقىدم . اسمح لي أن أحى انسحبكم » ، أقبل راضيا وأنا أعلم ما يتطلبه بعد عدد معين من الدقائق . قالوا عنه إنه محجب وأن من يقاتل معه لا يصاب وأن رجالا سودانيا عجوزا أعطاه حجابا وأن هذا الحجاب يحمله في مكان ما من ثيابه وأنه يمنع نفاذ الشظايا إلى جسده . لم أر الحجاب ، قيل إنه قادر على رؤية الرصاصية والشظوية في مسارها أنه ينفذ بين الطلقة والطلقة . قالوا إنه عاش دائمًا بعقلية من يمر مرورا عابرا بالدنيا لهذا اندفع دائمًا في اتجاه الخطير . قال عنه البعض . « القلعاوى وش موت » . أراه صامتا كأنه يطمئنى ، أسمع صوته دائمًا في أذنى . وفي لحظات انتقالى من اليقظة إلى النوم كل ليلة . مع أنه لم يتحدث إلى كثيرا ، لا أذكر صوته غاضبا . غضبه صامت باتر ، لم يتحدث إلى كثيرا أنا أقرب الناس إليه في وضع المجموم . لم يرتفع صوته في تمام الساعة الثانية عشرة والربع من ظهر الجمعة

---

---

١٩ أكتوبر . قال كلمة واحدة صدّاها متصل في أذن حتى الآن . واضح كالطلقة الكاشفة التي تجرح صدر الليل بلونها الأهر .

« غطيني . . . . . »

\* \* \*

نص حوار جرى بين اثنين من ضباط مخابرات العدو أمكן الحصول عليه . . . ونرى ضمه إلى مقتطفات السيرة لأهميته .

المكان : مقهى قديم بالشارع الرئيسي بمدينة العريش المحتلة .

التوقيت : الساعة السادسة بعد ظهر أحد أيام نوفمبر الأولى عام

. ١٩٧٣

ضابط (١) : إنني أميل إلى وضع الأمور في حجمها الطبيعي .

ضابط (٢) : ما أسهل هذا بعد وقوع حدث كبير . . . حرب . . . معركة . . . الحقيقة تضيع تماما .

ضابط (١) : كنت ستصوّل شيئا . . . ما هو ؟

ضابط (٢) : تبدو الحقائق شاحبة بعد انتهاء الحدث . .

ضابط (١) : حصولكم على جنته . أمر لا يقل أهمية عن موته .

---

---

ضابط (٢) : قلت إنه من السهل اقتراح كل شيء بعد انتهاء الموقف نفسه .

ضابط (١) : وددت لو تأملته حياً أو ميتاً .. في معلوماتك عنه هل تعرف كم عدد الساعات التي يامكانه أن يمشيها ؟

ضابط (٢) : توشك أن تردد بعض ما توهّمه رجالنا الذين فرغناهم لقتله .. لا أعرف بالضبط قدرته على المشي .. بعضهم نسب إليه أموراً خارقة كقدرته على المشي أسبوعاً متصلافاً أصعب الأرضى .. ستقول لي قدرات الإنسان وإمكاناته . لكنني أحفظ .. أذكر عبارة رددتها عدد من الأسرى أثناء استجوابهم .. قالوا إن ثقته بقدرات الإنسان لا حدود لها . وهذا أول شيء يقوله من يعمل معه .

ضابط (١) : انتهى كل شيء الآن .

ضابط (٢) : ومازالت أقول .. إن الحقيقة لن تبدو كما كانت عليه أبداً ..

ضابط (١) : ربما ..

\* \* \*

وعندما علم العقيد أركان حرب ( . ق ) بمشروع جمع سيرة عبد الله

---

القلعاوى .. طلب أجازة لمدة اثنى عشرة ساعة ليقص حادثة معينة ..  
لهذا نوردها كنتيجة لإصراره . وربما تبدوئ غير موضعها .

أنا مدین له بعياق شهد النهاية والبداية . لم أره إلا مرة واحدة عندما حدث هذا منذ خمسة عشر عاما . اشتراك في دورية سير لاختراق منطقة وعرة من الصحراء . أمامنا بدأ اللون الأصفر لا نهائيا . العرض كالطول . نمشي . وخط السماء لنطبق على ثابت لا يتغير ، تجردنا من ثيابنا قطعة قطعة ، حاولنا حفر الرمال لتدفن رعوسنا ، شربنا بولنا ، تشقت حلوقنا ، ! الشمس كمصابح قوته ألف ألف وات لا يمكن الهرب منه ، لا يمكن اليقظة ولا النوم ، وكما قيل لنا إن القلعاوى الذى اشتراك كعضو فى هيئة التحكيم أبدى قلقا . لم نقلق نحن . لم تتماسك أصابعه ثم تنفرج . لم ينقل ثقل جسدة من ساق إلى أخرى يقولون إن عينيه ثبتتا في اتجاه واحد مزدوج إلى بطن الصحراء . فجأة طلب من رئيس الهيئة السماح له بالاتجاه إلى عمق اللامائية بحثا عن المفقودين . بسط الخرائط . يقول الذين شهدوا الموقف إنه اختار أصعب الطرق الذى يتبعه على خط سير الطابون « حمل بعض زمزيميات المياه وعددا من القنابل الصوتية » للأسف لم يحدثنى عنها لأقاوه في الجبل والصحراء . ما أعرفه أنه مشى ساعات متصلة في درجة حرارة تقارب الأربعين وعلى مسافات معينة يفجر قنبلة حتى يلفت أنظارنا إلى أن هناك من يبحث عنا . وعندما سمعنا انفجار القنبلة

---

تصاينا ، وقفنا عرايا تماما ، بدا القلعاوي لنا كأنه يخرج من باب بيت ظليل مستفسرا عنها جرى ؟ . قدم إلينا جرعات قليلة من الماء في غطاء الزمزيميات . جرعات لا تكفى ليل أفواهنا . تطلعنا بشرامة إلى الزمزيميات المغطاة بقماش أصفر سميك . بدا حازما حتى أتنا لم نفك في طلب المزيد تصور حالتنا ، الجوع ، الظماء ، الإنهاك ، الخوف ، ! مع هذا عدنا مع القلعاوي مشيا على أقدامنا .. قبل وصوله بدا مستحيلا أن نخطو مترا واحدا ! مشينا سبع ساعات معه . لم نتوقف لحظة لم نقدر لم يشجعنا إنما بادلنا حديثا وديا عادي ، بين الحين والأخر يقدم لنا قليلا من الماء في غطاء الزمزيمية المحدود . تحدث إلى الرجلين اللذين جاءا معه حديثا موجزا . للأسف لم أعرف من هما ولا أدرى مصيرهما الآن . تقدمنا القلعاوي بخطوات ، ! كان لغة خفية بينه وبين رمال الصحراء ووحشيتها . خلت الأرض من العلامات المميزة والكتابان ومع ذلك بدت خطواته راسخة في اتجاه اليمين واليسار وإلى الأمام . في الصعود والتزول ، احتملنا المشي معه ، كيف لا أدرى الآن . لم يشك أحدنا ، لم يقل لفظا ، أو ، آمة .. هذا هو القلعاوي ..

\* \* \*

توجهت اللجنة الخاصة بجمع السيرة إلى المقاتل (ك . ي) رئيس

عمليات المجموعة السابعة . طلبت منه كتابة فصل عن آراء القلعاوي العسكرية وانطباعاته عن الحياة والناس كما عرفها (ك . ي) الذي يعتبر من أوثق الناس صلة به . لكنه رفض تقديم أي معاونة . قال إن كثيراً من الفضوليين وكتاب القصص والصحفيين السطحيين سيتخذون من هذه المادة فرصة للكتابة عن القلعاوي ، ماذا سيقولون عنه ؟ إنه عاش بطلا ؟ إنه شجاع ؟ إنه قام بعبور القناة وسبأه أكثر من تسعين مرة . هل هذا ما يجب أن يقال عنه حقيقة ؟ ثم ينسون كل شيء . قال (ك . ي) أنه لن يشارك في استباحة دم أقرب الخلق إليه . قال إن القلعاوي يجب أن يذكر بطريقة أخرى أنه يعيش هنا - خطب صدره براحته - في رجال المجموعة . في كل من خدم معه ، لا يتعقب سيرته من يرغب . لكن (ك . ي) سوف يذكرها بما يليق بالقلعاوي ، لن يروح بأي شيء لأى لجنة ، أو

صحفي ..

\* \* \*

## قسم به معلومات عن الأوسعة والنياشين ١

في حجرة الاستقبال البسيطة ينزل القلعاوي (يلاحظ بساطة الأثاث وخلو البيت من كل ما هو زائد عن الحاجة) ويرجع البعض هذا إلى الظروف التي تم فيها زواج القلعاوى ، إذ إن أسرة زوجته عارضت الاقتراض به . فاضطر إلى فرض الأمر الواقع عليهم ، تحمل القلعاوى كل تكاليف تكوين البيت ويبدو أنه استكملا بعض الحاجات خلال العام الماضي إذ توجد فواتير شراء سواب كتب ، ورديو ضخم به بيكت أب وتاريخ هذه الفواتير يعود إلى شهور خلت ، ويقول البعض الآخر إن بساطة ترجع إلى شخصية القلعاوى ، لم يره أحد يعتنى بالظاهر . بل إنه لم يرتد هو أو امرأته أو عياله أى ثياب مستوردة . وعلق على هذا يوما في حديثه إلى أحد أقاربه قائلا : إذ لم نرتدى نحن مصنوعاتنا الوطنية فمن سيرتد بها إذن ؟؟ .. في مواجهة الصالة توجد مجموعة كبيرة من براءات النياشين والأتواء التي حصل عليها عبد الله بعد أسبوعين من ١٩ أكتوبر أخرجت السيدة ماجدة القلعاوى هذه البراءات والنياشين . وقضت ليلة كاملة تعلقها بعناء ، تملأ فمه بالمسامير الصغيرة ثم تتناول واحدا وراء الآخر لتدقه برفق حتى لا توقظ سامح دليل ، ويبدو أن ابن القلعاوى عرفا

---

---

الخبر في هذه الليلة ، من الثابت أنه لم ير غب في عرض هذه الأنواط والنياشين ولم يعلقها على صدره نظراً لارتدائه الأفرو باستمرار . لكن شوهد مرة يتوجه لمقابلة أحد القادة الكبار ويعلق مجموعة من النياشين (تشخلل) على حد قول أحد زملائه الذي قال إن أي مقاتل يود لوحصل على وسام النجمة العسكرية مرة واحدة ، القلعاوي حصل عليه ثلاث مرات . ويمكن القول إنه لا يوجد مقاتل على امتداد تاريخ الجيش المصرى حصل على مثل هذه المجموعة ، في هذه الليلة وضع السيدة ماجدة نوذجاً صغيراً لطائرة ميج ٢١ فوق منضدة صغيرة كتب عليه :

« إلى العميد أركان حرب عبد الله القلعاوي » .

إن عملية اقتحامكم للسان التمساح ، وتدميركم لموقع صواريخ الموك .. من العمليات التي سيدركها التاريخ بالفخر والاعتزاز .

مقاتل طيار زميلك

٦٩/٧/١٧

■ \* ■

---

■ يتحدث العقيد صابر .. وهو أحد من شهدوا اقتحام القلعاوي للسان التمساح ومهاجنته قواعد صواريخ الموك » .

---

---

بدأ القلعاوى مضطرباً ، وعندما أعلن قراره قلت إن هذا جنون ،  
وقلت لرئيس عمليات ..

« إن عودته إلى الضفة الشرقية أمر في غاية الخطورة .. » .

لكنه كما يقولون « لا يقبل هذا أبداً ، وشاء حظى لأن أشهد إحدى هذه اللحظات التي يتحدى فيها القلعاوى الخطر والموت » لو جرح أحد رجاله لابد أن يعود به ، لو استشهد فلابد أن يقاتل حتى يعود بجثمانه ، ربما يفسر هذا ذلك القتال المر الذى خاصه رجال المجموعة السابعة جنوب الاسماعيلية ظهر الجمعة ١٩ أكتوبر . اندفع في اتجاه القناة . رأسه عار فهو لم يرتد خوذة قط . الاندفاع الإنسان الأبدي في اتجاه المصير المحدد . رفينا درجة الاستعداد للدرجة القصوى ، وبدت السهام بصفاء يوليو منبعاً للهلاك ، اضطرب قارب المطاط قليلاً ، جنح إلى الشمال امتاراً ، ثم استقام في اتجاه الضفة الشرقية . وقفزت سمة ضخمة من الماء مرات . اختفت . كقبضة صارمة بدت كتلة الدخان الناتجة عن انفجار دانة الهalon ، انبطح مع رجاله الأربع الذين صحبوه ، قاموا ، تقدموا ، انفجرت دنانات أخرى ، تحمد الدخان في الفراغ . وسمعنا في الدشم والختنادق والملاجيء صوتاً عالياً نفذ عبر الشظايا ..

- يا سعيد .. يا سعيد ..

---

---

ينادى رجاله الجرحى ، كيف يصدر هذا الصوت المرتفع القوى من القلعاوى « الهدىء » المستكين .. الذى لا يتحدث إلا همسا ، اختفى عن ابصارنا » لم نر مصدر النداء . بدا قادما من الأرض والساتر الرملى . من عند خط السماء المطبق على الأرض .

\* \* \*

ما أدلى به أحد مقاتلى المجموعة السابعة .. لم نذكر اسمه لأن زملاءه وصفوه بأنه « مطلوب » أى أن العدو وضع اسمه في قائمة من يحاول الانتقام منهم ..

أنا عملت مع القلعاوى . أنا أحد الثلاثة الذين عاد بهم القلعاوى من لسان التمساح . حطوت معه فوق سيناء ، رأيته طيفا ليلا ، يخطو بلا حس يسمع ، يصدر أوامره بصمت ، يمشى الساعات الطوال فيخجل الواحد منا أن يصرخ بارهاق ، يتعب ، يتحمل .. يتحمل حتى يثبت له أنه جدير بالقتال إلى جواره أنا حاربت معه ، ! هو اختيارنى . اختارنا واحدا ، واحدا ، حاربنا معه إسرائيل . بعد فترة معه عرفنا عنه كل شيء ، عرفنا أن القلعاوى جاء إلى الدنيا ليقاتل . لم يتحدث الواحد منا إليه كثيرا ، لكن كل خروج معه يقربنا إليه مسافات ومسافات . أنا عبرت معه ستة وثمانين مرة ، سلكتنا معه الأصعب دائمًا ، إذا أتجهنا إلى هدف

---

معاد فإن ثمة ثلاثة أو أربعة طرق تؤدي إليه ، نسلك نحن الطريق التاسع ، قضينا معه الساعات الطوال فوق رمال سيناء لم يتقييد بتوقياتنا كما يقولون إنه يندمج تماماً في القتال ، يصبح ميلاده مع بدء العمليات ، لا مجال معه لاستدعاء التفاصيل ، لرفيق الصور ، معه يت天涯 الخوف القلق . ألم بتفاصيل الأرض التي غر عليها ، أثناء عبورنا الخليج ، مياه البحر جزء من سواد الليل ، ينظر إلى النجوم ، إلى الماء ، يطلب تغيير الاتجاه عدة درجات ، يذهب الدليل بقدرته على اتفقاء الأثر أطلق أسماء معينة على مناطق الصحراء المختلفة ، توجد الآن كراسة في درج مكتبه - (لم يدخله إنسان منذ الجمعة ١٩ أكتوبر) حتى تليفونه المباشر لم يستعمله أحد ، كثير ما سمعناه يرن ، أحدهم لم يعرف بعد ، في الأيام الأولى تكرر الرنين مرات ، ثمضي الأيام ويقل حتى يصبح نادراً ، لم يرد أحد ، حتى هذا الرنين الذي بدد صمت فجر الثلاثاء الماضي ، صحبه اصرار ، ايقط النيمانا ، لم يرد أحد ، ويدا صوته قادماً من صمت الليل يذكر (بعد الله القلعاوى) - في هذه الكراسة أسماء وعلامات اطلقها على الصخور والتلال ، أسماء زعيماء اقطع صورهم من مجلات والصقها فوق ورق أسود مقوى ، أحد عرابي ، سعد زغلول ، إبراهيم باشا ، إبراهيم باشا ، أعرف أنه أطلق أسماء ولديه وأمراته وشهداء المجموعة على بعض مناطق سيناء ، لو سأله عن شارع قصر النيل في وسط المدينة ربما أخطأ الرد ، ربما

لم يره إلا من نافذة سيارة » رأيت القلعاوي يطوف بارض الطابور ، كأنه يمشي على حافة افريز مبني ضخم ، يمشي محاذيا حدائق مزدحمة بالأطفال والنساء والرجال والصراع والمرح ، كأنه يلامس أطراف موجات هدا صخبها عند الشاطئ ». أنا رأيته ينظر إلى النساء الليلية عند أطراف معسكرنا بالصحراء الوسطى ، أيستلهم ملامح خطة ؟ أيفكر في تطوير زناد سلاح بحيث يصبح أسرع بمقدار جزء من الثانية » أيمهد نفسه ليفك أسرار وشوشات النجوم » سمعته يقول » النجوم للرمال وشوشة .. أعرف أنه نظم شعرا » لكنني لم أقرأه ، لو فتحوا أدراج مكتبه ربما عثروا على بعض قصائده ، أحيانا رأيته أكثر مما أرى نفسي ، أحيانا بعده بمسافات عن غير أنني منذ ١٩٦٩ أكتوبر يتيم ، أمشي بساق واحدة ، وأحرك ذراعا واحدة ، ربما أستعيد ما فقدته لو طرقت الأرض نفسها ، الدروب التي سلكتها معه فوق سيناء أقول .. من هنا مر القلعاوى غير أننى الآن أطرد الأسى عنى فأقول لكل من القاه ويلقاني .. أنا عملت معه ..

\* \* \*

ذكر بعض مشاهد متفرقة من حياة القلعاوى :

• مطعم بميدان الحسين ، ! الموائد مصفوفة فوق الرصيف ، تغرق المبانى في الظلال ، عابر و الميدان يسرعون ، إنها اللحظات التي تسحق

---

---

مدفع الأفطار ، مائدة حولها سبعة أشخاص يتصلون بهم القلعاوى ،  
ابتسامته هنا راضية ، تعكس راحة وكان أمرا خطيرا تحقق وكأنه سيقضى  
عمره مجاورا للحسين ..

● يتأمل زعافن مطاط تستخدم في الغطس ..

● السبت ٦ أكتوبر ، يدير قرص التليفون .. ماجده ..  
مبروك .. الحرب قامت ..

● أمام باائع كتب قديمة اعتاد فرش بضاعته على سور مستشفى  
الولادة وسط المدينة في السباء غمامات بنفسجية ، يقف البائع محيا « يقول  
القلعاوى . « أهلا عم كامل .. » .

● على باب طائرة هيلوكبتر ، تطير على ارتفاع منخفض جدا ، تبدو  
بيوت المدينة ومع ضوء النهار الواهن يلمع القلعاوى ظل الطائرة فوق  
الاسطح والطرقات . عند نقطة معينة فوق المبانى تبدو على شفتين نفسم  
الابتسامة الموجزة الغامضة والتى قال البعض أنها نتيجة تفجر ذكريات  
معينة ، بينما أكد آخرون أنها ثمرة خواطر عابرة ربما تضمنت مرحًا . وفي  
الشهور الأولى من زواجه حارت السيدة ماجدة في تفسيرها وسألته كثيرا عنها  
يفكر فيه ، عندئذ تختفي تلك الابتسامة الدقيقة الموجزة ، واعتادتها إبرأته  
كأحد ملامحه .

---

---

## ● منتصف ليلة الثامن عشر من أكتوبر يقف أمام (س) بمركز العمليات

القلعاوى : هل يمكننى ان اوضح  
(س) الموقف كما أرى واضح ..

القلعاوى : لقد قلت ملاحظات « وبرغم هذا سأقوم بها .. لم تسمع  
بقية الحوار تماما كما أن المقاتل (د) الذى رأى القلعاوى بعد خروجه مباشرة  
يؤكّد أن الشعور الذى خرج به إلى تلك العملية مختلف تماما لكافّة  
العمليات التي قادها ، قال (د) أنه لا يستطيع وصفا حالته بالضبط .  
لكنها تستدعي إليه حادثا بعيدا من طفولته ، إذ حدث أن خرجت أسرته  
للسفر إلى بلدتهم وعند القطار راح شقيقه الأصغر محمد يشد ثوب والدته  
إلى الوراء كأنه يود الرجوع إلى البيت ، بمجرد وصولهم أصيب بمرض  
لا يدرى (د) حتى الآن طبيعته أو اسمه ، ما يذكره أن شيئا اسمه (أبو  
درية) جاء مرات ليضع على جبهة شقيقه أحجوبة مثلثة صغيرة ويقرأ الكثير  
من التعاويند . آخر صورة يذكرها لشقيقه رؤيه ملفوفا في أغطية وثياب  
تحفى جسده ، لا يبدو إلا رأسه وعيناه فيها استسلام عجيب . سنوات  
طويلة تلت هذه الزيارة وأمه تقول : شعر محمد بما يتظره « عرف أنه لن  
يعود ، لو أتنا رجعنا معه لعاش وبلغ الآن كذا من السنين . يقى (د) أن

---

القلعاوى استشهد نتيجة عملية التاسع عشر من أكتوبر .. عندما استدعتهم السيدة « ماجدة » لتعرف من كل مقاتل في المجموعة السابعة تفاصيل الساعات واللحظات الأخيرة لزوجها ونوعية المشاعر التي ارتسمت على وجهه كاد ( د ) أن يقول لها ما يشق فيه ، ان القلعاوى خرج وهو يعرف بل موطن بما سيحدث أطرق ( د ) فكرفي صعود القلعاوى تبة الرمل . لو تأخر خطوة واحدة لا خطأته الشظبية ، لو خطأه إلى الأمام لما نفذت إليه ، لو تبادل مكانه في المقدمة مع مقاتل آخر . لو تأخر التوقيت دقائق لو اهتزت فوهة المدفع لحظة خروج الدانة ، لكن كما قال أحد الرجال أن هذه الشظية انتظرت اللحظة المناسبة بعد أربع وتسعين عملية عبور واستطلاع وقتل ..

• قرب الاسماعيلية . يلتحم رجالا عجوزا يسند ذقنه إلى عصاه وامرأة شابة وطفلة ولحافا مطبيقا وطشتا به موقد غازى . قال عبد المؤمن السائق .. لاجئون من القرى التي احتلها اليهود .. قرض القلعاوى أظافره .

• قبل خروجهم من القاهرة في نهاية طريق صلاح سالم ، فوق مساحة خضراء شبان يرتدون ثيابا كاكية . حولهم حقائب جلدية بعضها مفتوح ومقدم ما يستخدم في الجلوس بالشرفات يدقون أو تادا خشبية تمهدوا لشد خيمة لم تفرد بعد ، هل رأى بينهم فتاة ترتدى الزي الأصفر ، فكرفي

---

---

---

ليلي ، عندما تبلغ الرابعة عشرة .. الخامسة عشرة . سيدعها تسافر بمفردها تكتشف مصر .

■ قبل تبة الرمل ، يتقدم المقاتل (ك) يقف بجوار القلعاوي .

— دعني اتقدم إلى أعلى التبة .

يلتفت إليه عاري الرأس لم يرتد خوذته طوال عمره أبدا في كافة العمليات .

— أرجع ..

— سأتقدم أنا .. الموقف غير واضح ..

يقبض القلعاوي ما سورة الرشاش .

— اسمع .. أنا لم أصدر إليك طلبا في صيغة الأمر أبدا .. الآن أطلب منك أن تلتزم مكانك .. نفذ الأمر ..

على مهل راح يتسلق التبة الرملية تتناثر ذرات رفيعة حول كعبية ..

\* \* \*

ورقة من ملف الخدمة .. تحرر في ٤/٧/١٩٧٣ البيان التالي  
بالاصابات الناتجة عن القتال .

---

آثار طلق ناري بالساق اليمنى . التاريخ ١٩٦٥/١/٥ اليمن

شظايا بالرأس ، التاريخ ١٩٦٧/٦/٧ ، رمانة .

شظايا بالساق التاريخ ١٩٦٩/٤/١٩ ، الطور .

\* \* \*

#### ذكر السيدة زوجته وبعض أحواهها :

حدث في ليلة الجمعة ١٩ أكتوبر أن نزلت السيدة ماجدة الموارى .

عبرت فناء البيت تنظر إلى الأمام . خطواتها متتظمة . وقفت لحظة أمام مدخل البيت ورأت فتاة تحمل سلة يطل منها مقدمة أربعة أرغفة فينو وتنسق علبة زيت خضراء اللون عليها اسم أسد ، ورأت شاباً يمسك يد صديقته . ومررت سيارة بداخلها خمسة أشخاص يرتدون ثياباً بلدية ، وعلى مهل خطت قطة سوداء فوق جسدها بقعة بيضاء كبيرة . ولاحظت أن عمود النور المواجه للبيت به فتحة قرب قاعدة السفل تطل منها أسلاك كهربائية عارية . وفكرت أنه من الممكن أن تصفع هذه الأسلاك طفلأ أو رجلاً أو سيدة عمباء ، وعندما توقف التاكسي فتحت الباب بدون أن تنحني ولو رآها أحد رجال المجموعة السابعة أو أحد زملاء القلعاوي في الكلية الحربية ، أو الذين عملوا معه في الصاعقة ، أو أحد الذين حابوا معه في بورسعيد واليمن وسيناء . لرأى نفس الطريقة التي يقدم بها

القلعاوى على ركوب سيارة . نظر السائق في المرأة المغلقة فوقه . سأله إلى أين !! « العباسية » ارتفع صوت المحرك . ولاحظت أصوات الشوارع الخافتة ، وفوق الأرصفة وخلف النوافذ المغلقة وفي الشرفات المهجورة يطل عبد الله القلعاوى هادئاً على وجهه ابتسامته الآمنة كعطر الورد تصعدى إلى مذاق حسه الهدىء . « لا تبكي » . حازم . باتر كطلقة لا يريد لها أن تبكي . وهي لم تبك بل فكرت في لحظة خروج الألفاظ من شفتيها وهي تنهى الخبر إلى والدتها . تسألاها عما يجب عمله مع الأولاد . فكرت ، أنها بدوا يوم أربعة ، واليوم الجمعة ، البداية لحظة زيارتها لاخته منذ أربعة عشر عاماً ، دخوله الهدىء إلى شرائينها ، هدوء عينيه الذي لم يتغير عند خروجه إلى عملية أو عودته من دورية . وعندما قبلها بعد لحظات من انجابها ليل . الرؤؤية الأولى حوت كل شيء » . ضمت كل التفاصيل التي تكشفت واحدة أثر الأخرى على امتداد أربع عشرة سنة ليل عمر العلاقة . ليل الآن صديقتها وستندها وليس ايتها فقط وهي من ستطلع إلى عينيها إذا ما طرق باب البيت غريب ، وهي من ستري في وقوتها وقفه عبد الله . تماماً كوقفه في الشرفة . أو أمام مدخل البيت يتضرر السيارة . ستختضنها تدعوها إلى جوارها وتقول لها ، إن أباك سينتأخر ، لو طلبت ليل وسامع رؤؤة التليفزيون أو سماع الراديو أو إحدى اسطوانات عبد الله . فلن يقانع . هكذا يريد . توشك أن تلفظ اسمه الآن ، توشك أن تشم رائحته

---

أثناء عودته طوبل اللحية ، يطلب قرفة ماء ساخنة . في بدايات الليل بعد أن يغادرها تصفع إلى صوت هيلوكتر يعبر الليل والصمت وال عمر . ترقب طمأنينة ساحق وليلي . تخرج إلى الشرفة حتى في أيام الشتاء ونزلول المطر . تتدثر بالمعطف . ترقب اكتمال الليل ثم شحوبه وبدايات الفجر . تكاد تتبع العملية ، بعد نصف ساعة سيخطو هناك . هذه هي المرة الخامسة . الواحدة والخمسون .

لم يمحك لها تفاصيلا . وقع خطواته هناك يتعدد عبر ضلوعها الأربع والعشرين . لا تذكر أنه قال لها « أحبك » . قبل زواجهما يستمر صمتها لحظات . فجأة يقبض يدها كأنه جناح طائر غريب . تأمن وتسكين قال إن أيديها حلت عباء التعبير عن عواطفهما زمانا ، نظرته إليها حلوة ، هادئة . فياضة لا ترجمها دانات . لا تحرجها شظايا . بعد عودته يتمدد بكمال ثيابه الكاكية . تستعيده من جديد . رجوعه كالولادة يبدو فرحا كالطفل . خلق شيئاً جديدا . بعد رجوعه موفقاً تدركها نفس هزة البداية قالت له أنها خافت إلا يستمر الوجه بعد زواجهما . أن يدركها ملل . ابتسם . لا يعيش الملل والخطر . قال أنه أكثر جرأة على مواجهة الخطير بعد حياتهما تحت سقف واحد . تململ أصحابه تستكين يده الليلية الضخمة . مع عودته تعيش سعادة دافقة . كان المفروض أن تحرم منه أن يخرج لا ليعود يرجع أولاً يرجع ، السيدة مجدة الموارى الآن لا تبكي . تتن

---

أنه يرقبها من مكان خفى ، يراها ، يدرك رجفات قلبها ، عليم بما سيحدث لها غدا . يرى عمرها الآن ، الآن لن تبكي وسبل الاتصال بينها مقطوعة ، خلال الأيام المقبلة ستبر هذا الطريق مرات . في نفس الاتجاه . في الاتجاه المقابل لن يصحبها . لن تجلس إلى جواره بينما نطل ليل وساحر من النافذتين الخلفيتين ، ستعبره ليل يتيمة عندما تصير طالبة . هلستمر الميلوكيتر في نفس الميعاد ؟ لن تنتظر ، تخشى لحظة تستيقظ فيها يملؤها يقين أنه يقف في الصالة . إنه أعد الشاي بنفسه . إذ تجلس إليه قد يبدى ملاحظة حول آخر لحظة ، حول بعض رجاله . أنهم يتشارون حوله ولكته في الظلام يبدو كرائق المعدن المشتبة إلى أجهزة اليكترونية معقدة يتلقى ما يشعرون به أما هوفلا بيوح بالامه فقط . لا يزعج محبيه . عندما أصيب بشظايا في ساقه قرب مطار الطور ، مشى فوق الصخور ، عبر الخليج ضفت ألمه حتى وصل إلى معسكر الإقلاع . لم يقل آهة واحدة وضع يده بين أسنانه وراح بعضها . يقتل الألم بالألم . أيام خطوبتها بين الحين والحين يهاجمه صداع غريب تعقبه فترة من الوقت تغيم الرؤية دائمًا عن عينيه حتى يصل إلى لحظة لا يرى ما يحيطه إلا بصعوبة عرفت فيما بعد ضرورة إغلاق العينين عندئذ . لكنه ظل مفتوح الحدقتين دائمًا . ينفي علامات الضيق من ملامعه . يستدير ليتناول قرصاً أصفر . سأله . قال إنه صداع لكن أي صداع ؟ تراجع البيوت بسرعة ، عندما يتأخر أو

يقضى ليته في المقر تتصل به حوالي الثالثة صباحا . ربما تبادلا كلمة أو كلمتين أما الآن لو أدارت الرقم في نفس الميعاد الليل المتأخر « من يرد . من يجاويها من . ؟ ستلتقي بكل من رفاقه تستجوبهم بدقة . تعيش من خلامم لحظاته الأخيرة . آهته الأخيرة هل لفظها أم كتمها ؟ عندما تسألهما أنها ستنقول كما قال عبد المؤمن « مات مية نتمناها كلنا ، جاءت الشظية في موضع القلب تماما » ، عندما تستفسر أنها عن الجثمان ستنقول « رجالاته جابوه » إذا نظرت أنها إلى عينيهما الجانحين ، إلى نظراتها الحادة المستقيمة ستنقول إن عبد الله علم كل من ي يعمل معه أنه لا حدود لقدرة الإنسان لما يمكن أن يقدمه ، أن يتحمله . حتى الآلام الوعرة يمكن فهرها . شظايا في الساق كانت أولى في صميم القلب لهذا لن تبكي قط . لن تدمع أبدا .

هامش آخر :

أجمع عدد كبير من مقاتلي المجموعة على أن القلعاوي يخرج في كل عملية وهو يعلم احتمالات موته . لكنه في العملية الأخيرة بدا موقنا من النتيجة . من الموت . هكذا تقول كل الدلائل . لهذا تم التوجيه بسؤال (ك . إ) رئيس العمليات وأقرب الخلق إليه مع احترام رغبته في عدم الإدلاء بأية تفاصيل . قط يحب بالتفى فيها أو الايجاب « كيف بدا القلعاوي تلك اللحظات التي واجه فيها (ك . إ) وطلب منه بصيغة الأمر لأول مرة عملاً معاً ان يلزم مكانه ولكن (ك . إ) عندما وجه إليه

---

---

السؤال بدا حزيناً كأنه تقدم في السن أعواماً عن اللقاء السابق الذي تم  
معه منذ أسبوعين . لم يتكلم كثيراً لم يجد ساخطاً . لكنه رفض الحديث  
رفضاً باتاً ..

١٩٧٤

**السبّوبة**

〈 ٢٠٩ 〉

جمال النبطان

حدث ليلة الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ ، أن طارت شظية من دانة هاون ٨١ ملل إسرائيلية الصنع ، حد من انداعها في الفراغ ربة عويس السويسى فذبحته ، دفن على عجل بمقابر اعدت بسرعة غرب المدينة ، لم توضع فوق قبره لوحة تحمل اسمه ، لم ترصن حوله أحجار بشكل منتظم ، لم تغرس عصاه تحمل خوذة . لم يرتد عويس خوذة أبداً إذ أنه لم يمهد في صفوف الجيش ، لم يتسلم أى مهامات بعد انضمامه إلى المقاومة أثناء الحصار ، حدث أن ارتدى خوذة مرة واحدة عندما جلس صباح يوم غائم الى جندي صعيدي يقهى أبي رواش الذى تهدم جزء كبير منها ، لم ير الجندي من قبل ، في تلك الأوقات يحدث كثيراً أن يحيى « انسان و مجلس بالقهى » . لا يطلب مشروباً ، لا يسأله خليل الجرسون ذلك لأن الأقوات عزت جداً ، كوب الشاي نادر لقلة المياه وشدة الحاجة إليها » رغيف العيش يأكله أكثر من شخص . حمن عويس أن الجندي من الصعيد ، يتحدث دائماً إلى من يلتفت نظره ، إلى من يحاوره فوق الرصيف ، أو في رقدة أمام مسجد أو فناء بيت قديم ، يبدأ بسؤال لا يتغير ، من أى بلدة أنت ؟

---

---

حول عيني الجندي ما يشبه رذاذ جير مطفأً ، قال انه من البدارى بدا غير راغب في الكلام إذ إنه عاد إلى اطراقه وكان حوارا لم يتم ، أبدى عويس حماسا وكانه عاش عمره يتضرر أى قادم من البدارى .

« البدارى ؟ أجدع ناس » ، أحنى الجندي رأسه شاكرا ، وجه نظراته إلى بيت قديم متهدم على الناحية الأخرى من الطريق . رصد عويس نظراته ، صاح موضحا أن هذا البيت دمر أثناء حرب الاستنزاف في غارة طيران ، عام ١٩٧٠ ، استشهد فيه موظف بهيئة قناة السويس اسمه رشاد أفندي ، لا يدرى متى أحيل إلى المعاش فمنذ أن وعى وهو يرى رشاد أفندي محلا إلى المعاش ، يجيء يوميا إلى المقهى ، ويجلس فوق الكرسي الذي يستريح عليه الجندي ، يشرب ثلاثة فناجين قهوة ، يسأل عم خليل « هل وصلت رسائل ، حوالي الثانية عشرة يقوم متهملا ، لا ينفرج من بيته الا صباح اليوم التالي ، كل يوم أربعاء يطل زجاج نوافذه » باللون الأزرق ، منها اشتد التصفيف لا يتزل ، لا يغادر بيته الا في ميعاده اليومي إلى المقهى ، آخر يوم جاء فيه اقترب منه عويس طارقا صندوق « زجاجات الأصباغ وعلب الورنيش بالفرشاة ، هز رأسه تفيا ، قام ، تابعه عويس » بعد دخوله البيت بدقائق جاء الطيران ، وكان الطيار اسقط قبله بحبل ، أصابت البيت تماما ، أو مسح الحذاء ، لومتهل في شرب القهوة ، لكنها الأعمار « لكم بدا خلال حياته مستعصيا على الحديث ، حتى في لحظات

---

نصف الطيران ، تتطاير شظايا اصوات قذائف المدفعية المضادة ، لم يتحرك قيل في السويس انه عند حدوث قصف يمكن مشاهدة سويسين لا يفارقان مکاھنها ابداً ، لا ينزلان الى خندق ، لا يختيمان وراء ساتر ، انھا رشاد افندی وعویس « عویس يرى في الشوارع طوال الليل والنھار ، لا يدرى أحد ، هل معه بطاقة أم تهجير أم لا ؟ هل لديه بطاقة شخصية ؟ هل لديه شهادة ميلاد ؟ هل تلقى تعليماً من سمح له بالبقاء بعد تهجير الأھالی » يقول عویس انه عند تصنیف الأھالی تمھیداً لترحیلهم لم يتلک أى مستند يتقدم به ، لم يذكر معاھدة يرغب الذهاب اليها ، أو وظيفة ينتقل اليها ، أو مهنة ليغان على الاستمرار بها ، يضحك عویس ، لو اصرروا على ترحیله لوجد ألف وسیله يعود بها الى السويس ، يقول انه سعى كثيرا للالتحاق بعدد من الوظائف ، قدم الكثیر من الخدمات لموظفو منقول الى السويس على امل الحاقه فراشا بمديرية الصحة ، مسح حداء الموظف مجانا ، عندما باع الليمون اختار أكثر الشمر طراوة وامتناع بالعصير ، نظف شقة الموظف يوميا ، غسل غیاراته الداخلية .

رتب حقائبہ عند السفر ، فجأة ابتعد تماما عن الأفندی ، صار يراه ماشيا على الرصيف فيعبر إلى الرصيف المقابل ، لم يعرف إنسان سر هذه الجفوة لم يتم أحد بمناقشته الأمر لأن علاقات عویس وتصرفاته وكافة ما يقوم به لا يهم أحدا ، انه يظهر فجأة في ليالي السهر ، يصفق :

---

يرقص ، يرفع الكرسي بأسانته ، يقلد النشال والمقدد وضابط الأمن والكمساري والقططان ، آخر السهر لا يسأله أحد كيف سيمضي وإلى أين سيذهب ؟ لم يصحب إنساناً إلى البيت .

لم يمتلك مفتاحاً أبداً ، لم يحمل عنواناً ، كثيراً ما رقص وأدهش ،  
ويحدث أن يقوم الحاضرون لتناول عشاءهم ولا يدعونه فيفي مكانه  
لا يطلب ولا يسأل مع أن الجموع يلقن نومه المتظر ، لم يشك الموظف  
الشاب لأى انسان ، لكنه شكا إلى هذا الجندي من أولاد الحرام الذين  
لا يعرفون مقادير الناس ، قال إن الموظف عرض عليه الذهاب ليعمل  
خادماً بأحدى الشقق بالقاهرة ، وعندما قال أنه لا يستطيع مفارقة  
السويس ، سخر منه وقال ، من يسمعك يظننك تمتلك العمارت  
والدكاكين ، قال إن لسانه لم يخاطب لسان الموظف بعد أن طلب منه  
البحث عن .. عن امرأة يقضى معها وقتاً ، أكد عويس أنه لم يبع لانسان  
بحقيقة ما جرى ، تحدث الجندي عن البداري ، أبدى عويس تحابياً ،  
كانه قضى عمره في تلك البلدة البعيدة شرق النيل ، عدل الجندي وضع  
بن دقته سريعة الطلقات ، قال انه لا يخشى على أمه من الظروف ، اهـا  
قادرة على مجادلة الرجال والخروج إلى السوق لتبיע المش القديم الذى تتقن  
عمله ، كما انه رفع المبلغ الذى تدخره إلى تسعة عشر جنيهاً خلال الأجازة

---

الأخيرة قبل الحرب ، يخاف عليها من القلق ، لم تصلها أى معلومات منه ، لم يصلها أنسان من طرفه ، يعرف حركة الانتظار ، لا يدرى متى سيستهنى الحصار ، تحدث عن نشاط أمه عند عودته ، حركتها من الفرن إلى الكانون ، جلسة أول الليل تحت سقف السماء التي تبدو من رحبة البيت ، قبل نومه تسأله ، هل يعوز حاجة ؟ قال عويس للجندي في ذلك اليوم انه لا يطيق النوم تحت سقف بيت اعتاد النوم والنجوم في عينيه ، لم يخرج من السويس أبدا ، لم ير مدنا غيرها ، بالتأكيد ولد فيها ، أين بالضبط ؟ لا يدرى ، رحلت عينا عويس إلى بعيد ، فجأة ضحك ، طلب من الجندي أن يعطيه الخوذة ليتردّها ، أحكم الخزان الجلدي حول ذقنه ، قال انها ثقيلة ، تسأله : هل تحمني من الشظايا ؟ قال الجندي ، لا شيء يحمي الإنسان اذا حان أجله ، بعد لحظات قام الجندي ، افترقا على غير ميعاد ، عويس تحدث إلى العمالين في القطارات ، إلى العاملين على عربات النقل ، إلى أقارب الصعايدة المقيمين بالجنانين ، جنود المطافئ المنقولين إلى المدينة ، بعد الحرب كثيرا ما أصفي إلى هؤلاء الجنود الذين رأوا السويس لأول مرة ، بعد لقائه بالجندي صاحب الخوذة ، حاول تتبع ملامحه في المدينة المحاصرة ، لكن الوجوه اختلطت عليه ، يضيق عويس بالحصار ، الطريق على امتدادها مغلقة ، العربات داخل المدينة منها اسرعت تبدو وكأنها تمضي في حركة دائمة ، لأول مرة يأكل مع اشخاص

بعينهم ، أحمد الموظف بشركة البترول ، كفته البمبوطى ، قنواوى المصور ، الملازم الاسكندرانى قائد المجموعة ، لم يحدث فى حياة عويس أن أكل فى طبق معين ، لم يجلس الى مائدة أو طبليه بعينها ، أكل فوق الأرصنة المواجهة لمحطة أوتوبيس الأربعين ، المقاهى الصغيرة ، كورنيش المدينة ، على شاطئى بور توفيق عندما سمع له قبل الحرب بيع البيسي كولا للمصيفين أكل ثمرات الطماطم وقطع الجبن على منديل قديم بني اللون طرز عليه حرف انجليزى تبرأت بعض الخيوط التي نسجته ، أعطاه له أحد قباطنة مراكب الصيد ، ذاق الفطائر عند ذهابه إلى المقابر أيام الأعياد ، لا أقارب له مدفونين هناك ، عادة يملا منديله بكعكات وشطائر ثم يقرأ الفاتحة على أرواح بعض الراحلين من عرفهم بالمدينة ، بعضهم لم يباشه كلمة واحدة طيلة حياته كتوفيق بك الذى عمل مأمورا للسويس سينين طويلة وعرف عنه الطيبة وعدم الرغبة في إيذاء ضعفاء الناس ، يزور أكثر من جلس اليهم وهو الشيخ المرزوقي ، عاش ومائاه وأصرحة الأولياء والمساجد وقضى خلوة طويلة بإحدى مغارات جبل عثرة ، أمن عويس بأنه طواف يذكر اسم الله في البلاد ، قدم له خدماته حتى مات في المدينة بعد مرض قصير رفض خلاله الذهاب إلى أي مستشفى والاستعانته بأى طبيب بعد الحصار وانضمام عويس إلى المقاومة لحظ الملازم اختفاء أثناء مواعيد الوجبات ، قال قنواوى المصور أن عويس يأكل في أي مكان ، أبدى

اللازم اعترافاً ، أن الطعام في المدينة قليل ، وربما ينجل عويس من الجلوس معهم ويلقى صعوبة في الحصول على قوته ، في البداية ضاق عويس بجلسه معهم ، خيل له أنهم ينظرون اليه خلسة ، انه يرتكب أخطاء لا تليق او يأخذ أكثر من نصبيه ، في ثالث أيام تناوله الغذاء معهم نزل الى صمت المدينة حيث أعياد الحscar وصدا الخريف والتواصي التي لا يتطرق ظهور أطفال يلعبون عندها او نساء يختلن في زيتهن « توقف » صاح بصوت عال ، « هذه الطريقة لن تنفع » ، انه يمضى الى نوبات حراسته بانتظام ، لم يختلف تدريبا واحدا ، يسرع معهم الليلي الذي يجب أن ينامها ، يصفعى الى أصوات الليل ، إلى طلاقات الرصاص الغامضة ، يتأمل أنصهار السواد لثوان بتأثير الفليرز ، يتبع القحط المارقة ، مرنة ، تذوب في السواد والخطير ، يحاول تفسير الأصوات الغامضة ، لكن أن يتناول الغذاء معهم فهذا يضايقه ، في المساء قبل ذهابه إلى وابور المياه سالة اللازم ، لماذا لا ينام مع الجماعة ؟ صمت ، لم يفكك أبدا في النوم معهم ، قال حزينا أنه ينام في أي مكان بالسويس ، قال اللازم هذا خطير ، ثم يجب النوم في مكان معروف ، ربما احتاجوا إليه ، ربما انها فوقه أى بيت يأوى إليه عندئذ يتلاشى أثره ويضيع رجاه عويس أن ينام كيما شاء ، المدينة كلها معروفة له كراحة يده بما مستعدا للتنازل عن أي طلب آخر عدا ما يتعلق بنومه ، قال لقناوى أن ظهره لو تمدد في مكان واحد ليلترين

متعاقبین يتتابعه ارق ويكبسه ضيق ، أرصفة المدينة أكلت من جسمه  
حتتا ، في أعنف الاشتباكات شوهد متمددا فوق الأرصفة التي تقسم  
الطرق وأمام أبواب العمارت ، حدث صيف عام ١٩٧٠ أن سقطت  
دانة على بعد أمتار منه ، بترت شطاياها شرفة بيت استظل بمدخله قال  
خليل الجرسون أن عويس محجب حدث أن آوى إلى شقه في بيت يطل على  
الخليج نام بمفرده في البيت كله ، جاءه صاروخ كبير يمشي متمهلا في الهواء  
كالأوتبيس ، نفذ من سطح البيت ومن الطابق الثالث ، والثانى ، ثم  
استقر في صالة الدور الأول سليها ومازال متتمددا في نفس مكانه كرجل  
ميت ، لم ينفجر ، ولم يتهدم البيت ، لكنه ما رأوه نائما في الطرق  
لا يخدره أحد إذا عوت صفارات الإنذار ، ربما لعدم اهتمام إنسان به ، إذا  
احتاجه أحد وسائل عنه ، يقولون من الصعب العثور عليه ، لا مكان له ،  
ولا أقارب يمكن سؤالهم عنه ، لكن لا تخضى ثوان ويظهر ، يرى قادما من  
منحني ، أو خارجا من بيت مهجور متهدم ، يظهر متناثرا ، يبرش ظهره  
أو يضحك ، كأنه يستجيب مقدما لأى مداعبة ، لم ير عويس يمشي  
متمهلا ، مسكا ذراع امرأة ، لم يلمع مؤنسا بأى ، لم ترو عنه  
مخامرات ، كثيرا ما جلس بعد قيامه بعمل ما ، يطلق تنبيدة ثم ضحكة ،  
ربما عقد ذراعيه وأطرق برأسه ، قال بعض العابثين إنه عاشق لأمرأة فلاحة  
كالقمر من الجثتين ، في كل مرة يصبح فيهم ، « اسكتوا » لم يبرو

---

---

مبعدا ، في ليلة ضيقوا عليه حتى أمسكه البعض محاولا تبرئه من ثيابه اختفى أيام لا يعرف عددها ، غيابه لا يلتفت النظر ، ذات صباح ظهر أمام مقهى أبي رواش ، بدا مجها ، شفتاه مقددتان ، زرقاوتان ، سأله عم خليل ..

« أمسح لك المقهى وأأخذ قرشا » ؟

الشتاء مضاعف في المدينة المهجورة ، البلاط يفع رطوبة تكاد ترى في الفراغ ، انحني مسكا الحيشة ، أغرق الماء البارد قدميه المتشققتين كشبكة من حفر ، عمل عويس في اشغال عديلة ، غسل الصحون في مطاعم السويس الفقيرة ، عمل حمالا لأجولة الغول ، صناديق السمك ، هرس الطعمية ، عمل في رصف الطريق الممتد حتى قرى الجناين لمدة أربعة أيام آخرها رفض المقاول أن يعطيه أجرا ، لم يكلفه أحد بالعمل ، ولم يدرج اسمه في الكشف . لم يناقش ، جاء في نفس اليوم إلى صاحب طلمبة بنزين يدوية :

« هل أديركم طلمبة اليوم مقابل رغيف وبإذن جان مقل » ؟  
لا يدرى أحد أين يضع صندوق مسح الأحلية ، يظهر مسكا به أحيانا ، يمسح لزيون أو اثنين يختفى ليظهر مسكا حزم فجل وجرجير ، أو قفص طماطم ، بعد إحكام الحصار وانقطاع شرائين الطرق وارتداد اليهود

---

عن السويس بدا هائجا ، يمشي مهددا الفراغ يعلن لكل من يقابلة انه سينفذ بطريقة ما من هذا الحصار . دخل أحد المخابيء القريبة من مبنى المحافظة ، صاح في المتراجدين داخله ، هل يصدق أحدكم أن السويس محاصرة ؟ قال له الحاج حسن السوداني موزع الصحف ، لماذا تبدو هائجا وأنت لم تخرج من السويس أبدا ولن تخادرها ، تعال وتطرع في المقاومة ، رأيتك تنقل صناديق الذخيرة عندما هاجروا البلد ، لا تقصصك الشجاعة ، تعال بدلا من طوافك كالنحلة ، بقت شفته مفتورتان لحظات ، تذكري يوم أن حمل صناديق لم يتخيّل طوال عمره انه سيحمل مثلها لقتلها ، أثناء جريه تحت مبني المستشفى أطلت بعض المرضيات ، زعقنا ، قال عم خليل لعيوس انهم يستتجدون به مع أن عددا كبيرا من الأهالى والجنود راح يعدوا في التحاهات متفرقة ، اسرع الخطى مرددا ، « لن يصلوا أبدا اليهن » ، انتظم عويس في أحدى جموعات المقاومة ، فوجئوا به بحيد أطلاق النار ، فك البندقية نصف الآلية أمامهم ، نظف الكلاشنکوف ، فكه وقام بتركبيه من جديد ، قال أنه انقض هذا من صداقته بعديد من الجنود ، أبدا صبرا وجلدا ، في الليالي الباردة يقف مرتديا الأغرونول الصيفي الذى ظهر به منذ انضمامه إلى المقاومة ، اعتاد الناس رؤيته في ملابس الآخرين ، جاكت كاروه ، صديرى بلدى ، قميص أفرنجى ، في شتاء أحد السنين ظهر بمعطف ثقيل طويل ، وقيل أنه عند نومه لا يلف جسمه به ، أغا

يطقه ويضعه تحت رأسه ، لم يتردد عند قيامه بأى مهمة ، عندما كلف باستطلاع موقع قريب للعدو قرب الماويس ، خاضن في الطين عارياً ، قضى الليلة في المجرى الضحل ، عاد يروى ما رأى « ما سمع ، واللازم يدون » يكتب « في هذا اليوم سأله الملائم عن عمره قال عويس أنه لا يدرى » تطلع إلى وجه الملائم ابن العشرينات ، بعد لحظة قال حضرتك من أى بلد ؟ « في تلك اللحظة من قنواتي المصور ، رآها يجلسان أمام المقر ، الملائم يتحدث وعيوس يصغي ، لم يعرف ما يدور بينهما » حدث في اليوم التالي الموافق الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ أن طلب الملائم استدعاء عويس فوراً لدفعه ناحية مبان شركة شل ، حار أفراد المجموعة ، أبدى الملائم ضيقاً ، ألم يطلب منه البقاء معهم فتوسطوا له حتى يدعه على راحته خرج قنواتي متضايقاً بعد أن وعد بالبحث عنه « عند الناصية رأه قادماً ، لا يتحرك في فراغ الطريق غيره ، نفس الانحناء التي توحي لمن يراه وكأنه على وشك الجري .

« عويس » .

دهشة وجهه تمنحه براءة طفل ممزوجة بتعجب .

« الملائم يطلبك فوراً . . . » .

« الآن ؟ » .

«نعم . . .»

«لكنني ذاهب الى الجنائن . . .»

هنا علا صوت الملازم الذي لحق بقناوى بعد خروجه . . .

«هل جنتت . . الجنائن فيها عدو . . .»

ردد النظر حائراً بين قناوى والملازم ، في تلك اللحظة برق شىء ما في ذهن الملازم ، أدرك ما جعله يتحدث الى عويس طويلاً ليلة أمس عن أخواته ، وأبيه ، وأمه ، والبيت ، وسريره الذى لا يمس طلماً بعد عن البيت ، وخروجه المسائى أيام الإجازة يجلس مع بعض أصحابه في مواجهة البحر صيفاً أو شتاء ، حدثه عن أصحابه ، وأوشك أن يمده عن حبيبته وعما يتبدلاته من أشواق في حدائق المتنزه ، في تلك اللحظة رأى فيه أكثر الناس الذين قابليهم قدرة على الاصغاء ، ويعث الأمان ، وأحساس آخر لم يدرك طبيعتها بالضبط ، لمح أيضاً آثار العمر في الضوء الغروب الشاحب والصمت المخيم كأنه التمهيد لضجيج آت لن ينته ، تساؤل . .

«ما الحكاية؟» .

قال عويس إن سبوبيه لن تعوض في الطريق ، سياتيه أحد الفلاحين بقصص طماطم وربطة فجل ، سيعطي المجموعة جزءاً ويبيع ما يتبقى .

---

---

قال إنها سبوية لن تناح لأحد ، والخضار قليل جدا .

أرجأ الملازم عدة أسئلة حول كيفية ذهابه ، كيف سيتلقى بهذا الفلاح ؟ كيف تم اتصالها ؟ يبدو عويس سهلا « بسيطا ، قادرا على اجتياز أصعب الأمور ، نظر إلى وقته ، إلى انضغاطة كتبته » . بها هدة عمر بأكمله وتعب ، إلى رقة جلد الوجه المعرض دائما لقلب الهواء وقدد الفراغ وانكماسه ، إلى تعبيدات حول العينين ، بسبب ما تذكر والده العجوز لحظة عودته من المدرسة « يبدو أمر ما يجعل عويس قريبا غير ذلك الشعور المصاحب لسلوك الأهالي خلال الحبهار والذي جعلهم يتقاربون » . أكثر ، ، ينام الأصدقاء في أي بيت مفتوح ربما لا يعرفون صاحبه .

« نحن نحتاج إليك يا عويس .. . » .

« لكن السبوية يا حضرة الملازم .. . » .

« اختر اذن بين السبوية .. أو الوطن .. . » .

تصطدم قطعة معدنية غير مرئية بحاجز ما ، ينادي شخص في مكان بعيد ، كالدوامة في الأعماق أحدهن الصمت صدى في الفراغ ، يفرق النظل مداخل البيوت المحبطة ، التواقد الخشبية المتربة ، لحظة من النهار الراحل تبعث صورا وروائح وأصواتا بعيدة نأت طويلا عن الذكرة ، ينقل قناوى ثقل جسمه من ساق إلى أخرى ، يرفع عويس وجهه إنه عجوز :

---

---

---

بهر رأسه هزتين موجزتين ، سريعتين ، صامتتين ..  
« طيب يا سعادة الملازم .. اخترت الوطن .. » .  
أول مارس ١٩٧٦

# مجهود حربى

〈 ٢٢٥ 〉

جمال الغيطان

---

## تاریخ عام

عرف أهالى حى الأربعين وحى زرب ، خضر أبو عطية بائعا للشاي ، يقف أمام النصبة الخشبية أو يتحرك بين الدكاكين والورش حاملا صينية كبيرة عليها الأكواب والفناجين ، بدأ عمله ومعه براد شاي أزرق وموقد ماركة بريوس . ودستة أكواب زجاجية . بعد زواجه من السيدة شمعة تمكن بمساعدة بعض الصالحين ، منهم الشيخ ذكرييا تاجر الجيش القديم الذى عطف على خضر لوجه الله اذ لم ينقطع عن رؤيته فجر

---

---

كل يوم في مسجد سيدى الغريب أيام الشتاء وأيام الصيف ، عندما أتم بكر ابن الوحيد خضر الرابعة أتم سعدون النجار عمل نصبة من الخشب ، مستطيلة ، الجزء الأسفل منها بضفتين ، يضع داخله الشاي والسكر والأصناف الأخرى التي بدأ في إعدادها « الكاكاو ، القرفة » أما الجزء الأعلى فمبطن بالصفير والقصدير الذى يبعد لهب المقد عن الجسم الخشبي ، يتسع لثلاثة مواد ، اثنان من الحجم الكبير والثالث صغير يعمل بالكحول لاعداد فناجين القهوة ، أعلى امتدت ثلاثة رفوف ، اثنان عليها اكواب زجاجية مضلعة الحواف ، والثالث عليه فناجين قهوة ، اشتهر شاي عم خضر في حى الأربعين ، حرص على تناوله اصحاب الدكاكين الصغيرة ، مطاعم الفول والطعمية والسمك المشوى ، ثم وقع حادث هام عندما قرر الحاج الدمياطى صاحب وكالة جبال السفن شرب الشاي من خضر ، بدلاً من مقهى القابطى ، قيل في سبب ذلك انه عندما شرب كوب الشاي صباح ذلك اليوم وجده مغلياً ، عندئذ اقرح عليه وكيل اعماله تجربة شاي خضر الطازج دائماً ، الحال من التفل ، ابدى الحاج دهشة لوجود مثل ذلك الاخلاص في هذا الزمن الردىء الذى لا يعرف الانسان كيف يشرب كوباً من الشاي فيه ، ادى هذا الى تحول جميع العاملين بالورشة عن مقهى القابطى الى هذا عبئاً على خضر ، الوكالة تستوعب شاي مقهى بأكمله حاول القابطى مضيقاً خضر ، لكن

---

بعض الأهالى واجهه بحزم ، قالوا له ان الأرزاق من عند الله ، اشتري خضر اكوابا جديدة ، كما اتقن تمويمه بن افضى إليه بسرها رجل مغرب وتقضى بإضافة جبهان وترنفل وجوزة الطيب بمقادير معينة مما حب هواة القاهرة كثيرا ، ازدادت ساعات عمله من السادسة صباحا حتى الخامسة عشرة مساء ، كما اتفق مع عبده النجار على صناعة دكة خشبيه تتسع بجلوس خمسة أشخاص ، حتى يستقبل زبائنه من سائقى عربات النقل ، والتابسيات ، والعابرين ، يشربون الشاي الذى عرف به وتفوح منه رائحة ذرات نعناع جاف أخضر يشره بمهارة فوق الشاي ، عندما أتم ابنه بكر السادسة نصحه بعض الجيران بتدرية على العمل معه ، يساعده « يوصل له الطلبات » ، لكنه ذهب به إلى مدرسة الأربعين « الابتدائية تقدم بطليين ، الأول يرجو فيه الحاق ابنه بالمرحلة الابتدائية لبلوغه السن القانونية ، والثانى كتبه بعد نصيحته من باشكاتب المدرسة إبراهيم أفندي ، ويطلب فيه اعفاء ابنه من رسوم القيد وقدرها جنيهها ونصف جنيه ، ارفق شهادة ثبت عبوزه ، ورجا الباسكتاب الا يشعر بكر بأى علاقة تشير الى تقاديه تلك الشهادة » استجواب الرجل الطيب « ونادى اسم بكر بصوت عال من كشف الطلبه الذين سددوا المصارييف ايقن خضر أن كل ما يحيطه من رزق نصيب ولده » مكافأه له على حسن نيته وصبره على تعليم بكر ، خاصة أن دعواته أثمرت « لم يعرف عن بكرهوايته للعب الكرة » او

---

ركوب الدرجات ، أو الذهاب إلى السينما ، كتب اسمه في لوحة الشرف مرات ، رضى عنه المدرسون ، أهداء الناظر قلياً ومسطرة ، في الليل يسهر ، أمام الطلبة منحنياً ، لا ينام إلا بعد الحاجة حتى يقوم مستريحاً من النوم ، وعندما أنهى بكر دراسته الاعدادية حوالي عام ١٩٥٩ ، تمكن خضر من دفع جنيه واربعين قرشاً إلى أبي غزاله الكهربائي مقابل مسلك إلى داخل الغرفة يضفي ، مصباحاً يذاكر عليه بكر بدلاً من لمبه الغاز . استوثق خضر أن التيار الكهربائي غير مسروق من أحد ، أو من أسلاك الحكومة ، كما اتخذ إجراء آخر ل توفير ظروف أفضل لبكر منها نومه إلى جوار امرأته فوق الأرض ، ونوم بكر فوق السرير حاول أيضاً تجنبه ولدته ما تصوره أنه حرج ، لم يتزدد كثيراً على المدرسة ، حتى لا يتضايق بكر يوماً إذا ما تشارجر مع زملائه وقالوا له .. يا ابن القهوجي .. مع إن كلمة قهوجي تطلق عليه تجاوزاً لعدم عمله بقهوجي ، كما تخلّي منذ سنوات عن حله بامتلاكه مقهى لارتفاع التكاليف .

## حقائق لم يعرفها اقرب الناس

اثقل خضر هم دائم ، هو توفير مصروف البيت ، أشد ما كرهه مد اليه إلى الغير ، لكن الرعب يمتلكه إذ يتصور عودة بكر إلى البيت بدون أن يجد باذنجانا مقلينا أو طبقا من الفول أو بيضا ، تعامل خضر مع ثلاثة أشخاص السنى الخباز ، واباظه العجمى ، وعبد المادى البقال ، كثيرا ما توقف ليتأمل المارة ، اعتاد معارفه صمته فلم يتمكن أحد ما يداريه ، ينقبض قلبه إذ يرى البعض يحملون خضارا ولحما ، إذ تجتمع القروش في يده يطلب من بناويطي الحلاق الانتباه إلى النسبة ، يهدى نار المقاد ، يمسك طرف جلبابه ، يسرع إلى البيت ، حدث أن عرضت امرأته الاستدانة من السست عطيات لكنه آبي ، ربما تشارجرت في أي لحظة عندئذ تعايرها بصوت عال ، بماذا سيشعر بكر ، حرص أيضاً ألا يلتجأ إلى اللحم الحى ، ويشمل السكر والشاي أو المبالغ المخصصة لشرائهما .

من الحقائق المجهولة أن « خضر » بلج يوما إلى الشيخ زكريا طلب اعارة جلبابا صوفيا ليوم واحد ، دعته المدرسة لحضور مجلس الآباء ، لم

---

---

يفكر أبدا في دعوة كهذه ، لا يمتلك جلبابا يصلح ، ذهابه الى المدرسة انتصر على دفعه المصاريق ، يخشى لو أعطاها لبكر أن ينطفئها أحد الأشرار ، لم يلتقي الا بعل افندي سكرتير المدرسة الذي يحيى ، بعد الظهر ، يجلسان فوق الدكة ، يقدم اليه الشاي بجاننا ، يتبدلان الاخبار ، يتحدثان عن تعديلات تنوی مصلحة التنظيم اجراءها . عن إعادة رصف الطريق المؤدية الى الميناء ، هل سيتم ذلك قبل موسم الحج القادم ؟ يتحدثان عن الأجانب الكثرين المقيمين بفندق بلير ، لم يعرف بكر بأمر هذه الزيارات ، أصغى الشيخ ذكري ، قال إن لديه قال أن جلبابا لم يرتديه الا مرة واحدة ، مد يده الى صدريته أخرج حفظهة الجلدية المرصعة بخصوص الألومنيوم ، مد الى خضر جنبيه ، أنه يعلم ما مستنه اليه هذه الاجتماعات ، سيطلبون منه تبرعا للمدرسة ، قال انه سيتردد كل ما قدمه بعد أن يعمل بكر ، فكر خضر أن يميل ليقبل يد الرجل .

ان معظم الثياب التي ارتداها خضر تلقاها كهبات ، في بيته الان مقطف كبير يمتليء بقمصان قديمة ، بنطلونات ، جلاليب كما يوجد ربطه ثياب عسكرية مربوطة بحزام جلدي عريض (فايش) . تخص جندية نوبيا اسمه مرجان ، طلب منه أن يحفظها عنده يوم ١٩ فبراير ١٩٧٠ . خرج الى سيناء في دورية ولم يرجع . اعتبر مفقودا حتى الآن .

---

---

---

ان حقائق عديدة بقيت مجهولة ، معظم مشاوريه قطعها مشيا حتى يوفر ثمن التذكرة ، لم يمارس الجنس حتى الزواج ولا بعد رحيل امرأته الأبدى . لم يتطلع الى امرأة أخرى ، جاع يوما قبل زواجه وأثناء صعوده سقالات البناء المنصوبة حول عمارة جديدة حاملا صينية الشاي ، أوشك على السقوط لو لا أنهم لحقوه ، أنواع الطعام التي أكلها لم تتعد أصنافا محدودة ، القول ، الطعمية ، العدس ، البازنجان المقللي واللفلف الرومي ، عندما يفرق نصيب امرأته وابنه من اللحم يأخذ لنفسه أقل القطع حجما ، السمينة أو ذات العرق المستعصية على المضغ ، لم يدفع قرشين ثمنا لزجاجة مياه غازية ، أحيانا ترى خلف ذئنه سيجارة لكنه لم يدفع ثمن واحدة أبدا ، في أحد الأيام البعيدة أعطاه مقاول صعيدي علبة كاملة ماركة « هوليود ». لم يفك غلافها السيلوفان ، إنما باعها الى عبد الهادى البقال بأقل من ثمنها الحقيقي بثلاثة قروش .

### التهجير :

عندما طلب من خضر أن يملأ استمرارات التهجير ، قال للموظف المختص إنه لم يعد له بلدة يمكنه اللجوء إليها ، إنه يعيش بمفرده في غرفة واحدة ، لا يضر إنسانا ، لا يخاف عليه أحد ، بل يخدم الجنود الذين ينتقلون من موقع إلى آخر عبر المدينة ، يجدون عنده كوبا من الشاي

---

الساخن ، لونزل الجندي ولم يجد من يقدم إليه كوب شاي سيفتم ويحزن  
لمنظر البيوت المهجورة والمقاهي المغلقة ، قال إن النسبة لا تختل حيزا  
وطوال عمره لم يحرر له محضر شغل الطريق العام أو التسبب في زحام ، هذا  
قبل اضطراب الأحوال ، عندما كانت السويس تشغى بالخلق ، لم يقل  
حضر للموظف إن ابنه طبيب بالقاهرة ، ويمكن أن يساعده في الحصول  
على تصريح ، لم يقل أنه شخص ثالثين كوبا من الشاي يقدمها إلى  
الجنود ، لا يتناقضى ثمنها ، داعيه الجيران الباقيون وأطلقوا عليها ،  
« مجهد حرب » ، فابتسم قائلا : « ما أنا حيآن كلها مجهد حرب » جند  
عديدون يفاجأون برفضه تناقضى مليما واحدا ، اعتاد جلوسهم حوله « في  
البداية لم يبادلهم احداً طويلاً كعادته ، إنما يخدمهم بنشاط عجيب »  
يقدم إليهم الصينية بيديه المهترئين ، إذ يلحظ بعضهم ذلك يقومون  
يتناولون الأكواب قبل وصوله إليهم ، يبتسم اذ يصفعى إلى مداعباتهم  
الشابة ، في ذلك اليوم تحدث إلى بعضهم ، قال أنهم يريدون تهجيره ،  
بعد هذا العمر كله ، أن يفارق سيدي الغريب ، قال أحد الجنود انهم  
سيفتقدون شایه الطيب ، نظر إليه معاطبا ، كيف يفكر هذا الصعيدي  
الجدع في مفارقه للسويس ؟ لا يستطيع تخيل نفسه مستيقظا في مكان  
آخر ، لا يرى النسبة كل صباح ، يفرغ قوالب السكر وأكياس الشاي في  
الأواني ، صحيح أن أحبابا كثرين هجروا ، في لحظة خليل اليه أن مقاصدا

---

هائلاً يقطع حياة السويس جزءاً ، جزءاً ، ويرميها إلى المجهول . أحباب آخرون رحلوا أثناء القصف ، رحم الله الشيخ ذكرييا الذي ذبح بشطبية بعد حريق الزيتية بيومين ، بدأت لحظات صمته تطول ، صحيح أنه لم يتحدث كثيراً أثناء عمله ، لكن وجودهم لم يفارقه ، في الدكاكين ، الوكالات ، الورش ، وقت العصاري وجلوس الزبائن فوق الدكة ، وجردل المياه الذي يرشه بحدار وبطء حول النسبة ، حركة الشارع ، إن معظم الدكاكين والوكالات مغلقة الآن ، أبواب المنازل مربوطة بسلسل حديدية غليظة ، مع ماضي الأيام اعتناد رواده الجدد بارهاقهم البادي ، وأحاديثهم المرتفعة ، وجلستهم المميزة إذ يطرقون ، يستلون ذقونهم إلى راحات أيديهم ، يسرحون في الفراغ ، بنادقهم ورشاشاتهم بين سيقانهم كأطفال صغار ، أعمارهم المتقاربة تزيد عن عمر بكر عاماً أو تنقص عاين ، إذا رأى أحدهم قادماً يقوم نشيطاً ، يولي وجهه ناحية النسبة ، يدفع كبابس المقد ، يكشف غطاء البراد الأزرق ، يغسل الأكواب مع أنه سبق أن غسلها أكثر من مرة يتبدلون أحاديثهم الخاصة ، يشارك بالاستماع ، عندما يقدم إلى كل منهم كوب الشاي يبرز من سطحه عود نعناع أخضر ، يصفي إلى آهة ارتياح بعد الرشفة الأولى ، « الله يا عم خضر » ، عندئذ يدير وجهه الصامت إليهم ، يتأمل الوجوه التي تشبه بعض ملامحها ابنه بكر ، يرق قلبه ، عبر السنين لم يجلس ساعة كاملة إلى بكر ، يعود إلى المساء

---

ليجده نائماً ، ويقوم مبكراً في الفجر فيمد الغطاء على جسد ابنه أو يعدل وضع الوسادة تحت رأسه ، يلفظ البسمة ، ينصرف اطمئن إلى تفوقه في المدرسة ، وعناية المرحومة بولدها ، عندما انتقل للمدرسة بالقاهرة لم يسمع عنه خبراً يضايقه ، في الأجازة لم يسمع له بالاقراب من النسبة أو مساعدته ، لم يعرف شيئاً عن أصحاب ابنه ، الأماكن التي يرتادها ، لم يجده لكنه تمنى أن يريحه من هذه الرقة التي انهكت عمره ، اقطع ثلاثة جنيهات من مكافأة التفوق ، صار يرسلها شهرياً مع سائق عربة نقل سويسى ، يقوم السائق باعطاء النقود إلى امرأته التي توصلهم إلى أم بكر ، عندما عرف خضر بذلك أول شهر ، تمنى لو أرسل إلى ابنه يطلب منه إلا يفعل ، لكنه منذ فترة يشعر بتعجب ، الشاي غال والسكر ، دعاه طرابلا في مسجد سيدى الغريب ، لكنه بقى بعيداً بشكل ما عن ابنه بكر ، خلال فترات الدراسة فارغة أو ممتلئة ، لا يستطيع إغلاق النسبة يوماً واحداً ، إنه في حاجة لكل قرش يأتيه حتى يأتي بأحسن الطعام لبكر أشلاء بقائه معهم ، حتى لو تفرغ له ، كيف سي Mishian معاً ، لبكر أصحابه ، ورحلاته التي لا يعرف عنها شيئاً ، لا يعني مضايقته عصر أحد الأيام فوجيء بابنه بير أمام النسبة ، تلاقت عيونهما ، رفع خضر يده بالتحية ، « تفضل يا بكر » ، نظر إليه بكر بدهشة ، لم يعلق ، انقبض قلب خضر ، نفس ايقاع كلماته الذي يخاطب به الموظفين المحترمين ، بعد رحيل المرحومة

وافتتاح بكر لعيادته مضت أيام عديدة بدون أن يلتقيا ، أول كل شهر تصله حواله من بكر ، يستبدلها من مكتب بريد الأربعين » يقول له الموظف « ربنا يخليله لك » ، تلك الجنينيات العشرة ما تبقى من بكر ، في لحظات اقتنع بأن هذا طبيعي ، أن بكر أصبح طبيبا ، له زملاء محترمون وزميلات يرتدين المعاطف البيضاء ، ويعلقن السماعات الطبية ، كما أن شهرته واستقامته ذاتعتان ، الناس تتواجد على عيادته بالدرب الأحمر جعل قيمة الكشف عشرة قروش في وقت ارتفع فيه سعر كل شيء ، ليس من المعقول أن يشغل نفسه بأمور أبيه العجوز ، ثم أنه يقوم بالواجب ، لم ينسه شهرا واحدا ، إن صحته تساعده على الوقوف أمام النسبة والحديث إلى هؤلاء الجنود ، تسأله كثيرا ، لماذا لم يتكلم يوما مع بكر كما يتحدث اليهم ؟ مرجان النبي قبل اختفائه حدثه عن خطيبته وعن هموه في جمع المهر ، وتخيله للبيت ، ونفقات العرس ، هل أسر إليه بكر بأشواقه تجاه فتاة أحبهما ، هل حدثه عن زميلاته اللاتي زاملهن في الجامعة ؟ رجب جندي المدفعية وصف له الطابق الثاني الذي شرع والده في بنائه ، عندما ينصرف كل مرة يطلب من عم خضر أن يدعوه له ، أن يرضى عنه ، عندما يبدأ قصف المدفعية المتبادل يرفع يديه طالبا من الله حماية رجب ، قصف المدفعية يعني عنده رجب ، إذا أغارات الطائرات على الواقع خارج المدينة فهي تقصد رجب ، كثيرا ما يلتفت إلى بعض زبائنه الذين يصمتون فجأة

عند بدء الانفجارات يومي ء قائلًا « مدفع رجب اشتغل » ، تقسى ملامحه  
اذ يصفعى الى شكوى منصور عامل المطبعة والمجندي في سلاح المهندسين ،  
صاحب المطبعة رفض تقديم أى مساعدة إليه بعد تجنيده مع أنه خدمة سبع  
سنوات » وعندما نزل أول أجازة رأى عاملا آخر مكانه « أدركته دهشة ،  
يصف خضر الرجل بأنه حرامي ولن يبارك الله له في ماله أو مطبعته ،  
يتحدث بصيغة الجمع « نحن نجاهد ومن يضرنا لن يسامحه الله أبداً » ،  
يبدو منصور وكأنه قطعة منه « ما لحقه من ضرر حرق به أيضاً ، إنه يسأل  
محمود الساعات عن والدته قبل أن يقدم اليه الشاي » يقول محمود إن  
الضبغط يرتفع أحيانا ولكن السكر يتزايد ولا منفذ منه الا الرجم وهذا  
يحتاج الى نقود ، طبيب المستشفى في لا يراعي حاله عندما يقول لأمه ...  
كلى ربع فرخة مسلوقة يوميا و ... العين بصيرة واليد قصيرة ، يصمت  
قليلًا ، يتساءل ، لماذا أصبيت أمه بالسكر وهو مرض يقولون إنه لا يصيب  
إلا الأغنياء ، قبل ابتعاد محمود يدخل ذراعه في السير الجلدي الذي يشد  
البندقية الى كتفه يقول برجاء عظيم « والنبي أدع لها في سيدى الغريب  
يا عم خضر » ، في أحد الأيام بدا ساما ، انتقل خضر الى جواره « أحاط  
كتفيه بذراعه » وهذا لم يفعله أبدا مع بكر ، قال محمود إنه وجده أمه منهكة  
في أجازته الأخيرة ، لكنها تماسكت ، نزلت السوق ، اشتربت خضارا  
وطبخت له ، لم تشک صداعا أو وجعا ، في الليل سهرت تغسل ثيابه ،

قال محمود إنه مجلس ساعة بأكملها إلى أمه ، لا ينطقان حرفا ، لكن كلام منها يدرك تماماً أحوال الآخر ، ما يفكرون فيه ، ما ينبغي قوله أو اخفاوه ، قال إن الوقت لا يتسع لأطباء المستشفى ، قال محمود أنه يعرف طبيباً ابن حلال في مصر ، يجب الفقير ، قال محمود معاذنا ، هل نسيت يا عاصم خضر ، أمي في الإسكندرية وطبيبك في مصر ؟ في تلك الأيام بدأ خضر وكأنه يعيش المدينة لأول مرة ، هجرة جiran العمر ومجيء هؤلاء الشباب بدل كل شيء ، خلال الفترات القصيرة التي قضوها معه ، ارتاح لأول مرة بعد عمر طويل من وفاته المستمرة أمام النسبة ، في لقاءات سريعة عرف عنهم أكثر مما عرفه عن الأساطير سيد الخالق الذي جاوره سنوات ، يمضي محمود أو حسين أو سعيد جندي المظللات ولا يدري ، هل سيلتقي بهم مرة أخرى أو لا ؟ يبدون وكأنهم يحرصون على أن يتربكوا لديه أكبر قدر من تفاصيل حياتهم وحاجاتهم الصغرى ، أثناء مرور بعضهم السريع بالسيارة يلقون اليه بخطابات يطلبون منه أن يرسلها من مكتب البريد ، جاءه مرجان يوماً بأكثر من عشرين خطابا ، كل مظروف لصق عليه طابع البريد ، بدأ مرجان متوجلاً وحدته ستتكلف بهمزة ربيماً غابوا فيها زمان ، وزملاؤه لن يستطيعوا التزول في أجازة أو المرور العابر بالمدينة ، رجاعهم خضر أن يرسل هذه الخطابات في نفس اليوم من مكتب البريد الرئيسي ، عد المظاريف ، أحضر جريدة قدية لهم بها ، مضى عبر حواري زرب ،

الى شارع الشهداء ، عوت صفارات انذار الطيران ، لم يتوقف ، ترك النصبة مفتوحة ، فقط هدا المواقد ، طلب من موظف البريد أن يخصي المظاريف ، انحني برأسه ينظر عبر الشباك الضيق يحاول متابعة العد ، عندما خرج من المكتب ابتل قلبه برضي ، لم يتمكن كثيراً بانفجار مكتوم بعيد ، ولم يتظر انطلاق صفاراة الأمان ، إذ إن السويس لم تعرفها في تلك الأيام ١ تدوى صفارات متقطعة فقط ، أما الأمان المتصل فلا محل له في المدينة أوفي ليقاع حياتها ، أثناء اقترابه من النصبة حياة أربعة جنود وضابط شاب برتبة ملازم ، ابتسם ، قال تفضلوا ... صاح أحدهم .. مجاهد حربي ؟ ، قال خضر مشيراً بأصبعه الى عينيه .. « من دي .. ومن دي » ، لا يذكر انهم مرروا به ، أو جلسوا عنده ، لكنه اتنفس بهم ، أضحكوه بمرحهم ، اعتذر اليهم عن عدم وجود نعناع وقال انه سيمضي إلى الجنائن ليشتري نعناعاً أخضر ، في عصر اليوم مر به هريلدي جندي البحريه الصعيدي ، لا يراه الا أثناء نزوله الأجازة ، أو عودته منها ، ربما لا يبعد موقعه ، قدم إليه لفافة صغيرة ، وقال ان امه ارسلتها خصيصاً إلى خضر عندما حكى لها عنه ، صاح خضر عندما رأى هريلدي منتصراً ، تفضل شاي .. ابتسם هريلدي ، سياق إليه بعد ستة وعشرين يوماً عند عودته إلى بلاده اذا قسم له الأجل ، قاطعة خضر « باذن الله » ، سيشرب كوبين ، إحداهما مجاهد حربي ، والأخر على حسابه ، في الليل يصفى

حضر إلى السويس ، إلى الطلقات المتقطعة ، سنين طويلة قضتها أمام النسبة لم يجاور مخلوقا ، صحيح أن أصحاب الدكاكين أحبوه وأنثروا على شایه ، وتصدوا له من حاول مضايقتة ، لكنه لا يذكر أنه تبادل معهم الحديث يوماً ملده دقائق ، بل انه خلال السنين العشر الأخيرة وصل إلى معرفة كاملة بأمزجتهم وأحوالهم ، يحيطه صبي المعلم فسدق ، يعرف أن المطلوب شاي على ماء أبيض مغلى ، يصبح الأسطري سيد الحلاق ، لا يومي ، حتى برأسه ، فنجان قهوة مضبوطة من البن المحروج ، أثناء توصيله الطلبات يزعق عليه هذا أو ذاك ، واحد شاي يا عم حضر ، واحد قهوة يا عم حضر ، جنزبيل يا عم حضر ، يعرف لهن بعد الشاي الخفيف ولهن يضيف قدراً من اللبن ، حتى كمية الجنزبيل بدأ يشتريها طبقاً لحاجة زبائنه عنده أربعة يشربون الجنزبيل يوميا ، عرف عنه صمته ، سعيه الهادئ في الطريق ، استجابته السريعة لما يطلب منه ، لم يحدث إلا نادراً أن قال له البعض «تأخرت يا حضر» ، لكنه لم يقف أمام دكان ، لم يجلس على مقعد في الوكالة ، لم يتحاور ، لم يشك إليه أحد هم ، لم يصفع ، في الطريق تصل إلى أذنيه جلة عارضة يقولها أحد زبائنه يعرف أنه المقصود بها . . . هل ترى هذا . . انه يربى طيبا . . ، ربما اضطربت خطاه خجلاً لكنه لا يتوقف ليعلق ، مع مرجان وكمال وسعيد ، معهم ضحك ، وتحدث ، وجلس على الدكة التي أعد لها لراحة الناس ولم يقعد عليها يوما ، لأول مرة

تمتد أيد لتساعده في عمل المشاريب ويقبل هذا راضيا ، بل إنه ترك لهم « العدة » كلها يوما وجلس يتفرج عليهم ، عندئذ قدم له محمود الاسكندران كوبا من الشاي وقال ، أنت اليوم زبون وهذا الكوب مجهود حربي ، لم يفكر في الاستعانت بشخص ما ، راودته الفكرة أثناء دراسة بكر الثانوية ، أن يستخدم صبيا في توصيل الطلبات ويترغب للعمل أمام النسبة ، لكنه تساءل .. كم سأعطيه .. خمسة عشر قرشا أو ربعا؟ بكر أولى به ، لا تحمل قليلا ، إنه يرى كل شيء قضى بجواره سنوات لأول مرة ورواده الجدد حوله ، كيف سيحضى الوقت عليه في المجرة؟ بعد عمر قضاه واقفا هل يتحول إلى قعيد يتناقض اعنة تهجير؟ يعود إلى صحته ، تكفي يده عن اذابة السكر وملء الأكواب؟ عندما ألح عليه الموظف ، ضايقه ، اخبير سالم المزارع من كفر الشيخ وجندى المشاه ، وفكري المثلث الذى لا يكفى عن تردید .. « سمعت آخر نكتة؟ » والشاويش عوض المطروح ، قال انه سيذهب إلى مصر ليكلم بعض ذوى التفوذ حتى يتسطوا له .. قال عوض ، وأين ستشرب شايك؟ مد خضر يده مشيرا إلى النسبة ، قال ، عندكم السكر والشاي ، يكفى حتى أرجع ، ضحك فكري .. النسبة كلها ستصبح مجهودا حربيا ..

---

## حوادث عارضة :

أثناء جلوسه بيده العيادة مرتدياً جلباباً مكتوباً ، تذكر دخوله الليل على بكر ، تأمله وجهه النائم ، كان شخص روى له ما جرى « سنوات كثيرة سرت ، قال لنفسه بكر ابن حلال ولا ينساني ، تابع دخول المرضى وخروجهم » يترجرس أزيزًا مختصرًا فيقوم التموجي « امرأة ترتدي ملائكة لف ، تحمل طفلًا ، تدعوه للطبيب ابن الناس ، تدرك خضر راحة ، يود مقابلة بكر بسرعه ، لو قال للتموجي .. أنا .. سيدخله فوراً ، ربما خرج بكر بنفسه مرتدياً معطفه الأبيض ، نظارته ذات الإطار المعدني » خضر يتأمل غرفة انتظار الرجال ، حجرة انتظار الحرير ، الحاجز الأبيض ، منضدة مستديرة فوقها مجلات عدائية وصحف ، لا يعرف متى استأجر بكر هذه الشقة ؟ لماذا قال للتموجي عندما اتفق معه على العمل ؟ لماذا يقول أبناء الحى عن ابنه ؟ كيف يحييهم عند وصوله ، يقولون باريلاح .. الدكتور وصل .. شابة قصيرة القامة تدخل من الباب ، تختزن كتاباً ، تسلل من كتفها حقيبة قماش ، توسّم « للتموجي ، تقطع الصالة بسرعة ، يقطب خضر عينيه ، عطر خفيف سبع في الجو بعد عبورها الوائق السريع ، هل جاء في وقت غير مناسب ؟ لم تنتظر ، لحظ استياء على وجوه المترقبين » سمع امرأة تقول : « اصلها

---

زميلة .. ، من هذه ؟ تعرف عن بكر أكثر مما يعرف ، فرح مزوج  
بخجل يدركه ، لماذا يتخيل بكر صغيراً دائماً ؟

رجيب محمود ..

يصبح التموجي ، للحظة لم يتبه ،

رجيب محمود ..

يتنفس واقفاً ، أبدى بكر دهشة صادقة ، احتاج ، كيف يدخل باسم  
يجهل صاحبه وهو صاحب الفضل على كن هذه العيلة ؟ لم يدرك كيف  
يحيي خاصمة عندما انتبه إلى وجود الفتاة ، ابتسم بكر ..

أبي ..

خطت نحوه ..

اهلاً عمي ..

نظرتها إلى بكر موجزة ، اعتاد كل منها الآخر حق ليهها بعضها  
بلون الفاظ مسموعة .

الدكتورة صفاء زمبلق ..

أومأت ، مضت تزيح الستائر المسدلة على النافذة العربية ، عادت  
ترتب بعض الكتب ، فتحت درجاً واوشك كفها أن يلامس بكر عندما

---

استدارت وراء المكتب قليلاً ، تناولت قلماً ، تعرف مواضع الأشياء كلها ، جلست فوق مقعد من الصاج الأبيض ، بدأت تكتب ، أدرك خضر حينها إلى المرحومة ، تذكرها إذ تفتح عينيها بمجرد استيقاظه ، كأنها تدرك بحواسها متى ينتهي نومه ، تقوم ، تسبقه إلى إعداد الشاي والافطار ، إلى يديها إذ تدلكان ظهره عندما يشكون جعماً شبيهاً وقفته اليومية الطويلة ، سأله بكر عن رجب محمود وهل يعرف شخصاً بهذا الاسم ؟ قال خضر إنه جندي بالمدفعية ، صمت ، هل ارفع صوته أكثر مما يجب ؟ أوشك أن يقول ، رجب يشرب عندى من شاي المجهود الخرى ، ليمسك لسانه ، قال بكر لصفاء إن والده يرفض مغادرة السويس .. أطرق خضر ، نظرات صفاء الجريئة نحوه ، قال إنهم يريدون منه مغادرة السويس .. يريدون تهجيره ، انه يرجو من بكر وساطة ما ليقى ، قال خضر لنفسه إن طلبه الوساطة أمام صفاء سيرفع قدر بكر في عينيها ، فوجىء بابنه يقول ..

أنت يجب أن تبقى معى ..

كيف ؟ لم يدرك كيف ؟ هل يناقشه أمام البنت ؟ والسويس ؟ هل من المناسب أن يتتحدث عن النسبة ، وعن الشاي ، وعن الزبائن الذين أحبوه ، واثمنته كل منهم على حاجة ما أو سر خاص ، أبدى بكر اصراراً وقال إنه يجب أن يستريح ، في الأيام التالية طاف خضر بالأولياء ، زار

---

الحسين ، صل فيه المغرب ، والعشاء ، دعا أمام المرقد أن ي benign كل من يعرفهم أو لا يعرفهم ، بعد أن أغلى المسجد أبوابه دار حوله ، أو شك أن مجلس فوق الرصيف بجوار بعض الفلاحين ، تذكر أنه الآن في القاهرة ، ربما تصادف مرور بكر ، في ظهيرة أحد الأيام جلس فوق دكة مجاورة لنصبة شاي بالقرب من سيدى الشعراوى ، سأله صاحبها عن سعر الكوب ، كم يبيع يوميا ، عندما لاحظ تساولا صامتا قال انه صاحب نصبه شاي في السويس بعكس ما توقع أبدى الرجل تحفظا زائدا ، سأله ب/questions ، هل هاجرت من السويس ؟ هل ستفتح نصبة هنا في مصر ؟ ، في البيت يرى أرهاق بكر وتعبه ، أثناء تناولها الشاي ، يسأل نفسه ، هل رشف الشاي بصوت مسموع ، لم يتبدل أحاديث طويلة في الليالي التي يعود خلالها متأنرا ، أثناء النوم يتقلب بحدٍ شديد ، ربما تسبب طقطقة السرير ازعاجاً لبكر الذي ينام في الحجرة المجاورة ، يستيقظ كثيراً ليأسئل نفسه ، هل ارتفع شخيره ؟ في الصباح يكتم سعالا ، ييدو النهار المقليل غربا ، ماذَا سيفعل ، ماذَا سيقوم به بعد خروج بكر ؟ يدور حول نفسه أثناء مشيه في الطرقات ، يتأمل وجوه المارة ، يتبع ايقاع المشي السريع للناس ، كأنه يرتدى ثوباً به رائحة عرق الغير ، افتقد الترقب الليل اذ هدر مدفعة رجب طويلا ، تدرك المدينة أن رجالاً عبروا في دروية إلى الشرق ، في معظم الأحوال لا ينطئون ، يصدر البلاغ ، يردد الراديو ، عبرت قوة من رجالنا

---

شمال بور توفيق .. أو جنوب حوض الدرس قال مرجان أنه يود العبور معهم ، قال مرجان ضاحكا قبل إختفائه .. سيحدث يوما يا عم خضر .. تمنى لو عاش حتى يرى هذا اليوم ، قال إنه سيحمل كل ما في النسبة ويوزعه هناك على الرجال ، كل ما لديه سيصبح مجها حربيا ، ماذا لو جرى ذلك أثناء بقائه هنا ، بين كتب بكر ، وأوراقه ، وأدراجه المغلقة ، جاكتاته الأنثقة ، ماذا لو ذهب الجدعان كلهم إلى الشرق ، وهو هنا لا يدرى شيئا عن أرقام التليفونات التي يديريها بكر ؟ المواصلات التي يركبها ، أصدقائه ؟

### حوادث تمهدية

لم يقل خضر لأحد كيف حصل على تصريح بالإقامة لم يتغير شيء سوى موقع النسبة ، نقلها رجب وثبت وكمال أثناء غيابه من تحت الرصيف إلى مدخل البيت خوفا من عربات النقل المسرعة ، لم يغير موقع شرفته ، باستطاعته أن يأوي إلى أي شقة في البيت الذي خلا تماما ، لم ينزل إلى الطوابق السفل ، أحيانا يستضيف أحد الجنود الذين لم يلحقوا بأخر أوتوبيس ، قد يترك الجندي جزءا من متعاه ، في حجرته بطاطين رمادية ، حقائب سفر ، سترات مدنية ، يضحك فكري قائلًا إن سر عم رجب باائع ، جميع البيوت المحيطة به إما تهدمت أو جرحتها الشظايا ، أما البيت الذي يسكنه فلم يمس ، خلال تلك الشهور علم الجنود بابنه الطبيب ،

---

يوما سأله لطفى المياوى مداعبا «الولد يقوم بالواجب يا عم خضر» ، نظر إليه خضر معاقبا ، قال إن بكر ابن حلال ، يراعيه ، يرسل إليه ما يكفيه ، عندما زاره في مصر وأقام عنده ترك له غرفته لينام بها «مضى معه إلى حديقة الحيوانات ، والأولياء ، أغلى عيادته ليقيم معه ، يستفسر عن أدق أحواله ، يسكت خضر قليلا ، يطلب من الله أن يسامحه ، هل من المعقول أن يشوه سمعة بكر بلسانه؟ ، ثم يسأل محدثه ، ألن يأن الفرج قريبا ، والفرج في لغته ولغة الرجال يعني بهذه الحرب ، إن كثيرا من الجنود يحييونه ، «والله عايزيين نخلص يا عم خضر .. رينا يسهلها» .

### مشهد آخر

### الساعة ٦٠٠ ، صباح الأحد ٧ أكتوبر

طوال الليل لم ينم ، لم يغمض له جفن ، ليس بسبب الانفجارات التي لم تهدأ ولم يعهد مثلها من قبل ، نزل من الحجرة ، أصعد إلى الراديو مع بعض رجال المقاومة ، لكن نبضا خفيا بدأ يسرى في المدينة ، كأنها رحم يستقبل أول إشارات الجنين ، نبض يوحى بكل ما يتم في الظلام « في الشرق » ، قال للرجال إنه مع النهار لن يبقى دقيقة واحدة في السويس ، قال أنه سيذهب إلى الشرق وراء الجدوعان موفيا ثنرا قطعة على نفسه أمام عزيز غال اسمه مرجان اخترى منذ ثلاثة سنوات .

---

---

مع أول ضوء احتوى النسبة بعينيه ، في فمه مذاق صباحي جديد ،  
انفجارات متتابعة ، متالية ، من كل الأنواع ، صاح رجل في مكان  
قريب :

« والله زمن يا صالح ... » .

هدير بعيد ، يتذكر بسرعة ذهابه إلى بكر أثناء امتحان الشهادة الاعدادية حاملا لفافة ورق بها رغيف وقطعى لحم ليأكلها في الفسحة الفاصلة بين فترات الامتحان ، تناول الجردول الفارغ المخصص لغسيل الأكواب ، وضع موقد البريموس رفيق العمر ، هزه قليلا ، تأكد من امتلاء بالكيريسين ، أثناء اشتعاله يدرك الخلل الطارئ من صوت النيران ، لف جميع الأكواب الزجاجية في جريدة قديمة ، كل السكر ، كل الشاي ، لم ينس حتى أوراق التناعن الجافة ، أين الملاعق ، لن يدع أحدا يلقي السكر ، لا وقت لديهم .

قطع شوارع الأربعين مسرعا في اتجاه المهاويس ، يحفظ السويس شبرا ، شبرا ، سيعبر أقصر الطرق إلى الموضع الذي نصبووا المعبر عنده ، سيضع العدة في حفرة على جانب الطريق ، يملأ أكبر براد عنده ، قبل مغادرته النسبة التي أصبحت فارغة تماما الآن ، قال له رفاعي السبايك إن فلاحين من الجنائن عبروا بأقفاص الطماطم والبلح وافطار ساخن وراء

---

---

---

الجدعان الذين باتوا كلهم ليلة أمس في الشرق ، لن يمنعه أحد » القدامي  
يعرفونه ، الجنود الجدد سيعرفونه من القدامي ، بعبورهم إلى الشرق  
أصبحت الأرض إمتداداً طبيعياً للسويس ، للمدينة ، سيبحث عن  
فكري » عن رجب ، عن لطفي ، عن كمال ، عن مكرم عن  
إسماعيل .. يهتئهم بأول صباحية في الشرق ، ارتفعت الأرض به ، لمح  
زقة القناة ، أعمدة دخان بدت متجمدة في الصباح الباكر ، النقي «  
تهوى انفجارات متالية من السماء » يتد الجسر ، يصل الضفتين »  
يربطهما ، يضطر إلى التوقف لحظات ، سيارات نقل ضخمة تتجه إلى  
الجسر ، صناديق الذخيرة ، المستطيلة الرمادية ، جنود فوتها ، يلوحون  
بأسلحتهم ، أحدهم يصيح ..  
.. عم خضر .. عم خضر ..

من ؟ لا يدرى من ؟ تبتعد الملامح مع اندفاع العربات المهزلة مع  
مطباطات الطريق » يحاول الإسراع بقامته المتختنة وخطواته العجوز » عرفه  
الجدعان » لا يعرف من صباح به .. سيبحث عن كل أحبابه ، سيزرع  
كل ما لديه على من يقابلونه ، أمام الجسر ، فوق الجسر ، في الشرق ..  
كل ما لديه بجهود حربى .. ربياً فوجي ، برجان يناديء يحيضنه » يكشف

---

---

---

عن صفين من أسنان لامعة ، يهتف مادا يده بكوب الشاي ..  
« غيبة وطالت يا مرجان .. » .

يونيو ١٩٧٦

الوجبة

〈 ٢٥١ 〉

---

---

(١)

.. اليوم ، لم تتوقف طويلاً أمام أي شقة في الطوابق الخمسة ،  
اكتفت بaimاء رأس سريعة وكلمات قليلة بجاراتها اللات فتحن أبوابهن ،  
جلسن أمامها يتحدثن ، عادة بعد رجوعها من السوق أو زيارة أحد الأولياء  
توقف ، ! تلتقط أنفاسها ، السلم المؤدي من طابق إلى طابق يتكون من  
ثمان عشرة درجة حجرية يحدها دابزين خشبي قديم يهتز إذا ما استند إليه  
أحد ، يدور حديثها مع جاراتها حول أسعار المخضر في السوق ، الشكوى  
من غلاء الأحوال ، لقاء عابر بامرأة عرفتها يوما ، خبر زواج ، موت أحد

ال المعارف ، استفسار عن احتمال تخفيض سعر الكهرباء ؟؟ اليوم لم تتوقف ، صعدت بحملها الثقيل ، حقيقة البلاستيك ، تبرز منها رأس قرنبيطة ، قرطاس تبلل ورقه بضغط ثمرات الطماطم اللينة ، يصل ، كرات ويقدونس ، اليوم يجيئ من الشهر إلى الشهر ، تتظاهر ستة وعشرين يوما ، لا وقت تضيعه ، عندما وصلت السطح اضطرت إلى التوقف لحظات قبل أن تقطع الخطوتين المتبقيتين إلى باب الحجرة ، الضوء منبسط ، دافع عدما مساحة متساوية بخطأ بطلال سور السطح الواطي ، وسقف الغرفة مغطى بصناديق خشبية قديمة ، قوالب أحذية خشبية ، صفيح ، زجاجات فارغة امتلأت يوما بعطور بأبحار بأدوية ، بقايا سكان قدامي تداولوا على الحجرة ، أكواخ من التراب وقطع الحجارة ، أول الشتاء اهتزت جدران الغرفة برياح عالية الصوت ، نفذت من فراغات غير مرئية ، تهز هب المصباح اليدوى ثم جاءت الأمطار ، ابتل الفراش ، سقط المطر على البلاط المكسوف بصوت عال كصبار لم يحكم إغلاقه ، عندما وصل أبيدى خوفا عليها واهتمامها ، سألهما ، هل ابتلت ؟ هل ارتعشت ؟ طمأنته كعادتها ، لو هاجتها أقسى الأوجاع ، لو وخذتها الأبر ، لا لتفظ آلة ألم حتى لا تزعجه ، نزل يومها إلى الحارة ، عاد بقطف ملاه ترابا وأحجارا صغيرة ، صعد فوق سلم خشبي قصير امسكته بيدها حتى لا تهتز ، نزل مرة أخرى ، في نهاية اليوم كدس أكواخا من

التراب حتى لا يتسرّب إليها المطر ، لم تخبوه بدخول الماء البارد كسن المقص من الشقوق الخفية في الجدران حتى لا يشغل وقت الأجازة كلها ، إنها تفك الآن حزاماً من قطعة قماش مبرومة ، ربطت به ملائتها اللذاء حول حضرها ، ييرز أصبع قدمها الكبير من تهتك أصحاب مقدمة الحذاء البلاستوني ، تنظر بارتياح إلى الحجرة منذ ثلاثة أيام غسلت غطاء السرير ، أخفقت المساحة المحترقة منه ناحية الجدار ولفته بإحكام حول المرتبة نظفت زجاج النافلة ، وأزالـت عـش عنكبوت تكونـ في الرـكن الأـعلـى المواجه للـسـرـير . فـ فيـ الفـرـاغـ رـائـحةـ الـبـلـاطـ الـقـدـيمـ الـمـسـوـحـ ،ـ منـ المسـارـ المـفـروـسـ فيـ الجـدـارـ يـتـدـلـيـ جـلـبـاهـ . . .

(٢)

تطلع إلى الظل ، تعرف على الوقت من حركة الظل الرمادية قبل المغرب بوقت كافٍ يتم كل شيء ، عند وصوله لا تقوم إلا بتسخين الطعام فقط ، بعد أن يخلع ثيابه ويغسل وجهه في دورة المياه التي تقوم عند الطرف الآخر من السطح . يخرج مشمراً بمنظونه ، إنها تخرج لوان حديده الآن ، صينية ، مصفاة طماطم ، هون نحاس قديم ، حلة الومنيوم متوسطة الحجم ، سكيناً قصيرة ، تتزع القشور الخارجية للبصل ، تقطع رأس الشمرات بالسكين ، طعناتها قصيرة موجزة بالطول ثم بالعرض . يتساقط

---

فتات البصل ، تسوق ، تمسح أنفها بظهر يدها ، تغمض عينيها ، تفتحها ، آلاف المرات التي لا ممت فيها الرائحة أغشية أنفها لم تصبها بتبلد ، تمسح يدها بحوار جلباهها ، إنها تبتسم ، يميل رأسها ، تصغى ملاحها بتأثير صور قدية . يوم انتظاره يحيطها سيل من تلك الأيام ، تذكره الآن صغيرا . يعود من المدرسة ، عندما يراها تنشر البصل أو تعصر الطماطم يصبح أنه سينزل في الحارة ويرجع ، تومي موافقة ، لكنه يعود بعد قفرة لبشر درجات من السلم ، يسألها ، متى ستنهين من الطبيخ ، تقول ، حالا ، يجلس القرفصاء ، بجانبها ، عندما يبدأ اللون البن يتسرب إلى البصل تطلب منه أن يأوي بنصف رغيف ، تضع فيه قليلاً من التقلية ، تطلب منه أن يتصرّب حتى يتنهى الطبيخ ويجيء أبوه ، في الصباح تعطيه نصف رغيف مشو فولا ، أثناء نزوله السلم تصبح عليه كى يختبر عبث الصبية ومحاولتهم خطف طعامه وكراريسه .

إن ملاحها تتصمت فجأة ، تلم للحظات شفتيها إلى داخل فمها ، تعيدها إلى وضعها الطبيعي ، تتحرك مرات متقطلة بين الحجرة ، ودورات المياه وعشة قدية صغيرة تضع بها الثوم والبصل وكيلو يامية بخففة وتأية فخار مكسورة العنق ، آخر ما تبقى لديها من أوان جاءت بها من الصعيد منذ سنين بعيدة ، تتأمل القلل ، يغطى جزء أكبر من السطح لكنه لم يصل

---

---

---

بعد إلى صف البلاط الرابع ، ما زال الوقت مبكرا على آذان العصر ،  
يمكنا أن نصل الظهر حاضرا .

( ٣ )

تقول دائيا عن موقد البريموس أنه « عشرة » العمر ، الآن تدفع  
الكباس ، تعلو النيران تقدمها خيوط دخان تبدو ظلاما على البلاط أشد  
كتافة من قوامها في الفراغ ، تتراجع إلى الخلف حتى تنتظم النيران ، كثيرا  
ما قال لها « ابتعدى حتى لا تلمس النيران شعرك » ، قوائم الموقد الثلاث  
تميل قليلا عن وضعها الطبيعي ، يدو على الثنتين منها سخام حديث ، لا يمر  
أسبوع إلا وتنزل به إلى سباق قريب ، إن أقدارا كثيرة تراكمت على نحاسه  
الأضفر ، تجمدت فكأنها جزء منه ، لم يستمر انتظام النيران طويلا ،  
نفخت بضمها ، صاحت ، « اعتدل والا خبطتك في الأرض » . يضحك  
عندما يسمعها تزرع هكذا ، تتحنى نمسكة الإبرة تحاول تسليك ثقب  
الغاز ، ترتجف النيران مرات ، ثم تنتظم زهرة من لهب تتوج الموقد  
النحاسي ، تقول بارتياح ..

« أكمل جيبلك حتى تنتهي الطبيحة .. لا تكسفن » .

يأذ صوت النيران ، بملعقة صغيرة تفرغ الكوب الممتلئ حتى نصفه  
بالسمن ، تخول القطع المتجمدة إلى سائل أصفر يزدحم بفتقاقيع صغيرة

---

متألقة ، تتلاشى ، تنمو من جديد ، يندو السمن المنصهر متاهيا لا ستقبال  
البصل والقلفل وعصير الطماطم ، أشعة الشمس تتدفق كالمرق  
الساخن ، أزيز الموقد يدركه وهن « تصيح ..

« خلي عنديك دم .. لم يبق وقت لدعلك » .

آخر أجازة لحظ تعبها مع موقد البريوس ، اقترب منها في الصباح  
المبكر ، أمسك كتفيها في إحدى المرات القليلة التي تتلامس فيها أيديها ،  
أنهيا يتواجهان « تتحرك في حبه ، وعطفه فهو ما تبقى لها بتاته حين  
واحترام لأمة العجوز التي لم تهدأ طوال حياتها » ، يقول لزملائه إنه لم يرها  
نائمة أبدا ، ودائما تقوم قبله وتتام بعده « تترقر مشاعره ، لكنها  
لا يتبدلان القبلات ، لا يعبران عنها يشعران به بالكلمات غير أنه في آخر  
أجازة أحاطها بذراعيه ، قال ..

« ولا يهمك .. بعد إنتهاء الخدمة سأشترى لك « بوتجاز » .

همست بخجل وسرور ..

« تحببه لبيتك يا بني إن شاء الله » .

(٤)

آذان العصر من المساجد القرية ، مذياع بعيد ، تقوم إلى السور ،  
تحتضن الفراغ بعينيها ، بعد صلاة الجمعة في تلك الأيام البعيدة مجلس

أول السلم ، يصعدى إلى برنامج ساعة لقلبك ، ربما يقللونه أو ينفضونه ، عندئذ لا ينهى قعلته مباشرة إنما يكث قليلا ثم يقطع السلم عدة مرات قبل أن يتکىء إلى السور متاماً هذه الماذن البعيدة ، تنظر الآن إلى مذنة الحسين الرشيعة ، التحيلة ، طافت بالمقام ودعت له أن يشفيه من مرض أو يوفقه في المدرسة أو يثبته في الوظيفة ، منذ ذهابه إلى الجهادية تدعوه لزملائه ، لكل أبناء الناس الذين يعيشون في الخطر ، تدعو لزملائه في الملجأ ، تعرف أسم كل منهم ، تلفظ الآن دعاءها « إن شاء الله يا سيدنا الحسين » ، غبار معلق يضفي على البيوت البعيدة رمادية داكنة ، أما البيوت القرية فيميل طلاؤها على اختلافه إلى إصرفار بتأثير الشمس المنكسرة باتجاه الغيب ، بعد ساعات سيتمدد فوق السرير وتتعدد فوق الأرض ، رأسها يحاذى صدره ، يأسماها ضاحكا عن الأخبار ، تحكي عن البيوت ، عن الخنافس ، عها رأته أثناء زيارتها للأولياء ، يقاطعها ..

« خذى بالك وأنت تعبرين شريط الترام .. .

ستحدثه عن اهتمام محمد الخضرى بها وقوله بصوت مرتفع لصبيه إسماعيل « أقضى حاجة الست الحاجة .. ادع لنا يا أمي » وردتها عليه « الله يبارك لك في رزقك » ، الآن تتطلع إلى الطريق ، مارة ، جلابيب ، قمصان ، بنطلونات ، طفل يدخل طوقا ، رجل يعاتق رجلا ، يتراجع لحظة برأسه ثم يستأنف العناد ، فوق سطح الصبعة يمشي رجل يحمل

---

---

خيوطا صوفية مبلولة ، ينشرها على أعمدة خشبية متلة ، يصبح مناديا  
شخصا اسمه « حسين » ..

( ٥ )

بطرف لسانها تتذوق الطيب بعد أن أضافت ملحا ، منذ عشر دقائق  
أضافت نصف كوب من الماء ، في نفس المكان الذي ياز فيه الموقد الآن  
جلست أمام الطشت ، فوق كرسي الحمام يقعد في مواجهتها ، يحدثها عن  
أستاذ العربي الطيب ، وأستاذ العلوم القاسى ، الأول لا يضرب والثان  
يقوس على التلاميذ ، تصغى إليه ، تدعوه لأستاذ العربي وتلعن مدرس  
العلوم ، بين الحين والحين تطلب منه أن يتناولها صابونة أو كوز الصفيح ،  
شاء المرحوم أن يعلمه حتى النهاية ، لكن الزمن يبدل ويعير ، الآن يعلو  
صوت المذيع ، تنظر إلى الطريق ، ثلاث فتيات ، سقاء يدفع عربة عمלה  
بقرب المياه ، ينفق قلبها فجأة ، جندي عند المنحنى ، لكنه قصير ، غطاء  
رأسه أسود اللون ، تستطيع تمييز قامته وطريقة مشيته ، تماما كالمرحوم  
والده ، انحناءة جذع الجسم الأعلى إلى الأمام قليلا ، ربما لأن ثقل جسمه  
يستند إلى أطراف أصابع قدميه ، تذكر الآن آخر مرة خرج فيها ، تابعته في  
بداية النهار الرائق كالخليل ، في الفتاء رفع رأسه مبتسمًا ، احتفى ،  
تابعته ، مدت جسدها إلى أقصى ما تستطيع ، عند المنحنى توقف لحظة ،

---

---

عدل وضع غطاء رأسه الأزرق ، كثيرا ما قالت بخاراتها أنه في الصاعقة ، عندما تسمع اسم منطقة الكتاب في أحد البيانات العسكرية يهبط قلبها داخل جسدها مقدار اصبعين متجاررين ، إذا تصادف لقاؤها بإحدى صاحباتها وسألتها عنه ، تقول إنه في الكتاب ، وتتفكر ، « الصاعقة هناك » .

إن أزيز الموقد يتوقف إما لنفذ الكيروسين أو لعدم دفعها الكباس لفترة ..

« مصبح ضبي » .

إن ثقبا يغرس صدرها ، ينبعث ضوء آخر من دكان سعيد البقال ايد خفية تنشر الضوء في الفراغ ، قرآن من مذيع قريب « والضحى والليل إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلا » .. تعجز عن تمييز الملامح مع نزول الليل لكنها تستطيع رؤية جرسون مقهى الميدان يرش الأرض استعدادا لاستقبال الزبائن الليليين ، عند الطرف الفصلي للرصيف المحاط بسور حديدي يجلس شخص ما يدخن نرجيلة وضعت أمامه منذ دقائق ، ترفع عينيها إلى السماء الرمادية ، ترجو التهار لا يرحل والليل لا يقبل ، تود لو أغفت عينيها قليلا ، تفتحها لتتجده أمامها وأن يوقفها ، منذ سنوات طويلة لا تذكر مقدارها ، وضعته فوق السرير طفلا رضيعا نائما ، قعدت

خارج الغرفة تغسل بعض ثياب المرحوم ، صباح شتوى عتيق لا تدرى الآن في أي السنوات هو لكنها تعى حدة الهواء البارد وكثافة الغمام في السماء ، اهتز الباب بتأثير الهواء ، لم تتبه إلا على صوت اصطدامه ، أغلقت الحجرة تماماً ، المفتاح بالداخل ، دارت بعينيها حورها ، راحت جاءت ، نزلت إلى جارتها المست روحية « الحقيقى يا أم كاميليا » راحت تبكي ، طمأنتها ، جاءت أم سعدية أيضاً ، وقفن يعالجن الباب ، انزوت هي بعيداً عنهن ، تعس أصعبها بقوه ، تبكي ، عندما نجحن وفتحن الباب ، أسرعت ، وجدته نائماً ، لم توقظه الضجة ، احتضنته ، قبلته ، لم تتوقف عن البكاء ، صاحت المست روحية :

« الولد سليم والحمد لله .. والباب فتح .. لماذا تبكين ؟ آه .. لماذا تبكين ؟ » .

( ٦ )

تتوالد النجوم بكثافة ، تخف الرجل من الطرقات ، تبدو العدوة خطى العابرين ، يسرع الترام ، حركة ما بعد العاشرة ليلاً أو الخامسة عشرة لا تدرى ، الظلال غطت الدنيا وأسود لونها ، كيف ستميز الوقت ؟ هل أخطأات في حساب التاريخ ، بالضبط اليوم اثنين ، لم تجلس منذ ساعات ، يسرى غل خشن تحت جلد ساقيها تستدير ، من تسأل ؟ الى

أين تمضي ، إنها في أشد الحاجة إلى الحديث مع .. مع من ؟ لو جاء في  
 Miyadah لبدأت جلساتها الليلية منذ فترة ، تبتعد عن السطح ، تعود لتطل ،  
 تزحف بروقة على الطريق ، ربما عبره في تلك اللحظات التي ولت بنظرها  
 عنه ، تبتعد عن السور مرة أخرى ، لا تتبعه إلى الموقف الهاامد ، البارد ،  
 ولا تشعر بوجود الإناء يحوي الطيبخ في فراغ السطح ، لم ترفع غطاءه ، لم  
 تغرس منه ، لم يرفع اللقمة المغموسة في المرق ويقول « وحشني أكلك » ، لم  
 تمسك بقطعة لحم وتصر على أن يأكلها . يجبيها بأنه شيع وأمام إلساحها  
 يقول « تعزمين على .. أنا غريب ؟ » إنها تعبر السطح بسرعة ، تذكر  
 المرحوم اذا يعطى للصغير نصيبيه ، ثم يعطيها نصيبيها ، تقسم ما أخذته  
 قسمين ، لا يمكن أن تدخل لقمة إلى فمها لم يلقها ، تنزل الدرجات ،  
 كتفاها هابطتان ، تحت حمل غير منظور ، تقف أمام باب المستروحة ،  
 صوت أناث الأسطى حمدى الترزى يطلب كوب ماء ، شبشب ياط فوق  
 بلاط الصالة ، عبر الباب المغلق تشم رائحة هذا الحديث الليل  
 والاسترخاء المتعب ، أبواب الشقق التي أغلقت ولن تفتح الا صباح  
 الغد ، لا يتظرون زائرا أو قدوم غريب أو قريب ، شظايا ضبحكة بعيدة ،  
 كيف ستطرق الباب ؟ فراغ البيت مثلث برأته هي مزيج من آثار يصل ،  
 أناث قديم ، بلاط مسحور ، ميدادات حشرية ، عطن غامض ، الشقق  
 كلها مغلقة ، آخر أجازة قال نفس العبارة التي اعتاد لفظها عند ذهابه :

---

---

«إذا خط أحد الباب .. لا تفتح إلا إذا تأكّدت أولاً ... من  
هو؟» .

(٧)

تضييع بقایا أصوات البيوت ، دوائر النور الشاحب تحت المصايف في الطريق البعيد ، إنها وحيدة تماماً مع الليل ، صفير قطار بعيد كالألين ، ربما يجلس بأحدى عرباته ، ربما يقترب الآن ، ربما يعبر الناحية الغربية ، يفتح باب التاكسي أو الأتوبيس أو يقفز من عربة نقل ، ربما يبحث الخطى عمسكاً حقيقة اليد التي قتلت بشيابه الداخلية وفوط الوجه ، اعتادت أن تنسلها كل أجازة وتنشرها على الجبل المتد فرقها ، ربما يمتاز نقطة ما على الطريق الصحراوي في بطن الليل ، ربما يحملن بعينيه مفكراً فيها وكيف سيلقاها .. ربما ..

مارس ١٩٧٦

# حكايات الغريب

⟨ ٢٦٥ ⟩

.. في يوم السبت ٢ فبراير ١٩٧٤ بعد أن فتح الطريق إلى السويس لل المدنيين ، قام رئيس العهدة المخزنية بالمؤسسة العامة المعتمدة للتوزيع والانتشار بكتابه مذكرة يعرض فيها موقف الاسطعى عبد الرحمن محمود ، حيث إن المذكور قام في تمام الساعة السادسة من صباح ٢٣ أكتوبر بقيادة سيارة نقل من طراز فورد موديل ١٩٥٦ عمله بصحف وكتب وبجلات نقلها إلى مدينة السويس وتسليمها إلى الحاج حسن السودانى متعمد التوزيع هناك ، وخلال السنوات الثلاث الماضية أصر على قيادة رحلات المؤسسة إلى السويس « واعتبر أكثر سائقى المؤسسة خبرة بهذا الطريق الصحراوى الذى تكثر فيه المنحببات ويزدحم بالمركبات العسكرية . غير

---

أن أخباره انقطعت تماماً منذ ٢٤ أكتوبر ، وأصبح موقف السيارة الفورد والبضاعة غير معروف مما تسبب في وجود فجوة في دفاتر العهدة .

وفي يوم الأحد ٣ فبراير ، أبدى مدير المؤسسة حيرة عندما عرضت المذكورة عليه ، إذ إن الموضوعات التي يقرأها ذاتها ذات طابع متشابه منها اختلفت مصادرها ، لم يسبق وقوفه أمام موضوع بهذا الشكل ، لهذا رفع السماuga وطلب رئيس مجلس الإدارة . وبعد تفكير مشترك صدر قرار بتشكيل لجنة تسفر إلى السويس وتستقصي الحقيقة حول مصير العهدة ، وفي تمام الساعة الواحدة والربع بدأت الآنسة سنية نسخ المذكورة الخاصة بتشكيل اللجنة بعد أن أنهت مكالمة تليفونية طويلة مع إحدى صديقاتها .

وبعد ثلاثة أيام صدر القرار من أصل وخمس صور ، يحمل توقيعاً رئيسيًا لمدير المؤسسة ، وتوقيعًا جانبياً لرئيس قسم العهدة ، وأسفل الصفحة اسم « سنية » التي نسخت القرار . ضمت اللجنة الأستاذ الجواهري رئيس المعهدة ، وسعيد طليل الموظف بإدارة الأفراد وشفيق نصرى الموظف بقسم التوزيع . عقد اجتماع عاجل حيث اتفق الأعضاء على صرف مبلغ بكل منهم كبدل سفر لمدة مسبعة أيام ، وطوال مناقشة هذه النقطة لم يلفظ الأستاذ الجواهري كلمة حتى لا يقال أنه اشترك في مناقشة أمور مالية ستعود عليهم بالخير . إنه موظف قديم خل من قبل في ديوان الاطمئنان على صحة المواطنين ، عالم تماماً بالأصول والقواعد . في اليوم التالي عقد اجتماع

---

آخر ، في بدايته ضغط الأستاذ الجواهري زرا جاء بعده عامل البو فيه ، طلب طايل أفندي شايا ، أما الأستاذ شفيق فطلب قرفة ، اعتذر العامل بسبب ارتفاع أسعار القرفة ونذرتها ، أبدى شفيق أفندي ضيقاً وقال إن البو فيه سين ، ولابد من تغيير المعهد ، اعتذر ، وأشار رئيس اللجنة إلى المهمة الصعبة التي تنتظرونها ، واستفسر عن تصور كل منها لخطبة العمل الواجب اتباعها ، اقترح طايل أفندي البدء هنا ، ضرورة الذهاب إلى أسرة المذكور واستجواب أمها أو زوجته أو أولاده واستيضاح آخر تاريخ تواجد فيه بينهم ، وأشار الأستاذ الجواهري إلى ملف أزرق . قال إن الخطوة الأولى من هنا ، تعجب طايل أفندي ، كيف فاتتها الفكرة ؟؟ تم استعراض محتويات الملف واتضح أنه يضم ما يلي ..

■ شهادة ميلاد باسم : عبد الرحمن محمود على ، من مواليد عام

. ١٩٤٤

■ اسم والده محمود على أحد . اسم والدته نجية ، تم تعبيمه مرتين ، الأولى ضد الجدرى ، والثانية ضد الدفتريا ..

■ شهادة حسن سير وسلوك ، موقعه من موظفين الثين ، مؤرخة ١/

. ١٩٦٧/٨

■ تصريح بممارسة القيادة على جميع أنواع السيارات .

- 
- شهادة خبرة من المؤسسة المصرية العامة لنقل الأوعية الزجاجية الفارغة تبين أن المذكور قضى خمس سنوات في خدمة الشركة ..
  - شهادة معافاه من الخدمة العسكرية . نظراً لأنه الأبن الوحيد وعائله أمه ..

لاحظ الأستاذ الجواهري خلو الملف من العقوبات أو الجزاءات طلب تدوين هذه الملاحظة ، اقترح طايل أفندي الذهاب إلى أسرة المذكور غدا مع احتساب المدة التي سيفضي بها بالعطوف من الفترة المخصصة للمأمورية . تمهل الأستاذ الجواهري في المواجهة ، خاصة وان الاقتراح يعني تقاضيهم بدل سفر عن يوم سيقضونه في القاهرة .

### .. العطوف ..

بعد بحث استغرق ساعة . تخللها سؤال أصحاب دكاين ، وصبية . وجرسون . وأمين شرطة ، وامرأة عجوز ، وصلت اللجنة إلى المنزل رقم ١١ ، آثار ظهور الأفندية اهتماماً في الحى ، وسارعت امرأة تبع المحسن إلى الاختفاء ظنا منها بأنهم من الصحة ، صاحت أحدهن على السيدة أم عبد الرحمن لتتكلم « البهوات » ، خرجت امرأة حافية ، تخيط نصف وجهها بطرحة ، آثار خجل أشوى ما زال متبقياً مع العمر المتقدم

---

تساءلت عن أخبار عبد الرحمن ، من هي شهير عرفت انهم جاءوا من أجل ابناها . تطلعت إلى الأستاذ الجواهري ، أدركت من سنه وحركته البطيئة واحاطة الشابين به أنه أهم الثلاثة ، تقدمتهم عبر فناء به مياه غسل لم تجف ورائحة عطن وزير يستند إلى حامل معوج وسلم طوويل بدون درايزين ، يؤدي إلى مجموعة من الغرف المفتوحة المتتجاوزة ، أطلت طفلة اختفت ، عادت ممسكة بطرف رداء امرأة عجوز ، وسمع صوت اثنوي يطلب من محمد سرعة ارسال اكواب الشاي إلى أم عبد الرحمن عندما سمع الأستاذ الجواهري صوت كباس موقد غازى صاح طالبا منها أن تخضر لأن وقتهم ضيق ، لاحظ شقيق افندي صورة حجم كارت بوستال معلقة في مواجهة الكتبة القديمة ، تشبه الصور الصغيرة الثلاث في الملف ، عينان واسعتان تحملقان إلى الأمام ، على الإطار الأبيض أكلشيه أزرق « ستوديو الأزهر » . قالت إن أحدا لم يدخلها ، ثم تمنت لو التقت بالبك المدير لكنهم لم يسمحوا لها بالصعود من الباب ، قاطعها طايل افندي قائلا إن البك حضر بنفسه إليها ، قالت إن أحد زملائه كتب خططا على لسانها إلى مأمور القسم ، والمحافظ . أخذته منها جدع طيب يرتدي قميصا وينظرلها لم تره أبدا بعد ذلك ، قالت أن عبد الرحمن هو ما خرجت به من الدنيا وهو سندها . بدا لفظ « سندها » لشقيق افندي كأنه عوبل ، لاحظ وشها أخضر باهتا يتوسط جبهتها ، تبدو في جلستها أكثر ضالة ، فكر ، أنها

أم ، بحث الأستاذ الجواهري عن الفاظ مناسبة يصيغ بها عبارات المرأة المفكرة في المذكرة ، قالت إن ابنها كالريق الحلو ، لم يسمع حسه أبدا ، لم يتشارج مع إنسان أبدا ، لم يدخل قسم بوليس ، أثناء ذهابها إلى المصالح وأقاربها الموظفين يبحث عن ملامحه بين الوجوه ، ركبت الترام وعبرت طرقات لم ترها ، وجلست مرة بجوار شاب يقرأ جريدة ، هل يوجد ناس في السويس ؟؟ سألهما ، هل أنت مهاجرة يا أمي ؟؟ . قالت إنها لم تر السويس أبدا ، سمعت عنها كميناء يذهب منه الحجاج إلى مكة المباركة ، وعرفته بأن ابنها سافر كثيرا إليها . لكنه لم يعد ، قال الشاب ، طبعا هناك ناس في السويس يا أمي . هل تصلهم مياه ؟؟ قال اطمئنى يا أمي الماء عندهم أكثر من هنا ، سكت لحظة وقال أن عيونا خفية تفجرت من قلب الرمال . مياها عذبة حلوة تكفى بلدا . أشارت بأصبعها إلى أعلى ، قالت إن (جد عانا) كثرين ماتوا . ولو تأكّلت فلا حول لها ولا قوة .

هنا ضيق الأستاذ الجواهري عينيه ، طلب التأكيد من آخر مرة حضر فيها عبد الرحمن إلى البيت ، قالت إنها تذكر خروجه وكان ساعة واحدة انقضت ، بعد تزول السلم طلع مرة ثانية ، قال (خل) بالك من نفسك ، نزل متمهلا نظر خلفه ثلاث مرات ، لو أن نافذة العجرة الوحيدة تطل على الحارة لتابعته ، لكنها تفتح على منور داخل تغلقها دائمًا خوفا من الابراص والموام ، قالت .. مضى على خروجه مائة ليلة وخمس عشرة ..

---

أدت بيدها حركة أيمون شقيق أفندي معها أنها لم تأكل وجبة كاملة منذ مدة .  
وأنها تعانى الحاجة بعد انقطاع راتب ابنها . وانها ستبقى بلا انقطاع بعد  
انصرافهم ، إن حواسها واهتمامها كله من أجل استكشاف أمر لو ضئيل  
يختفي عنها هؤلاء الأفنديه ، ينحني الاستاذ الجواهري ، لهجته بطيبة ،  
يقول إن السائقين يلغون ويزرون الكثير من البلاد والعباد . لا يحتمل لقاوه  
بامرأة لفت عليه .. أغتوه ..

( لا .. عبد الرحمن ما يعملها ) .. قالتها باختصار شديد ، تحاول  
اخفاء استنكارها كجزء من احترامها لهؤلاء الاغراب الذين يمتنون بصلة  
ما إلى ابنها ، كل تصرفاته عليمة بها ، عندما حط عينه على صفة المغربي  
ابنته جلوس باائع العطور أخبرها . طلبت منه توفير بعض المال ، افترحت  
عليه التزول ليعمل سائقا على التاكسي لم يتزوج ، لم يقسم له نصيب من  
سننية ، ينظر الاستاذ الجواهري إلى عضوي اللجة ، لم يعد ما يقال منها ،  
إن الساعة تقترب من الواحدة . بعد نصف ساعة يصبح من المستحيل  
ركوب وسائل النقل تستمر أم عبد الرحمن ، لم يسكنها وقوفهم « عندما  
فاجأت الصرعة اسامية ابن السنت روحية جارتهم استغاثوا بعد عبد الرحمن نزل  
السلم يحمله ، ايقظ الدكتور عبد المعطى الذى يسكن فوق عيادته ، قال  
لوجاءته مثل هذه التوبية عليهم تعطىهم بملاءة سوداء وأن يضعوا شيئاً صلباً  
بين أسنانه .

---

ينزل الأستاذ الجواهري . يتجمع صبية صغار . يبدو أن المست أم عبد الرحمن لا ترقبهم الآن ، تتحدى إلى شخص ما ، بدأ هذا مفاجئا لهم بعد اعتيادهم ثبات ملاعها وجود وجهها ، تقول إن أول مرتب قبضة جاءها به ، قال إنه يتفاءل عندما يعطيها أول خيره ، أمام البيت تقترب منهم امرأة تحمل طفلا . تهمس . طوال اليوم على هذا الحال ، ينام حتى كله في الليل لكن صوتها لا يهدأ . تحكى عن عبد الرحمن ، مسكنة .. أصلها لم تر أبيض وأسود من ساعة غيته .

« ملحوظة » ..

يجب الإشارة هنا إلى أن مهمة اللجنة عسيرة ، إذ لم يسبق القيام بثل هذه المأموريات . حرص الأستاذ الجواهري على التزام الخدر بالنسبة لأى خطوة . لهذا عقد اجتماعا فور وصولهم السويس . طلب شقيق أفندي ذهابه إلى المستشفى في الحال ، قرر الأستاذ طايل البقاء مع الأستاذ الجواهري ل يستريح قليلا من تعب الطريق . على أن يمضيا بعد الظهر إلى مقر المحافظة . ومديرية الأمن لسؤال المختصين . وبدأ الاستقصاء الرسمي ، قام الأستاذ الجواهري ليطلب أسرته تليفونيا يخبرهم أنه وصل السويس بخير ويطلب منهم لا يقلقا وأنه في أمان . بعد عودته أكد على ضرورة تقديم تقرير مفصل عند نهاية كل يوم مدعم بالمستندات التي تدعم صحة ما يذكر فيه من أحداث ، وتاريخ ، وأقوال شهود ..

---

## المستشفى ..

اعتربضه رجل يرتدي معطفاً أبيض ، أبرز التصريح « قال إنه يود لو قابل المدير شخصياً ، غير أن الرجل قال ، هذا الموضوع يصعب لأن المستشفى آوى جرحي كثرين في بداية المعركة » مدنيين وجنوداً . حتى الرجوع إلى سجلات المستشفى لن يفيد في قليل أو كثير ، لأن الوقت لم يتع لتدوين الجرحى كلهم ، أما مدير المستشفى الذي عاش الحرب والمحصار وداوى المرضى وعالج الجرحى فيشاء السميع العليم أن يموت يوم فتح الطريق وانتهاء المحصار ، قال إنه الأهالي يعرفونون ، الأغرايب الذين احتجزتهم قطع الطريق . نظر شقيق أفندي إلى الأرض المبلولة . والمرضى يرحن ويجهشن . ترى .. من رأى عبد الرحمن ، عضن شفته ، سأل ، ألا يمكنه التعرف عليه لورأى صورته ؟؟ ابتسם الموظف ، قال إن طاقم المستشفى تم تغييره بالكامل ليلة أمس وأنه متذبذب من مستشفى قليوب ولا يعرف شيئاً . ثم هناك استحالة التعرف على الشخص من الصورة ، ربما حدثت به تشوهات أو اصابات بالوجه ، ثم إن الإنسان تغير ملائمه تغيراً كبيراً زمن الحرب بتأثير المعاناة ورؤية الموت والقتال ، سكت الرجل لحظة ، وقال .. عموماً اذهب إلى قسم السجلات ربما دلوك على الاسم ، لكن المسؤولين عن الدفاتر والسجلات اعتذرنا عن تقديم أية

---

مساعدة لعدة أسباب موضوعية منها فقد بعض السجلات أثناء قصف مدفعي قام به العدو ضد المدينة أحرق جزءاً من المبنى ، الثاني يتعلق بالوقت الذي يستلزم حصر المستندات المتبقية والاشراف على تصنيفها . والسبب الثالث والهام أن كثيرين جداً لم تدون أسماؤهم ، وأخرون قدم لهم العلاج اللازم وخرجوا بدون تقيد أي مستندات بما صرف لهم من أدوية أو علاج لعدم توفر الوقت الكافي ولا تشغال المرضين والأطباء والموظفين فيما هو أهم مثل تصنيف المرضى وتوزيعهم على الأقسام طبقاً لنوعيات حالاتهم ، أمام باب المستشفى تسأله شقيق أفندي « هل جاء الأسطفي عبد الرحمن إلى هنا ، هل خرج إلى مكان ما ؟؟ في الطريق الصحراوي على مسافات غير متساوية تبدو كومة حديد متداخلة ، ييرز منها إطار عربة ، أكياس قماش ، فردة حذاء رأى بعيني عقله الأسطفي عبد الرحمن يقود عربته في صحراء ملتهبة ، قدماه تضطجعان دوسات السرعة ، قبضات نيران تومض هنا وهناك يتتحرك الأفق حرقة دائمة لأن اندفاع السيارة ييرز دوران الأرض : لكن يحيى الوحش المعدن هادرا ، يدوس السيارة يعلوها ، يتجاوزها على جانبي الطريق رأى لافتات عبرية صغيرة ، زجاجات كوكاكولا وعلب طعام محفوظة فارغة منقوشة بالعبرية . ربما أحد الذين شربوا هذه الزجاجات داس عربة عبد الرحمن بدبابته .

---

---

أليس من المحتمل تعرض الأسطى عبد الرحمن لمثل هذا الموقف ؟؟  
وقتها نظر اليه الإستاذ الجواهري . قال بلهجته البطئية .. هذا  
ممكن .. لكن من يثبت هذا ؟؟

**• من التقرير اليومي لطويل أفندي •**

.. كما أفاد قائد عموم المرور أن نقطة المثلث بقيت مارس عملها وتزدبة طوال يومي ٢٢ ، ٢٣ أكتوبر ، وعندما بدأت علامات المجموع على المدينة استطاع أحد الجنود أن ينقل الدفاتر والتتصاريح التي تسجل حركة المرور من وإلى المدينة عبر الطريق الصحراوى ، وبالبحث ثبت ما يلى ..

« إنه في تمام الثامنة و٥٤ دقيقة دخلت العربية رقم ٦٧٠٧٣ . نقل القاهرة ، يقودها عبد الرحمن محمود ، رقم بطاقة الشخصية ٢٣٨٤٨ الجمالية ، وحامل تصريح مرور مستديم من وإلى السويس . وثبت أن هذه السيارة لم تغادر المدينة حتى صباح ٢٣ أكتوبر . وسألت سيادته عن احتمال مغادرتها بعد مجيء قوات الطوارئ الدولية لكنه نفى ذلك . لأن الحركة تمت بواسطة سيارات الأمم المتحدة . وتم استدعاء الجندي سيد أحمد أهل » وهو الوحيدة الباقى من أفراد نقطة مرور المثلث . أفاد الجندي المذكور إنه صباح يوم ٢٢ أكتوبر دخلت عربة النقل المشار إليها قال إنهم يعرفون سائقها لترددہ المستمر خلال الحرب . وأنه صاح من نافذة الكابينة

---

بعد تدوين العربية « شدوا حيلكم يا أبطال » عاد في المساء . لكن الظروف تغيرت إذ قطع اليهود الطريق في عدة أماكن . كثرت الأخبار أنهم في الطريق إلى البلدة للهجوم عليها . أشتد الطيران . وجاء الفلاحون من ( الجنانين ) وجند شاردون . آخر عربة ظهرت أمام النقطة هي سيارة الأسطى كمال .

و هنا استوقفت الجندي سيد أحمد الأهل ويدأت استجوابه بحضور قائد عموم المرور نظراً لتناقض أقواله .

س : من تقصد بالأسطى كمال ؟

ج : سائق اللوري المبين رقمه في دفتر الحركة ..

س : انه اللوري المدن الوحيد المبين في هذا اليوم .. هل تقصد سائقاً آخر ؟

ج : أقصد سائق لوري الصحافة .

س : اسمه في الدفتر عبد الرحمن

ج : ناداه الباشجاويش دائئماً .. يا كمال .. وعندما جاء الطيران يقنز معنا إلى الخندق وسمعت الباشجاويش يقوله له .. لا تخف يا كمال يا بنى .. ورأيته ثابت الوجه متتعجاً . فسألته ألم ير ضرباً طوال حياته . فقال انه جاء إلى المدينة أيام الحرب لكن الأمور لم تصل إلى هذه الدرجة من العنف . رفع الباشجاويش قلة ماء مكسرة القوهه ، شرب ماء قال ..

شرب يا كمال فهز رأسه قال إنه ليس بعطشان ..

س : ألم يدخل لوري آخر في هذا اليوم ؟ ..

ج : لوري واحد ..

س : ربما سمعت الاسم خطأ ..

ج : أبدا .. في مرة بعد انصراقه وقف الباشجاوיש ساهما ، وسمعته يكلم نفسه .. قال إنه شبه أبي كمال .. أى والله الخالق الناطق ..  
كمال أبي ..

س : بعد انتهاء العارة أين ذهب ؟؟

ج : عاد باللوري إلى داخل البلد .. ولم تخرج ولم تدخل أى سيارة منذ هذا اليوم وحتى فتح الطريق

### ملاحظات الأستاذ الجواهري

.. ثبت أنه لم توجد سيارة نقل زرقاء رقم ٦٧٠٧٣ . خلال الحصار ، وأفادت المباحث الجنائية والمباحث العامة . والمباحث الخاصة بوجود حطام بعض السيارات المدنية المضروبة بعضها يستخدم كمتاريس أو عوائق . أما السيارات السليمة فمحدودة ومعروفة ولم تستخدم على نطاق واسع نظرا لقلة البيزین أيام الحصار وقمنا بمعاينة حطام نقل لم يستطع أحد الاستدلال على صاحبها . وجدناها متفرحة تماما . متزوعة الاطارات . مضغطة في

---

بعضها للدرجة أن كابين القيادة اندمج بمؤخرتها.. كما احترق طلاوة ما تماماً . وحاولنا العثور على لوحى الأرقام لكن ييدو أن بعضهم انزعها إذ وجدنا المسامير القلاووظ التي تربطها مفككة وملقة . قمت باستدعاء صاحب ورشة سيارات هو فنى معتمد لمعاينة المحطم مقابل ثلاثة جنيهات ( مرفق ايصال بالملبغ ) . وأفاد أنها من طراز فورد ، لكنه لم يحدد اية مواصفات أخرى ؟؟

« .. بزيارتي للمسئولين بالمحافظة أفادوا أنه لم يتواجد شخص بهذا الاسم خلال الحصار . مع ملاحظة أنهم قاموا بحصر جميع الأهالى بالمدينة بعد معارك يومي ٢٤ ، ٢٥ أكتوبر . لتوزيع المئوية عليهم وقالوا إن الغرباء الذين احتجزوا بالمدينة معروفون وحالاتهم واضحة ..

« .. لم يتمتع أحد من المسؤولين بالمحافظة . وقوه عموم المباحث على صور المذكور ، ولم يدل أحد بما يثبت أنه رأه قبل أو خلال أو بعد الحصار » ..

---

## شفيق أفندي يحاول استقصاء الحقيقة -

.. مساء اليوم الرابع للمهمة . بعد أن أجرى الأستاذ الجواهري اتصالاً بأسرته للمرة الثانية طمأنهم وطلب من أصغر أولاده إلا يعاكس أمه ، كما طلب من زوجته أن تستعجل قمصانه التي أرسلها إلى الكواد قبل سفره ، وبعد اتخاذ طايل إفندى ترتيبات لشراء سمك من الخليج الذى بدأ الصيادون فى التزول اليه ، اتخذ الأستاذ شفيق أفندي طريقة لمقابلة بعض أبناء البلد من رجال المقاومة والمعروفين بين الناس باسم الفدائين ، أبدى أكبرهم سنا دهشته من هدف اللجنة ، تسأله ما الذى يتظر من سائق عربة توجه صباح ٢٢ أكتوبر إلى السويس ولم يعد ، حاول شفيق أفندي شرح الظروف والملابسات ولحى إلى القوانين الجامدة والمعهدة والمخازن .  
خرج ، بدأ يشرح أوصاف عبد الرحمن وطبيعة عمله ، لم يكمل حديثه حتى قال أحد الفدائين الأربع « إنه يتحدث عن الغريب » . دق قلبه . رأى المست أم عبد الرحمن تكف عن حديثها المتصل فجأة . يهز الأستاذ الجواهري رأسه . يقول بعض معارف عبد الرحمن بعد سنوات ، ذهب ولم يعد » قال قناوى الفدائى ، إن الغريب جاء مع الحاج حسن السودان متعمهد توزيع الجرائد والمجلات ، الحاج يعرف عنه كل شيء المؤسف أنه

---

---

---

توكل على الله ، ذهب يطلا في معركة قسم الأربعين ، عينا شقيق أفتدى  
تحيطان بسرعة بالوجوه ، بكل ما في القاعة ، بطاطين رمادية ، صناديق  
ذخيرة فارغة وزمزيمات مياه ، مكان يأوي مقاتلين ، مكان اقامة مليئة  
بالخذر والترقب ، لوحة ملونة ، فارس يرتدي خوذة ، يشهر حرية ، فوق  
رأسه كتابة واضحة «أبوزيد الملالي» آخر تفاصيـلـ منـذـ حـربـةـ اـختـفـتـ بـقاـيـاهـ  
مع اللوحة الممزقة ، لابد أنها تسمى إلى أصحاب الشقة الأصليـنـ . ربـاـلـ  
يلحظها أحد حتى الآن برغم تواجدهم اليومـيـ هناـ .

يقول قناوى إن الغريب بدا حائراً عندما جاء إلى قسم الشهداء مع  
ال الحاج حسن صاح كثيرون إن اليهود قادمون إلى كويرى الزراير . بدأ  
الملازم حسن ضابط الصاعقة في توزيع رشاشات وقنابل ، قال الغريب  
لقناوى «فين كويرى الزراير ؟؟» .

وأشار قناوى إلى اتجاه المكان ، سأـلـ ..

«تعرف تضرب نار ؟؟» .

«ممكن أعرف» ..

ناوله قناوى رشاشاً وثلاث قنابل خارقة للدروع ، نظر الغريب إلى  
السلاح . هذه الدهشة الحقيقة والخذر تجاه السلاح لدى من يلمسه لأول  
مرة . قال قناوى ، هذه شرائط الذخيرة . حول المقاييس أضغط الزناد .

---

---

---

تزايد الحركة بين الناس ، كويرى الزراير ، كويرى الزراير ، قال الغريب ..

(آجى معاكم ؟ ) .

رأه قناوى مع الرجال . طلب منه الملازم حسن تدعيم الكمانين عند الهويس ، لم ير قناوى الغريب لكنه عرف أخباره من الذين حاربوا عند الكويرى الزراير .

سأل شيق أفتدى عن إمكانية اللثاء بأحدهم . نظر قناوى إلى زملائه . نزا ، إبراهيم إلى مصر بعد فتح الطريق ، لكن حسن موجود ولم ينزل في أجزءة بعد ، تسأله شقيق أفتدى عن حسن هذا ، قالوا إنه ضابط الصاعقة ، وأنه حارب عند كويرى الزراير ، وصباح اليوم التالي أكد الملازم أول حسن عمار ، إن الغريب لم يكن يعرف ملامح السويس لأنه سأل مرتين عن كويرى الزراير أثناء توجه الكمانين إليه ، لم يسأل خائفاً أو متربداً . عندما تقدمت الدبابات رأى الغريب يتقدم ، يقف ببطوله في مواجهة الدبابات مخالفًا كل القواعد التي يتخذها المشاة عندما يتصدون للدروع ، كان يريد الاقتراب إلى أقصى حد ممكن من الدبابة . يبدو أنه صرخ بشيء ما . زعق بدت حركة ذراعه عندما ألقى القنبلة الأولى ، انفجر الجسم المعدن ، تصاعد دخان كثيف له قوام . أزرت رصاصات

البنادق الخارقة في اتجاه أفراد العدو الذين قفزوا من برج الدبابة ، بـ  
الاضطراب على حديد الدبابة الثانية ، دار المدفع الرئيسي إلى الشمال ،  
ارتد مكانه ، بدأ الجسم الضخم مرتكبا قبل أن تند ذراع الغريب في  
استقامته إلى الخلف ، القى القبلة الثانية ، قال إن آخر مرة رأه فيها بين  
الدبابة الأولى والثانية ، غطى الدخان كل شيء ، أصدر أوامره بتغيير  
أوضاع الكمين . بعد انتهاء المعركة عادوا إلى مكان الدبابتين المحطمتين  
لم يجدوا جثته قال إنهم ذهبوا بعد وقف اطلاق النار لأن الحركة استhaltت في  
المدينة يومي ٢٤ و ٢٥ بسبب الرصاص الطائش ، قال إنه سأله « من  
هو ، ما اسمه ، لقد سمع أثناء القتال أحد الرجال يزعزع .. يا مجدى ..  
فهل هو اسمه . خاصة وأن كل أفراد الكمين معروفون باسم ولا يوجد  
منهم مجدى لكن الذين تبقوا من الرجال لا يعرفونه إد باسم الغريب  
صاحب الحاج حسن السوداني ..

ملحوظة أخرى ...

قام الأستاذ الجواهري في اليوم الرابع بزيارة موظف كبير بجامعة الشؤون الصحية أثر اكتشافه معرفة قدية ربطت بينها يوماً ، وبالطبع ورد ذكر الأسباب التي أتت بالأستاذ الجواهري ، قال الموظف إنه لا يعرف شخصاً حارب في المدينة بهذا الاسم ، لكنه سمع حكايات من بعض الأهالي عن سائق لوري قطع عليه الطريق وحارب عند كوبري الزرارير ويقال أنه واجه

---

---

الدبابات واقفا . حتى إنه اعتلى أحدهما ودمرها بقنبلة ودمر نفسه معها ،  
وهنا قال الأستاذ الجواهري إنه جاء خصيصا من أجل هذا الشاب ، تمهل  
صوته . بدا فيه فخر خاصة عندما بسط راحته على صدره قائلا :  
« إنه من عندنا وأسمه عبد الرحمن محمود ..

في الليل حكى الأستاذ الجواهري لطويل أفندي وشقيق أفندي  
ما سمعه ، وهنا أبدى الشابان حماسا وقالا إن هذا دليل واضح . لكنه هز  
رأسه حائرا وقال .. ربما ولكن من يثبت هذا ؟؟  
من تقرير طايل أفندي ..

وأجمع البعض على أن الأهالي سحبوا الغريب في نفس ليلة  
استشهاده ، ودفنه بسرعة بالقرب من الطريق المؤدى إلى شركة شل .  
وأثناء الحصار قرر الحاج حافظ نقل الشهداء إلى مقبرة واحدة داخل  
السويس ، وعندما حفروا لنقل الغريب صاحوا الله أكبر ، الله أكبر ،  
مسحوا دمعا جرى » وجدوا الجثمان على حاله » مفتوح العينين ثيابه لم  
تبل ، قدماء حافيتان لأن حذاءه خلع قبل الدفن ، بدت الدماء فوق  
تميشه طرية كأنه أصبح منذ لحظات . . . . .

في روایات أخرى أكد البعض أن الشخص الذي نقلوه من المدفن غير  
الغريب ، والصحيح أن الثاني انفجرت دانة فوق تماما ولم يعثر له على أثر »

---

---

وأكدهؤلاء إن المكان الذي استشهد فيه تفجرت منه عين ماء عذبة فيما بعد  
خلال الحصار ..

قالت امرأة عجوز تعيش بجوار كشك الصحف الخاص بال الحاج  
السودان إن الشاب الغريب اسمه خلف رأته مراراً يجيء إلى الحاج ، قالت  
إنها ذهباً إلى كويري الزراير وحاشا اليهود عن دخول البلد وماتا ، قالت  
إنها ذهبت إلى الكويري « قالوا لها ارجعني يا وليه لأن المكان على مرمى  
النظر من اليهود ، لم تهتم لأن ما يربطها بال الحاج عشرة عمر ، أما الشاب  
ففتحت إليه ، قالت إنها ذهبت لعلها تشم رائحة من أثر تركه في مكان  
موته ، قالت إن خلف تحدث إليها كثيراً ، سألهما مرة . لماذا لم تهاجر ،  
قالت إنها لا تطيق البعد عن السويس . أخبرته عن ابنها في القاهرة ،  
متزوج وعنده أربعة أولاد ويعيش في القلعة ، سألهما لماذا لم تذهب إليه ؟؟  
قالت انه لا أحد يطيق أحداً في هذا الزمان . بدلاً من أن تنقل عليه وعلى  
أمراهاته فضلت البقاء هنا تستلقط رزقها من هنا ومن هناك ، قالت إن خلف  
حن عليها واعطاها خمسة وعشرين قرشاً ، وكلما جاء اعطاها حاجة ،  
عندما تجولت فوق كويري الزراير اخبرها رجل يقيم بالقرب من المكان عن  
عصافورين لونهما أخضر ، ينزلان فجر كل يوم ، صوتها أحلى من الحنين ،  
وأطري من قلب الأم ، يحومان قليلاً ويختفيان فجأة كما ظهرتا فجأة ، لم  
يختلفها ميعاداً .. » .

---

وقدمت بتوجيهه سؤال إليها عن الاسم الكامل الشاب . قال إنها لم تسأله أبداً عن اسمه أو امرأته وعياله . لكنها سمعته بينها وبين نفسها « خلف » خلف ابنتها الأولى الذي أنجبته منذ أربعين سنة وما : بعد سبعة شهور من ولادته ، هكذا فجأة بدون مرض أو سبب ..

### من حديث سوسو الحلواني إلى شفيف الأفندى

.. سأل شفيف الأفندى بالحاج ، هل رأيت الغريب عند الموسى بعد معركة كوبري الزراير ؟؟

قال إنه لا ينسى أبداً ، لو أن الله مد في أجل البمبوطى كفتة والباشجاوىش سعد لأكدا ما يقوله الآن ، لأنه وصل إلى الموسى معهما ، قتل إن الجوابدا مقلوبا ، وكأن جزءاً من طاقة جهنم فتح على الناس ، أما الهواء فتقليل كدخان الجبر ، مالفت نظره إليه ، اتخاذه أو ضاعوا تعرضه لاقصى الخطر ، حتى قال البعض إن الغريب القادم محجب . مثل هذا لا ينسى أبداً ..

إن شفيف الأفندى يرحب في توجيه المزيد من الأسئلة ، لكن الحلواني سوسو يحملق إلى الأرض ، نسى تماماً وجود الأفندى القادم من مصر ، سهم فجأة كترول ليل مباغت ، لم يستطع شفيف الأفندى أن يخداش صمته ، ووصد دمعات تسفل على مهل من عيني الحلواني سوسو ..

## ملحوظاتأخيرة ..

اجتمع الأستاذ الجواهري في مساء اليوم السادس بعضوي اللجنة ، قدم طايل افتدى تقريراً بدا أثناء تلاوته منفعلاً ، قال فيه إن باشجاويش شرطة من قسم الأربعين وأمرأة عجوزاً من الجنان إلى المدينة عندما هاجها اليهود وقتلوا أولادها وأثنين من أحفادها ، وبائع قلل متجلول ، وعطاراً من حي زرب ، وصياد سمك يمتلك قارباً ، أكدوا أنهم شاهدوا الغريب قبل نهاية الحصار بأيام . وأكد قاريء القرآن عجوز انتدبه وزارة الأوقاف من المنوفية إلى مسجد الشهداء ليقرأ القرآن قبل الحرب بأسبوع واحد إنه التقى كثيراً بهذا الشاب ، لا يمكن أن ينطلي لأن الذين احتجزتهم الظروف تقاربوا من بعضهم لغير كل منهم حكاية صاحبه ، أجمع الكثيرون أن الغريب بدأ كثير الحركة لا يهدأ ، لا ينام في مكان واحد ، بل نادراً ما رأه البعض نائماً ، كل من رأه شاهده مستيقظاً يؤدّي عملاً ، في الليل يقف خلال نوبات الحراسة عند أطراف المدينة ذهب إلى بور توفيق أكثر من مرة . حفر الخنادق . نقل العديد من العوائق كالعربات المدمرة والحجارة الثقيلة ليسد بها الطريق . شوهد يحفر مع بعض الشبان آباراً للمياه قرب سيدى الغريب ، سمع يؤذن للصلوة مرة ، كما أنشد بعض المواويل في سهرة أقيمت خلال الحصار ، تبرع بهم مرات لأن المدينة عانت نقصاً في الدم . يقال إنه تسلل مرات إلى قلب خطوط العدو ، استطلع الأخبار ..

---

---

أثناء توغله رسم خرائط لموقع العدو ومرايضاً مدرعاته وأنواع مدعياته .  
وارسلت هذه الخرائط إلى مصر بطرق خفية ، وأكَدَ عدد من الأهالى أنه  
خرج في قارب ليصيد السمك برغم علمه بوجود الانقام في الخليج . لكنه  
دائماً يجيء إلى المرسى الراكد . يسأل «فين المراكب» يحرك المياه بضربيات  
المجداف ، واقسمت امرأة من حى الأربعين إن الغريب القادم من مصر  
جاءها عندما أتتها المخاض في الليل وصرخت من الألم حتى لفظت الشهادة  
بعد الناس عنها ورحيل زوجها وشقيقتها قبل الحصار ويقانها وحيدة .  
يُديه ابنه ولادتها العصيرة ، تلقى الطفل عند خروجه ، وقال صاحب  
متهمي تهدم في الحرب إن الغريب أصلح عربة لوري معطلة وقادها عبر  
شوارع البلد مرتين .

أصغى الأستاذ الجواهري بهدوء . لم يفته ملاحظة الجدية المفاجئة التي  
نزلت على طايل أفندي حتى صار يخرج من الفتنة في السابعة صباحاً  
يسقطى ويلتقى وسيجرى المقابلات ليعود في المساء . حتى أنه جمع معلومات  
دققة عن ملامح الغريب وطريقة مشيه ، وسجل بالأسماء التي أطلقت  
عليه من الأهالى . لم يجد الأستاذ الجواهري انفعالاً . قال إنه أمر مشرف  
للمؤسسة أن تعلن استشهاد أحد ابنائها في السويس . لكننا لم نعثر على  
أثر ، لم نجد له قبراً ولم يجمع اثنان على رواية واحدة . ثم ما هو موقف

---

---

---

العهدة سيارة النقل والبضاعة » وياعتباره قضى عمراً بأكمله في خدمة الحكومة فما يهمه أولاً الاطمئنان على أموال المؤسسة .

يصفى شقيق أفندي صامتاً . صباح اليوم رواهه يقين أن الغريب يطوف بالطرف الآخر من المدينة . اسرع الخطى . لم يلحظه وبقي وحيداً في هدوء شتوى يخيم فوق انفاس البيوت . ورائحة البحر في الخليج القريب » حتى ستجيء لحظة يلتقط فيها بالغريب لا يدرى متى ، لكنه سيحکى له طويلاً ، انه على وشك اتخاذ قرار بيته وبين نفسه ، أن يبقى وقتاً إضافياً ولن يبالي بالأستاذ الجواهرى . طايل أفندي يقول إنه طلب زيارة الأسطلى عبد الرحمن مضى إليه مع عدّد من شبان المدينة » قرأوا عليه الفاتحة ، ماذا تبقى اذن لتنتحن المؤسسة بمونه وقبحه حقوقه ، يهز الأستاذ الجواهرى رأسه . يكرر بهدوء إن هذا مشرف للمؤسسة ، لكن ما الذي يثبته .. أين الأدلة ؟؟

١٩٧٤

طنيس

〈٢٩١〉

---

.. خبطة محكمة ، بعدها هوت ، ضاعت قدرتها على الطنين ، أول حصيلة اليوم ، خطأ فوق الحديقة الصغيرة المجاورة للبيت ، استطالت حشاشتها ، غطت الجدران « لحية كثيفة خضراء لم تهذب ، صحة بمرأك سيارة ، يصفع ، يهم قليلاً ناحية الباب ، يتزايد صوت المحرك ، إذ تمرق العربة أمام البيت ، يضم حداً لتساؤله ، أهى عربة جيب ، أم نقل ؟؟ كثيراً ما يبدأ رهاناً مع نفسه ، أراهن أنها عربة جيب ، لو خسرت سالف الحديقة سبع مرات ، في الليل يغطي رأسه بطانية الصوف . أرسلتها إليه ابنته من المانيا . . . » نسجت لك يا أبي هذه الطافية قبل دخول الشتاء ، لتدفع رأسك في ليالي بور سعيد الباردة ، أما الجوارب فارجوك ألا تهمل ارتداءها ، طالما تشعر ببرودة ، لن يأتيك النوم « واظن . . . » ماذًا تظن ميسرة ابنته ؟؟ صحيح عمره سبعون عاماً ، لكنه أكثر نشاطاً من زوجها ،

---

فِي السَّادِسَةِ وَالنَّصْفِ تَمَامًا يَقُومُ مِنْ نُوْمِهِ طَوَالَ نَهَارِهِ، يَقْضِيهُ هَنَا فِي حَدِيقَةِ الْبَيْتِ الْأَيَّامِ الْأُخْرِيَّةِ غَيْرِتِ عَادَاتِ قَدِيمَةِ، لَمْ يَعُدْ يَخْرُجَ لِلتَّجَولِ قَرْبَ مَبْقَى هَيَّثَةِ الْقَنَّا، يَنْظُرُ قَبَابِهِ الْبَيْضَاءَ وَصَوَارِي الْلَّاسْلَكِيِّ وَالْبَحَارَةِ الْأَغْرَابِ يَتَحْرُكُونَ فَوْقَ سَفَنِهِمُ الرَّاسِيَّةِ وَالْقَوَارِبِ الصَّغِيرَةِ وَجُنُودِ الْجَمَرَكِ وَرَاكِبِي الدَّرَاجَاتِ مِنْ عَمَالِ التَّرْسَانَةِ الْبَحْرِيَّةِ فَوْقَ مَعْدِيَّةِ بُورْ فُؤَادِ يَرْقَبُ تَرْفُقَ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ، بَيْوَتِ الْمَدِينَةِ مَسْكِينَةٍ وَادِعَةٍ، تَنْضَحُ رَطْبَوَةً، تَنُوءُ بَهْجَرِ أَصْحَابِهَا، لَا طَعَامَ يَطْهِي فِي طَوَابِقِهَا لَا صَبَاحَاتِ أَطْفَالٍ تَسْتَقِيمُ الشَّوَارِعَ، فَرَاغُهَا حَادٌ كَأَسْوَارِ سِجْنٍ، لَمْ يَعُدْ يَتَجَولُ فِيهَا، يَصْفِي وَشَيْشَ سَعْفَ النَّخِيلِ الْمَرْشُوقِ فِي شَوَارِعِ الْمَحِيِّ الْأَفْرَنْجِيِّ، يَسْتَندُ إِلَى الْفَرَاغِ، طَوَالَ النَّهَارِ يَقْضِيهُ هَنَا، فِي حَدِيقَةِ بَيْتِهِ، مَسْكًا مَنْفَضَةً مِنَ الْبَلَاسْتِيكِ زَرْقاءَ، أَدَانَهُ فِي تَنْفِيذِ قَرَارِهِ الَّذِي اخْتَلَهُ مِنْ فَتَرَةِ، الْآنَ، يَسْرِي طَيْنَ هَادِيِّ وَاثِقَ، يَتَصَلَّبُ جَسْدَهُ فَوْقَ الْمَقْعَدِ، لَا يَصْفِي إِلَى تَنْفِسِ الْبَحْرِ النَّهَارِيِّ، يَقْشُرُ جَلْدَهُ انتَظَارًا، يَدُورُ بَعْيَنِيهِ حَوْلَهُ، يَحْكُمُ أَمْسَاكَ الْمَنْفَضَةِ، يَسْتَعِدُ الطَّيْنَيْنِ، لَنْ يَعُودَ الْأَضْطَبْجَاعَةُ الْمَنْبِثَةُ فَوْقَ الْمَقْعَدِ وَرَحِيلِهِ بَعْيَنِي عَقْلَهُ إِلَى ابْتِئِهِ عَلَى الشَّاطِئِ الْآخِرِ مِنَ الْبَحْرِ، كَأَنَّهَا تَرْقَبَهُ الْآنَ، تَبَادِلُهُ النَّجْوَى، سَيَظْلِلُ مَتَبَاهِيَّا يَعْرِفُ طَرِيقَهَا، تَدُورُ « تَدُورُ » تَدُورُ، تَضْبِيقُ حَلْقَاتِ مَرْوِرَهَا بِالْقَرْبِ مِنْهُ، تَبْتَعِدُ فَجَاءَ، صَمَتَ الْمَدِينَةِ يَضْسُخُمُ الطَّيْنَيْنِ، فَجَاءَ، هَامَ فَوْقَ جَلْدِ ذَرَاعِهِ الْأَيْسِرِ، يَسْتَندُ إِلَى سَاقِيَّهَا

الأماميتين ، تند خرطومها » تمارس طقوساً غامضة ، لغتها غير مفهومة ، لا يدرى كيف حطت صامتة ؟؟ ربيا هوجم باثنتين في وقت واحد ، أى خطوة ينفذها لصد المجموع ؟؟ يوش البحر ، يرتد موجه ، آه .. راحت ، بلا طنين ، لن يهدأ ، لن يغفو » طوال أيام أربعة كاملة ، لم تنبع واحدة في ملامسة جسده ، والابتعاد حية ، أو طارت يتذكر يومه » ييدو البحر الشاب البهيج مغارة يأوي إليها الملائكة ، أيام الطويلة خواء مفرغة من الأخبار والأحداث ونذر المفاجآت » ترتعش أطرافه ، يهاجم أرق لم يأتاه قط في ليالي نشاط الطيران المعادى » بأى مشاعر تتلقى ابنته نبا هروب مصدر الطنين منه » فشله في إدراكه لن تسأله عما إذا كان يحرص على شرب اللبن قبل نومه أم لا ؟؟ .. دائياً أراك يا أبي ، أعيش معك أول النهار عندما تصصحو من نومك ترتدي ثيابك كاملة ، تطمئن على صلابة ونظافة ياقات قميصك ، تماماً ك أيام ذهابك اليومى إلى المستشفى ، تند يدك تلامس ذقني ، تميل ، تقبلني » عند بلوغى المرحلة الثانوية ، اضفت عادة جديدة ، اتجاهتك إلى صورة المرحومة أمي فوق الجدار » تتحنى ، تلفظ تحية الصباح وكلمات أحجتها ، لم اسمعها فقط ، لم تبع بها ، في كل يوم » عندما أعرف أن الصباح يضم بور سعيد ، أشعر بيدك تلامس ذقني ، أتق انك تداعب صورى ، ربيا توجه ألفاظاً دقيقة إلى ، تقبل ابني عادل ، عادل يا أبي يتحدث الألمانية بطلاقة ، لكنني أطمنتك ، أنا حريصة جدا

على تعليميه لغة موطنها ، أما احد فمشغول في تحضير الرسالة ، استعداداً للمناقشتها في . . . « لو أفلتت واحدة ستحزن ميسرة ، أربعة أيام طرد العشرات » هوى بضربات قصيرة ، محكمة ، عندما يشرع المنشة تخل عن الرعدة عن يده لن يهدأ اليوم إلا إذا وضع حداً لهذا الطنين ، خطابات ميسرة تدفق التأثر إلى كيانه ، الشيء الوحيد المتظر من العالم البعيد ، يومياً يتعجل عجيء ساعي البريد ، لوراءه الآن لن يتخل عن ترصدته ، لو زاره أيضاً ضابط الموقع القريب ، هاديء الملامح ، قليل الكلمات ، يجيئ يومياً ، يستند إلى السور الخشبي ، يعرف الدكتور غندر منذ شهور في البداية كعادة الصحفيين ، والزائرين الغرباء ، تساؤل عن السبب الذي جعل الدكتور لا يهاجر يوماً واحداً؟ حتى عندما اختفت المدينة بقلة المياه العذبة ، حاصرها الطيران ، قطع شرايين الوصول ، خرج معه الدكتور وقت غروب ، توقفاً أمام بيت خشبي من طابقين ، يستند إلى ثلاثة أعمدة طويلة تغوص في الحجرة ، يستقر منكمشاً بين عمارتين شاهقتين يتواري خجلاً ، بابه مغلق يقفل حديدي ضخم ، طلاوة أخضر ، فوق درجات السلالم الضيق برقت عيناً قط ، أشار الدكتور إلى الطريق ، « قبل رحيل إلى أوروبا لاتعلم الطب » سهر أقارب هنا مع أهالى الحي ، تزوجت ابنة عمى ليلة سفرى ، ذكر ريني أوتار السنمسمية ، ورقصة البمبوبية وصباح الأحية ، لعلة الزغاريد ، لون الرمال الأصفر المفروش أمام البيت »

---

لصفي إلى وقع خطواتها في فراغ يلمع فيه الأسفلت ، وهواء مبلل  
بملوحة البحر ، طعم اليود ، قال إنه يعرف بيوت المدينة بيتاً بيتاً ، قبل  
التهجير يستطيع كشف الغريب في قلب الزحام ، عندما أغلقت البيوت  
بدأ يطوف في الشوارع ، حتى في أوقات الاشتباكات ومجيء الملاك المحلي  
من الشرق ، توقف ، « هل ترى هذه العمارة » ، أضخم مبني في  
بورسعيد ، أنت الآن في الحي الأفرينجي » ، قال إنه يعلم خلوها من  
السكان » في أول ليل بعيد » رأى ضوئاً يلمع في نافذة علوية » نور وحيد  
معزول في أقصى الطابق العاشر مصلوب كضوء فنار » لكنه ثابت  
لا يدور » أخذته حيرة » ترى من يقى هنا ولا يعرفه ؟؟ من رأى باب  
العمارة مغلقاً بلا قفل ، تراجع ، عاود النظر ، تبدو المسافة نائية » لورأته  
ميسرة الآن ستصبح غاضبة ، تحيطه بذراعيها ، أما المرحومة فتحتها تراه ،  
ترعاه وتصون شيخوخته من خدش ، منذ رحيلها الأبدى يوقن من  
ملازمتها له ، تراه ولا يراها ، تدرى ما سيجري له ولا تستطيع أخباره ،  
رجف بشفتيه معتدراً ، لعلها تقبل طلوعة ، لن يتراجع ، بدأ طلوع  
السلم » المصعد هامد معلق بين الطابق الثاني والثالث ، وحشة البيوت  
الخالية » الأبواب جهنمة فيها صد ، شاخت قبل المليعاد ، جفف عرقه عند  
الطابق الثامن ، أخيراً ، يبدو الضوء من وراء زجاج الباب ، قال  
للشاب ، أنا الدكتور غفور طبيب المستشفى الأميركي سابقًا والمحال على

---

المعاش حالياً ، أنت لست من أهالي بور سعيد » من أنت؟؟ دخل ، فراغ  
مثقل ببرطوبة » غرفة واحدة مضيأة ، ما تحويره سريراً حديدياً صغيراً »  
صحيفة فوق الجدار تدفع الخير عن ثلاثة قمصان وجاكته ، بنطلونين  
وبلوفر أسود ، بدأ الشاب مرتباً ، جلس الدكتور فوق السرير ، مسح  
قمة عصاه براحتي يديه ، قال الشاب إنه من أهالي بور سعيد لكنها المرة  
الأولى التي يجيء إليها ، عاش عمره في مصر درس الهندسة ، والآن يجيء  
ليعمل في المسترال ، الشقة ملك لعمه ، أوصاه بالتردد عليها ، اعجبه  
الموقع الشاهق من الشرفة البحرية ، أطال الدكتور سهره ، تحدث إلى  
المهندس الشاب عن المدينة ، بساطة ورقة الحياة فيها ، لو جاء إليها قبل  
العدوان لأحبها الآن أكثر ، تعقب أصول الشاب ، استقصى أفراد  
عائلته ، مضياً إلى الحى الأفرينجى ، إلى حى المناخ ، هنا سكنت عائلة  
فلان ، وهذا بيت فلان ، وهنا كانت تسكن عائلة استشهد كل أفرادها  
عام ١٩٥٦ ، بدأ الشاب وكأنه يتعرف إلى المدينة لأول مرة ، أشار الدكتور  
إلى حفرة قديمة ، هنا سقطت دانة مدفية في بداية الاشتباكات ، فنكت  
شظاياها بثلاثة عشر إنساناً ، في الطريق المجاور خلال الحرب العالمية  
الأولى ، أغارت طائرات ألمانية كأقاصى الفراخ ، رمت قنابل ، أحدثت  
كل منها فجوة في حجر طبق كبير ، توقفا أمام حلوان جيانولا ، بدأ  
الدكتور ساهماً ، تبحر نظراته فوق بحر من الحزن بلا مراسٍ » قال ..

هنا في الأمسى جلست مع أم ابنتي ، بالضبط هذا موقعنا المفضل ، نتأمل  
وجوه الغرباء في الصيف ، في الشتاء نجلس بالداخل ، صحبنا دائمًا  
مهندس يونان اسمه ديمترى ، في أوقات فراغه يصنع غاذج دقيقة لبونخر  
بيحة الآلوان ، يقسم لووضعها في البحر لعامت ، عرفت مقصدنا إلى  
بلاده رأساً ، بدا الدكتور حفيقاً نشطاً ، أمسك كوبا زجاجياً .. بالتأكيد  
شربت أم ابنتي من أحدى هذه الأكواب ، يقطب حاجبيه ، كل شبر هنا  
اقطع من عمره مقداراً ، يقترب الطين ، يخلق موجات في أذنيه ، هذا  
طين ساخر لم يعرفه من قبل ، لا يرى مصدره ، هزا بقراره لا تفلت  
واحدة قط ، لا يدع الطين يمر في خواص المدينة ، ينظر حوله ، يشعر  
جلده ، أبدًا ، لن تحط فق أي جزء من ثيابه حتى ، يترايد الطين فجأة ،  
خط حاد مختصر ، خروج دانة من فوهة مدفع ، يضرب الفراغ بالنشوة ،  
أبدًا لم تهُ ، بالأمس فتك بأربع عشرة واحدة ، أما هذه فتبعد وكأنها تعد  
بالثار لكل ضحايا جنسها السابقين ، يخفي الصوت الحاد اللزج ، لن  
يعادر الحديقة ، سيقى كما تعود دائمًا جلوسه النهاري ، سيرصد حركتها ،  
يجيئه الآن الطين رفيعاً ، يعرف أنها تدور في خط دائري واسع ، ستقطعه  
وتحتجه رأساً إليه ، آه ، ضرب ساقه بالنشوة ضربة قوية أمالت جسمه إلى  
أمام ، نظر ، أبداً .. كتلة سوداء صغيرة الطين مستمر ، أي نهار هذا ؟؟  
لم يعد يسمع مرور العربات ، وحشة المدينة لم تنفع بونخر إلى قلبه كهذا

الطنين » خطابات ميسر الرقيقة ، برقيتها إلى عشية عيد ميلاده ، قبل ميعاده بيومين » ذهب إلى ناظر محطة الأنطوبيس » رحب به » طلب منه تكليف أحد سائقيه بشراء تورته فاضرة من دمياط ، ليلة عيد ميلاده ، حمل التورته إلى البيت ، خفيف الخطى ، لا ينقصه إلا انتظار زوجته ومسئر ديمترى وابتاه ، رص الشموع ، في المساء ارتدى الخلعة السوداء والبابيون ، نزل إلى صالة البيت ، أضاء مصابيح النجفة كلها ، أصنف إلى إيقاع السكون الموحش ، وقف طويلاً أمام الصورة المطلة عليه من عالم آخر ، بأصابعه المهترئة عود كبريت رأسه حراء اللون ، أضاء الشموع ، ضغط زر النور ووقف مسكاً عصاه ، تزايد وشيش البحر القريب ومروق الرياح انحني بهدوء ، استجمم قواه المشتلة عبر سنين بعيدة ، نفح بقوه ، أطفأها كلها ، قبل صورة امرأته ، ميسرة وحفيدة عادل » على مهل جلس في المقعد الكبير ، ينظر إلى الشموع المطفأة فوق التورته الكبيرة ، عندما جاء ضابط الموقع الشاب في صباح اليوم التالي ، رجاه أن يحملها إلى رجاله ، تورته كاملة لم تخدش ، السكرفي دمه يمنعه من تذوقها ، أمراض العمر كلها وأوجاعه تفاجئه الآن ، تدهمه كموجة عاتية ، تهدم صفاً من الأبنية » يعود الطنين قوياً حاداً ، آه .. ترق بعجوار أذنه ، يضرب الفراغ بالمنشة » يسقط فوق ركبته ، تنبئ بداية اليوم بمصابـبـ وأـلـامـ ، اتسخ بقطـلـونـهـ تـلـفتـ حـولـهـ ، لم يـرـهـ أـحـدـ ، الـاهـتمـامـ بـهـيـثـهـ لـنـ يـشـغلـهـ غـنـ مـتابـعـةـ

الجسم المحتلق اللعين ، في البداية لاح الأمر تحديا طرifa يقطع به الوقت ، يغالب قسوة اليوم والوحشة ، الآن .. لن يأوى إلى البيت ، سيطارد منبع الطنين ، بالضبط .. بالضبط .. ها هي .. مرت أيام عينيه ، لا تجرو على الاستقرار لحظة فوق جسده ، أو ثيابه ، باعترافه رعشة قوية ، تصور لحظة أنها تستقرت فوق زجاج النظارة ، تنهي طيرانها في خط مستقيم ، تدور متهملة ، لا يلمح التفاصيل ، لا تختلف ملامحها العامة عن أبيه واحدة فتك بها ، يتقدم خطوات ، يتبعها ، يبدو مسارها واضحا ، ببطء ، ننزل ، تستقر فوق السور الحديدى القريب من الكرسى ، .. ثانية واحدة ، جزء من ثانية ويسعد صفاء جلسته ، يستعد لاستقبال الضابط الشاب عندما يأتيه باسها بعد الغذاء ، يخرجان إلى طرقات المدينة العذبة كأبيات في قصيدة حزينة ، بينما يحيى الغبار المسائى من ناحية البحر ، ضربة واحدة وبروق اليوم كلها ، بالضبط .. تمد خرطومها العين ، من أى عالم موبوء جئت ؟ في صمت ، على مهل ، يرفع ذراعه ممسكا بالمنفضة إلى أعلى .. .

١٩٧٢

ريح الجبل

〈 ٣٠١ 〉

---

.. ها هي أيام بنایر الأخيرة تولى ، ولا يزال فوق صخور عناقة ، بين مدقاته الضيقة ، المترعة ، التي تشرف في بعض الأحيان على هاوية غير متوقعة ، بين كهوف عرف عمق بعضها ، لم يتوجل في العديد منها لا متدادها مسافات بعيدة ، يقل الهواء داخلها فيتقل فراغها على صدره ، يجعل خطوه مضطربا ، كما يجعل الروائح الثقيلة للهواء كثافة ، روائح بقايا الوطاويط ، الفشان الجبلية ، الثعابين ، وحيوانات صغيرة ، دقيقة الحجم ، تندفع عبر تلك الانفاق الطبيعية المجهولة ، قد يجد نفسه بداخلها عرضة للحصار المفاجيء ، المباغت ، الذي لا مهرب منه ولا فكاك قد تقوم قبلة دخان بالعمل كله أو كومة أعشاب يحرقونها عند الفوهة ليختنق ، بعض هذه الكهوف يمتد عدة كيلومترات ، تحفل

---

---

بتيارات هوائية مجهلة المصدرى داخلها ، بعضها ساخن والآخر بارد ، يقولون إن هذه المرات تتفرع وقد تؤدى إلى عدة منافذ للكهف الواحد ، بعضها قرب القمة والآخر يلامس السفح ، يؤجل محاولة الكشف ، فصعب أيامه لم يأو إلى أي كهف حتى ولو بدأ كفرقة مهدتها الطبيعة ، لم يضع أى جزء من عتاده الفضيل داخل إحدها لأنها هدف مستمر للتفتيش ، تثير الشك أكثر من حفرة على جانب مدق أو تحت صخرة معلقة إلى جرف ، في الليل يتحول الجبل إلى كهف كبير بلا جدران « خاصة عندما يأفل القمر وينأى ، تندمج أطراف الصخور . تضيع كل التفاصيل ، تتردد مئات الأصوات مجهلة المصدر » عواء ، صيحات ، حيوانات لا يدرى إلى أي جنس تتبعنى ؟ أزيز حشرات دقيقة ، مضيئه ، لا تنشط إلا في ليالى السواد الكامل .

سيقول إنه لا شيء يبعث الرهبة برغم ذلك إلا نزول هذا السكون الأجوف ، الكل ، في فترة ما قبل المغيب بلدها من شحوب العصر ، ييدو الجبل مقبرة للنهار ، يتسلل سكون موجع من المسام إلى الدم « ينكمى بالذكرىات إلى الأيام المولية » يوحى بضمير المدن البعيدة ، بإيقاع الحياة الآمنة ، حيث يستيقظ الإنسان بعد إغفاءة العصر ، يتناول شيئاً ساخناً ، يستحم ، يرتدى ملابسه متمهلاً قد يصفى إلى أغنية منبعثة من الراديو ، يحيى أمة أو أمراته أو أخواته أو يسأل أو أطفاله عما يحتاجون إليه ،

---

---

ما يرغبون في أن يعود إليهم به ، على السلم تصل أصوات البيت ، خادمة تقول .. يا ستي ، صوت طبيخ فوق موقد ، في الشارع يحيى الجيران ، في المقهى يلتقي بالأصدقاء .

سيقول لزملائه إنه احتمل حتى الآن أربعة وتسعين يوما ولا يدرى كم سيمر عليه إذا طال الصمت ؟ سيقول إنه رأى الثلوج في الأعلى ، بخبرته هنا حسم رهانا دار يوما بين سليمان الحلبي والبرق في معسكر التدريب . تسأله سليمان الحلبي « هل ينزل الثلوج فوق عتاقة ؟ قال البرق » طبعا لا .. وهل تنزل ثلوج في مصر ؟ هنا أكد سليمان نزول الثلوج في الأعلى ، لو دقق الواقع عند أطراف السويس سيرى الثلوج ، نفى البرق ، لوح سليمان الحلبي بجنيه كامل ، قال : هذا رهان بيني وبينك ، ستتأكد عندما نطلع في دورية إلى عتاقة وهذا مني مقابل عشرة قروش متلك ، لم يأت أحدهما إلى عتاقة ، سيقول لها أنه رأى تجمد المياه في الشقوق ، لا ينزل الثلوج من السماء ، لكنه يوجد إذ تنخفض درجة الحرارة انخفاضا مريعا بعد نزول المطر .

سيقول إنه لم ينم في أيامه الأولى بالجبل ، أربعة أيام ، يذكرها كأنها يوم واحد ، متصل ، في البداية احتاج إلى تأكيد كل معلوماته عن الجبل ، إلى استطلاع الموقف ، استكشاف المكان ، اصلاح أماكن الایواء بالجبل طبقا للظروف الطارئة ، انه خبير بعتاقة ، لكن منذ صعوده إليه والأرض

---

---

تكتسب قيمتها ليس لمناعتها الطبيعية فقط ، إنما يبعدها عن العدو أولاً ، وصلاحيتها للعمل بالنسبة إليه وليس بالنسبة لأى إنسان آخر ، قرر أن يبحث عن عدة أماكن تصلح لنومه وأخر يختبئ فيه مؤنته القليلة ، مكان يدفن فيه تقنياته ، آخر يدفن فيه البطاريات الاحتياطية للجهاز ، ومكان يمكن منه أن يدير الجهاز يرسل إشاراته ، قرر استطلاع المدققات الصعبة التي لا تصلح ل Yoshi العدو ، المرات الجبلية التي تتخلل الصخور ولا تسمح للشخص الواحد إلا بالمرور زحفاً أو بالجنب ، الأماكن الصالحة لبوط الهيلوكبتر وغير الصالحة ، عندما نزل الليل بسرعة أجل جولته إلى فجر اليوم التالي .

سيقول إن الرياح بدت غريبة ، هبوبها على ارتفاعات مختلفة وسرعات متعددة ، اصطدامها بالمنحدرات وأطراف الصخور والحجارة الضخمة المعلقة التي انفصلت عن الجبل في زلزال سحيقة ، دورانها بالحفر ، ارتدادها المفاجئ ونفذتها إلى أعماق الكهوف والفتحات وخروجها من أماكن غير مرئية ، تحدث أصواتاً متداخلة لم يعرف مثيلاً لها في جميع المناطق التي ارتادها في سيناء أثناء عمله خلف الخطوط ، هنا لا يستطيع أكثر البشر خبرة معرفة اتجاه الريح أو متابعتها ، من كل شبر تحيى ، إلى كل مكان في العالم تقضي ، تسافر ، تعود ، تتبع ، صغير متصل كإشارات جهاز اللاسلكي العاجلة ، سرب من طائرات مقاتلة

---

---

يهوى من النساء مرة واحدة ، أبواب نحاسية ، دفوف ، عوبل نساء حزان ، جنازة كونية ، أثناء التدريب حذرهم القلعاوي ، قال إن وقتاً ينبغي أن يمضى حتى يتبيّن الحقيقى من الزائف ، وعندما تستفز غزيرة القتال إلى أقصى حد يختصر هذا الوقت إلى لحظات ، اقترح القلعاوى عليهم أن يتخذ كل منهم اسمًا لا يعرفه إلا قلة قليلة ، يبدأ به أي نداء يوجه إليه أو يرسله ، في الليل ابتهج زملاؤه قالوا إن كل الناس لا يختارون أسماءهم ، يشب كل انسان ليجد اسمه مقدراً قبل أن يعرف ، لا رأى له فيه ، إنما هم سباح لهم الفرصة من جديد .

سيقول لهم عندما يخلو إليهم ويحكى إن كل شيء خلف الخطوط يبدو كأنه يسمع أو يرى لأول مرة ، حتى لو طرق الإنسان نفس الدرج عشرات المرات ، المفاجأة محتملة ، متوقعة ، دائمًا ، كامنة في الجهات الأربع الأصلية ، المفاجأة تلغى الشعور بالعادة ، من يدرى منذ ساعة خلا الطريق ، ربما جاء العدو ونصب كميناً ، لكن هنا فوق عتاقه يختلف الأمر ، لكل ليلة جبلية ملاعها ، لكل ساعة أصواتها ، يتغير الطقس قبل قدرة أي جهاز على التنبؤ ، خلال النهار يبدو الدفع مستقرًا ، يكفى أن تخفي سحابه لتحجب قرص الشمس الذي يبدو من وديان عتقة أكثر بعده ، على الفور تأخذ البرودة طريقها إلى عظامه ، يزيل غياب الشمس حاجزاً غير مرئي ، تطبق الظلال ذات اللمس على صدره كأنها يار خيمة أو

---

---

أطباقي البحر عليه وغوصه بلا توقف ، تضاعف الظلال بعد القمم ، تبدو أطراف الجبل مرسومة على صفحة السماء غير المستوية ، يشيخ النهار فجأة ، تدركه وحشة الساعات الأخيرة من النهار ، تدركه هذه الوحدة التي تباغته مع سكون النهار الأخير ، عندما تشق جدران الجبل سوداً في وجه الفراغ ، يدرك بغريزته حركة الحيوانات والزواحف غير المرئية ، تململها في مراقدها ، استعدادها للخروج إلى عالمها الليلي ، يتساءل عما سيأتي به الظلام ؟ ، هناك خلف الخطوط كل ما يحيط به عدو ، هنا فوق عتاقة يكثه رؤية السويس ، إذا دق النظر يرصد الدخان المنبعث من بعض المداخن ، حركة العربات في طرقاتها ، العمارة التي تحذها الوحدة مقراً لفترة قضى بها الأيام الخلوة مع الرجال ، أدهم الشرقاوى ، سيف بن ذي يزن ، الفتى مهران والبرق ، والصاعقة ، موج البحر ، أحسن الأول ، البراق ، خلال حصار العدو للمدينة لم يعمق شعوره بأن الأرض محتلة ، بعكس المسافات القصبة التي يقطعها داخل سيناء التي يتواجد فيها العدو منذ سنوات ، في عتاقة ، اعتبر وجودهم عارضاً ، رصد ضيقهم ، إن وجود السويس القريب منه يضاعف وحدته الجبلية بقدر ما يؤنسه ، كثيراً ما قطع دريا وعرا ليصل إلى الحافة الجنوبيّة المطلة على المدينة خلال الحصار ، في الليل رأى قبضات ضوء تتوهج لثوان فوقها ، بدا بعضها كبقايا شمعة صغيرة داخل فانوس غير مرئي ، من التيران المنبعثة حول

---

فوهات المدفع أمكنة تحديد مواقعها استطاع تمييز هب المدفع من طلقة الفيليز المضيئة ، تختلف عن مشاعل الطائرات التي تبدو محاذية له أثناء اشتعالها فوق المدينة » تراقصن لهاها على الصخور ، ضوء باهت استوعبه عتقة » محاولة فاشلة لفتقا عين الليل ، أوشك على نسيان نفسه مرات أثناء تأمله المدينة ، عندما سدد المنظار المقرب مقتربا الفراغ النهاري بعينيه تحولت المكعبات الصغيرة إلى بيوت واسحة الملامح ، ميز مدرجات الاستاد ، مبني شركة شل ، عندما وجه المنظار صوب الأرض القريبة من الخليج رأى أنابيب مصانع الزيتية المتلوية المتفرحة فوق الأرض ، صهاريج البترول المحاطة بساتر دائري من الطوب الأحمر ، أشعلاها العدو في اليوم التالي لإغراق المدمرة « ايالات » ، بكى عمال المصنع ، تدافع رجال الأطفال ، وشهدت رجل عجوز لم ير بعد ذلك أبدا . عرفه العمال الموظفون بائعا للسجاد والصحف منذ إنشاء المصنع لم يفارق موضعه حتى بعد التهجير ، قيل إنه حزن واحترق مع المصنع ، سواتر الطوب لم تتحمل الحرارة ، التهبت ، تطاير الطوب الساخن المشتعل كالشظايا في كل اتجاه ، من خلال المنظار لمح عربة فوق الطريق الممتد بين السويس وبور توفيق ، عربة جيب ذات أربعة أبواب ، تخصص عادة للقادة . من اهتزازاتها يشعر بالحفر التي تر فوقها » توارت خلف أحد البيوت » ظهرت .. اختفت » ربما تمر بالشارع حيث الاستديو الذي عمل به سنوات ، لابد أن الغبار

غطى الفاترينة الزجاجية التي تتصدر واجهة العمارة وتزدحم بعشرات الصور ، ربما انهار البيت ، لا يمكنه رؤيته من الجبل ، على بعد امتار من الاستديو مطعم أبي أمل المتخصص في السمك المسوى ، عندما تتاب أحد زملائه نوبة تحد أو كرم يصبح .. والله أدعوكم للغذاء عند أبوأمل ، أغلق بعد التهجير ، سمع أنه فتح في طنطا لكن لم يقبل عليه أحد ، يذكر واجهه عندما رأه مغلقا في آخر مرة رأى السويس قبل ذهابه إلى سيناء « قائمة الأسعار بهت الوانها ، تطل ملتصقة بالزجاج ، زهور صناعية مطلة من إماء خزفي فوق منضدة مهجورة ، ما أثار حزنه طوال تردداته على السويس أو أقامته بها رؤية دكان مغلق يحمل اسم صاحبه أو ثلاثة زجاجات كوكا كولا تستقر بين الأنماض كأنها وضعت بعناية ، أو لافتة طبيب تطل من بين الأنماض أو زجاجة دواء بها بقايا لم تستعمل ، نسيها أصحابها أثناء رحيلهم وبطريقة ما طفت فوق الأنماض ، مضت عربة الجيب ولم يرها ، ربما عبرت أمام البرق ، أو أدهم الشرقاوى ، ربما ركبها أحدهم « ترى .. كم بقى منهم ؟ إلى أين رحل سليمان الحلبي ؟ أى مهمة أوكلت إليه ، وهل عاد سالما ؟ . أين مضى البراق ؟ ماذا فعل الفتى مهران يوم الرابع والعشرين من أكتوبر عندما هاجروا المدينة ، قاتل من ؟ من التحمر ؟ هل غطاه سيف بن ذي يزن ؟ عملا دائمًا متلازمين ، تجاوزوا فوق دكة واحدة بالمدرسة ، وعندما عينا التحقيقات بمجلس المدينة ، في الدوريات القتالية التي

---

---

خرجوا فيها ، ينضم الفتى مهران إلى مجموعة الاقتحام دائمًا ، ويبقى سيف بن ذي يزن في مجموعة الأستاذ ، ترى على من انقض الصاعقة ؟ من مضى ؟ من جرح ؟ المدينة في متداول نظره « يد يديه في حضنها كلها ، يجهل أيامهم التي عاشهما بدونه . بعد عملية عبور الشط التي تمت منذ أربع سنوات وقام بها أعضاء الوحدة القدامى . لم يمض على تطوعه وقتئذ سوى أربعة أشهر ، انتظرهم في مركز التجمع فوق الضفة الغربية . في الفجر بدت ملامح سليمان الحلبي قاسية ، كأنه سافر أيامًا طويلة بلا راحة . قال بانياز كالأوامر ..

« صرنا سبعة . . . . .

ضاعت كل ألفاظ الترحيب والحماس التي توقع أن يفوه بها .. قال سليمان الحلبي ..

« طومان باي » .

قال إنهم عادوا بجثمانه ، هل يتطلع سليمان الآن إلى احدهم ، يقول .. « صرنا . . . ». يسكت ثم يقول بأصي موجع « ريح الجبل » ، لكن أين جثمانه ؟ ان مثواه غير معروف بالنسبة إليهم ، يود لو أتصل بهم ، يطمئنهم ، أثناء الحصار ودلوقت اتصالا بهم ، لم يدر كيف . تملكته رغبة أن يعرفوا وجوده فوق عنقه ، كلها تطلعوا إلى الجبل

---

---

---

الذى يسد الأفق ، ويضع حداً للفراغ الجنوبي حول المدينة ، يود لو عرفوا الآن أنه هنا ، أنه باق حتى الآن بعد انسحاب العدو من الجبل ، أنه لم يفارق الصخور ، أنه يفتح الجهاز بين الحين والحين ليزعن ..

« أنا ريح الجبل ... هل تسمعنى ؟ » .

لا يدرى كيف سيبدأ حديثه عندما يلتقي بهم ؟ سيبحث عن الوجوه التي عرف معها الخطر ، ربما جهلوا شكله ، يتحسس لحيته التي طالت ، تعتقدت ، أحاطت بوجهه ، منذ حين لم ينظر في المرأة ، ظلال الجبل تحمل المياه معتمة ، المقادير المتجمعة منها لا تسمح بانعكاس وجهه ، انه لم يغسل بصابون ، في الشتاء لا أثر للغبار فوق عتاقة ، ربما تغير لون جلده ، ربما تغيرت ملامحه . لكثرة ما تعاقب عليه من انفعالات . وتنوّع عشرات المواقف ، لطول ما صفتته الرياح الملحّة ، الدائمة ، ربما جهلوا شكله ، تدركهم حيرة ..

« أنا ريح الجبل .... هل تسمعنى ؟ » .

يرجحى ، تخيله للقاء بهم لعجزه عن تصوّر ما سيحدث ، سيحكى لهم عن أيامه ... لا ... سيطلب كوباً من الشاي الساخن ، منذ أربعة وتسعين يوماً لم يذق طعاماً له قوام ، لم يقطع رغيفاً ، ولم يشعر بمرقد دافئ ، سيبدو الكوب الساخن غريباً بين يديه ، سيتحسّسه ، يقربه من

---

فمه ثم يعيده ، نسى ملمس الزجاج عند الشفتين ، دخول المشروب الحار إلى القم ثم إلى المعدة ، نسى متعة الطعام مع الآخرين ، عندما يأكل الإنسان بمفرده يصبح الطعام متشابها ، لا يثير شهية ، لا يلاحظ الفرق بين طعم وآخر ، عندما تكرر الأيام ولا يتحدث وقت الطعام إلى أحمس الأول ، إلى الصعيد الأعلى الذي يهوى قص الحكايات والنواود وقت الغذاء أو العشاء ، إلى أدهم الشرقاوى بطريقته الوثيرة في المضي ومشاكله مع الفتى مهران إذا أكلـا من طبق واحد . الفتى مهران يلتهم الأكل بسرعة كواجب ثقيل فرض عليه ، سيقول إنه ذاق جميع أنواع الحشائش التي تنمو في الجبل ؛ القصير والطويل ، التحيل والغليظ الذى يفرز مادة تشبه اللبن . افتقد الأحساس باللذاق بعد أسبوع من تكرار أكله هـا ، سيتطلعون إليه ، سيسأله أحمس الأول عن بداية الظروف فوق عناقه . سيقول أنه كلف بعهـمة خلف الخطوط ، لكن لكم ستبدو أصوات الآخرين غريبة في أذنيه ؟ منذ أربعة وتسعين يوما لم يحاور إنسانا ، لم يচـغ إلىـه آخر يجلس في مواجهته ، لم يـسأله مخلوق ليجيب ، لم يسمع إلا أصوات الراديو ، أصواتا مجهلة المنبع تتحاور عبر الجهاز في الشوان القليلة التي يفتحـه فيها ليرسل برقية أو يبلغ رسالة ، أثناء تواجد العدو واقترابـه من مواقعـه أصـغـى إلىـ أحـادـيـث لـيلـة بالـعـبـرـية أـمـكـنـهـ التـقـاطـهاـ فيـ لـحظـاتـ هـبـوبـ الـريـاحـ بـاتـجـاهـهـ ، لـكـنـهاـ أـصـوـاتـ عـدـوـ ، لاـ يـكـنـ أـنـ يـحاـورـهـاـ ، يـتـلـقاـهـاـ

فقط ، بدون ما يدركه منها في ذاكرته ، قدماً ألح عليه تسائل ، هل يمكن للإنسان أن يتحدث ويسمع إلى صوته في نفس الوقت ؟ ولماذا يبدو الصوت غريباً في أذني صاحبه إذا استمع إليه مسجلاً ؟ ، بعد انسحاب العدو فوجيء بنفسه يتحدث بصوت مرتفع ، ويداً ذلك غريباً في صمت الجبال الأزلي الدائم » تعيد إليه الصخور كل ما يلفظه محوراً « غريباً ، ثم صمت عندما أدرك احتمال وجود أجهزة ما تركها العدو ، هل استمع إلى نفسه ؟ لا يدري ، سيرجح على قص كل التفاصيل » أى متنة سيلقاها في تحريك شفتيه « والتغيير عما يقوله بيديه ، وإشارات أصابعه « سيتحدث هادئاً ، واثقاً ، كل من سيصغون أصدقاء ، سيقول إنه كلف بهمة خلف الخطوط في اليوم الثاني للحرب ، لم يعمل معه دليل من بدو سيناء . يعرفون أنه يحفظ الدروب والمسالك ، لو أغلق عينيه يستطيع رؤية الصخور عند الكيلو ٦٠ على الطريق الأوسط ، يرى المنطقة الواقعة جنوب سدر بكل ما تحويه من صخور ذات أشكال آدمية ، كأنهم رجال تاهوا في الصحراء ثم وقفوا يسددون البصر في أتجاه واحد ، لم يستطع النوم في هذه المنطقة » قضى ليلته الوحيدة بها مستيقظاً ، في كل ثانية يحمل الليل نذراً مجهرة « تطلع إلى السماء ورأى السحب تمر أمام القمر ، خيل إليه أن الحياة دبت في الحجارة ، يعرف زملاؤه أن المقاتل خلف الخطوط لا يتضرر معونة من أحد ، يصبح المنفذ والمخطط وصاحب القرار ، تناهى

---

الصداقات » وينعدم العون المباشر ، يشده إلى دنياه ، إلى أصحابه ، إلى ما انقضى من عمره ، إلى ما هو مقبل ، ذلك النداء الموجز الذى يأتيه وسط البرامج الاذاعية في لحظة معينة » تدب الحرارة الهادئة في عروقه إذ يصغى إلى صوت المذيع الهادىء ..

من الوادى إلى ريح الجبل ..

أحياناً يتسم » كأنه يجاوب هذا المذيع الذى يجلس فى استديو مغلق » يتلو كلمات لا يدرى إلى من توجه ، وماذا تعنى ؟ لا يدرى ما أحدهه من أثر فى روحه خاصة إذ ينوى الرسالة قائلًا .. الله معك .. فى ساعة معينة يستطيع كل شير يحيطه ، حتى ظلال السحب وزحفها فوق الرمال ، وأثار الحشرات والثعابين ، ربما أخفت فيها بينها آثاراً آدمية ، يتتجنب الطرق المرصوفة ، يتأكد خلو السماء من الميلوكبتر أشد ما يجذره خلف الخطوط .

من ريح الجبل إلى الوادى .. هل تسمعنى ؟

عندما كان يحيطه الصوت ، عندما كان الرد يأتى فوراً ، يدركه حماس ، كأنه يمر بكل البيوت والطرق والأهل والمدن التى تعبّرها تلك الإشارات غير المرئية ، كلمة واحدة فقط .

نعم ..

ويبدأ أرساله ، يطمئن إلى أصحاب آذان من يعرفهم ، تردد صوته هناك ، آلة تسجل ، أفلام تكتب ، رموز تفك ، عندما انفي مهمته خلف الخطوط عبر خليج السويس في الموضع المحدد له تماما ، لأمر ما ، ربما العادة ، ابتعد عن الطرق الرئيسية ، ربما لشعور خفي يكتسبه المقاتل خاصة رجل الاستطلاع ، فضل أن يطرق دربها مهجورا لينزل منه إلى السويس ، انتقل وثبا ، أوشك أحيانا أن ينجو حتى لا يتبع لراقب بالمنظار أو أجهزة الرؤية رصده ، في هذا الوقت لم يحمل بطاقة أو علامة ، هكذا من يذهب إلى خلف خطوط ، ربما تعرض لمضايقة لولمه أحد الجنود من زملائه ، في تلك اللحظات تخيل لقاءه بأصحابه داخل السويس . قفز ، جرى ، تخيل حديثهم معه في الليلة الأولى ، كيف نصبت المعابر ؟ كيف عاشت المدينة ؟ كم عملية قاموا بها ؟ ثم نومه في مكانه العتاد ، رائحة العرق ، رائحة الزيت المستخدم لتلين السلاح ، قطع الكهنة القديمة الالزامية لتنظيف المدافع والبنادق ، الطعام المعد بسرعة ، في ذلك اليوم ظن أنه سيلتقى بهم بعد دقائق أو ساعات على أكثر تقدير لو أنهم تحركوا إلى جهة ما ، أو نقلوا مقر إقامتهم . لكن تلك الدقائق استمرت أياما وشهورا ولا تزال ، لم يرهم حتى الآن ، ولم يفتح الطريق بعد لرؤية الأحباب ، قبل وصوله أطراف المدينة الشمالية لمح عربة مدرعة مما يستعمله العدو ، ماذا جرى ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ هل استولى عليها الرجال ؟ . قبل

---

المغيب في نفس الميعاد . تلا المذيع بسرعة ..  
« من الوادي إلى ربع الجبل ، الزم الأعلى ، المدف محاصر ، الزم  
الأعلى .. » .

بعد لحظات امتدت إلى مفتاح الأرسال ، لم يقم بالاحتياطات  
اللازمة ، ربما لادراكه أنه عاد من خلف الخطوط .  
« من ربع الجبل إلى الوادي .. علم .. هل تسمعني ؟ » .

تساءل وقتئذ ، إلى أين سيمضي ، أين سيقى ؟ ما هي المهام التي  
سيقوم بها ؟ كيف ؟ لم يتبق معه إلا القليل من المؤن ، باكتو بقسط ، ربع  
زمزمية ماء ، ما يرتديه أفرول كاكى صيفي خفيف ، لدنه بطانية واحدة  
يطبعها ويحملها فوق ظهره ، مرة أخرى حرص على التوارى عن الأنظار ،  
ابتعد عن طريق السويس - الأدبية - قطع المنقطة الرملية بسرعة ، وصل  
إلى سفرج عناقة المواجهة للمدينة ، يعرف كل شبر يبدأ من هنا ، تسلق  
الارتفاعات التي تدرج على مهل ، تزايدت سرعته ، ملدة ساعة كاملة لم  
يتوقف لحظة واحدة ، أثار ذرات رمال التصقت بالصخور ربما لم يرها أحد  
من قبل ، ودار حول المرتفع الجبلي الحاد الذي يشبه سنام الجمل ، لم  
يتوقف ألا في منطقة بقلب الجبل ، تشبه غرفة صخرية طبيعية ، تعلو  
جدارانها حوله حتى لتحجب بقية الصخور ، والقمة الحقيقة المرتفعة المطلة

---

على الوادي ، داخل هذه المنطقة جلس ، هداً قليلاً ، المدينة بعيدة عنه الآن . يمكنه لو وصل أعلى نقطة أن يرى الأضواء بها ، لكن جدراناً ضخمة من الصخور عزلته وقشذ ، في هذه الساعات الأولى لم يفكر كثيراً في السويس . ما شغله كيف سيقضى الوقت الذي لا يدرك مقداره في عتاقه ؟ كيف سيقضى أموره بما لديه من مؤن ضيئلة ؟ في أيام التدريب الأولى جاء إليهم العميد أركان حرب عبد الله القلعاوي ، قائد المجموعة السابعة قتال . يذكر ملامحه الهاذة ، وفته المستقيمة ويداه تلامسان خصره ، يومها قال لهم « لا حدود لقدرة الإنسان على التحمل » كما أن قدرته على التكيف هائلة » لا يدرك ماذا قام به القلعاوي خلال الحرب ؟ لا يدرك أين هو الآن .. هل .. حاول طرد الأفكار السوداء ، عندما فكر في القلعاوى خطر له دائمًا .. انه يحارب الآن .. سيقول انه في الليل الجليل الوعر مختلف تفكير الإنسان ، ربما لتحفز حواسه كلها واستعدادها لتلقي المفاجآت الجبلية ، ما قد يأتي به الظلام ، ربما التقى جنديان صديقان في العتمة الحجرية واقتلا بذلون أن يدرك كل منها حقيقة الآخر ، يعرف أن عتاقة مليء بذروب وممرات خفية لم يحط بها انسان واحد ، سيقولون له ولكنك أكثرنا معرفة بالجبل قبل صعودك إليه ، سيقول لهم أنه اكتشف طريقاً في النزى لم يتخيّل وجودها أبداً ، ومدقّات لا يمكن أن تظهر في أي صور تلتقط من الجو ، واتفاق تؤدى إلى وديان بعيدة ير بها الإنسان

---

ولا يكاد يلحظها فكأنها ظللت كلها بنسيج عنكبوت غير مرئي كغار حراء ، حتى اعنى مهربى المخدرات وأكثرهم استخداما للجبل يجهلون معظم أسراره ، سيسأله سليمان الخلبي عن حقيقة هذا الدرب المؤدى إلى مصر ، أقاويل كثيرة تتردد عنه ، يكفى ان يكتشفه ليصبح بعد مسيرة خمس دقائق أو سبع على أكثر تقدير في قلب مصر ، ينزل إلى ضاحية المعادى ، ثم يقطع الشوارع الممهدة ، ويدور مع التحنينات ، ويتأمل الشرفات ، والتواوفذ المفتوحة ، والتواوفذ المغلقة ، والضوء الناعم المنبعث من النجف خلف الستائر المسدلة واللوحى بلقاءات أسرية دافئة ، وحياة مستقرة ، درب قصير يمضى عبره إلى الأمسيات بين الناس ، والمشى بشكل طبيعي ، وتأمل الفتيات مع أصدقائهن في الطرقات الجانبيه ، وإذا يمر أمام أبواب العمارات الضخمة تهب عليه رائحة رطوبة معتقة ، مزيج من رائحة السلام الرخامية الممسوحة ورائحة الأخشاب القديمة ، وانفاس أسرية ، ثم الذهاب إلى بيته ، تناوله العشاء ، يقطع رغيفا ، يمضغ ، ثم ينام فوق حشية قطنية ، يضع رأسه فوق وسادة ... سيقول سليمان الخلبي انه لم يكتشف هذا الدرب ، لم يهد إليه ، في ليلته الأولى بدأ قصف جوى فوق المدينة ، أصمعى متلagua بالليل والجبل ، غارة متصلة ، يعرف صوت قنابل الطائرات خاصة الألف رطل التي تفجر المياه من باطن الأرض ، في لحظات التحامه بالعدو أو اجتيازه أقصى مراحل الخطر ، في

---

قلب جنون القتال الذى يمسك الانسان تماماً « يركز عينيه وحواسه ليلتقط لحظة معينة لا تفلت من وعيه » لحظة ملامسه الختير للرقبة ، الوضع الملتوى للجسم الأدمى بتأثير المفاجأة والرعب ، اتساع العينين ، ابتلاع اللعاب ، يذكر جندي عدو فوجي « بهجوم الجماعة على العربة المدرعة » راح يجرى إلى الخلف والبنادقية معلقة إلى كفه ، لم يفكرا حتى في أشهرها .. المفاجأة أخطر ما يحويه ليل الجبل ، هذا ما يجب أن يحذره ، ستجسيء لحظات يتأمل فيها على مهل ، سيقول لهم أنه تسأله أول ليلة أثناء الغارة ، أين تنزل قنابل الألford رطل ؟ هل أصيب أحد زملائه ؟ هل دمر مقر الوحدة ؟ هل القصف ضد أهداف معينة أم انه طايش ، أعمى ؟ تأكد من وجود العدو تحت الجبل وحول المدينة ، استمرار القصف الجوى الليل يعني أن العدو لم يقتحم البيوت والطرقات وأماكن الذكريات وبيت الأسرة ، ما استبد به القلق على الرجال .. لابد انهم في نقطة ما من هنا الليل الوسيع يقومون بعمل ما ضد العدو ، أين هم ؟ للحظات خاطفة يضاء الجبل باصداء الأصوات البعيدة كأنه البرق فوق بلاد مجاورة ، للساعة عين تبدو أشكال الصخور ، قرب الفجر الحت عليه الرغبة في رؤيتهم « دخله شعور خفيف بالبهجة لمرور أول ليلة عليه ، مجيء النهار ، ولم يكن بعد قد عرف ما تعنيه لحظات الضوء الأولى وسكن الساعات الأخيرة من اليوم » الساعات المتداة أمام الليل الوحشى ، استبد به القلق عليهم

عندما وصل إلى قمة الجبل وتطلع باتجاه المدينة ، رأى دخانا ، قدر حجم الحرائق ، سيقول لهم انه لم يتخذ أصحابا في المدرسة ، لم يتخذ صديقا حبيبا عندما عمل في استديو فكري للتصوير بعد خروجه من الدراسة أثر رحيل والده ، لم يشترك مع أبناء الحي في مغامراتهم ، لم يعاكس بنات حي الأربعين أو درب أو الماريوس ، اذا تصادف مشيه في الطريق خلف فتاة يسرع حتى يتتجاوزها لكيلا يراه أحد المعارف فيظن أنه يقتفي أثراها ، سيقول أنه لم يشعر بنعمة الصدقة الا بعد التحاقه بالوحدة ، اكتشف من جديد أبناء السويس الذين تطوعوا معه ، كأنه عرفهم لأول مرة مع أنهم زاملوه زمنا ، في معسكرات التدريب مضى الوقت كله عليهم معا « في دوريات المشي الطويلة عبر الصحراء ، يضحكون ، يتحدثون عن الضباط ، عن الباشجاوش وقوته التي لا يلمحون غيرها ثم رقته المفاجأة نحوهم عندما حزموا عتادهم واستعدوا للالتحاق بالوحدة يومها أقيم احتفال قصير بتخرجهم ، اصطفوا في مربع ينقص ضليعا ، نزل الجاوش الى المدينة القرية ، اشتري الحلوي ، اشرف على توزيعها في الأطباق عند اعداد الميس ، عند باب المعسكر وقف يرميهم . أخذ سيف بن ذي يزن زمام المبادرة . عانقه .. اقبلوا واحدا ، واحدا ، رصد في عينيه دموعا » عندما خرجوا معا في دورية سير لمسافة مئات الكيلومترات بالصحراء الغربية ، دليلهم النجوم وعلامات قليلة ترشدهم إلى نقطة

---

الوصول . توقف موج البحر ، اقترب مادا يله ، فساما قبضته وكأنها  
ميكروفون إذاعي ..

سيدات آنساني سادق ، على ناصية ما من الصحراء الغربية تلتكمى —  
تلتقى — بمجموعة من المكاتبين — المقاتلين .

نكلدر — نقدر — نتعرف بسيادتك .

سليمان الخلبي ، أنا موظف بشركة النصر للبنرول ، منطوع .

أخ سليمان .. ممكن تعطينا فكرة عن بطولاتك ..

قتل الجنرال كليير .. ورجعت بأسير إسرائيل ..

هابل .. برافو .. انت لكتن — لقت الأعداء دراسا لن ينسوه  
عندما كتلت — قتلت — الجنرال كليير الصهيوني ...

يا أفندي الجنرال كليير فرنسي .. قتلتة من مائة وسبعين سنة ..

لا يختلف الأمر كثيرا .. تفضل أي أغنية ؟

وهنا يصبح أحسن الأول ..

أنا كلبي — قلبي .. إليك ميل ..

يضحكون ، ينطلق موج البحر مغنيا وكأنه يلمي بالفعل ما طلبه

---

---

---

سليمان الخلبي وأحسن الأول ، في الصحراء يصبح أدهم الشرقاوى ..  
يا ريح الجبل .. تلتف هذه ..

يلتفت . أدهم يمسك بدانة مدفع قديمة لم تفجر ، كأنه على وشك إلقائها باتجاهه . تعلو يده ثم تنزل على مهل عسكة بالدانة حتى يضعها فوق الرمال . في الليل عندما يستعد بعضهم للنوم ، ويقى آخرؤن مستيقظون ، يتحذثرون عن المدينة الكبيرة ، وازدحام الشوارع في المغيب ، يقوم البرق قائلًا إنه بمجرد انتهاء الدورية وزرولهم أجازة سيسمشى في شارع سليمان باشا ، يتفرج على الفتايرين المصيحة والفتيات الجميلات ، ثم يأكل فولا وطعمية عند الديماطى . هنا يقول موج البحر : أهذا كل ما تحلم به ؟ هناك من ينفق ألف جنيه في ليلة واحدة ، تسأعل الصاعقة عن حقيقة ذلك ، وهل يمكن صرف مثل هذا المبلغ في ليلة واحدة ، أكد موج البحر أن هذا يمكن في شارع المرم ، استفسر الصعيد الأعلى عن حقيقة ما يقال حول أسعار المبيت في فندق الشيراتون ، وهل تبلغ حقاً عشرين جنيهاً للسرير الواحد في الليلة الواحدة ؟ قال البرق ؟ إنها تبلغ أكثر من ذلك قال الصعيد الأعلى ، إنه لو نام في غرفة بهذه سيظل يرتعش طوال الليل . تسأعل الفتى مهران ، من الخوف أم من التكيف ؟ ضحكوا .. قال سليمان الخلبي هذا عالم غريب ..

لا يدرى ريح الجبل أين هم الآن؟ ر بما يتجمعون معاً ، ر بما عاد  
بعضهم إلى الوحدة . يود أن يرى أحدهم ، يشكر له بروقة الجبل ،  
خاصة برد العصاري المصحوب بالسكون القاصي ، يعرف أن الحركة تبلغ  
ذروتها في الطرقات قبل المغيب ، حتى في المعسكرات النائية البعيدة تأخذ  
الحركة ايقاعاً سريعاً مع اقتراب الليل ، وكأنها لمسات أخيرة يضعها  
الإنسان على نهار مول ، ينقل الجنود أوان الطبيخ ، يذهب البعض إلى  
الحمامات ليستحمون بعد طابور الرياضة . يلعب آخرون الكرة ، يستعد  
الجندي المسؤول عن النادي لتشغيل التليفزيون . سكون عنافة ينأى بالمدن  
إلى عالم آخر . يجعلها تبدو شاحنة كنسخة خفيفة نمت إلى الحقول . لا بد أن  
كثيرين من الجنود عادوا إلى زوجاتهم وأمهاتهم . يجلسون معهم الآن .  
بعضهم خرجنوا إلى الطرقات مع أطفالهم . أو ذهبوا لزيارة أقاربهم ،  
يمكون عن الحرب كذكريات ، طومانبای خرج ولم يعد إلى أمه منذ أربع  
سنوات ، عندما مضوا إليها عال كل منهم هم اللقاء ، ماذا سيقول وأي  
كلمات عزاء؟ قال سعيد مهران إنه يمكنه جز رقبه جندي علو ، لكنه  
لا يطيق رؤية أم زميل ذهب ولم يعد . قال سليمان الخلبي إن طومانبای  
مات ميتة نحسده عليها « ألم والباقي علينا نحن » ، طلب منه سيف بن  
ذى يزن الا يتحدث هكذا أمام أم طومانبای . أن يراعى شعورها .  
لاقتهم عند الباب « نحيلة » قصيرة القامة ، ولـى شياهـا مبكراً قبل

---

الأوان » يعرفون أن والد طومانبای رحل وهي في الثالثة والعشرين » تفرغت تماماً ل التربية ولديها . أشرفت أشجار الفاكهة المملوكة لهم في قرية الجنابين ، جادلت التجار » ناقشت الرجال » رفضت كل من تقدم إليها ، امتلاً وجهها بتعجاعيد وأثار العنااء ، تلك العلامات التي ترى على وجوه القراء ومن قاسوا طويلاً ..

« أهلاً بحبابي ابنى ... » .

بدت متسمكة أكثر من القadiمين لعزائهما ، فذكر ربيع الجبل » ما أقسى لوعة الأم التي تعيش موب ابنها بعد كل ما قاسته من آلام حمل ووضع وسهر ليال » لم تبد أم طومانبای شيئاً من هذا ، بعد لحظات صمت دارت بعينيها في وجوههم » سالت عنمن جاورة أو اقترب منه ؟ قال خالد بن الوليد أن كفه لامسه طوال العملية ، قال الحسين أن بصره لم يفارقه » طلبت أن تسمع ما قام به ابنها ، تلاقت العيون في حيرة ، ثم استقرت على سليمان الحلبي » بدأ يحكى وهي تسمع ، أبدت اهتمام عندما قال أن العدو أجهد نفسه في معرفة شخصيته لكثرة ما كبله من خسائر » قال انه يبينه وبين العدو دماً كثيراً . برقت عيناهما عندما وصل سليمان الحلبي إلى لحظة رفع العلم على الضفة الشرقية ، في أول عملية عبور تم في وضع النهار ، قال إن العلم ما زال مرفوعاً وجند الموقع المقابل خصصوا كمية من الذخيرة لحمايته » وجند الواقع القرية يفنون لرؤيه العلم الذي رفعه

---

---

---

المرحوم أصحت صامتة ، وأبدلت بعض الاستفسارات . ثم أطرقت  
لحظات ، رفعت رأسها ..

البركة فيكم ..

أصرت على المشي معهم في الدرب الصغير المؤدي إلى طريق القرية  
العام ، عند انصرافهم قالت هامسة ..

طلوا على يا أولاد .. ولا تنسون ..

انقضى ريح الجبل ، هذه الكلمات القليلة يذكرها الآن ، تخسد  
وحدة مرة بعد رحيل حبيب ، تماماً كليل الجبل الم قبل والذي لا راد  
ولا مانع ، صار يزورها بانتظام ، في المواسم الأربع ، زارها مراراً سعيد  
مهران ، والحسين ، وسلمان ، وخالد بن الوليد ، والبراق ،  
والصاعقة ، وأول ضوء ، لكن ريح الجبل وأذهب على الذهب ، يقصن في  
كل مرة تفاصيل مما رأه من طومانبای ، حتى أيساً عن ظروف اختياره لهذا  
الاسم ، وقال انه عاشق للتاريخ ، وهو الذي اختار الاسم لسلمان  
الحلبي ، وللحسين ، قاتل الأم ، جاءت بصناديق كتب خشبية ،  
راحت تخرج كل كتاب بعناية ، تربى لريح الجبل ، أحياناً تمسك كتاباً  
مقلوباً ، قالت إن المرحوم لم يدخل على القراءة ملماً ، وأحياناً قالت له ،  
ارسم عينيك لأن البيت لم يصله ضوء الكهرباء ، قلب ريح الجبل

---

---

---

الكتب ، أعادت ترتيبها ، في كل مرة تقول ، عندما تأق فكأنني أرى  
المرحوم .

سيقول لها بعد أن يصله النداء أنه يعتذر لانقطاعه عنها ، وأن أحواها  
شغلته خلال حصار السويس ، إن قلبه حذره بأنها لم تفارق الأرض  
سيطلب منها أن تسامحه لأنه لم يأت بسبب غيته فوق الجبل ، لكنه لم ينسها  
أبدا ، فكر فيها كثيرا ، وتنى لو أنها دعت له بالسلامة ، سيقول لها أنه  
حرم من نظرة الأم ولفتها منذ وقت كبير ، سيحكى لها عن أيامه أيضا .

سيقول لأصحابه إنه لم يفاجأ بقتله طومانباي فوق الجبل ، بهدوء  
أحسى عددهم ، رأى معاطفهم الثقيلة بالوانها الزيتونية ، رشاشات  
العوزي القصيرة . البنادق الأمريكية سريعة الطلقات . كانوا محاربين من  
سلاح المظللات ، تساؤل ، هل سيقولون ؟ بدا واضحًا أنهم دورية  
استطلاع ، حمل بعضهم أوراقا ، أمسك أحدهم دفترًا عريضا يضم صورا  
جوية ، هذا يعني أنه لا توجد لديهم خرائط لمراوات الجبل ومدقاته ..

سيبسم البرق قاثلا ..

ومن أعد خرائط لعنة ؟ لأن دروبه محفوظة في أذهان رواده ..

سيكرر سليمان الحلبي سؤاله عن ذلك الدرب القصير الذي يصل  
إلى مصر ؟

---

سيقول إن الجبل سيظل لغزاً مستعصياً ، في طفولته رأى عناة حدود الدنيا ، لا مدن وراءه ، لا صحراري ، يعيش به جن أخبار ، وجن أشرار ، الشمس تسكن فيه ، السحب تتبع منه ، مع تقدم عمره سمع عن الدروب الخفية التي لا تبوح ب نفسها إلا من تردد عليها مرات ومرات ، من يعرفها يصل إلى أي مكان في برمصر ، من يجهلها يهلك وهو على مرمى حجر من مصدر ماء ، أو مدق ترابي يؤدى به إلى النجاة ، منذ ظهورهم لم يند هم الوحيد مواجهة الشتاء فوق الجبل مرتدية افرولا صيفياً ، بلا مؤن ، إنما أصبح عليه أن يواجه العدو أيضاً ، في البداية لم يقل له النداء كيف يدبر مأواه وطعامه؟ في صباح حلم بالوقوف فوق أعلى نقطة . لكن ما شغله طوال هذه الأيام العثور على أصلح مكان للعمل ، ما أقلقه ليس ظهور دورية الاستطلاع المعادية ، إنما تلك الساعات الأخيرة من الليل ، عندما يمتلء الفراغ بشفرات جليدية تخز الجلد وتتفقد إلى المظالم ، لا يذكر من قال يوماً أنه لا يستطيع النوم طالما بقيت أطرافه باردة ، يبتسم ، من يتخيّل نوعية البرد ينزل آخر الليل هنا؟ يفقد انفه أحياناً ، يدلّكه بأصابعه حتى يعيده إلى مكانه . مع البرد يزداد جلد الحذاء صلابة ، في بداية الليل يشع الصخر دفناً غامضاً سرعان ما يتلاشى ، في البداية تسأله ، كيف ستمضى الأيام هنا؟ خيل إليه أنه لن يتحمل ليلة واحدة ، ماذا سيقوم به؟ لا يتحمل الأيام الحالية من العلامات ، في المدينة

---

---

أو التدريب أو خلف الخطوط يلتزم الإنسان بمواعيد محددة ومهام معينة تكسب الأيام ملامح وسمات . تجعل هذا يوم اثنين وذلك يوم ثلاثة ، لم يتم بتدوين علامات تذكره بالأيام . عندما توالى الليالي عليه ، لم يتجمد ، لم يمت ، اختلطت عليه الساعات والأيام ، كيف يدرك أن هذا النهار ثلاثة وليس أرباعا ؟ أدرك أهمية ذلك عندما ظهرت دورية الاستطلاع المعادية ، ظهورها يوافق مضي سبعة أيام عليه ، فكر في حفر علامة بسيطة على الصخر في موضع معين ، لكن ربما لمحها أحد ، يدرك أنها ناج فعل انسان ، جمع سبع زلطات صغار ، يضع واحدة في يوم السبت قرب مكان نومه الرئيسي ، اثنين يوم الأحد قرب مكان البطاريات الاحتياطية ، الأيام تولى والبرد يتضاعف .

في اليوم التالي للذهاب الدورية جاءوا . سيقول إنه لن ينسى أبدا ملامح أول من رآهم قادمون للإقامة ، ليس لأنه يمهد في التقاط التفاصيل ، حتى لا يضطر إلى استعمال أي نوع من التدوين المكتوب ، إنما لأنهم أول افراد رآهم وعليه متابعتهم . أحدهم غطى رأسه بقلنسوة صوفية ، يندومن تحتها شعره الطويل ، جندي آخر أسود اللون قدر أنه من جنوب أفريقيا ، ثالث لم يزد عمره على سبعة عشر عاما ، ذو الشعر الطويل يتولى القيادة . هدف ممتاز لقتال ، لكن الظروف لا تسمح ، وأشار بيده مرات ، حاول الأسود الانحناء وأشعل سيجارة . لحسن حظه أنه لم

---

---

---

يدخن طوال حياته ، بمعنى أنه لم يدمن التدخين في ليلة حنة سويسية ، أو في فرح أحد الأصحاب ، دخن سيجارة واحدة ، لو افقد التدخين لأضاف هذا متاعب إليه .

سيقول إن وجود العلو أنوار اهتمامه . أدرك أنه بدأ يعمل . لم يعد الجبل خاليا ، الأمر مختلف عن عمله خلف الخطوط ، هناك الصحراء فسيحة كالبحر . هنا المسافات المستوية محدودة . أماكن المشي شحيحة . اتفقاء الآخر أسهل ، التعرض للرؤية محتمل أكثر . نسب الجبل تغير ، في الليل يزداد ضيقا ويبدو مرتفعا أكثر ، ثم المفاجأة ، كل قمة تقفي المفاجأة . قبل مغيب اليوم فتح الارسال ، فرح ، أخيرا يعود اتصاله ، في الليلة نفسها قال المذيع بصوت هادئ .

« إلى ربيع الجبل ، لمسنا آثارك .. ننتظر هبوبا أكثر ... » .

ثم بدأت موسيقى . لم يصفع إلا لحظات ، بمجرد انتهاء النداء أغلق الجهاز ، هز رأسه كأنه يخاطب شخصا غير مرئي ، ادخل الجهاز في الجراب الكاكى ، حمله بعنابة وحذره إلى مخبئه . في نفس اليوم جاء الصوت الكريه . إن طائرة الفانтом مقتبة الأذير ، تثير غثيانا ، ربما روعي هذا في تصميم معركتها ، لكنها لا تثير الاحساس بالطاردة الشخصية » مثل الميلو كبر التي تطير مباتطة هدفها حركة الانسان فوق الأرض ، جراة

---

ضخمة معدنية ، جاء جنود كثيرون في ثلاث طائرات ، الأولى من طراز سيكورسكي ، الآخرتان من طراز - ايلويت - ، استمرت المراوح المعدنية في الدوران ، لم توقف ، وبدت دوائر من الظلال فوق الأرض ، أخرجوا صناديق متوسطة الحجم ، قرب السيكورسكي وقف ضابط القوة ، مرة أخرى نظر بعيد قناص ، في مثل هذه اللحظات يتحول وجوده إلى عينين ، إلى ذاكرة ترصد وتعي . نصبوا خياما صغيرة صفراء بمطنة بساط أحمر يدو أنه عازل للحرارة وللبرد . نفحوا وسائل مطاطية ، أشعل أحدهم موقدا ميدانيا بالآلة مستطيلة كمقبض العصا ، ابتعدوا عن الطائرة ، دارت المراوح بسرعة أكبر ، اهتزت الطائرات . مالت مقدماتها إلى الأمام . أحس بضغط الهواء الذي أحدثه مرور الطائرات فوق رأسه عندما توارى في حفرة . منذ هذه اللحظة أصبح يعيش بينهم ، أحيانا يتبعون عنه ، أحيانا يقترب منهم حتى لا يفصله عنهم إلا أمتار قليلة ، في الليل يصغى إلى صيحاتهم المفاجئة يحاولون طمانة أرواحهم ، أو أصداء أحاديثهم الخافتة داخل خيام النوم ، سعال أحدهم ، أو غناء خافت يصمت فجأة عندما يتتحول اتجاه الريح أو عندما يسكت صاحبه في صباح اليوم التالي طلب منه المذيع أن يعبر الوديان بقوه ، الا يهم شروق الشمس . في المغرب أرسل ريح الجبل وصفا دقينا للقادمين الجدد ، قال إن ثلاث طائرات جاءت مع آخر ضوء ، تم إبرار مائة جندي وثمانية

ضباط أحدهم برتبة ميجور ، فوق القيمة رقم (٣) جاءت سرية من جنود المظلات ، انتشرت الأسلحة الفردية ، رشاشات جليل ، مدفع الماون ٨١ مللي ، لدى القوة جهاز للرؤية الليلية ، كميات ذخيرة ثم تشير إليها عند النقطة « هـ » قرب متصف الجبل ، تم نصب مطبخ ميدانى إلى الشمال من — كـ — ، وحام ميدان ، العدو يطلق مشاعل مضيئة ليلا بمعدل قذيفة كل ثلثين ثانية لمدة نصف ساعة ، ثم يستأنف الاطلاق بفاصل زمني قدره عشر دقائق . وأحياناً حس دقائق عندما يتحول صوت الريح إلى ما يشبه جري الأقدام وحديث البشر ، يطلقون دفعات متابعة من الرشاشات في جميع الاتجاهات ، يكفون تماماً عن الفجر ، تخلل دفعات الرصاص طلقات حمراء كاشفة ، في تلك الليلة تلا المذيع رسالة موجزة ، من الوادي إلى الجبل ، قال إنهم يتبعون العاصفة .

سيقول إنه تمنى لو أمتلك معطفاً كاكياً ، طوال أيامه الجبلية يقمع أي رجاء بالأفضل ، ولكن عندما يُشَقِّل البرد ولا تكفي الحشائش الجبلية سد جوعه الدائم ، يتخيّل جراً موقداً ، أو أغطية ، سقف حجرة ، تذكر رحلة مدرسية نظمت إلى عيون موسى عند وقوف الطلبة آخر النهار متظريين أوتوبيس الرحلة ، اصطفوا في طابور عفو ، كل منهم يحاول الاحتفاء بالآخر ، أول فتي في الطابور لم يحاول الاختفاء وراء أحد ، نسى اسمه ، قصير ، لم يرتدي إلا قميصاً بدون بلوفر ، عندما اقترب منه سمع

---

اصطكاك أستانه . تصدى للريح وكأنه يثبت لزملائه أن نقصه سترة ثقيلة  
لا يؤثر عليه .

انه يكاد أن يرى زملاءه يتسعالون بعد عودته . كيف احتمل الشتاء  
كله فوق عتاقه ؟ كيف نام ؟ .

سيقول للحسين ، وللفقي مهران ، للبرق ، للعاصفة ، خالد بن  
الوليد ، لسليمان الخلبي ، لأم طومانباي ، للصعيد الأعلى ، لأدهم ،  
لسيف ، انه نام منحنينا حتى لتلامس ركبتيه ذقنه . ساعات نومه غير  
متصلة ، بعضها في النهار ، الليل فرصته للحركة الآمنة . يتجمع فيه  
العدو . لا يتشر ، سيقول إنه غدا ذات ليلة فوق صخرة مدينة قرية من  
حافة الجبل ، استيقظ وللحظات قصار خيل إليه أنه يرقد فوق وسادة ،  
ويظلله سقف ، ويصنف إلى البرد في الطرقات من خلال جدران ونوافذ  
مغلقة ، عندما رأى النجوم الكثيفة ، وأحس بالفراغ أدركه خيبة لم تدم  
إلا للحظات ، في تلك الليلة فكر طويلا في صوت غامض سمعه خلف  
الخطوط في سيناء ، وأصوات الصحراء محدودة جدا بالقياس إلى أصوات  
الجبل ، لكن هذا الصوت لم يدر ما هو حتى الآن ، صوت مكتوم ،  
متقطع ، آئين مخلوق ضخم ، عريض ، هائل الحنجرة ، كأنه يصدر من  
كل مكان في الصحراء ، فهو صوت غولة خرافية تأمل لسبب ما ؟ أم أصوات  
غامضة ؟ تدركه رعدة كلما فكر فيه . في الليل زحف حذرا إلى الشفق

---

الصغرى حيث تجتمع قطرات المطر ، إلى الحشائش الجبلية ، الناظر من بعيد يخيل إليه أن الصخور مجلبة ، الاقتراب منها يكشف أنواعاً من الزهور ، والخشائش ، والزهور الرقيقة التي لم تقطف ، تنمو وتموت بعيداً عن يد الإنسان ، تأمل أنواعاً لا حصر لها من السحالي الملونة والحشرات الغربية ، وفراشات كبيرة لا تعبأ به إذ يد يده محاولاً امساكها . كثيراً ما تابعها أثناء تناولها طعامها ، بالضبط في الساعة ١٣٠٠ . صوب منظارة عكس اتجاه الشمس حتى لا تتعكس أشعتها على عدستيه وتحلث بريقاً يلفت الأنظار اليه ، رأى بخار الشورية الساخن ، أحسن بطاقة الخبز المستطيل ، رأى يوماً جندياً المان الأصل يقشر برتفالة ، رصد مكان تساقط قشور البرتفال حتى يزحف ليلاً ويحاول التقاطها ، هذا الجندي ينهي طعامه عادة بسرعة ، أحياناً يمد يده إلى أطباق زملائه ، يخفونها عنه بأجسادهم ، أو يزجرونها . يقوم آخر ييلو أنه فرنسي ، يبدأ في غسل يديه بالصابون ، يتدفق الماء من إناء البلاستيك برتفال الشكل ، يتنهى بصبور صغير لا يسمح إلا لخيط تحيل من المياه بلا تدفق ، عليه كتابة لونها أحمر الإنجليزية تشير إلى مصنع هولندي في أمستردام . يطيل الفرنسي غسل يديه ، يتمضمضن أربع أو خمس مرات ، قصیر القامة ، التحيل ، لا يدرى ريح الجبل إلى أي أرض يتنمى ؟ ييلو غير مهم بغسيل يديه أو فمه ، البن دقية سريعة الطلقات لا تفارق كفه حتى أثناء تناوله الطعام ، أو

خلال اضطجاعته داخل الخيمة ، شاب آخر ييدو أنه لم يتجاوز السادسة عشرة » لحيته لم تنبت بعد ، يتطلع إلى أنحاء الجبل كثيرا ، بل أن عينيه لا تفارقان الصخور البعيدة حتى عندما يتحدث إلى زملائه . أو يجلس بينهم » يشد على شفتيه » كأنه يتوقع حدوث شيء ما . في الصباح تبدو خطواتهم أوسع ، يتحركون هنا وهناك » يتفحصون الجبل ، ييدون لغافات الأسلام الشائكة ، رصد ربع الجبل عدد اللغافات » وموقع رص الألغام المضادة للأفراد التي بثوها في المدقفات ، لا حاجة بهم إلى فرع الألغام المضادة للدبابات أو الآليات ، تضاريس الجبل موائع طبيعية » لاحظ أنهم نثروا نوعا من الشراك الخداعية ، خاصة بالقرب من القمم ، شراك على هيئة علب مربى ، علب سجائر ، كاميرا ، أقلام حبر ، استنتاج أنهم لا يحكمون قبضتهم على الجبل ، لا يسكنون بخفاياه . يتذعون هجوما في أي وقت ، يأملون في التقاط أحد أو بعض أفراد الدوريات المقاتلة » أو رجال الاستطلاع هذه الشراك ، في الصباح يروحون ومجيئون بدون معاطف ثقيلة » لا حظ أنهم يرتدونها عند تناولهم الطعام » ربما لأن ما يتناولونه يسبب برودة الجسم وتراخي الأطراف . بعد الظهر لا يمكن رؤية أحدهم يمشي منفردا ، يتجولون في جماعات ، إذا تصادف وتتأخر جندي أو اثنان بخطوة أو خطوتين يتلفتون إلى الجبل . يسرعون حتى يجادلون رفاقهم . كل منهم كأنه يختفي بالأخر من طلقة مفاجئة قد تحيط به ،

تصل إليه أصواتهم مع اتجاه الريح نحوه « ثم تبتعد عندما تولى الريح بعيدا عنه » لاحظ وجود جوارب نسائية وملابس داخلية معهم . لكنه لم ير صد وجود أي امرأة . مع إقتراب الليل يعودون إلى الخيام . لمح أحدهم يكتب « من ملائمه » وتوقفه بين لحظة وأخرى ، قدر أنه يكتب خطابا ، أو شيئا خاصا ، لاحظ أن قائد القوة يمشي دائريا بين جنديين ، عندما يبدأ الليل الجلي في النزول يختفون كلهم داخل الخيام ، لا يبقى منهم إلا المكلفوون بالخدمات ، لا ينفرد أحدهم بنفسه ، يتجمعون ، تعلو النداءات بالعبرية « بالإنجليزية ، بالفرنسية ، بلغات أخرى لا يعرف منها حرفًا ، حتى الخيام تبدو كأنها تتوارى في بعضها ، رصد قدمين جندي داخل خيمة منخفضة . حدد الخيمة التي يأوي إليها قائد المجموعة . لم يلحظ مرحا متبدلا بينهم ، ولم يسمع ضحكات حتى عندما يتجمعون داخل مراقدتهم ، لم ير ابتسامة تصدر عن أحدهم في وجه النهار ، الشفاه مضمومة ، الأكل بسرعة ، تجنب الصعود إلى القمم ، ريا لا بتعادهم عن مجال الرؤية الواضحة . لكن من الواضح أن مرمى نيرانهم يغطي تلك القمم .

سيقول إن أيامه الطويلة عرفت الفرح ، تمنى لو معه سعيد مهران أو سيف بن ذي يزن أو أحمس الأول ثم البراق ، تمنى لو جاءوا كلهم إليه ، فالفرح بحاجة إلى آخر قريب ليظهر ويتالق ويبيح . لكنه في وحدته عرف

فرحة هو . الذى يديه بدون انتظار رد فعل من آخر ، فرح غامر كاد يدفع به إلى المشى متتصبا على قدميه بلا احتواء ، بلا حذر ، أو التفتق من أعلى الصخور إلى الوادي ، أو تعرك الأيدي والأطراف كماشاء اذا لا أحد يرقب أو يمنع أو يلوم . فرح كالريح الجبلية الجارفة التي تهب عند الفجر . يختلف عنها يشعر به من بهجة اذا يتلقى رسالته ، أو ينهمك في أرسال معلومات يدرك أن هناك من يتلقاها في نفس اللحظة . حدث ذلك لحظة استطاعته تميز صوت طائرة الميج ٢١ . في البداية حومت صوب الجبل . ثم ارتفعت في خط منحنى إلى مركز السماء ، بدت نقطة بيضاء متحركة في الفراغ ، وعندما غيرت اتجاهها لم يझها المعدن لبرهة كالبرق ، ثم بدأت تهوى ، كان الطيار فقد كل سيطرة عليها ، أمسك أنفاسه ، استقامت فجأة . بدأت طلقات المدفعية الخفيفة المضادة تخليش زرقة السماء بقبضات من دخان ظلت معلقة وكأنها من حجارة . قلق ، هل أضافوا مدفعا جديدا في موقع لم يبلغ عنها ؟ دارت الطائرة في اتجاه معاكس ، تحجب الطيار الرمزي المؤثر لمدفعية العدو ، ابتسם وحيدا ، انه شغله ، نتاج عمله . معلوماته . اختفى صوت الطائرة ، تماما ، هل ذهب ؟ لكنه لم يझ الجسم المعدن منخفضا حتى ليكاد يلامس سن الجبل ، اندفع فوقه بلا صوت ، ميز كابينة الطيار ، وتقسيمات الجناحين . بعد ابعاد الطائرة علا صوتها متربدا بين الصخور ، هديرها مدرويا بعشرات

---

الأصداء منطق الجبل وتتوالت طقطقات المدفع المضادة للجو  
فبدت كمشاة يحاولون اللحاق بسيارة تجرى مسرعة ، بعثت فيه حركة  
الطايرة دفشا لا يمت إلى شهر أو زمن ، كأنه رأى كل الأصحاب  
والأحباب « عائق الحسين » وشكرا اليه برودة الجو آخر الليل ، ربت  
الفى مهران على كفه مبتسما ، « أنت لها » انحنى عليه سليمان الخلبي ،  
قبله ثم صمت ، هكذا اعتناده اذ يعبر عن عواطفه فجأة ثم يسكت ، ودلو  
رأى افراد العدو كلهم الطائرة ، سينظر اليهم من مكمنه آخر النهار متباها  
« لقد حلقتنا فوقكم » ، هذه الطائرة تضم شبابا جدوا ، مراوغة ، جريئا ،  
ربما التقى من قبل ربما احتكت ايديها في طريق عام بالقاهرة ، بالسويس .  
ربما تواجهها في قطار ما . ربما مرا في شارع واحد يوما ، في نفس اللحظة  
يود لو تعرف اليه دققة فقط ، يحدثه عن البهجة التي غمرته أيام متألية  
بعد تحليقه ، لكنها ربما لن يتلقيا ولن يعرف اسمه حتى . ستقذ الصور  
الملتقطة ما أرسله من معلومات ، سيقول الطيارون أن دقة تحديد مواقع  
المدفعية المضادة جعلتهم أكثر أمنا .

طوال اليومين المتالين لتحليق الطائرة ظل بصره يروح وينجع إلى  
الفراغ ، متوقعا ظهور الطائرة فجأة ، امتنلا الجبل يهديرها أو انزلاتها  
الصامتة . لحظات الفرح الأخرى جاءته ليلا . عندما اخذ وضع الجنين

---

لينام ، عندما تحسن ركبته العارية ، برد ديسمبر القاسي تبدد عندما اصفعى إلى طلقات متبادلة ، حوار ناري ، العدو لا يطلق النيران من طرف واحد ، قفز واقفا ، التف حول الصخرة التي يختمن بها من الريح ، صعد مدقا صغيرا ، في نهايته يشرف على موقع العدو ، ميز طلقات الجريوف الكلاشنكوف ، طلقة آر- بي - جي اخترت الظلام وضجيج الأسلحة الأخرى ، طلقات حارقة أصابت الحيام ، اشتعلت جدرانها ، تناقلت الرياح السنة اللهب فيها بينما ثم استقرت في اتجاه واحد ، تراقصن السنة نارية على الصخر البعيدة ، خيل إليه أنه لم يلح حيوانا يعود ، صرخات تعلو ، بعضهم يندفعون في اتجاهات مختلفة ، تدافعت الدماء إلى رأسه . تبدد آخر ما تبقى من الأحساس بالبرد ، انفجارات حادة ، ثانية ، قبضات حمراء تتطاير في الهواء متواالية كالصواريخ النارية ، عرف الرجال أماكن تشوشن الذخيرة . لم يخطئوا واحدا ، يقرأون الظلام ، قبض بيده على حافة الصخر ، على ضوء اللهب يمكنه رصد المواجهة النامية ، المبالغة ، توقف جندي يهودي ، طوبيل ، رفع يديه إلى أعلى بدا في اللهب بلا ملامح ، ظل أسود متحرك ، صراغ ، صرخة قصيرة ظل آخر يندفع في اتجاه ريح الجبل ، يبدو أنه فقد القدرة على التحقق من الاتجاه ، يندفع إلى الاتجاه المعاكس ، يسقط إلى الأمام وكأنه يرمى على شيء محاولا الامساك به ، تختلط الظلال ، الصرخات ، أدرك أن اقتحام الموقع يبدأ ،

هذه الظلال التي تتدخل تبدو في سباق النيران كمخلوقات قدمت من عالم غريب ، من يدرى ربما يهاجم الحسين الآن » ربما يقتصر الفقى مهران خيمة أرسل وصفها منذ أيام ، سيف بن ذى يزن ، خالد ، الصاعقة ، البرق ، البراق ، كلهم الآن في الجبل ، عناقة في هذه اللحظات فيه آخرون يعرفهم ، يتكلمون مثله ، اذا صمت لحظة قد يدرك الواحد منهم ما يجول بخاطره ، ربما اقترب منه ، احاطه بيده متسائلا « لماذا تبدو مهموما ؟ » ملامعهم يعرفها جيدا ، لا يوجد بينهم المان » فرنسي ، مجهول الجنسية ، سليمان الخلبي يتقدم الرجال » يتقدم القتال المتلامح حتى ذاعت شهرته في كافة وحدات القتال الخاصة ، أيدي ترتفع ، هل تتضوى الخنادر في اللهب المتزايد ؟ يعرف سليمان الخلبي أحوال الرجال أثناء العملية » اندفاع سعيد مهران – ويسالة الحسين ، وقدرة البراق الفائقة على التنقل السريع مطلقا نيرانه من مواضع عديدة » قدرة الفقى مهران على استعمال السلاح الأبيض ، دقة أدhem الشرقاوى المخيفة في اصابة المهدى ، اذ يتتحدثون عنه يقولون : « الطلقة منه تساوى رجلا .. » آه لو اندفع مناديا كل منهم ، سيقول انه لم يشعر أنه موثق الا في هذه الليلة ، انتبه إلى نفسه عندما استنشق رائحة بارود قوية جرحت صدره . سعل ، تابع الاقتحام مفتوح الفم ، لو عرف أى طريق سيسلكونه عند العودة ، فقط ييادلهم الكلام لحظات ثم يولي ، يعانق

---

الحسين ، يشد على يد سليمان الخلبي ، يقول له « كل شيء تماماً يا أفندي ». هل يتمركزون بالجبل ؟ هل يختبئون بإحدى مغاراته ؟ هل يعرفون بوجوده ؟ هل يحملون إليه مداداً ؟ هل في خطتهم الاتصال بهم » لورافقهم قليلاً ، عندما ينظرون إلى أفروله الصيفي « إلى تزقه . إلى اتساعه عليه إذ نحل جسمه ، سيعخل البرق معطفه ويتركه له » سيقدم الحسين إليه كل ما لديه سيقول إنه اعتاد برد الجبل وطعم حشائشه سيعحاول منع ترقيق دموع في عينيه حتى لا يضروا متأثرين .

لم يستسلم طويلاً لأفكاره ، عليه عمل يجب أن ينجذبه في ظروف مختلفة ، عند الفجر استمر جنود العدو يطلقون مدافع رشاشاتهم وقد أثار المهاون في كل اتجاه ، اضطر إلى الانبطاح أكثر من مرة « انفجر دانات المهاون فوق الصخور الحادة يدفع بالشظايا إلى مسافات بعيدة . زحف ، جرحت ركبته . لم يتوقف ، يعرف أن فرصته في استطلاع الموقع حتى أول ضوء ، مع بداية النهار سيعاولون حصار الجبل ، مع الضياء الأول رأى الخيام المحترقة واحصى عشر جثث ملقاة متبااعدة » بدا بعضها وكأنها أجساد آدمية لم تستيقظ بعد « ظهر جنديان يحملان نقاة عليها جندى مبتور الساق ، يصرخ .. آه .. آه .. ويدا صوته نحيلًا ، متسلحاً ، غريباً في بداية النهار الجبلية ، من خلف صخرة ظهر جندى آخر يستند بذراع

---

واحدة إلى أحدهم ، ثمة بقع سوداء فوق الأرض ، وأثار مادة كيماوية لاطفاء الحريق ، وصناديق ذخيرة فارغة . أدوات طعام متفرطة . حقائب طبية ميدانية مفتوحة ، شرائط ذخيرة لمدفع « جليل » الرشاش متاثرة لم تنس ، مع بداية تزايد الحركة في المدن البعيدة ، أبرق ريح الجبل إلى الوادي رسالة عاجلة ، اشتعلت البيران في مركز القيادة ، ثلاثة عشر قتيلاً ، ضابطان جريمان ، ثلاث طائرات من طراز « إيلويت » نقلوا عدداً من الجرحى ، تدمير الموقع ، مركزاً لتشوين الذخيرة ، مركز القيادة .

أدرك أنهم سيقلبون الدنيا بحثاً عنه ، بدا أمامه أكثر من تصرف . أما اختفائه في مكان شديد القرب من الواقع ، أو ابتعاده إلى مكان قصي يمكنه عارسة عمله منه ، بدا قربه أكثر عرضة للخطر وعائقاً بالنسبة لانصاله المباشر ، قرر الاتجاه إلى القطاع الجنوبي من عتقة . سيمجد حركته يومين ، ثم يعود أشد قرباً . قبل تحركه ألقى على الأسلال الشائكة المقصوصة . يرصنون الجثث إلى جوار بعضها ، تعلو فجأة صرخات حادة ثم تتقطع فجأة ، يظهر جنديان يحملان ضابطاً برتبة ملازم فوق نقالة . يرفع يديه وبكانه سيمسك بشيء ما ، الحركة سريعة مذعورة ، احتل ميعاد الأفطار اليومي الثابت ، في تلك اللحظة بدا كأنه يلمع معنى غير مرئي فوق الموقع كله . معنى أحسه من قبل . لكنه لم يجد التغيير المباشر عنه . انه أمام عدو ، من خلال حركتهم ، سحبهم ، متابعته لأحاديثهم اليومية ،

لطريقة أيديهم في التلويع والاشارة ، تناولهم الطعام ، ثم ما لحقهم من اضطراب « تدمير » هذا عدو . وهل يبدو المعنى جديدا ؟ ربما سخر منه أحدهم الشرقاوى لو سمع أفكاره . سيقول ريح الجبل أنه هاجم العدو من قبل الليل . في وضح النهار ، قضى خلف الخطوط أياما طويلة ، لكنه لم يعايش العدو بمثل هذا القرب ، لم يتابع ملامحه بمثل هذه الدقة ، لم يرصد نظام حياته ثم اختلاها مثلما فعل في عتاقه . خلال الهجوم لا تاتح الفرصة للرصد المتأن ، يجري كل شيء بسرعة البرق ، في أيامه الجبلية رأى تلك السجن الغربية عنه . أصنف إلى الألسنة الموجعة . منها جرى فلن يقف أحدهما أمام الآخر ويتركه يمضى ، سيحاول كل منها القضاء على الآخر هذه الخيام المتصوبة ، الأسلاك الشائكة ، الشراك الخداعية ، المعدات المطاطية ، المجمعة من كل عواصم الدنيا ، كل هذه الطلقات والفوهات والأحاديث المتباينة عبر أجهزة إتصالهم ، كل هذا ، الغرض منه ادخال قطعة حديد ساخنة إلى جسده . إلى جسد الحسين ، إلى أحسن الأول ، إلى سيف . إلى سليمان الحلبي الهدى ، الواثق ، الموحى ، إلى عبد الله القلعاوى ، ربما يعرف العدو بعضهم ويجد في أثرهم . عندما ول وجهه تجاه الجزء الجنوبي لازمه فكرة أن هؤلاء .. عدو .. حامت طائرات الهيلوكبتر كما توقع . عادة لا يغير موقعه إلا مع جيء قوات جديدة للعدو ، يغدون رجالهم في الجبل كل سبعة أيام ، لا يكاد يحفظ ملامح

القوة حتى يتم تغييرها . . أيام وصوفهم الأولى تتزايد طلقاتهم » يلتزم الحذر لأن أفراد القوة الجدد تتباهم رغبة في استطلاع ما يحيطهم ، يكثرون من الحركة في اليومين الأول والثانٍ ، ثم يتصرفون بتلقائية أكثر مع اليوم الثالث ، لم يدر إلى أي اتجاه مضى سليمان الخلبي والرجال ؟ لم يتحقق اتصالاً بهم ، ربما التقطتهم طائرة هيلوكبتر ، تناولوا انفاسهم الساخن في ميس القاعدة » بعد تقديم تقاريرهم عن المجوم يشيدون بالمعلومات التي يرسلها ريح الجبل » من خلالها عرفوا المداخل الخالية من الألغام إلى القاعدة . معرفتهم أماكن النوم والختام الخالية المتضوية بغرض الخداع ، من موقعه الجنوبي عمل في نفس اليوم ، وجه رسالة من ريح الجبل إلى الوادي ، أجرى العدو سلسلة من التفجيرات بفرض إنشاء موقع ملاحظة جديد . تم تدعيم القوة بسرعة من جنود المظلات . تقوم الهيلوكبتر المسلحية بدوريات منتظمة في السادسة إلا عشر دقائق . التاسعة . العاشرة والنصف . الرابعة مساء ، لم يطر الطيارون على ارتفاعات منخفضة ، حوالي الثامنة مساء سقط المطر فجأة ، بزيارة ، وبدا صوت أصطدامه بالصخور كأنه صدى لطلقات بعيدة ، انكمش الجبل ، وتحركت السحب بشاط في المساء ، حجبت النجوم الكثيفة ، ولا مس ببعضها قمة عناقة . اقتحم البرد عظامه في موجات متالية حتى لامس نخاعه . قطرات المطر كأنها تسقط في قلبه . بدأ الماء يتجمّع في خيوط تتخذ طريقها بين الصخور

حدثا خريرا ، غامت عيناه . بدأ في أذنيه وشيش منبعه داخل رأسه  
يمصحوب بصفير نحيل حاد متصل ، هل سيموت ؟ فكر في الجهاز .  
لحسن حظه انه يحفظ الشفرة ، ستروح معه ، عند منتصف الليل خف  
الوشيши . اصغى ، أهوا الوهم ؟ هل بدأت التخalias ؟ ماذا إذن ؟ في  
بداية الليل ظن الموت قريبا وما هو يعيش ، ويأمل في قضاء العديد من  
المهام غدا ، وبعد غد ، لا .. ليس هذا وها ، الجبل يردد الصدى الذى  
اخترق المطر ، ثمة نداء يطلقه جندي ما ، في البداية بدأ قصيرا موجزا ،  
وعندما تكرر ازداد طولا ، زحف فوق الصخور المبللة بالليل . ودلو  
اخترق عيناه السوداء . حتى ضوء النجوم الباهت تواري خلف الغيوم  
الثقال ، انتظر حتى يتكرر النداء مرة ثالثة ، ثم يحاول رصد اتجاهه ،  
سيثبت فوق أعلى الصخور إليه ، سيحدّر صاحب الصوت أولا ، من  
الصباح لأن العدو في الجبل ويرصد الخطوة ، والخمسة . ثم يزوده بما يطلبه  
من معلومات ، يتحدث ، يتكلم يقول الفاظا ويلقى ردًا ، ويتأمل ملامح  
مألوفة ، سيتمنى لو أن لديه ما يفيض ليعطيه ما قد يحتاج إليه لكن ..  
سيرى ابتسامة الود ، ثم العناق الذى يبدل البلل ، والبرد الكاوى ، متى  
يحيى النداء الثالث ؟ لماذا تأخر في رصد مصدر الصوت ؟ لماذا لم يتبعه بعد  
أول نداء ، يلوم نفسه ثم يصغي ، أين ، متى ، حتى الفجر لم يচفع إلى أي  
صوت ، ربما عشر زميله على من نادى عليه . قابل النهار بخيئة ، قرر

---

---

التجول في لحظات اشراق الشمس الضئيلة لتجفيف ثيابه ، خاصة أنها التصقت بجسده وفقدت رائحة القماش إلى أنفه ، ولاستطلاع مواضع غزو الحشائش التي يمكنه أكلها » سيف لزملائه فرحته عندما رأى قشرة صفراء مستقرة بين الصخور كالنذاء ، كالرسالة ، كالشفرة التي تطلب حلا ، قشرة ثمرة يوسفي . دار حوطا على أربع ، بالتأكيد ليست شركا خداعيا ، كلها في متناول بصره ، لا تتصل بشيء قريب أو بعيد ، لا ينبع اليوسفي بهذا الحجم إلا في شتاء مصر ، ومصر فقط ، أحد الرجال القاهما ، ربما أثناء تجواله ، خلال قيامه بهيمة ، التقاطها بسرعة ، ضمها إلى يديه . بسط راحتيه ، تأملها ، تشممها ، قضم قطعة منها ، بدأ الطعم الحامض غريبا في فمه ، دار بعينيه حوله ، بعد عشر خطوات قطعها منحنى الظهر لمح ثلاثة بنور ، لكنه لم ير أثرا بعد ذلك ولمسافة أكثر من كيلو متر في اتجاه الوادي ، ولل طريق المدينة ، في هذا اليوم فاجأته الوحشة مع مجيء الشفق إلى السهام الصافية المغسلة بالطار » سيقول إنك احتمل ، سيدور الحديث بين زملائه داخل مقهى بين ضجيج لاعبي الورق . مرور السيارات في الطريق . دوران الملاعق في أ��واب الشاي ، قرفة النراجيل ، سيتابع حركة الناس في الطرق ، إيقاع الحياة في الأماكن الآمنة . وحركة الحياة التي لا تهددها أخطار ، ولا تنوء فوقها

---

---

وحشة جبلية » سيصفع داثا إلى الراديو في نفس الميعاد ، ربما جاء النداء بعد حين ، بعد سنة ، بعد عشر سنوات ، بعد أربعين عاما .

### من الوادي إلى ريح الجبل ...

وعندئذ يفارق أمن المدن . يرحل إلى مكان يطلب منه التواجد فيه .  
سيقول إنه قبل صعوده عتاقه لو عرضوا عليه قضاء ليلة واحدة مقابل ألف جنيه لرفض » وهو هو الأيام تتجاوز المائة ، هل سيفتح نافذة بيته يوما وينتطلع إلى عتاقة البالى أبدا . عتاقة الراسى » ويسأله نفسه » هل قضيت كل هذه الأيام الشتوية فوقه ، عندما يسألونه عن أشد ما أوجعه ، سيقول » حفوت النداء خلال الأيام الأخيرة » لكنه لن يسترسل في سرد أوجاعه ، سيغير الحديث . سيعث الضاحك إلى قلوبهم ، تماما كما حدث أثناء التدريب . سيقول إذا استمع إلى نكتة أو حادته طريقة يدخلها ، يجهد نفسه في تذكر تفاصيلها ، يمحكيها لزملائه في المعسكر ، سيقول إن أثناء استطلاعه للقطاع الجنوبي من عتاقة ، توقف فجأة ، توارى في شق ضيق بالجبل ، ثم عاود النظر ، أمامه » بالتجاه الوادى ، على بعد حوالي نصف كيلومتر » فوق الصخور النارية المدببة الحادة استقرت عربة محزررة » تقفت بوجهتها ، كيف جاءت إلى هنا ؟ لا يمكن للجزير صعود هذا المنحدر الوعر . ولا يمكن أن يتحرك فوق هذه التضاريس الوعرة ؟ ماذا .. هل ينصبون له كمينا ؟ أهله عربة هيكلية جاءوا بها للتضليل .

---

ضيق عينيه . لم يختفى ، فعلاً عربة مجترزة ، تقف هامدة ، خالية من الحركة ، لا يوجد جندي واحد حولها أو داخلها ، هل أنزلتها إحدى طائرات الهيلوكبتر . متى . أدركته حيرة . بدا الجبل كله لغزاً مستعصياً على الاستطلاع أو الاكتشاف يفاجئه كل لحظة بما هو غير متوقع . هذا الصمت الذي تغرق فيه العربية يحيره . ربما يكمنون بالقرب منها ، ربما تحقق خلوها ، عندئذ يمضي إليها ، يفتحها ، ربما عثر على شيء ، تسقط المارتفاع قفزاً ، غابت العربية لحظات عن عينيه ، بدت الظلال ثقيلة لها قوام ، تناهى بالعالم عنه . كأنه أفلت من جاذبية الأرض أو سبع في فراغ ، عندما أطل من بين الصخور ليرصد العربية كاد يضحك .. ما ظنه العربية مدرعة ليس إلا صخرة تحتها الطبيعة بعنایة ، سوت أطرافها حتى لتبدو من بعيد كمجترزة ، قطعة من الصخر الرمادي المصقول يختلف صخره عن طبيعة المكان ..

سيقول إنها ليست المرة الأولى ، فأثناء تطلعه من خلال منظاره المقرب ، رصد بقعة سوداء ضخمة في الوادي ، بقعة ثابتة . مستديرة الشكل ، حارق تحديدها وبعد لحظات أكتشف أنها نقطة سوداء التصقت بزجاج المنظار المستدير ، خفق قلبه . هل بدا بصره يرصد ما هو غير موجود . إن دواراً يياقه على فترات متقطعة . لكنه لا يبالى . يضيع بعض الحشائش الجبلية الطيرية التي تفرز عصيراً غليظ القوام كالصمغ ، تدب في

---

---

عروفة حرارة ، تمتليء معدتها بالحجينة الخضراء الثقيلة ، ربما احتاج وقتاً حتى يستعيد قدرتها على هضم الأرغفة ، والخضار المطبوخ ، واللحم ، والحلوي ..

في هذه الأمسية الآتية التي لا يدرك متى تجيء » سيسأله سعيد مهران  
مداعياً :

والنساء .. وماذا عن النساء ؟

لن يدركه خجل ، ! لكنه سيقول إنه لم يفكر في امرأة معينة بالذات ، ولم يستعد حواراً جرى ذات يوم ، ولم توجعه ذكري أمسية ناعمة . عندما يتحول كيان الإنسان كله إلى توقع وانتظار ، عندما يعيش الجسد حالة ترقب دائمة ، لا يدرك متى سيصطدم بالعدو؟ لا يدرك إلى أى حد سيقاوم البرد والمطر والجوع ، فلا مجال للروىء الناعمة ، سيصمت قليلاً . يعرف أنهم يصدقونه ، كلهم قضوا فترات طويلة خلف الخطوط ، الحسين أمضى ثلاثة شهور بصحبة البراق يستطلع ما حوله شرم الشيخ ، سليمان الحلبي قاد دورية قتال هاجمت محطة رادار غرب رأس سدر ، ثم اختفوا شهراً حتى عادوا إلى الوحدة . لكنه سيكون صريحاً معهم . سيقول .. « هل تذكرون عندما خرجنا إلى القناطير الخيرية معاً ، تذكرون أنني تغييت عنكم وقتاً .. » . في هذا اليوم أثناء تلده تحت شجيرة خضراء تلقى حورها ظلاً » رصد فتاة نحيلة ، متوسطة الطول ، شعرها

---

ناعم كليل أحكم إطفاء كل ذرة ضوء فيه . وجهها محمد الملامح ، متعددة العينين ، جمالها برى ، صريح ، اقتحمه اقتحاما . لم يذر أين رآها ؟ أتشبه نجمة سينمائية أجنبية رآها في صباحه ؟ أتشبه خيالا حلم به ؟ لا يدرى لكنه وجد نفسه يقوم ، واتته جرأة للحظة الاقتحام التي تناهى فيها كل الاهتمامات والأفكار التي لا صلة لها باللحظة ، غير أن مشاعره ارتجفت وقتئذ عندما تتبعها ، طريقة مشيها أتعجبه . كأنها تخطو على أطراف أصابعها ، يدها تعثّت بعقد يسيط تدلّى حول عنقها الذي بدأ مساحة كبيرة منه ، زرار القميص الأعلى تركته مفتوحا بأهمل ، أحسّت أن هناك من يتبعها ، رمقتة بعينين سوداويتين كعيون الغجر ، وخيل إليه أن شفتتها المحددتين صرحتا لا بتسامة بالظهور ، لم تفارقه لحظة الاقتحام . تحدثت إلى بعض صديقاتها ، وقف يرقبها من بعيد ، استنتج أنها جاءت إلى الحدائق في رحلة جماعية . التفت ضاحكة ، غاصت داخله بعنف ، مشت بمفردها بعيدا عن رفيقاتها ، اقتفي خطواتها ، تحت شجيرة قريبة من النيل قعدت فجأة ، استندت بظهرها إلى جذع الشجرة ، واجه الجمال البري المتألق والحمراة التي تباع من ملامح الوجه كما يتباع الشفق من السماء البعيدة ، سألاها أهي من جامعة القاهرة ؟ قالت باليجاز كشفة أنها من الاسكندرية ، لا يدرى لماذا خفق قلبه عندما قالت ، الاسكندرية ، ربما لأنه يفكر في المدينة كهدف للراحة ، كثيرا ما فكر في الذهاب إليها مع

زملائه ليلة واحدة . يرى البحر المتبدلة ، البحر المختلف عن الخليج المحدود بشاطئين يقعان في نطاق النظر » قالت إن اسمها « أروى » ، كأنه يخترق نطاق الدفاعات الأولى ، الجملة تل الجملة ، وتحت لحظة قريبة يمشيان في بريق هاديء ، يمسك يدها ، ترمي بعينيها الواسعتين » فجأة قامت كالبلغة ، لوحظ بيدها ، توقفت ، لم يمض خلفها ، في اليوم الأول بدا ما حدث عبثاً صبيانياً لا يليق به . وفكراً أنه أخطأ ، ولن يقص ما حدث لانسان ، لكن في الأيام التالية فوجيء بطيفها يتمنى أثره . كلما استدعاها إلى ذهنه بدت ملاععها الصافية كسماء صالحة للطيران وأوضحة ، يتحقق قلبه ، يدركه حنين غامض إلى لقاء رهيف . وهس ناعم . وأشواق متباينة ، وانتظار حلو ، ولقاء حار ، ملامحها تمثل كل ما تعدد به الحياة الآمنة . في الجبل جاءت إليه من كل اتجاه » في لحظة معينة إتكأت على كل الصخور الوعرة ، المجدبة ، الفاحلة ، زرعتها بابتسامات لا تحصى ، ورقة لا تبين ، وكاد يسمع صوتها يهمن ، أروى ، لو خططا خطوات لـ .. لو امتد الحديث ، تسأله عنها تفعله الآن ، ورأها تجلس في حجرة ، أو تمشي في طريق ، أو تتأمل البحر . عندما ألحت عليه في هذا القطاع الجنوبي خيل إليه أنه تجاوز حياته العادية بمراحل ، وأن ما جرى جرى ، وما يفكر فيه حدث في تاريخ مضى ولا يبعث إليه إلا الأسى .. حاول غضن البصر عن ملامحها وكأنه يغلق أذنه عن نداء ناعم يستهدف التفاتاته إلى

---

الخلف ، وهلاكه في الوديان ، في الليل المثقل بالنجوم بدا القمر ريقا يشف عما وراءه ، فوق حافة الجبل ، على شاشة السماء رصد ثلاثة حيوانات قدر أنها ذئاب ، تمشي في طابور . لهذا إذن مصدر العواء الذي يخترق أحشاء الجبل ؟ . انتبه إلى همسات النجوم الخفية ، تأكد أن للنجوم لغة ، وعيوننا ترقبه من خلالها ، رصد نقطا مضيئة تتحرك في السماء ، بعضها يظهر كل ليلة في ميعاد ثابت ، أقمار صناعية ، من ميعاد مرورها يمكنه تقدير الوقت بدون النظر إلى ساعته ، لا يحتاج إلى أي تنبية ليوقف ، يكفي أغماض عينيه وقرار منه بأن يصسو بعد نصف ساعة ، لا يتتجاوز الوقت الذي حددته لنومه بدقة واحدة منها هاجه التعب وتزايدت وحدته ، إذا صدر صوت لا يتمي إلى الجبل يفتح عينيه فورا . لو تغير أيقاع المطر ، لو تحول إلى سيل فورا ، بما كان هناك حواس جديدة اكتسبها خلال هذه الأيام المتعاقبة ، المتالية في أصوات لا يوقفه الجبل حول تجعله ينحني فجأة وبعد لحظات تهدى طائرة هيلوكيتر ، يدرك اقترابها قبل أن يسمع أي مقدمات لدوران عركها أو مراوحها ، هكذا قرر فجأة الانتقال من المنطقة الجنوبية للجبل إلى القطاع الذي يتواجد فيه العدو .

سيسألونه . هل فوجيء بانسحاب العدو . سيقول إنه فوجيء إلى حد ما ، وبالنسبة لما أبدوه من استعدادات . وما أقاموه من منشآت قدر

---

فترة طويلة لبقائهم ، سيقول ان طائرات الميج اغارت ثلاث مرات على موقع العدو قبل انسحابه . وإن صوت اطلاق الفيكرز جسد له شجاعة الطيارين الذين هبطوا حتى كادت بطون الطائرات تختب بالصخور ، طاردوا افراد العدو ، في البداية لاحظ انسحابهم من نقاط انشاؤها إلى مواقعهم الرئيسية ، ثم جاءت طائرات الميلو كبر ، نقلت بعضهم ، لم تعد بقوة بديلة ، رصد فرح الجنود واحدهم يرقص رافعا يديه . قابعهم بدقة ، ربما اخفوا بعض المعدات ، ربما عدموا إلى تشوش ذخيرة أو سلاح في خابيء سريّة احتياطاً لعودتهم ، ربما تركوا آلات دقيقة تختص بالحركات ، وتلتقط الصور ، بعد خلو الجبل منهم مشى حذرا ، المدقات ملغومة ، من يدرى ما يحفل به الجبل ؟ عاد يرقب مدينة السويس ، انتظر النداء ليعرف التعليمات التالية ، حتى يجيء قدر إلا يتحرك إلا وثباً كعادته ، ولا يعش إلا حذرا ، ولا يتطلع إلى السماء إلا متخفيًا ، استمر ينأى عن المدقات المعروفة بسهولة المشي فيها ، من يدرى ما يسطنه الجبل ، قبيل الغروب تقدم باتجاه الموقع المعادي ، تجنب وطء الموضع الرخوة ، مشى فوق الصخور الصلدة ، لم يعده حاجة إلى لف حذائه بفرو الحروف حتى لا يدع أثراً للقدميه ، لكن الحذر لم يفارقه ، تأمل الموقع الرئيسي الذي يخطو فوقه لأول مرة ، المكان الذي طالما مسحه بعينيه ، دار حوله ، هكذا رأى جنود العدو الأماكن التي كمن فيها ، تحرك خلاماً ، أدرك إلى أى حد

---

كان معرضاً لأبصارهم ! ابتسם ، ألم ينجز مهمته ؟ لكن ما للنداء تأخر ! في ضوء الغروب راح يتأمل البقايا ، زجاجات مياه فارغة ملائقة بلاستيك ، علب بيرة مغلقة كتب عليها بالألمانية ، علب مربى ، علب سجق ، هكذا يبدو من الرسم الموضح ، تزايد انحناؤه ، حتى جلس القرفصاء ، دار بعينيه حول علب الطعام المحفوظ ، بقايا معجون أسنان ، هل يُمْدِيده ، يلتقط أحدي العلب ، يتذوق ما لم يقرب فمه منذ أيام طويلة ؟ أى جوع باعنته أمام علبة سردين مستطيلة ، أنه يحب السردين لكن أصابعه ظلت محبوكة بخصره ، ربما انفجر الملائكة كلها ، على مهل قام واقفا ، تلفت حوله ، هل يرقبه أحد ؟ علب ملقاءه عمدا ، متاثرة في المكان كلها ، بعضها ليوهم العدو ريح الجبل وزملاءه بالمستوى المرتفع لنوعية طعامه ، بعضها شراك خداعية ، ترددت عيناه كثيرا ، اقدمت نظراته ثم احجمت ، طعام العدو ، تلفت حوله ، عاد يسلك الممر الضيق ، تأمل نزول الليل وفي اللحظات غزاه السكون الموحش ، سينام حذراً ، ولن يستسلم لبرد الجبل ، أصوات متاثرة تبعت من مدينة السويس ، وكلما تزايد الليل كلما اختفت ملامح البيوت وبدت الأصوات الباهنة وكانتها تسبح في بحر من العتمة ، في الصباح يتتابه نشاط ، يضي إلى كافة القطاعات ، يقفز فوق الصخور ، يتوارى ، سيقول إنه خلال تلك الأيام واجه صعوبة في المشي بقامته مفرودة ، يبلغ أقصى سرعته إذ

---

---

يندفع منحنيا ، تكاد يداه أن تلامسا الأرض الصخرية » تردد أمام بعض الكهوف العميقه لكن من يدرى لماذا يأتى به الجبل ؟

سيقول إنه عندما رصد الجندي لم يصدق عينيه في البداية ، فوق أعلى الذرى ، حيث يبدو الوادي إلى اليمين كوعاء ضخم من الصخر والتتواءت ، وإلى الخلف « بعيدا ، يمتد خليج السويس نائياً تسبح فوقه سفن » تبدو صغيرة ثابتة » لا تتحرك ، لكنه لو عاود النظر بعد ساعة سيجدها اختفت ، في هذه النقطة بالذات رأه » رصد ملابسه وملامحه وطريقة مشيه ، وظلله الذي تحرك على الصخور الرمادية ملاصقا له ، خفق قلبه ، وثبت فوق الصخور ، قرر أن يواجهه من الأمام ، ربما لو صاح عليه من بعيد ينبطح الجندي ويصوب سلاحه إليه ، عندما يرى زميلا له يبدو أمامه فجأة سيدركه فرح إذ يلتقي بأحد رفقاء هنا في هذا الجبل ، سيحاول تخفيف المفاجأة إلى أقصى حد . بعد بريق اللقاء يتعرفان » سيبلغه ما يود نقله إلى الوادي ، إلى سليمان الحلبي وبقية الأحباب والرجال . سيقدم كل ما يطلبه ، أي معاونة ممكنة . قفز من فوق صخر مديبة حادة إلى المدق مباشرة ، دار حولها ، أصبح في مواجهته ، لم يفاجأ عندما شهر الجندي مدفعته » لكنه فوجيء باللامع ، يعرف الرجل ، لكن الذاكرة لم تسفعه فورا ، ابتسم بود ، بدا انفعاله واضحا ..

أنا ريح الجبل ..

---

---

تراجع الجندي إلى الخلف ، أدرك ريح الجبل أى مفاجأة مزعجة يمثلها بالنسبة لهذا المقاتل الذى يقوم بهمة ما فى الجبل . رأى نفسه بعینى الجندي ، وقفته على أطراف أصابع قدميه ، انحنائه . لحيته الكثيفة ، عيناه الغائرتان ، كما أنه لم يدر أى لون أصبحت بشرته بعد أكله الحشائش الجبلية طوال هذه المدة كلها ..

لا تؤاخذنى .. امضيت حتى الآن مائة يوم وبسبعة أيام ..

هز الجندي رأسه ، ما زال مباغتا .

يمكنت أن أقدم إليك كل مساعدة أقدر عليها .. إننى أعرف الجبل كما أعرف كفى ..

خطا تجاه الجندي ، فوجيء بزعة ..

قف مكانك .

فوجيء بالصرخة ، فوجيء بيلقاع الصوت الأدمى في أذنيه . فوجيء بأنه يعرف الجندي ، ففز الاسم فجأة إلى ذهنه كتمهيد نيراني ..

أنت صابر .. الباشجاويش .. من استطلاع الدفاع الجوى ..

هز الجندي رأسه ..

لا ....

---

---

اقرب خطوتين ، لا يهمه اطلاق النيران عليه ، صوته يخرج  
مضطربا ، أنه مفاجأ بارتفاع الصوت الأدمع ، لا يسأل بجهاء  
الباشجاويش ، سيزول هذا حتى وبعد لحظات يتبدلان الود ، ويحكي كل  
منها عن حكايته تماما كالمحندين الجدد في تعارفهم الأول إلى بعضهم .  
يتراجع الباشجاويش بقدر ما يتقدم من خطوات ..

إنني أعرفك .. جئت إلينا في المركز للتدريب على وسائل الاستطلاع  
البصرية ..

بدأ الجندي متربدا ، توقف عن التراجع ، ها هي اللحظات المنشودة  
تدنو . لكنه فوجيء مرة أخرى بصياغ الرجل ..

ابق مكانك ..

توقف ربيع الجبل .

اعرف أن موقفك صحيح ، تصرفك سليم تماما .. لكن يجب أن  
تسمعني .. أنا أنكلم لأول مرة منذ مائة يوم وسبعة .. حتى نطمئن .. الم  
تفض في المركز أربعة أيام ..

قال الباشجاويش وهو يتراجع خطوة أخرى ..

صف لي المركز ..

---

---

سيقول إنه ولننظره بعيداً لمدة لحظات ، ثم بدأ يستعيد كل التفاصيل ، مدخل الباب ، كشك الحراسة ، المزلقان الخشبي ، مكتب قائد سرية الحراسة إلى اليمين ، وصف كل ما يمكن أن يراه المار من أمام المركز ، ثم ذكر اسم الضابط الذي أشرف على تدريب الجاويش ، سكت لحظة ، نظر إليه الباشجاويش ، يغوص بأسنانه في شفتيه ، هبت رياح باردة ، خفيفة لكنها حادة ، بحركة لا أرادية غاصت عنق ريح الجبل بين كتفيه ، هل يقف أمامه حقيقة رجل يعرفه ، وأين ؟ في دروب عناقة ، للحظة خيل إليه أن ما رأه وهم . لكنه تحدث إليه ، يراه . لو مد يده سليمسه . لأول مرة يصفعى إلى صوت آدمي لا يأتيه عبر الراديو ، أو يصله مع هبات الرياح همساً من موقع العدو ..

.. غير صحيح .. أنا لا أعرف ما قلت .. ولا أعرفك ..

سيقول للحسين أنه لم يدر سبباً لإنكار الباشجاويش بعد كل ما ذكره . ربما أراد الاستزادة بذكر الأدلة . ظن أنه عبر حاجز الخدر إلى الباشجاويش تأكد أنه هو صابر بعينه .

اسم غير صحيح .. ليس اسم صابر ..

توقف ريح الجبل مكانه ، لا يدرى لماذا شعر بخيئة فجأة ، ربما لادراته أن الحاجز لن يزول ، منها فعل فلن يتحدث إليه الباشجاويش ،

---

ربما يلتزم التعليمات بعدم الكشف عن شخصيته خلال مهمته فوق الجبل ، ربما يخشي شيئاً ما .. لكن .. هل يدعه يفلت هكذا ؟ الإنسان الوحيد الذي إلتفى به ..

يجب أن تسمعني ..

يتراجع الباشجاويش .

لا أعرفك .. ابق مكانك ..

يزعق ريح الجبل .

باشجاويش صابر ..

يصبح الباشجاويش والمسافة تتزايد بينها ..

ليس اسمى صابر .. قف مكانك ..

يوشك أن يتعرّث أثناء ابتعاده ، يزعق ريح الجبل ..

انتبه خلفك صخرة ..

يتوقف الباشجاويش شاكا ، يلتفت بسرعة ، على مهل يستدير ، يختفي عند المنحني ، يعلو ريح الجبل الصخور ، يتخلل الشقوق ، المدقّات الصغيرة ، يشرف على الوادي كلّه ، والخليج ، يلمح

---

---

الباشجاوش ، مبتعدا هناك ، أدركه دوار ، وغصة زمت حلقة ، هل  
يدعه يضى هكذا ..

أنا ريح الجبل .. قل لهم انتي هنا .. انتظر النداء ..

التفت الباشجاوش إلى أعلى .. بدأ كأنه قال شيئا ..

ماذا تقول ??

لم يجبه ، استمر مبتعدا ، س يقول لسليمان الخلبي أن هذا اوجعه ،  
ما آلمه أكثر انه فتح الراديو في الميعاد ، تحدث مذيع ، تحدثت مذيعة ..

أصدقائي .. صديقان ..

يؤكـد صوت ناعم أن ساعات كولانـت العصرية أدق آلات ضبط  
الوقت ..

يسجل ضيف أحد البرامج ، يقول .. إنها لبادرة طيبة ..  
في محطة أخرى ينصح صوت غليظ المواطنين باليقظة والتزام  
المذر ..

دار بعينيه في الوادي ، اختفى الباشجاوش ، عند العصر والسكن  
الموحش يهدده بفزوـة ، رأـهم عند خط السماء ، حيث تلتقي شواهد  
الصخور المطلة على الوادي بالفراغ اللاتهائي ، قفز فوق صخور حادة

---

---

يصعب الشيء فوقها ، تأكيد أنه رأهم ، أربعة جنود وضابط . مروا أمام صخرة معلقة ، خيل إليه أن الباشجوش بينهم ، يبحثون عنه ، قرر انحراف أقصر المدقات إليهم . علت به الصخور ثم انخفضت ، عندما نظر إلى نفس الموضع لم يرهم ، جاءوا إليه ، أنهم على بعد خطوات منه ، سيادلوه الحديث حتى لا ينسى الكلام ، ربما رأى فيهم أحدهم الشرقاوى ، الفتى مهران ، البراق . لكن أين مضوا ، إلى أين ، الليل المقلب الذي لن تطلع شمسه أبداً ، تلتفت حوله ، حتى سيجيئون ، سيقدمون منه سليمان الخلبي ، ضابطهم الشاب ، سيقول ..

«أدوا التحية لمن قضى فوق الجبل مائة يوم وازدادوا سبعة ..» .

سيقدمون إليه ماكينة حلاقة . ومعطفاً ، وصابونا ، لكنه سباب ،  
لابد أن يواجه كل زملائه ، سيرى انطباعهم الأول ، سيمجهد نفسه  
ألا يبكي ، إذا لم يعرفوه ، سيفقى في أنتظارهم ، ربما جاءوا إليه الآن ،  
لا يدرى متى سيجيئون ؟ ولا بأى أرض يموت ؟

«أدو التحية لمن قضى فوق الجبل مائة عام وازدادوا سبعة ..» .

في الليل سيحاول تفسير لغة النجوم . ربما نضمنت همساتها نداء  
خفياً ، أنه يتلفت حوله ، السكون الموحش قادم ، حديث الخطى ،  
يقوم ، يجبو على أربع فوق صخرة مدببة ، يقف عند أعلى نقطة فوق

---

---

---

الجبل ، يحيط فمه بيديه . يزعق من فص الحنجرة مناديا :

« يا حسين ..

يا سليمان يا حلبي ..

يا أدهم ..

يا براق ..

يا سيف بن ذي يزن ..

يا صاعقة ..

يا .. كل الأحباب ..

أنا ريح الجبل ..

أنا ريح الجبل .. هل تسمعني ؟؟

يونيو ١٩٧٦

الرئاسي

العد التنازلي

〈 ٣٦٥ 〉

---

«اليوم الثالث عشر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ الساعة ١٥٣٠ ..»

يفضي الطريق الى مركز السماء ، في المقعد ذاته يجلس الرفاعي عاديا  
بديه أمام صدره » يتتابع فراغ الصحراء وتنوع صفرة الرمال وبروز  
الصخور » يصفعى الى صوت المحرك الريتيب الذى استقر منذ فترة على  
ايقاع لا يتغير ، يزداد ابعادا عن البيوت والزحام والضجيج » آخر من  
رأهم قبل التوغل في الصحراء مجموعة من الفلاحين أمام دكان بقالة صغير  
يقع عند نهاية آخر قرى مركز الصف المطلة على الصحراء .

---

قبل اقترابهم من القرية هدأ عبد المؤمن من سرعته . يعرف ما سيقوله الرفاعي لو اخترق الشارع الرئيسي بنفس الاندفاع ، أثناء ركوبه الجيب التي تحمل أرقاما عسكرية يقف عند كافة نقاط الشرطة العسكرية . في المرة الأولى أثناء عودتهم الليلية من صحراء دهشور بدا متعباً . عند آخر نطاق الفرقة لم يهدى عبد المؤمن من سرعته . ان العربة ذات أربعة أبواب ولا يركبها الا القادة ، اعتدل يومها قال في صوت فاتر « هادي » قف » . تقدم جندي الشرطة ، قدم اليه بطاقته « تمام يا أفندي » ، أصغى عبد المؤمن الى صوت احتكاك الحذاء بالارض الصلبة المغطاة بندرات الرمال عند أداء الجندي للتحية ، انطلق عبر الطريق الذي يدور حوله هضبة الاهرام ، ودلويني الرفاعي ذلك الصمت ، استعاد بعض أحاديثه مع الجنود أثناء انتظاره في الخلاء المعبأ بالنجوم وضباب بعيد في أعمق الكون ، بعذر بدأ القيادة عند ما دخل في شارع المرم ، في تلك الساعات المتأخرة يملي الطريق بالسخارى والحوادث وأعمدة النور المنارة والأضواء الملونة والعربات التي تحمل أرقام الجمارك وهيأكل المبانى الخرسانية » رائحة المزارع التي تخلل البيوت . لا يدرك عند أي نقطة من الطريق فجأة الصوت المفاجيء ذو المستوى الواحد ، « لابد أن تقف عندما يصبح الوقوف واجباً » بوغت وقال « تمام يا أفندي » ، عاد الصمت ، في ميدان الدقى جاءه نفس الصوت « لو أنه لم يوقفك لطلبت مجازاته » ، أو ما برأسه

---

---

والصوت المهدىء يرسل فيه احساسا بالذنب وخشية لم يعهدنا من قبل مع جميع من عمل معهم .

إن الرفاعى الآن يتذكر هؤلاء الفلاحين « عند خروجه من المدينة يستعيد آخر من رأه من يسعون عبر الطرقات أو يخطرون فوق الارصفة ، الملائم المرهقة ، الاستسلام الغريب ، الضحكة الضائعة » والناظرة الوطئى من عينى بجهول ، وشظايا عبارات متطايرة ، بيوت مسكونة بالأسرار والماضى « ذاتها يخرج من المدينة عبر ثلات نقاط ، طريق السويس المزدحم بالثكنات حتى الكيلو ٥ ، أوشكى حركة العمران ان تصل الى هناك » ثم طريق الاسماعيلية المحاذى لطار القاهرة » ثم هذا الطريق المؤدى الى بطن الصحراء الشرقية ، ان آخر الاشياء والمرئيات تمر به عند الخروج الى القتال ، آخر من تحدث اليه ، ملائم نادية ، آخر عبارات تبادلها مع الضباط والجنود الذين لم يخرجوا معه » يذكر الآن آخر اشتباك في صيف عام ١٩٧٠ ، تند الصحراء الآن صامتة ، بحر تجمد منذ عصور سحيقة ، لكن هذه المسافات الشاسعة حبل بحركة خفية » اليوم يختلف الأمر عن خروجهم في المرات السابقة ، انهم الآن جزء من كل « لا يلتفت الى من معه لكنه يدرك الانطباعات ، حدة العقيد علاء الذى توحى بأنه سيشترك فورا ، جلوسه بميدان الامام » وضع الملائم قبل تسديد الضربة ، أبو الفضل الصعيدي وملائمه الذى تعكس احساسا

---

---

---

بالانتظار ، مصطفى المتأهب دائمًا لتلقى الامر ، أبو الحسن وشبح ابتسامة دائمة قد تظهر في أي لحظة ، ان الرفاعي يرى تلك الروابط الخفية ، تشد كلامهم الى الآخر ، قبل العبور لملأقة الحرب يصبح كل منهم أكثر احساساً بالآخر . أي كلمة تقال تلقى موضعها وثيراً في آذانهم . أي لمحه ساخرة تفجر الضحك من أعماقهم . اثناء الانطلاق تتعاقب أذرع غير ممتدة . وتماس خطوط البصر المستقيمة ، بعد قليل سيواجه كل منهم الموت ، والموت يحوم فوق الجماعة ثم ينقض فوق الانسان الفرد ، الشظية لا يوقفها إلا جسم واحد ، يصبح الانسان شديد الوحدة في مواجهة الموت ، ان تجاورهم ، ومد جسور العواطف واستعادة الذكريات ، كل ذلك يمحضنهم ضد اللحظة المؤجلة .

يسأعل المساعد حسن ..

— لماذا قال البيان إنهم بدأوا بالعدوان ؟

يجيب العقيد علاء ..

إنها اعتبارات دولية ..

يقول المساعد حسن ..

أتمنى لو قلنا إننا بدأنا الهجوم ..

يضم العقائد علاء أصابع يده » يهزها من أعلى إلى أسفل » يضيق الرفاعي عينيه بعد اصبعاته إلى هذا الحوار القصير » ينظر إلى تل رمل مرتفع عند خط السماء » يدور ايربال ضخم لحظة رادار ، يتلوى الطريق بحلة » يتبع الاسفلت منحنيات الصحراء » يهدى عبد المؤمن » ينظرون إلى سيارات النقل الضخمة ، صناديق الذخيرة الرمادية » فذائف هاون عيار ١٦٠ مللي ، كان الطيران الإسرائيلي يحيى إلى موقع هذه المدفع بمجرد حفر خنادق الجنود حتى قبل أن الطائرات بها جهاز خاص لشم رائحة الهاون ١٦٠ مللي ، وجهاز آخر لشم رائحة العمال الصاعيدة ببناء موقع الصواريخ ، لا يذكر من قال « ربما كان ذلك تطبيقا عمليا لما يسمى بالاستشعار عن بعد » كانت الطائرات تحيى من الأعلى كأنها أفلعت من مطارات خفية في أعماق الفضاء ، يبرق معدتها المواجه للشمس كنصل الموسى ، تنزلق ، يختلط الاسمنت بالدماء وبقايا الطعام والملابس التي تثير الشفقة بعد انتهاء الغارة ، خرج ضابط من موقع مدمر ، ضرب بالألف رطل ، صرخ .. لماذا .. لماذا .. ؟؟ عيناه داميتان مشدودتان إلى السماء التي بدت بعيدة » نائية ، لا تحبيب ، نزل الرفاعي من السيارة ، لم يكن يصحبه إلا مصطفى » خاضا في الحطام ، وبقايا طعام » وفردة حداء قديم ، وعلب طعم محفوظة فارغة » وأوراق محترقة » وبقايا تليفون ميدان » صاح صوت من بعيد ، احذروا .. قنابل زمية » ، زعم

---

---

الرفاعى ، « تعالوا .. إنها قنابل كاذبة » هز كتفى الضابط ، لم يتوقف عن التساؤل ، « لماذا .. لماذا .. جاء جندي قصير القامة حذرا ، اترب عامل صعیدى ، ظهر ثلاثة جنود خن أحهم من الصاعقة ، انحنا حتى تمكنوا من رحجزة كتلة الاسمنت ، حادت عينا مصطفى عن النصف الأدمى المقطوع الصلة بنصفه الأسفل .

كأن ما جرى يمت الى بشر آخرين ، لكم تبدو تلك الايام نائية ، كانت الجبهة وقتئذ عارية ، يمحيء الطيران في مواعيد لا تتغير امعاناً في التحدى ، يختار الطيارون أهدافهم . يضربون عربة ويتركون الأخرى ، يتصفون موقعاً ويتركون الآخر ، بينما تبدو انفجارات قذائف المدفعية المضادة للطائرات كبقايا قطن رخوة في الفراغ .

الآن انتهى عرى الجبهة ، نبتت الصواريخ من كل الانواع ، مصورة الى كل الاتجاهات ، قال ذلك اللواء ضاحكاً منذ ثلاث سنوات « في المساء لم يرصد العدو أي شيء وفي الصباح ركبهم الذعر والغضب ، لقد طرحت الأرض كافة أنواع الصواريخ » ، يمضى طابور النقل ، يأخذى الميكروبياس متتصف القول « يزيد عبد المؤمن السرعة حتى يتجاوزه . فوق الصناديق بطاطين ومعاطف ، يجلس عدد من الجنود ، يحملون اسلحة أوتوماتيكية ، احدهم يأكل ، يشيرون الى راكبي الميكروبياس الآبيس ذى الأرقام

---

---

المدنية ، يتحنى عبد المؤمن قليلا فوق عجلة القيادة ليتوسخ من دائرة ابصاره ، كلا الجنانين لا يدرى الى اين يتوجه الآخر ؟ ، لكن التحرك فوق هذا الطريق ، في مثل هذا التوقيت ، يعني ان كلاما منهم يتوجه الى المعركة التي بدأت في الثانية ، لم تسمع قدائف بعد ، لكن تبدو الحركة كالدماء التي تبرع في الشريان لتغذى قلبا يتزلف ، في المقدمة عربة نقل تجر مدفون هاوتنر مكشوف الفوهه ، عربة أخرى تجر مدفنا مضادا للطائرات . يرتدى طاقمه الخوذات ، يحتل موقعه فوق المقاعد الصغيرة المثبتة الى القاعدة الدائيرية ، تتأى صيحات الجنود ، يتحنى الطريق ثم يستقيم . تبتعد الملامح والخوذات وتحية المتوجهين الى القتال . يوشك الرفاعى أن يبدى ابتسامة ، منذ فترة بعيدة لم يخرج مع الرجال إلى الضفة الأخرى .

يدرك الآن اثناء الصمت الأدمى الذى يغطى على ازيز المحرك ان الكل يسبح فى شعور الرفقه ، يهدى عبد المؤمن من سرعة السيارة ، يقترب من مدق جانبي ، ترتفع مقدمة الميكروباص ، يتغير ايقاع العجلات ، فى المرأة يلمع أبو الفضل منحنيا ، أبو الفضل لا يستعيد الان ذكريات لقاء آخر مع أسرة ، لا أصوات اطفال تردد في ذاكرته ، أو رائحة خبيز بيقى تتسطره في أجازة قادمة ، انه يصاحب الآن كل ماضيه ولا يدع وراءه أى خلافات للذكريات أو الحنين ، يحمل حياته كلها على كتفيه وتحبى بهما ، يلتفت اليه الرفاعى مناوشـا ..

---

---

---

«اليوم للصعايدة» ..

تطلعوا إلى أبو الفضل ، وسرى بينهم عبر أحقرة غامض .. الصعيد  
كله يعيش في انتظار هذا اليوم ، بعد الهرمة قامت النيران كثُر بترويل بلا  
قرار

يصحح أبو الحسن

أنه لا يفكر إلا في آبار البترول ..  
تغرب التقاطية على جبين أبو الفضل ، يبدو الآن هادئاً كنداء خافت في  
ليل متقدم .. يقول العقيد علاء ..

أبو الفضل لا يرى في مصر إلا صعايدة ، الناس في رأيه أما صعايدة أو  
أجانب ..

يتدخل عبد المؤمن ..  
طبعاً يا أفندي .. الصعايدة أجدع ناس ..  
يتساءل أبو الحسن ..  
الا يوجد مكان للاسكندرانية ؟  
يقول العقيد علاء ..  
سيادة العميد وزع صباح وشبابه على كل البلاد ..  
هز الرفاعي رأسه مبتسمـا ..

---

كنت أعد نفسي لقيادة المجموعة ..  
منذ الآن لن يستقر الصمت ، تسرى حميمية ، صوت مصطفى  
هادىء سريع .  
ل لكن سيادة العميد الرفاعى من مواليد بلقاس ..  
يقول العقيد علاء ..  
هذا صحيح .. ولكن كل بلدأخذ منه مقدارا ..  
يقول ابو الفضل ..  
مجموع ما قضاه في الصعيد يفوق ذلك بكثير ..  
يضحك أبو الحسن ..  
لخن أي المناطق تعتبر صعيدا .. اذا ذهبت الى اسيوط وقلت لهم انا  
من بني سويف .. قالوا لك انت من بحري .. نفس الامر اذا ذهب  
الاسيوطى الى سوهاج والسوهاجى الى قنا ..  
يبيسم أبو الفضل ..  
الصعيد الحقيقي يبدأ من سوهاج ..  
لا يدع أبو الفضل فرصة إلا ويتحدث عن الصعيد الذى عرب عنه  
طفللا . من يسمعه يتحدث عن قريته ، يصف طرقاتها ومنحنياتها وقعدة  
العصارى في الرحبة ولون البلح عندما ينضج فوق التخييل ثم تساقط  
الثمرات فوق الأرض ورائحة الخبز في الظهيرة وسوة الاثنين والمندرة

ومنهن الغلال وأحاديث الرجال الليلية ، من يسمعه يخيل إليه أنه عاد بالامس من أجازة هنية قضاها يمتع بحنان الام ويصنف إلى دعوات الاخت ويلتحف بليل اسرى دافع قبل عودته إلى الوحدة ، لا يزلم الرفاعي الا رؤية ابو الفضل وحيدا عند نزول زملاء الى المدن والقرى في أجازاتهم ، دائما ينحاز اليه في أي وقت نقاش دائرة ، مرات عديدة حذر العقيد علاء من توجيه أي عبارة اليه قد تخذلش احساسه ، تخلى السيارة مهتزة او مستقرة ، الى الخلف زاوية اثارتها العجلات ، تخلى عربة جيب من الاتجاه المقابل ، ويضغط عبد المؤمن الكلاكس ثلاث مرات ، يجيئه كلاكس الجيب .

« بهذه شفرة »

يرد أبو الحسن بسرعة ..

« لا يأفنتم .. هذه عزومة مراكبيه »

على الطرقات المتبدلة يحيى السائقون بعضهم ولا يرى الواحد منهم الآخر . تقاليد مجهلة المصدر ، تبدو عربة استطلاع ، يطل من الفتحة الرئيسية ضابط ، لم يستطع التتحقق ن الرتبة ، يرتدي خوذة ، لا يوجد مقاتل في المجموعة يرتدي خوذة ، هل نذهب إلى العدو محتمين بالخوذات ؟ الخوذة ثقل اضافي ، قال عصام يوما ان فائدتها الوحيدة منع

العقل من التفكير ضحك الرفاعي « تبدو من بعيد الانشاءات السريعة القليلة لهذا المطار الذى أنشئ بسرعة فى أواخر السبعينيات ، صناديق خشبية ملقة فى العراء ، لفات من الاسلاك الشائكة ، أكياس بلاستيك فارغة » خطأ يجب التنبيه اليه ، لو الصناديق فارغة ستسهم فى تأجيج حريق قد ينشب مع أى قصف ، ولو بها معدات فتلك خسارة ما بعدها خسارة ، يقترب مطار الاقلاع « يمكنه تمييز الدشم الخرسانية » لم يعرف بعد « هل سيجد الطيارين الذين اعتاد الخروج معهم » هل سيجد النقيب سيد أو سيد بلاعيم كما يسميه رجال المجموعة لتعدد مرات طيرانه فوق حقول البترول ببلادهم ، كذلك الرائد نبيل ، هؤلاء الذين اخترقوا به تحصينات الليالي السود ، ونغيرات دفاع العدو الجوى ، قبل مغادرتهم حضر المجموعة في الضواحي ، اجتمع بالرجال ، في البداية استعداد ايام ما قبل وقف اطلاق النار ، قال ان اليوم يومهم « والسنوات التي انقضت ما هي الا مقدمة لهذا اليوم ، قال ان الشغل الحقيقي سيبدأ من اليوم ، قال لا بد من الحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر بالعدو ، سيمضون اليه في الواقع التي يعرفونها جيدا ، وتلك التي يجهلونها ، وأن يستعدوا لتلبية أي واجب قتالي يطلب منهم ، قال ان الوضع مختلف اليوم ، انهم لا يعبرون الى الشرق بمفردهم اغا هم الان جزء من كل ، قال ان خطة الهجوم على بلاعيم مصدق عليها من القيادة ، يجب تحويل كل شبر الى جهنم . أشار

الى نموذج مجسم من الجبس ، تطلع الرجال وكأنهم ينظرون من خلال منظار يصغر الاشياء مياه الخليج ، الصهاريج الضخمة المحاطة بسواتر دائيرية من الطوب الاحمر ، مواقع المدفعية المضادة ، محاور الطرقات الرئيسية ، مبانى الادارة ، ميس الطعام ، موقع الحراسة الفريدة من الخليج ، أشار الى النقاط المحتمل أن يدفع العدو اليها بكمائن ليلية . قال ان الهدف هو الصواريخ وكل عدو يتمحرك هنا أو هناك ، كل عدو حى ، سيتم الهجوم بطريقة من طريقتين ، قال انه يود لو سمع أي ملاحظات ، طافت نظراته تستحدث ، تشجع ، أمامهم سبع عشرة دقيقة للتحرك ، من غير المسموح به اطلاقا مناقشة أي تفاصيل بعد مغادرة هذه القاعدة ، منزع بشكل مطلق أي استفسار هامس أو جانبي ، كل التعليقات حتى المرحة يجب أن تقال هنا ، تسأله أبو الفضل عن المدى الذي يمكن أن تهبط اليه الطائرات في حالة تنفيذ الخطة الاولى ؟ قال الرفاعي انه اقل ارتفاع ممكن ، جالت عيناه مرة اخرى في الملامح ، بعد لحظات من الصمت تناول لفافة صور ، فردها على امتداد جسله ، بدأ أصبعه يقوم بالاشارة ، هذه الصور التقطت بواسطة الاستطلاع الجوى منذ اثنين وسبعين ساعة ، قال ان كل ما استجد منذ اعداد الماكين نقطة استطلاع جوى وموقعها هنا ، تقدم كل منهم الى الصور ، تفحصوا الخطوط والظلال ، في الدقائق القليلة المتبقية اتم جولته السريعة المعتادة والتي يسمونها « اللمسات النهاية » .

---

يتوقف الميكروبايس بالقرب من مبنى منخفض ، للحرب هنا ملامح وتجاعيد ، يقفز الرفاعي . رصد نظرة حادة في عيني العقيد علاء . القتال عند علاء يعني الالتحام ، والمابغة ثم أطفاء البريق في العيون . كل منهم ادخر كثيرا من الصرخات داخله طوال الاعوام الثلاثة الماضية . قال الرفاعي لعلاء بعد العودة من لسان التمساح أود ان تصغى إلى نفسك يوما ، من يرك أثناء الاشتباك لا يتخيّل انك طبيب وطبيب اعصاب بالذات ، قال علاء ان الطبيب يداوى الجراح المحدودة اما نحن فنعالج جراح التاريخ ، أثناء القتال يشتبك بالواقع والمصير واللحظة ويُسدّد الطعنة قبل ان تناهه الطعنة المقابلة . يتلاشى تماما ، يتعايش فيه الوعي واللاوعي ، الرفاعي يرصد كل التفاصيل ، لا يفلت منه أى جزء من الموقف ، لا الملامح ولا نهاية مسارات الشظايا ، لا يفقد الرؤية في سحابات الدخان غليظة القوم . في اللحظة يتتبّع للخطر المباغت الذي يطل فجأة من قلب الدوامات واختلاط الروح بالمجيء ، عندما يتبدّل الجنوب والشمال مواضعها وتتصبّع الدائرة خطأ مستقيما والواحد يغدو اثنين ، قال علاء ان القتال الحقيقي هو : الالتحام بالسلاح الأبيض ، ليس القصف بالطيران أو المعارك التصادمية بالدببات .

هيا يا وحوش ..

يتتّحى بالعقيد علاء جانبا ، يتساءل علاء ..

---

— يعني هل تعتذر توفير الجهد المطلوب ؟

ينظر اليه الرفاعى معايبا ..

— لا داعى لللحدة .. هذه الخدمة ستحتاج اليها بعد قليل ..

صمت لحظة ..

لا تنس أن الحرب مشتعلة على طول الجبهة .. نحن لا نعمل

بفردنا ..

يبدو أن العقيد علاء لم يقتض ، لا يريد ان يسب ويلعن في هذا اليوم  
كعادته عندما يواجه أمرا لا يعجبه ، يتقدم الرفاعى باتجاه ثلاثة طائرات  
هيلوكبتر ، أزدج عن كل منها غطاء التمويه « يصافع الطيارين » يتحدث  
الىهم ، يرتدى قفازه الجلدى الخفيف .

ليتأكد كل منكم من ضبط زوايا المدفع ..

تحين اللحظة التي سيفترقون فيها ، يثبت العقيد علاء إلى الطائرة رقم  
٢ ، في أثره المساعد أبو الحسن .. قبل ان يختفى أبو الفضل في جوف  
الطائرة ينظر الى الرفاعى ، ما يمكن قوله كثير لكن الالفاظ شحيحة ،  
الرفاعى مطمئن الآن كأنهم لم ينقطعوا عن الخروج معا طوال الاعوام  
الثلاثة الماضية « يشير الى الجاوיש مصطفى ..

— هيا يا وحش ..

---

يمحتوى بعينيه المطار والمشات والرجال ، ونور أحمر يلمع في مؤخرة طائرة تقف بعيدا عن دشمتها الخرسانية ، وهيكل خشبي لطائرة قتال ، وإيريك رادار يدور فوق مرفق ، وثلاثة رجال يحملون صندوقا يحوى شيئا ما ، وجندى يقف وحيدا ، تذكر طفللا يطل من شرفة بيت من طابقين ، ورجلان يختفيا عند منحنى طريق ضيق مفروش بالظلال ، بالقرب من مبنى ادارة المطار يقف عبد المؤمن « يعرف انه لن يظل وحيدا ، سيتعرف الى الآخرين بسرعة ، سيفادهم الحديث ثم يمكن له ما جرى ، يغلق الباب الخلفي للطائرة ، يسرى تيار نخيل من الحركة ، كم مرة طارت ؟ كم مرة ستطير ؟ الى أي الجهات وصلت ؟ يشد على كتف مصطفى ، يتوجه الى كابينة الطيار ، يجلس في مقعد المساعد ، يضع السماعتين فوق اذنيه ، سيقوم بهمة الملاح ، انه يحفظ ملامح الطريق والمعلم الارضية ، خاصة بعد عبور الخليج والطيران فوق سيناء ، ليست المرة الاولى التي يتوجه فيها الى بلاعيم .

يهتز الجسم المعدن في ثباته ، فوق الارض يبدأ ظل المروحة الرئيسية في الدوران ، يضغط الطيار ازرارا عديدة في اللوحة المزدحمة بالمؤشرات والعدادات بنظرة جانبية يرمي وجه الطيار الذى يخرج معه لأول مرة ، ملامحه ثابتة كأنه على وشك الشروع في ابتسامة ، يذكر الجرجاوي ، الجندي الذى لا يعبس أبدا ، كلما نظر اليه يراه مبتسمها ، يبدو راضيا عن

---

الدنيا ، يشعر بابتسامة أثناء الخطوة الخضراء فوق الأرض هناك ، يجدب الطيار العصا القصيرة ، تميل مقدمة الطائرة ، إنها معلقة الآن ، تتنظم الحركة ، تنسع المسافة بين الأرض والطائرة ، يتضاءل حجم المنشآت ، يلمع رجلاً يلوح بيده ، يرفع يده بتلقائية على الرغم من أن الآخر لن يلمع ردة ، تدور الطائرة ثم تستقر باتجاه الشرق « الشمس خلفهم الآن » ما تزال النجوم بعيدة عن السماء ، بعد ربع ساعة سيجتمع الناس حول موائد الافطار ، كل ما يقومون به الآن وما سيمررون به سيصبح بياناً عسكرياً ، إذ يقرأ عن المعارك التي خاضها الآخرون لا يخدعه اختزال السطور لما جرى « يجسد ألم الجراح ولحظة الاشتباك والصيحات الليلية والرعب للإنسان ، مرور الطلقة بين الجندي والجندي والألم الخاطف المركز السريع الذي ينتهي فجأة ثم تنفذ الشظية إلى ما وراء الأذن ، الحرب هي أن تنجح في إدخال هذه الشظية إلى جسم العدو ، سواء صدرت الشظية عن طلقة مسدس أو قنبلة مدفع أو دانة دبابة أو صاروخ معدن ، الطرق تتعدد ولا تختص لكن الموت في النهاية واحد ، لا يوجد من يصعب معه قدرًا من الدنيا أكثر من الآخر ، في لحظة معينة من هذا الليل سيرسل عشرات الشظايا « لا بد أن يوجههم ، أن يسلد الضربات الصحيحة ، إن يحدث آثارًا لا يمحوها الزمن بسهولة » لو رحل إلى الأبد سيقى بين الأحياء بقدر ما يحدثه من أثر في العدو ، كل شيء مدرك بالزمن ،

---

والملموس يخسر السباق معه دائمًا ، تلك اللحظة الآن أصبحت الآن  
ماضيا ، المكان الذي تشغله الطائرة يتغير ، والفراغ ليس بوحد ، المهم  
تسديد الضربة ، كل شيء يفلت ويمرق ، لكن يجب الالتفات بالعالم صامتا ،  
كثيرا ما قال للعقيد علاء وللشهيد عصام أن القتال كأى شيء تتعهد به  
وترعاه ، كلها بذلت معه جهدا جنبا منه أكثر ، لم يتوجه إلى العدو يوما  
ليسدد ضربة خفيفة ، محدودة الأثر ، إنما يوحد كل ما للرجال من  
قدرات ، ليفجر كل ما يستحوذون عليه من طاقات ، يود لو يشمل  
الانفجار عناصر الطبيعة نفسها ، يفجر القوانين التي تحفظ ثبات الأرض  
تحت العدو ، وسيلة البحر ، والهواء الصالح للتنفس ، يود لو يخرج من  
اسر جلدته وجاء بالنهاية الضالة في الفضاء وخلق الوسيلة لتوجيه الشهب  
الحارقة وسددها إلى قلب العدو ، يضئي التفكير في اختيار الهدف ، ثم  
تضئي الرغبة في تعجيز كل ما يتعلق به من موجودات ، يتوجه الآن إلى  
العدو بعد توقف قسري دام ثلاثة سنوات ، ضاق بالحركة اليومية الرتيبة ،  
اضطنه آلام القرحة ، الليلة سيزرع لسانا من اللهب يصهر سواد السماء  
والنجوم ويحجب الكواكب البعيدة ، نيران تفتح حرارتها فتعم وتشمل  
وتقول بالحرق واللسع إن في هذه البلدة رجالا ، كل ما مضى من سنين  
وشهور ولحظات معانا مقدمات لما هم مقبلون عليه .

---

تعبر الطائرة سلسلة جبال الجلالات ، سيمكن رؤية مياه الخليج بالنظر  
بعد ثوان ..

لنبيط الى ارتفاع عشرة أمتار ..

إن اصواتاً عديدة تتدخل في السمعات ، المطار ، الطائرات في  
السماء ، القواعد ، الصواريخ ، أصوات مجهلة واسارات غامضة ، طنين  
كوفى ، سطير الهليوبكتر بمحاذاة الخليج حتى رؤية الاشارة الضوئية ،  
يتبع الطيار عداد الارتفاع ..

إن الطيار يرمي الرفاعي بسرعة ، في اللحظات الأولى رأى ضابطاً  
هادئاً الملائم يقف ملامساً خصره براحتي يديه ، هل هذا هو الرفاعي ؟  
كثيرون من طياري الهليوبكتر اعتبروا الطيران معه عملاً يميزهم عن  
الآخرين ، عندما ابلغوه قالوا له ان الطلعة اليوم رفاعية ، فسحق ، قال  
هذه بداية جيدة للحرب ، يسأل نفسه متى الم الرجل بهذه التضاريس ؟  
كثير منها سكان الصحراء انفسهم الذين يعرفون طوال حياتهم دربها أو  
دربين ، أنه يعرف اتجاهه ، لا يدرك متى تسرب اليه هذا الاحساس  
بالثقة ؟ هل بدأ لحظة دخول الكابينة ؟ لحظة تأمله للملائم المادئة ؟ أصابعه  
الطويلة التحيلة المغطاة بالقفار والخذاء الأسود ذى الرقبة الذى يغطي ساقيه  
ويملم بنطلوته ، حوله تلف خيوط النايلون التي يستخدمها رجال

---

المظلات ، في صوته ثقة وفي ملامحه ود ، وعندما يجلس يسرى هذا الشعور  
الرجولي الذي يعم المقاتلين وهم على وشك القيام بعمل قتالي « هذا  
التضامن ، والروح المستور الذي يخفف وطأة ما هو متظر » هل شعر بالثقة  
بعد تلقيه أوامر الرفاعي الوافية التي تعكس معرفة صاحبها بالطريق .. انه  
يتابع الأرض ، الصمت اللاسلكي تام الآن بين الطائرات الثلاث .

نقطة ضوء في بحر العتمة ..

يلتفت الى الطيار ، الملامح تبدو على ضوء العدادات الصغيرة في  
لوحة القيادة ، يشير بيده الى الأمام ، آخر نقطة أرضية ترمقهم منها عيون  
الأصحاب والأقارب ، انه يرى الطائرة بعيون الراقبين هناك « يضيئون  
لارشادها الى الطريق الصحيح ، من المؤكد أنهم فزوا وصاحوا للرجال  
الماضين الى قتال العدو على الرغم من ثقتم بأن من في الطائرة لن يسمعوه ،  
في صيف عام ١٩٦٩ مرقت ثلاثة طائرات ميج ١٧ فوق موقع مدفعية  
الهاون القرية من مياه القناة ، رؤية طيراننا في حد ذاتها وقتل تثير الحماس  
والأمل ، حشق الجنود وصاحوا مهلاين ، ورمق ضابط الموقع الشاب الذي  
مد ذراعه عينا ، بعد ثوان جاء صوت القصف المكتوم بعيد « لحظات ثم  
تابعت الأصداء المعدنية لانفجارات المدفعية المضادة للعدو ، أظلم وجه  
الجنود » بدا الضابط الشاب مكتينا ، فجأة مرقت طائرتان على ارتفاع

---

---

منخفض جداً ، اتسعت العيون ، سادت خنادق المواصلات وحشة ، أين الثالثة ؟ سؤال رده الصمت ولم يجرأ أحد على نطقه ، أدار الضابط التليفون الميدان ، سأله الواقع القرية ، غير أن أحداً لم يرصد الملاجع ١٧ أثناء عودتها ، بعد أربع دقائق صرخ أحد الجنود أطلت الرؤوس تتابع الطائرة الجريمة التي راحت تتقدم باتجاه الغرب تحرر وراءها ذيلاً من الدخان ، ارتفعت الصيحات ، وكان الطيار أحسن بما يجري فهز جناحي الطائرة محياً .

إنه يشعر الآن بابتعاده عن الأرض الصلبة ، اللون الآن أكثر قتامة ، سيخف تدريجياً كلما اقتربوا من البحر ، يستعيد أدق التفاصيل ، لم ينس شيئاً ، يلمس ذراع الطيار الأيمن المواجه له ، يشير إلى اليسار ، هل يختلف احساس الإنسان عندما يطير فوق الماء ؟ الآن ييقاع الزمن أدق ، يشير إلى أسفل ، تهبط الطائرة مترين ، سيلتقون بسیناء وهم على ارتفاع ثمانية أميال ، يصفعى إلى صوت الطائرة ، إلى الليل ، ينظر إلى عقارب الساعة الفوسفورية ، يتغلبون داخل سیناء ، خمس دقائق ، يشير إلى الطيار ، تعود أضواء الطائرات الخارجية ، تستدير المقدمات ، بهم بالقيام ، بشير بيده ، يضئ الطيار الكشاف الرئيسي ، يغادر الكابينة ، مصطفى يفتح الباب ، يتمتنق بحزام القنابل ، يتناول المدفع الذي تسميه المجموعة بالرافعى ، أمريكي الصنع عيار ٥٧ ملل ، حصل عليه من داخل احدى

---

---

الدشم بلسان التمساح ، الباب الجانبي مفتوح ، تبدو الطائرات الآن وكأنها قادمة من داخل الأراضي المحتلة ، اذا لم يكتشفهم العدو فسينزلون في المطار الصغير المهد لاستقبال المليوكتر ، عندئذ يبدأ الفتك بين يواجهونه منذ لحظة خروجهم ثم يشقون طريقهم الى أقرب المستودعات وتفجير الصهاريج ، حتى الآن لا تلقط أذناه أي أصوات غير عادية ، النجوم تتمايل في السماء ، تتجه الطائرة الى اليمين ، يمرق شريط أبيض نحيل الى أعلى ، حرارة تلفح وجهه اذن لن تلامس أقدامهم الأرض ، تتحنى الطائرة ، تستدير حول الموقع ، الصهاريج تبدو دوائر ضخمة في السواد ، يحرك مصطفى فوهه مدفعة في أكثر من اتجاه ، تندذراع الرفاعي ممسكة بقنبلة يدوية ، يحومون حول فوهه فرن ضخم ، تتفجر الصواريخ بغزارة ، كان الدنيا تمطر شظايا وهب بالملووب ، من الأرض الى السماء ، مدفع الرفاعي يرتد كلما شبع قذيفة ، تختلط الأصوات والانفجارات وتهب الى أعلى كرة من النيران كبالون ضخم من اللهب انتفخ فجأة .

---

---

اليوم الثاني عشر

٧ أكتوبر ١٩٧٣ ..

اليوم الحادى عشر

٨ أكتوبر ١٩٧٣ ..

.. يواجه البحر ضاما شفتيه ، تتقدم الأمواج وتتراجع كتنفس بطيء  
غامض للكون ، فوق الصخور الوعرة حراء اللون يتمدد الرجال ، طلب  
منهم أن يستريحوا ثم ارتقى الصخور التي تشبه القباب الناقصة المتصلة ،  
امتداد البحر حتى خط السماء يحوي تحديا خفيا ، هل يصبح المبصر  
كالأعمى في مواجهة هذا اللانهائي ؟ ما حان دون الوصول إلى الهدف  
قوانين خفية ، تعلو بالمويج ، وتزيد سرعة الرياح ، وتجعل من أنقل  
القوارب أجساما خفيفة ، عندما قال له وسام ان البحر عال في هذه الليلة لم

---

يشه ذلك عن قراره ، ألم تعلمه التجربة أنها أفضل الظروف لفاجأة العدو ، في مثل هذه الليلة لا يتوقع انسان بغيء انسان ، سبق لهم أن تعاملوا مع بحر مماثل وأمواج أشد عنتها ، إنه ينظر إلى البحر الآن ، يوشك أن يتحدث بصوت عال ، يضيق بضياع يوم آخر ، يصفع إلى صوت البحر القادم من كل اتجاه ، يتأمله بينما يمضي البحر إلى كل الزوايا والأركان ، خصماني تنازلا طويلا ثم وقف كل منها يرقب الآخر قبل استئناف القتال ، عندما انقلبقارب الرابع أمر بالوقوف ، طافت العيون بالعتمة ، تشابكت الصيحات ، ارتفعت أيد مسكة بأيد وصواريخ وصناديق ابتلت ، رأى الرفاعي قسوة الليل ، حولة أربعة قوارب في ثلاثة فقط ، لن يواصلوا الطريق إلا إذا جاء التمام من كافة القوارب ، الجندي فرغلى مفقود ، راح يوغل بنظرة في البحر الوعر ، يعرف ما جال بخاطر الكثريين ، لكن هل يدع أحد رجاله في هذه المتأهة من الموج والقرش وأنواع أخرى من الهلاك لم يعرفها الإنسان ، لتسخذ القوارب تشكيلًا دائريًا وتبحث في الدائرة المحصورة ، الجهد المبذول مروع ، كأنهم يبحثون في أعماق النجوم السحرية عن فرغلى ، لكن كيف يستمر واحد الرجال تتعصره هذه المتأهة الجبارية ؟ إذا كان من المحتم أن يرحل إلى الأبد ، فليمضن هناك في شرم الشيخ ، في مواجهة العدو ، لكن ماذا فعل الآن حتى يغوص إلى لب الأعماق ، لتبدل كل جهود المجموعة للعثور عليه أنه لم يتم بعد ، لم

يحمل صاروخا ولم يطلق مدفعا ، في لحظة خيل اليه ان الكرة الأرضية مالت عن وضعها الطبيعي ، أدركه دوار والبحر يابي البحرين بمكان فرغلي « حوالي الساعة الثانية وعشرين دقيقة جاء بلاغ من القارب رقم (٢) .. تم الانقاذ . استقام الاتجاه » بدا له انه من الممكن الوصول الى الهدف قبل الفجر » يتم نصب الصواريخ ثم يرى انطلاقها من عرض البحر ، لا يهمه طلوع النهار عليهم في البحر ، المهم انطلاق الصواريخ ، وقبل ذلك كله قهر العتمة ، وشراسة البحر ، لم يره في مرات خروجه العديدة بمثل هذه الغلطة » أقام الليل أمامهم حواجز من العتمة والضباب الأسود الكثيف » علا الموج حتى بدت القوارب وكأنها تسير فوق بعضها في بحر من ثلاث طبقات ، ثم تتبادل الأوضاع أعلى » أسفل ، جز على أسنانه ، حوله جدران شاهقة من الماء ، في لحظة تبدو السماء عالية » نائية جدا ، لا يدركها بصر ، ولا تلوح فيها نجوم ، في لحظة تالية يعلو القارب ، يشعر كل من فيه انه معلق ، لا جاذبية تشده ، ولا ثقل يحفظ اتزانه في لحظة أخرى تبدو القوارب وكأنها تدور حول نفسها ، قبض بشدة على عجلة القيادة ، وأصغى الى كل ما يحييه من أصوات عبر السماعات ، لمح ضوءا خافتًا في جوف العتمة الكونية ، بدا قريبا ، ثم بعيدا ، اخفي ثوان ، ثم عاد الى الظهور ، علمه اقتحام الليل ، والعبور الى الارض كل ما فرقها معادلة ألا تهتز أعصابه من المفاجأة ، لكن كثيرا ما تلقت نظرة الظواهر

---

العارضية ، تستوقفه طويلا عند استعادتها بعد انقضاء زمن حدوثها ، يفكر في صوت عابر غامض سمعه ليلا ، ربعا انسان يتالم ، أو صراخ حيوان ضال ، أو مرور تيار الهواء بين شقى جبل أو ترخرخ صخرة عن موقعها ،

أو حدوث صدى لشيء غامض يسبح أو يتحرك ، ليلة أمس حار في تفسير هذا الضوء لم ترصد أجهزة الرادار في القوارب أي سفن قرية ، لم تدرك الأ بصار مقدار المسافة التي تفصلهم عن الضوء ، قال أحد الجنود ، ربما أرسل العدو قاربا للتفتيش ، وقال آخر ان البحر يضيء في مواضع معينة لأن الشعاب المرجانية تتوجه في القاع ، قال آخرون ان هذا الضوء متحرك ، لم يستمر الضوء الغريب ابدا اختفى فجأة كظهوره الغامض ، لم يستطع الرفاعي ان يمنع نفسه من التساؤل ، ما مصدر الضوء ؟ المفاجأة لا ترهب والمجهول لا يخفى ، ولكنه يود دائمآ ان يعرف ، لكنه يحدد موقع الخطوة التالية ، ضاع الضوء ولم يهدأ البحر ، في الثانية والنصف جاء بلاغ عن تسرب الماء الى القارب رقم (٣) ، جز على اسنانه ، هذه العتمة وهذا الهايج ، والبحر والرجال المسؤولون عن صيانة القوارب واصلاحها ، والقوانين التي تحول بين الانسان والمشي فوق الماء أو التنفس قرب الأعماق كل هذه العناصر تعاندة ، ملامح الرجال مرهقة ، المياه تغمر جاكيتات الانقاد ، وعندما أصدر الأمر ، وأدار ظهره للبحر والريح ونأى عن المهد

---

---

---

المرجو بدا وكأنه يقتطع من عمره عشر سنوات كاملة ويرميها إلى أعماق هذا  
السديم المائي الجبار .

انه الآن البحر وحيداً . لا يقرره أحد ، أمرهم بالراحة يكره رؤية  
رجاله متعبين ، لم يقبل أن يصبحه أحد عند ذهابه إلى الغرفة فيها عدا  
مصطفى ، وعندما عادا إلى شدوان أمر مصطفى بالترجمة للراحة ، أما  
هو ، فارتقي هذه الصخرة التي تبدو كشقة عالية مطلة على البحر الذي  
يبدو هادئاً الآن ، خداع إلى آخر مدى ، في أكثر من مرة هاجم محصينات  
العدو بمواجهة ، لم يلف ، لم يناور ، مالا يتوقعه العدو أبداً المستحيل أو  
غير المعقول ، اخترق كلًا الحاجزين ، لكن هذا الحصن الكرن الأزرق ،  
من أين ينفذ إليه ؟

اليوم العاشر  
٩ أكتوبر ١٩٧٣

استعد للاشتباك . . .

لم يعد البحر محور التركيز الوحيد ، ظهرت لنشات العدو ، يمكن تقدير حجم اللش ونوعه وحولته من زيد الماء الأبيض الناتج عن شق المقدمة التحيلة الحادة ، وبالتالي تحديد سرعته وتسلیحه وعدد طاقمه ، ان عقلة الآن يعمل بسرعة ، ماذا يريد العدو ان يفعل ؟ ان المسافة التي تفصلهم عن الشاطئ لم تعد بعيدة ، يتبعه الى استدارتهم ، عدد اللنشات اما ثمانية او سبعة ، انهم يحاولون دفع الزوارق الى الساحل ، ربما لحصرهم بين نيران المدفعية الأرضية ونيران اللنشات . . .

الرافاعي ينادي .. الرافاعي ينادي ..

اللنش الذي يقوده وسام لا يحيد ، يكره الغموض ، يقت ابعاده عن الرجال حتى ولو في عرض البحر حيث المسافات غير متصلة ، وكل زورق يمثل وحدة قائمة بذاتها عند التوقيت المناسب ، يتأكد من محاولة العدو حصرهم ، إذن ليقم بمناورة « إنه يستدير » ، بطلق نيران مدافعه الرشاشة ، يلفت إلى الانتباه ، ثم يتخذ أقصى سرعة مع استمرار الاشتباك ، ربما أتاح الفرصة لبعض الزوارق كي تصل الشاطئ « تنصب الصواريخ » ، لكن لاشك أن أنظار العدو كلها مرکزة الآن فوق هذه المنطقة ، المهم الآن ان يجر وراءه هذه اللنشات ، يتجه إلى جنوب شرق حيث الساحل السعودي ، كمية البنزين تكفي ونوعية الزورق أسرع من لنشات العدو بسرعة ينتقل مصطفى من مقدمة الزورق إلى مؤخرته « ترى ماذا يفعل الرجال الآن ، كيف يتصرفون ؟ أيقف البحر في مواجهته هذه الليلة أيضا ؟ بالأمس علت الأمواج ، والبرودة واليوم يحيى العدو ، لن تستدير مقدمة القارب إلا عند السطر الأخير » في اللحظة التي لن تليها لحظة أخرى ، ليته يمتلك القدرة التي تجعله قادرا على إطالة مدى الموجة اللاسلكية لتصل إلى رجاله في بقية اللنشات ، لا يمكنه مد البصر والحواس ليدرك ماذا يفعلون الآن لا يمكنه مد عتمة الليل حتى يتم مناوراته ثم يعود ليلتجم بهم ، لا يمكنه تهدئة الموج ، الذي محدود بما يضممه هذا الخزان من وقود « ما تشير إليه الأبرة المعدنية .

---

---

ينطلق مدفع مصطفى الرب جى ..

سيف من اللهب يخترق الظلمة ، يبعث نافورة من نار في قلب .  
البحر ..

أصيب قارب معاد ، القارب يغرق ، لتستمر المطاردة ، لا تسمح الظروف بالعودة ، وأسر الغرقى ، في السماء تحول النجوم عن مواضعها ، صوت يشبه أزير طائرة ، لم يتتأكد بعد ، لا يكفي عن المناورة ، إن لم ينفذ من هذا الجانب فليأت من جانب آخر للدنيا أربع جهات أصلية وأخرى فرعية ، لو أمكن اغراق زورق آخر منذ ستة بعد هذه المهمة ، استطاع البحر مرات ، وعرفه بالنظر ، وبالإبحار ، وعيون الأدلة ، يأبى التفكير في أن البحر أجبره على العودة ليلة أمس ، إنما يتعلق الأمر بتقصير ما في خطوات التجهيز لم يهدأ بعد العودة إلى شدونان ، لم يتم حتى الآن ، ذهب إلى الغرفة ليعود بزورقين آخرين ، واعداد توزيع الحمولات ، تفحص أدق الأشياء ، الليلة يظهر العدو ، الزورق لم يتوقف عن الإنداخ ، لا يعنيه ما يجري له لأن ، ما يقلقه موقف وسام ورجاله وأبو الحسن ومن معه واللازم أول صابر فجأة يشعر وكأنه ، سائق قاطرة انفصلت عن مركبات القطار ، انه يتحقق إلى شاشة الرادار المستديرة ، لا أهداف ، يلملم أطراف الزورق بعينيه ، مصطفى يتحقق في العتمة ،

---

عند الأنف الذى بدا قريباً تتدلى النجوم منجمسة في البحر ، ضجيج المحرك ، صياح الرجال الذى اخذ إيقاعاً متظماً منذ بدء المطاردة ، تكبيرات العيد ، الله أكبر كيرا .. والحمد لله كثيرا .. الصوت الجماعى المهيوب ، كل هذا لم يمحى عن المدوء الذى خيم خارج هذا النطاق ، محرك الزورق لم يطرأ على صوته خلل ينبع بخطأ ما ، لم تشحط الآلات لم توقف ، لكن ثمة شيء تغير في الواقع الخارجى ، انسحب العدو ، عادت الزوارق ، أما عجزاً أو يأساً ، لكنه يضع نفسه مكان قائد اللنشات المعادى ، لماذا التوقف ؟ ربما لقرب نفاذ الوقود ، ربما لاستدعاء طائرات الميلويكتر ، في حالة استئناف المطاردة لأبد من البحث في نفس الاتجاه .. يستدير في الليل الذاخر بالأمواج والنجوم ، يود لم ان هذه اللحظة شهدت تصرفًا مختلفاً ، ان وجهه يتقلص فجأة ، هذه أول مرة لا يصل فيها إلى الهدف ، كيف ؟ كيف سيفكر في هذه العملية عندما يصبح وحيداً ، أى المبررات قد يردها بينه وبين نفسه هو الذى لم يلتجأ إلى المبررات فقط ، تم اغراق زورقين رآهما بعينيه وربما أغرق الرجال زوارق أخرى ، تلك خسارة فادحة ، ان عينيه تضيقان ، هل تخين لحظة من عمره ليجد العزاء في إستبداله هدفاً باخر لتغرق عشرات اللنشات ، ولكن محطة الرادار البحرية لازمال تدور عند المرتفع الصخرى القريب من شرم الشيخ ، وصواريخ الكاتيوشا التي لازمال متعددة في الزورق لم تلتجم بها ، ثم ما هذا ؟ ربما

---

أغرق الرجال » ربيا أصحاب الرجال ، كلهم في مهمة واحدة ويضطر إلى التخمين .. ربيا .. ربيا .. ، لكنه أبعد العدو عن زوارقهم ، سبب ارباكا له أليس مجرد ظهوره في هذه المنطقة فيه ارباك للعدو ، انه يعرفهم جيدا ، ستبدل عشرات التحليلات ، لماذا ظهرت القوات المصرية في هذه المنطقة ؟ لماذا جاءت ؟ أى أهداف تقصد ؟ ثم يلى ذلك اجراءات وزواق تتحرك .. أليس في هذا تعطيلا لجزء من قوات العدو ؟ .. إنه يأتي الأفكار التي تحوى شبهة العزاء منها قيل » فهو لم يضع قدمه على صخور شرم الشيخ ولم يسكت محطة الرادار ، لم يلتجم » في ساحة الكلية الحربية » قبل مبارزة الكرة » في نادى الجيش الرياضي ، يجري ، يجري ، يتبدل الكرة مع أعضاء فريقه ، قبل التزول إلى الملعب يقول :

لن نعرف المهزيمة ، ضحك .. قال ، لو شعرنا ان المهزيمة قادمة فليسته اللعب بأى صورة .. لكن لن ينتهي بهزيمة .. هل يتوجه الى شرم الشيخ الآن ؟ هل يوجه المقدمة إلى الأهداف الأصلية ؟ والعودة ؟ ليس منها التفكير في العودة ، ما يؤلمه أن يظل بعيدا عن الهدف ، الهدف الذى اختاره بنفسه ؟ درسه بعناية » قضى الساعات الطوال يتفحص صور الاستطلاع ، يدرس السيارات وتقارير الصفادع البشرية عن مناطق الرسو ، العمق والضاحلة أى كدل ليل ثقيل ينزل فوقه ؟ ، حتى الموج هذا

---

---

---

والريح استقرت على صوت واحد كالعوبل البطء الملوغ ، يخلو البحر  
 تماماً يبدو امتداده بليداً ، بارداً .. وكان شيئاً لم يحدث ..

---

---

اليوم الخامس  
١٤ أكتوبر ١٩٧٣

أبدى الرائد وسام ملاحظة ..  
لكن هذه المنطقة مليئة بالشعوب المجنونة ..  
قال الرفاعي ..  
هذا سنجنيء إليهم من هنا ..

الآن تطير قوارب الزودياك فوق رذاد الماء المتاثر ، يستند الرفاعي إلى حافة الزورق بيده ، يمسك بيده اليسرى مدفعة ، يتظاير رذاد ويصبح الموج . وتشهد سماء زرقاء زجاجية ، يبدو شاطئ شلاطيم صخرياً وعراً . يهدى الرفاعي من سرعة قاربه ، يبدو أن العدو لم يتوقع قدوم أحد من هذه المنطقة ، لم تظهر دوريات ساحلية ، لم تحوم أى هليوبترات في السماء ، ترتفع يده . تتوقف المحركات المركبة في مؤخرات الزوارق ،

---

يقف الرفاعي غير منحن في القارب ، يمسك أبو الفضل بمجداف قصير ،  
يضرب الماء بسرعة ، يتراجع القارب قليلا ، لكل خطوة حسابها ، كل  
ما يقومون به معروف من قبل ، يتراجع البحر ، فجأة تبدو خطوط بيضاء  
غليظة قادمة من الخلف ، يتسابق الموج ، يتحفز الرفاعي كأنه يوجد تنسيقا  
خفيا بين حركة الزورق ، وحركة الأمواج ، تدرك الخطوط البيضاء  
القارب ، تعلو به ، يخف الوزن ، لو اختل التقدير سيهوي القارب فوق  
الشعب المرجانية ، ستارة الخوازيق المثبتة في القاع ، حراب ملونة »  
خادعة ، تحمل الأمواج القوارب إلى الماء الضحل ، يقفز الرفاعي « يمسك  
مقدمة الزودياك ، يثبت أبو الفضل المخطاف بين الصخور ، يشير بيده إلى  
الزورقين الآخرين ، في أولهما العقيد علاء » يقف عند مقدمة الثان  
وسام ، انه لا يرى ملامح وسام لكنه يشعر براحته لأنه صاحب الاقتراح  
بتخطي الحواجز المرجانية هكذا ، يختر الرفاعي ، لا يتقدمه أبو الفضل  
ولا يتجاوزه علاء ، في الهجوم هو الحرف الأول ، وفي العودة هو اللفظ  
الأخير ، لحظة الاشتباك طلقته تسقى كل الطلقات ، عندما يخرج في النهار  
فكأنه يرتدى ثيابا خفيفة والبرد شتوى قارس ، لكن حركة المد والجزر الآن  
تناسب حركة القوارب ، في الليل ينحاز إلى جانبه عنصر المفاجأة ، ويسك  
بزمام المبادرة ، من حنایا السواد يرصد الخطر ، حتى الآن لم ينبئه ذلك  
المهاجس الخفي إلى أنهم اكتشفوا أورصدوا ، وأجاد العدو استغلال الليل

في شرم الشيخ ، لكنه يحيى إليهم هنا في وضح النهار ، وفي ظروف لا يتوقعونها أبداً ، وفي قوارب لم يحدث أن جرؤ انسان على عبور الخليج بها ، اذا كانت زوارتهم أجبرته على اصدار أوامره الى رجاله بالترق وان يتصرف كل منهم كوحدة مستقلة ، اذا كانوا قد حالوا بينه وبين النزول على صخور شرم الشيخ ، اذا كانت مناوراتهم استهدفت حصره بين الملائكة العائم في البحر والملائكة المثبت إلى اليابسة ، اذا كانت طائراتهم اكتشفته وأبلغت فكمنا له وترصدوه فإنه يحيى الأن وعيون الدنيا مفتوحة ، ويعبر الخليج في الزودياك يخلق الصعوبة ويمتلك القدرة على قهرها ، وهكذا يبرز أمام العدو عنصر مفاجأة غير متوقع ، حتى وسام أبيدی دهشة عندما سمع الاقتراح ، قال أن هذا صعب ، الخليج عات على الزودياك ، مع أن وسام ابن بحر ، يعرف ما سيقوم به العدو لو جهز لعملية مشابهة ، سيفسر أحدث المعدات لضمان حياة أفراده ، غطاء جوى وغطاء بحرى وربما دفع بعواضة للحراسة ، ثم قصف جوى على المدف ، وعندما تصبح الظروف وثيرة تماماً يدفع برجاله ، من قال احرص على الموت توهب لك الحياة ؟ عندما عاد بعد المطاردة إلى شدوان رأى الزوارق الثلاثة ، راحت نظراته تعلو على وجوه الرجال ، ابتسم علاء ، قال : اطمئن يا أفندي لقد عدنا كلنا ودمتنا ثلاثة لنشات معادية ، أدى أبو الفضل التحية العسكرية ، عانقه أبو الحسن ، قال انه في البداية سادة ارتباك لأنهم اعتادوا ان يذهبوا

---

مع الرفاعي وان يعود هو بهم ، لكنه تقمص روح الرفاعي ، وسأله نفسه ، ماذا يفعل في مثل هذا الموقف ، وأى قرار يتخذ ، هكذا عادوا الى شدوان ، عادوا بدونه ، عادوا زورقا وراء الآخر ، يفصل الأول عن الثاني مسافة زمنية لم تحدد من قبل ، ولم توضع في خطة ، لم يهدئه انهم أبدوا تأثيرهم لأنه حول نفسه الى هدف وأبعد العدو ، لا يعني هذا ان ايريك الرادار البحري كف عن الدوران في شرم الشيخ .

من فوق الصخور القائمة عند نهاية المدى الملتوي بدت صهاريج البرول ، تسعه ، لم يطرأ اي تغير ملفت للنظر منذ استطلاعه لهذه المنطقة ، الصهاريج هنا غير مخاطة بسوارات من الطوب لبعدها ووقعها في منطقة وعرة نائية ، رصد علية جنود يمشون بين الصهاريج ، هذه معلم تغيير ، بالطبع لابد أن تزيد الحراسة في زمن الحرب ، يلتفت حوله ، تشير يده الى علبة جهات ، يسرع الرجال منتحلين اليها ، يقف برداء الضفادع البشرية الأسود ، المطاuchi ، الملتصق بجسده ، بدا قادما من عالم غامض .. لحظة التصويب ، التسليد الى الهدف ، تثنائ الشظايا ، ينطح بعض الجند أرضا ، تصاعد هذه الصيحات المدموعة الخامضة النابعة من عمق غير مرئي في الصدور ، صرخات تكون حاجزا يحجب كل شيء عدا القتال - يرفع يده ، لم تشتعل النيران في صهريج واحد ،

---

الصهاريج خالية ، فرغها العدو ، حراسة خداعية ، ليتركز الهجوم الآن على الأفراد ، يحيى الرد ، بينما الحوار النيراني ، لكن هذه المعايس المتراءة المجاورة ، إلى أين تؤدي ؟ ينظر إلى علاء ، إلى مصطفى ، إلى أبو الفضل ، ليبق علاء ، أبو الفضل ، ليأت مصطفى ينحدران بسرعة فوق الصخور ، يمسك المحبس المعدني ، ليتبعها هذه المعايس ، اخطأ عندما تصور أن جديدا لم يضف ، ستأنق النجادات خلال ثلث أو أربع دقائق ، قد يتدخل أهيلو كبر لأن المنطقة وعرة ، لكن لن يستخدم العدو الطيران المقاتل يمشي الرفاعي متصرف القامة يمسك المحبس كعصا يتوكأ عليها ، فجأة يثبت ، على بعد مترين منه يشهر مصطفى مدفعه الآوتوماتيكي السريع ، سبعة أنابيب ، قطر الواحد والعشرين سنتيمترا ، تنبه الرفاعي إلى أنها تعبر الصهاريج ولا تتصل بهم ، تتجاوز الموقع ، أين البداية ، أين النهاية ؟ يوازن خطاه ، يلتف حوله ، انه مكتشف الآن ، يمكن لكل الرجال عد أزرار ثيابه من مكانهم ، اما العدو فلن يستخدم جهاز التثنين الآلي اذا ما صوب اليه فوهه ، يدس المحبس ، الانبوب الاول ، الثالث ، الخامس ، التاسع ، ما من بترول ، بعض شفقة ، يخطو ثلث خطوات إلى الشمال ، تبدو مشيته متزنة ، يضوى الرصاص ، يدق قلب مصطفى حفنتان من الدم في خفقات متتالية ، الطلقات ترشق حول الرفاعي ، يضغط زناد المدفع ، دفعات متتالية ، لم ير أحدا ، لكنه أطلق

---

النار ، ربياً أربك ، ربياً أصاب ، يحدث ازعاجاً يمنع من اصابة الرفاعي ،  
المهد الواضح الجلي ، أنه يقفز ، شظايا رفيعة ، بقع حمراء على صورة  
النهار ، يتراجع فوق شريط رخو من الرمال محفوف بصخور متدرجة  
متباينة ، يزداد اقتراباً من مصطفى ، إلى الأمام تستقر دفعة رشاشة .

يشتد اللهب ..

نافوررة حادة فحيلة تنبت من الأرض ، تتضخم ، تتنفس ، تأخذه  
الدهشة ، الأرض ألسنة من النيران البرتقالية ، تختلط بزرقة حادة كضوء  
لحام الأكسجين ، يتبدل شتاء سيناء القارس ، ترتفع الحرارة .

البترول .. الانابيب مدفونة ..

يصوب باتجاه الأرض الرخوة ، لن تفرغ جعبة العدو من جديد ،  
المواسير الحقيقة تحت الأرض أما الانابيب المكسوقة فلتتضليل ، أى هدف  
استطلاع جوى يكشف هذا ؟ النيران تستفحـل ، مصحوبة بهـدير  
وـضلـيل ، الدخـان الـلزـج الـكـثيف يـلـفـهـ ، يـمـجـبهـ بـعـدـ أنـ وـقـفـ كـعـلـامـةـ نـشـينـ  
في أـرـضـ مـسـطـحةـ ، يـتسـاقـطـ فـوقـهـ الضـوـءـ كـلهـ ، الانـبـوبـ يـقـنـلـ نـفـسـهـ منـ  
الأـرـضـ ، يـمـتـدـ إـلـىـ أـعـلـىـ منـاطـحـاـ الفـرـاغـ ، يـعـدـ بـسـرـعـةـ ، يـشيرـ بـيـدـهـ  
الـيـسـرىـ ، يـتـقدـمـ الرـجـالـ عـبـرـ مـدـقـ وـاسـعـ وـأـكـثـرـ سـهـولةـ ، يـؤـدـىـ إـلـىـ الـبـحـرـ ،

يـقـولـ عـلـاءـ ..

— أمسكت قلبي بيدي .. جعلت نفسك هدفا ..

الرفاعى لا يجيب ، صدقة نفذت الطلقات إلى باطن الأرض فتفجر  
البترول ، إنه يفت الصدقة التي تنبأ عنه في إنجاز عمل ما ..

حمدًا لله على سلامتك يا أفندي ..

بقايا لفحة في عيني مصطفى ، هل يقول له ان انفجار الانبوب حدث  
بالصدقة ، لم يكتشفه بالمحبس ، هل يقول لهم انه يفت الصدقة لأنها  
تدفع بالشظية الى الاتجاه الذي تحدده وليس الذي يقدره هو ، إنها تنتهي ثم  
تندفع ليتطابق الظل بالأصل ، يمر بعينيه على كافة الواقع المرتفعة المشرفة  
عليهم ، يمكن رصد اللهب الآن من صفة الخليج الغربية ، سيستمر  
اياما ، الوجه راضية ، تنظر اليه بقلق واعجاب ، لكنه غير مقتضى ،  
لا يتباhe ذلك الماء الذي يراوده بعد أداء عملية ناجحة ، هل ما جرى  
صنعه الصدقة أم يداه ؟ لا يذكر متى تحدث أمامه أحد الضيّاط عن شاب  
تخرج في الكلية حديثا ، ابتسם شخص ثالث ، قال باعتزاز .. إن  
تلمني .. إنه صناعة يدي .

---

اليوم الرابع ..  
١٦ أكتوبر ١٩٧٣

فجأة ، يصدر أمرا بالتوقف ، يبدو الصمت مضاعفا ، والليل بلا  
قاع ، كان خطوهم أوجد للصمت صوتا ، ما من شيء اجبره على اصدار  
الأمر بالتوقف ، لكن طول السير ، وصعوبة الطريق ، يحب الأمر بالتوقف  
فجأة لابقاء حالة الترقب حتى لا يتسرّب الخدر بأى درجة إلى المخواص ،  
الليل لا يفصح عن محتواه ، كل خطوة الى جوفه مهددة بالبلاغة ، يطوى  
الليل من المفاجأة بقدر ما يتحقق له من غطاء ، إنه يشير باستثناف السير ،  
مع الرياح التي تمضي من الشمال الى الجنوب تصل اليهم أصوات العدو ،  
أما أصواتهم فتولى الى الخلف ، الحديث من نوع تماما خلال المشي » أما

احتکاك الاحدية بالصخور فلا يحدث أى صوت بفضل طبقات الفلين المضغوط ، ينظر الى السماء ، يتأكد من اوضاع النجوم ، الاتجاه صحيح ، بحسه يدرك أنهم يسلكون الطريق الصحيح ، لكن لابد من استشارة الاشياء الازلية التي لا تغير مواضعها أبداً ، يتوقف امام ربوة متوسطة الارتفاع ، يلحظ ظلا خفيفا للعقيد علاء ضوء النجوم أو هذا الوهج الخفيف الذي يسبق شروق القمر ، في ثبات سريعة يرتفق الربوة ، يتبعونه بنفس الترتيب ، يل هذه الربوة مسطح من الارض يخلله حفر ، ثم مضيق صغير يقطعونه جريا تفاديا خطرا الحصار ، يكره القتال وظهره الى مانع الا إذا اجبرته الضرورة ، عند نهاية المضيق توقف ابو الفضل ، في لحظة الخطر يطلق الاشارة الحمراء ثابقا سواد الليل ، ثم يشتبك ، تزداد الأرض وعورة بعد عشرين خطوة سريعة توقف الجندي الدمياطي والجندي الجرجاوي ، كمبن غير مرئي يتم اسقاطه خلال المعركة ، من الصعب اكتشافه ، بعد لحظات يبدأ الانتشار ، يتوقف الرفاعي عند مشارف الليل وكأنه سيسلق الأفق ، توقفه يعني اتجاه كل منهم الى الموقع الذي ستتصب فيه الصواريخ ، من قبل ضربوا هذا المطار ثلاث مرات ، تبدو أضواء مفاجئة ، نصل من الضوء الأزرق يشق الصمت المعتم ثم يختفي ، هدير مكتوم ، تلتقط اذناه كافة ما يصدر عن المكان ، لو تغير ايقاع تنفس أحد جنوده يرصد الخلل ، يستمر المدير ثابنا لا يقترب ولا يتأى كخطوات جنود

ثابتة « مملكت سر » احدى العربات المدرعة « تسخن » المحرك ، لم تفارق مكانها ، زفير العادم يتالى لكن ثبات المديير لم يتغير ، عربة نصف جنزير على الارجح ، المؤكد انها ليست دبابة ، هذا يعني انهم ربما تحولوا حول المطار في أي لحظة ، آه لو توجد وسيلة تصل بين الطلقة والمدف المرجو ، توجد مسارا لا تخيد عنه المقدمة المدية ، فينغرس الصاروخ في وسط العربة نصف الجنزير ، أو في ميس الضباط وقت العشاء ، أو في قلب غرفة عمليات المطار ، الآن يمكنهم الاتصال وتركيب الكاتيوشا بهدوء ، الخطر محتمل من الأرض ، الهليوبكتر لديهم لا يطير ليلا الا الضرورة قصوى خاصة في أماكن وعرة كهذه ، أما الطيران المقاتل فيمكن ان يظهر في ثوان ، لا يخفى اعجابه بالسرعة التي يستجيبون فيها لواقعهم المهددة ، في ثوان يظهر الطيران ، يجب ان تتعلم الأشياء الجيدة من العدو الذي نقاتله والا نترك له فرصة معرفة الجيد فيما ، عند الحد الامامي لمنطقة عمل المجموعة تحرك بحذر ، تخوس عيناه باستمرار ، يحرصن الا يدرو ، لا يفرد قامته إن الأمر يتعلق الآن بالرجال المنهمكين في نصب الصواريخ ، يرهف السمع ، صفير خفى يسرى في قلب الريح ، وشيش كأمواج البحر يسمع من بعيد ، نداء ناء يجذب على نداء ، أنه يطيل الاصغاء ، يضم شفتيه ، ان نصلا نحيليا ينجزه حيث لا يرغب ولا يريد في هذا الوقت بالذات ، في اللحظات الأولى لم يبول انتباوه عما يحفل به الليل وهذه الارض التي يحتلها

---

---

النرباء . ليس من المعقول أن يحدث ذلك الآن ، يحييه شعور حاد بالقبيء ، يضغط شفته السفلية .

يندس خنجر حمي بيده في معدته ، يعرف أن الالم سيتشير كبقعة الخبر فوق الشاف ، قبض على المدفع ، أقصى مؤخرته بمعدته ، يتتبه إلى أن جسده تقوس ، سيلفت هذا نظر علاء ، إن علاء يحمل الأبر المعقنة ، ما عليه إلا أن يقترب منه ويفرسها في فخلنه من فوق الأفرول ، سيختفى الألم ، لكن مجرد اشارته الآن إلى علاء ستحدث ارتباكا ، سيسأله كل منهم ماذا حدث للرفاعي ؟ وعليه إلا يتأقلم تصرفا يؤدى إلى أن يشغل اذانهم بمثل هذا الاستفسار ، تتوجل اسنانه في شفته ، يهدوه بচن ، ي gio بعينيه في العتمة ، يجب الا يغفل لحظة ، حياة الرجال من المداهنة مسؤوليته ، انه يخاطب معدته في صمت ، يعاتبها ، اهذا هو التوقيت المناسب ؟ ليتأجل الألم ، وعندما يصل بالرجال إلى الامان سيسلم للفتك ، لن يقاوم وخزا ولن يتصدى لهذا التأكل المر داخله ، لن يسكنه بالأبر المخدرة ، لم يمرر الألم كما يشاء لكن ما يرجوه ان يكفي الآن ، ان يهيج ، ان يستكين ، ان يصمت هذا النباح الانحناء قليلا ، قطرات عرق ، تهوى به الأرض ، قوة خفية تسحب روحه إلى أسفل ، هذا الاحساس المقيت بالأنهيار ، يهوى ، اثبت ، حلق البصر يا رفاعي ، ارهف السمع ، ألم تقاس ما هو أفعظ ؟ ، ألم تعان الظلمأ ساعات طوالا وانت تبحث عن الدورية المفقودة غرب القيوم والماء في يديك ترفض ان تقر به حتى تشعر بآلام الشاهين وتستحث نفسك على التقدم اليهم ، اثبت ، صد هذه الطعنة ، لكن ألام الظلمأ في متناول اليدي ، تخفها جرعة أو يسكنها الأمل ، موجات متالية ، اتبه إلى ما يطنه الليل ، قلص وجهك كما تشاء وبعد لحظات ستواجه الرجال ويجب ان

---

---

تبعد طبيعيا للنهاية ، أى ارتعاشة بادية سترى في أوصال المجموعة ، لو صحت على العقيد علاء فربما يشعر الرجال بأن ثمة شيئا جرى ، عندها لا تدري نفسك بماذا سيتصرفون ولا كيف سيعودون « ترفض معدته الاستجابة إلى أى رجاء » ان فليقمع هذا الألم بالألم ، يضغط معدته بالدفع وتغوص أسنانه في شفتيه يمكّن ان يستمر في غزوة الليل ، ان يسدد اليه السمع ، يجب ان يستعد للقتال ، ان يثبت في المقدمة ، لو يصل الى هذة مع الألم سيسسلم له في القارب وليس عند الوصول الى الضفة الغربية ، حال ، لن يمكنه دعوة العقيد علاء الى الركوب معه في نفس الزورق ، سيثير هذا شكوكا ، قفاز من اللهب يلكمه ، انه يتلو بالله في مواجهة الليل ، يعود المدير ، نصال الضوء تشق العتمة فوق المطار ، يندلع الالم ، الم يتحمل أو يجاعا أشد ، هذا الصداع الذى ياغته ، يهشم داخل عينيه وجانبا من رأسه ، تعرف نادية بعد طول معايشة اللحظة التى يبدأ فيها الألم ، بالملعنة ألوى الرأس .

تمام يا أفندي ..

يحاول أن يبدو طبيعيا ، يجيئ ، الخطر من الداخل أيضا حيث لا يمكنه اقامة غلالات نارية او ستائر دخانية ، يعكمه الوخز ، يتوقف علاء بجواره ، من صوته يدرك أنه يبتسم .

يا سلام لو نقوم بزيارة المطار ..  
يقول الرفاعى  
الليلة ستتوب الصواريخ عنا ..

---

يجب الوصول الى الشاطئ في نفس التوقيت الذي تطلق فيه الصواريخ ،  
يتقدم خطوات ، لوطء الأرض صدى وترجيع في احشائه » يقول مصطفى  
بصوت خافت :

يا أفندي .. انت لم تبارك العملية .

معك حق يا مصطفى ..

المرة الأولى التي ينبعه أحد رجاله الى عادة لم تنقطع أبدا » يهادنه الوخز  
لحظات » يجب ان يمحج ما يشعر به ، يتفحص الاسلاك ، و « الفيش » وأوضاع  
الصواريخ ، يعود ليتقدم الطايبور ، يجب الا يلحظوا أن ثمة رياحا خفية تحاول  
هز الجزء وأن هجيرا قاسيا يحاول قص الظل ، لكن بعد العديد من الخطوات في  
طريق العودة عليه ايقاعا لحركته لم يقصده ، انه يقت بعلاه وابو الحسن وسمير  
وكل من معه » لكن لن تدركه الراحة الا إذا تأكد بنفسه ، سيعتبر هذا نذير  
سوء ، كما علمته الايام رصد اي تغير في خطى ضباطه وجنوده اثناء سيرهم الى  
المدف فربما رصدوا في عجلاته ما يقلقهم الآن ، انه يتوقف وفي اللحظة نفسها  
تتوالى الشظايا المكتومة تتفج جدران معدته ، لكنه يمتهن في الا ينحرق حتى .  
سيطول الأمر دقائق أخرى ، ولو ، كم من المرات تجاوزوا خلالها التوقيتات  
المحددة ، لن يشكوا في عودته لأنهم اعتادوا منه الدقة .. ينظر الى علاء ..  
« ساعده » لابد أن ألقى نظرة أخرى .. اخذوا أوضاع كمين .. يشير الى ابو  
الفضل :

« سأتقدم .. وغطيني »

اليوم الثالث ..  
١٧ أكتوبر ١٩٧٣

عشرون ساعة تقريباً انقضت حتى الآن ، لابد أن مرات المطار عادت تعمل الآن بعد ان تساقطت فوقها الكاتيوشا ، تعطيل ساعة واحدة في زمن الحرب شيء لا يستهان به « يحتاج العدو الى كل عمر ، الى كل دقيقة من عمر المطار » في مواجهته يعلو الخليج عنيقاً كالقدر ، الاسماك الفضخمة تأوي الآن الى الاعماق البعيدة ، وتدق أجراس الإنذار فوق السفن البحرية ، ويرافق الرياح عوبل دائم ، وينظر جنود العدو الى البحر العاصيف باطمئنان ، لن يأت أحد في مثل هذا الجلو ، ثم من يغامر بالهجوم مرة ثانية على نفس الهدف ، في نفس التوقيت ؟ في العصر عندما بدأوا تجهيز القوارب التي استخدموها أمس نظر اليهم ضباط البحرية في القاعدة بدهشة ، قال أحدهم لوسام إن البحر قوته ثمان درجات ،

ابسم وسام ، وقال ان الجميع يعلمون ذلك ، عند الوصول الى الضفة الاخرى متذوس أقدامهم نفس مواطن الامن ، لكن موقع نصب الصواريخ ستختلف ، سيتجهون الى منطقة مرتفعات صخرية عجوز لا تصلح لعبوٌ الميلوكبر او تقدم المدرعات ، بل ان المشي فيها امر صعب وكريه ، في الصباح ابدي علام سرورا لأنهم سيهاجرون المدف مرة أخرى ، ما يثيره غير المأثور ، مهاجحة هدف مرتين امر ليس جديدا على المجموعة ، لكنه ليس أسلوبا ، لا يعرف الرفاعي بأساليب وطرق ثابتة ، من السهل عنده ان يكتشف وان يرصد ، كل شيء في الكتب ، لكن ثمة أشياء كثيرة لم تلوّن بعد في الكتب ، في لحظات الاستغراق تفاجئه الفكر ، في لحظة استسلامه للنوم يباغته الحال ، من حوار عادي مع أحد الجنود يتغير الاسلوب ،

الآن يرقب رحيل النهار السريع ، لن تخفي لحظات الا ويسلو أول نجم ساطع ، هو النجم الذي يرحل بعد سفر كل النجوم ، يتابع رص الصواريخ ، وصناديق الذخيرة ، وتنشيت الم TORATS الى القوارب ، عندما ناقش تفاصيل هذه العملية ، قيل له ..

ولكن ذلك ينطوي على مغامرة ..

قال بوضوح :  
نعم ..

لم يبح بتفاصيل ، أكد ان المسئولة تقع عليه هو ، ثم أى الامور لا تخلي من المغامرة ؟ صغرت الموقف أو عظمت فكل موقف يحتوى على قدر منها ، قالوا ان عبور الخليج في مثل هذا الجو وبن تلك القوارب خاطرة ، قال انها ليست المرة الاولى ، ثم هذا ما لديهم من امكانيات .

قام يا أفندي ..

يقف علاء صارم الملامح ، كل شئ معد للرحيل ، منذ ساعتين قال علاء انه من الفضولى أن يستريح قليلا ، نظر اليه معتابا ، كم يوم مستمر الحرب ، الم يقض كل منها عمره في انتظار تلك الايام ، من يدرى ماذا سيحدث غدا ؟ أم أن علاء يفكر في خروج المجموعة بدونه ، قال علاء انه يفكر في الأمر كطبيب ، ضحك ، أما زال العقيد علاء يعتبر نفسه طبيبا ؟

الثاني ..  
الثاني عشر من أكتوبر ١٩٧٣

القاهرة .. كما اعتادوا لقاءها ، لكنها تختلف كثيرا تلك الأيام بعد عودتهم من صفة القناة الشرقية يصر قادة الوحدات على بقائهم ، لكنهم يعتذرون ، يحدث هذا العناء السريع ، الموجز ، الرجل ، الحار ، تتصافح الأيدي بقوة ، في الفراغ الفاصل بين العيون يتعلق رجاء ، نرجو أن يرى كل منا الآخر ، الرمال صفراء ، والملابس صفراء ، والخطر فوق الرؤوس ، وقصف المدفعية لا يسبقه انذار ، والأيام كاكية اللون معبة برائحة الدشم ، واضطرباب مياه القناة ، والسمك كبير الحجم الذي تضخم وتتوحش لابتعاد الصيادي عنده ، وطفوه ميتا بعد كل اشتباك ، ثم الطرق الصحراوية ، وموانع الحراسة ويزروز عربات النقل عند التنجيفيات ، وجندى وحيد يمشى فوق الرمال حاملا صفيحة مياه ، أو طعام أو شاي بينما لا تبدو على مرمى النظر منشآت أو مبان ، حتى ليظن المرء أنه يتوجه بمشيته إلى تلك الصحراء الفسيحة . ساعة

ونصف كانت تفصل القناة عن القاهرة ، فجأة تبدو عمارة حديثة » وتكسي اجرة بلونيه الاسود والابيض ، ثم تعبر الطريق ثانية ، وشبان ، وعربة يقودها رجل مطمئن الملامح ، ثم اعلان سينما ، كان العقيد علاء يظل منحنيا ، يحملق في كل ما تقدمه المدينة مع العودة ، يتساءل ، احقا هذه بلدة لا تبعد عن العلو أكثر من ساعة ونصف بالسيارة ، احقا لازلتني في بلد واحد ، ثم يشير الى مجموعة شبان » شوف ، هل يشعرون بنا ؟ يصفعي الرفاعي ولا يعلق ، أحيانا تستغرق العودة الى المدينة » الى تلك الشوارع التي احب الشئ فيها صباها ، تلك الساعات التي يدرو فيها ضوء النهار شفافا ، يدرو كل ما يحيطه كأنه يرى من خلال زجاج لا ملمس له ، تلك الطرق المترادفة بعيدا عن الضجيج ، الشارع الذي كانت تطل نادية من احدى شرفات البيت الأول فيه ، في الخامسة عشر كل يوم تقف » وتحبى » متمهلا ، هكذا انفقا في التليفون ، ويراما هدفا ساطعا ، ويرصد ضوءا خفيا لا تلتاه الا عينيه هو ، يستجيب قلبه فيتحقق ، هكذا زمانا لا يرى كل منها الآخر الا لحظات ، كثيرا ما أوقف سيارته أثناء نقله وجدوا لي Mishni في هذا الطريق الذي تبدو البيوت فيه مأطية بالخضرة ، والستائر مسلدة موحية بالاسرار » يود لو يرحل الى كل مدينة قضى بها زمنا ليرى بيتا ، او جرسا في مدرسة كان يتظاهر زينه بلهفة ، او « كويرى » خشى في بلقاس ، وذلك المسجد المورق بالستين في ملوى ، والملحق للتراب المؤدى الى جبل درنكة بأسبيوط ، والقوارب التي تعبر النيل من الغرب الى الشرق بالأقصر ، وتسلن الجبل الفاصل بين معبد الدير البحري ووادي الملوك ، وتلك الصخرة غريبة الملامح في اسوان ، والمسيرة الناقصة ، والمرتفع المؤدى الى ضريح أبو المول ، هذا الشارع المائل بالحنين المؤدى بالأشواق الى البحر في الإسكندرية ، والوادى المبطن بأشجار من حجارة في الصحراء الشرقية ، والمقابر المقتوشة في كهوف لم

يرها أحد ، الوقوف عند سفح جبل الجلالة ، وعيون تتدفق منها المياه في أقصى منطقة البحر الأخر ، ومدخل البيت ، يود لوم نفسه من كل جزء عبره يوما ، ان يرى كل هذه المناطن بنظرية واحدة ، في كل مكان أودع قطعة منه ، وترك مقداراً من عمره ، انه يفهم علا ويدرك حذته ، لكنه لا يناقشه ، ته جاءه الى الدنيا ليقاتل عن كل الذين مر بهم وعرفهم أو مشوا معه وجاوروه في تلك القرى والمدن عن كل من يعيشون في هذه المساحات التي طار فوقها بالهيلو كيت وبالاتينوف وبالاليشن ، كل من ورآهم يرشفون الشاي في المقاهي ويختفرون باعياد الميلاد ، ويهسون بالنجوى ، ويبيحون ويتاجرون ويفكرون في أي شيء سيأتي به الغد ؟ عن كل المارين بجوار مرقد الحسين ، والدائرين حول ضريح الامام الشافعى ، والساعنين الى سيدى القولى ، والمقبلين لضريح السيد ، والواهبين نلورهم ليسى عبد الرحيم القنائى ، وسيدى الليث ، وعزلاء السيدات المرتديات السوداء ، المتوجهات الى الاسواق الصغيرة المقابلة بين القرى ، الخاملات فوق رؤسهن بضاعتهن ، يقابضن ومجادلن ويدخرن القوت لاولادهن ، صاحبات الوجوه المرهقة يزنن ثقل الولطة ، اذ يراهنن يتفق قلبها تائرا ، ويسود لو قدم مساعدة ، او ابدى ما يخفف حل الايام ، تهز ملامح الامهات المصريات التي تحمل بصمات الصراع مع الزمن والرجال في المدنة معه ، ملامح لم يرها في اي بلد آخر ولا على اية ملامح اخرى ، لا يضايقه ان الواقعين بالشارع ، او الجالسين بالمقاهي لا يدركون بما يقومون به ، ليس لأن اعمالهم قدر ما أن تولد او أن تنتهي في كتمان كثيف ، اما لأنه جاء الى العالم ليحارب لا لكي يقوم بآى شيء آخر ، يقاتل عن هؤلاء ليؤمن النظرة المادئة في العيون ، يسع من يسعى بلا خوف ، رعايا يرجو منهم قدرًا من المبالغة ، لكن ما ذنبهم ؟ كثيرا ما قال لعله ، للناس في بلادنا خاصية تختلف عن كل ما نعرفه ، فلتتشتبه العرب .

---

لتصفح الجميع الى أول بيان من الراديو وتنتظر الى ما سيديه كل منهم .

ها هي البيوت غارقة في النعاس ، شبان يرتدون لباس المقارمة ، يقفرن مجهددين ، باليديهم مصابيح يدوية ، لكن لا سلاح ، لفترض أن دورية معادية فاجأت هؤلاء ، كيف سيقاومونها ، تتوالى التواصي أحد الرجال ، ييلو كمساريات بالسكل الخديدة أو أمترو بلوح لم يله ، يرفع يده بالتحية ، هذا التضامن الخفى ، المدينة لا تتجاهل عودتهم هذه المرة ، تستدير مقلعة السيارة ، تتجاوز البوابة الخارجية يرتفع الحاجز الخشبي ، المباني يحيطها ضباب خفيف ، يلم بكافة التفاصيل .. اذن قدر له أن يرى هذا كلها مرة أخرى ، لا يذكر متى توقف في الحديقة المؤدية الى المكتب ، فوجيء انه يختوى ما حوله بعينين غير عينيه ، عيناً عجول بقى في الدنيا بعد رحيله ، توقف لحظة ، لماذا فكر هكذا ؟ وأى حالة غريبة هذه ؟ انه ينظر الآن الى المكان كله ، يصفعى الى حرارة اللقام بين الذين بقوا والذين عادوا ، يقبلون عليه ، يعانقونه ، يستدير حول المنضدة المقتلة بالاوراق والخرائط ، هل يدبر القرص ؟ كل يصفعى الى صوتها الذى سيدر هادئا ، في الايام البعيدة كانت نادية تتضرر عودة المليون بكر ، وترمق الطائرة من موقعها في شرفة البيت ، لكن أكثر طائرات المليون بكر الان ، فقط يدبر القرص وسيئى ، صوتها زريا تصفعى في هذه اللحظات الى اذاعات العالم ، لكنه لا يدري انه يخجل ، كل رجل هنا يتطرق الى رؤية أولاده أو سماع صوتهما ، انه يقف أمام الخريطة الضخمة الممتدة بعرض الحائط ، يتقلل من بالوظة على البحر الايبسن الى رأس محمد في الجنوب ، يخلق بعينيه فرق الخليج ، شلاطيم ، رأس سدر ، كيف تبدو مياه البحر الان ؟ كم سرعة ارياح في الخليج ، قوة البحرب اشمال ، وقوة التيار في القناة ؟ ما هي أوضاع القوات ؟ كم لغها رصه العدو

---

---

---

حول مستودعات البترول هذه ؟ وابن تجع احتياطيات العدو ؟ كيف يمكن  
تقليل الخسائر ؟ كيف يبدو الشروق في كل موقع من مناطق القتال ، كيف تبدو  
الشمس فوق المعابر ؟ عند الخد الامامي داخل سيناء ؟ كيف يراها محارب جرح  
الآن ؟ بالضبط الآن .. يدق جرس التليفون ..

- صباح اخير ..

.....

- قام .. علم يا أفندي ..

---

---

الجمعة ، التاسع عشر  
من أكتوبر ..

تتوالى الانفجارات ، طلقات مدفعية سريعة ، صاروخ يتمزق منفجرا «  
تنطلق فانتوم في خط مستقيم متوجهة الى عين الشمس كأنها ستبطئ هناك ، في  
اثرها طائرة ميج تمسك بذيلها ، بدا في الطاردة ملحان انسان كان شخصا يعدو  
وراء الآخر ، لكن لم يرصد أحد لحظة اطلاق رشاشات الميج :

يقول الرفاعى انه سيتقدم الى اقصى حد ممكن ، وان مصطفى سيسحبه .

يقول علام ان الموقف غامض « والتقدم فيه مخاطرة لهذا يرجوا ان يقوم بهذه  
الاستطلاع هذه ..

يقول الرفاعى بهدوء ان مهمه الاستطلاع ستم كينا حمله هو ..

---

يبوی انفجار هائل من السماء ، تترقب اصداء متالية ..  
يقول علاء انه من الضروري ..  
يقول الرفاعي ..  
لاء .. هذا أمر ..

ماذا يحمل هذا النهار بين طياته ؟ أول مرة يتحدث فيها بصيغة الأمر ، والى من ؟ الى علاء ساعده الأيمن وسنده ، انه يشير الى مصطفى « تلف عجلات الجيب في الرمال » ، تشب ، تراجع ، تقدم خلقة عباراً أصفر ، ينطبق رشاش بعيد في عصبية ، يتوقف فجأة ، يستدير ، يود لو يلقى عليهم نظرة ، ان يثبت الملامح في ذهنه ، أجل هذه النظرة حتى يتبعدهم عنهم عدة أمتار ، لكن هذه الشيبة من الأرض أخفتهم ، حالت بينه وبينهم فلم يعد يراهم ، ينحني مصطفى الى الامام ، جنزير دبابة مفرود كثعبان هددت حركته فلم يعد قادرًا على التلوى « الرفاعي يتأمل الجنزير ، جنزير مغطى بطية من الكاوتشوك ، وصلوا الى هنا اذن وتمكنوا من سحب جسم الدبابة ، ريعا حدث هذا ليلا ، جندو يلوحون باليديهم مدرعين ، يلتقطون الى عربة الجيب بدھشة ، الى اليسار يتضاعد عامود من اللهب الحاد ، تخلله بقع سوداء متطايرة ، عربة جنزيرة « توباز » يتدلى رأس تفح من الفتحة العليا ، بدت التوباز مصيلة محكمة للأعمار ، فوارغ دنانات ، بلمع الكلمات العبرية بسرعة ، وصلوا الى هنا ، لكنهم غير متواجددين الآن ، يتجلولون في المنطقة ، لم يستطيع تحديد عدد الجثث التي تختلط بعضها على جانبي الطريق ، هرستها الدبابات ، لم ير عضوا سليما واضح المعالم ، رأى حذاء يطل منه بقايا قدم ، ورقبة مشطوفة ، خلائق مطمور ، يميز شفتيه ، احدثوا هذا عمدا ، يقيمون معرضها للقزح والرعب ، يلا قلبه حتى ، تتواكب الجثث

---

---

---

المتراسة » في خياله يرى كل الأحبة الذين يعرفهم في موقع هؤلاء الذين لا يعرفهم ، يرى مصطفى ورقة العمر من بين حبيبه حتى هذه اللحظة ، علاء ، شقيقه سامي وملامحه الطيبة ، وخجله في مواجهة الغرباء ، زيتون يده المقطوعة ودابة المائل حتى تصبح البسيط أشد فاعلية ، أبو الفضل وانتقامه العميق لمجموعة ، نظرة الود في عينيه » في الطابور » بعد العملية » في رقاده يستشفى المعادى » يدى وسام » شريف ، تلك الأعمار التي لازالت في بدايتها ، الملائج التي يراها في وجوه المجندين الجدد » هذا العلو الدموعي الجبان الذي يبرس جنة ويطمر خندقا بالجنازير يستهدف كل الأحبة ، ارادوا بث الفزع ، لكنهم استثاروا فيه الكراهة وغضب مر ، واستغزوا في الحقن ، لماذا جلد الموق ؟

قف هنا ..

توارى السيارة خلف مرتفع رمل ، تأذن صواريخ أرض - أرض فوقهم ، رشقة قوية لم تتبعها أخرى ، يصبح انسان في مكان قريب ، تنفذ الصيحة خلال عدة انفجارات » لكنه لم يستطع تمييز اللغة ، خلف الكليب انكفاً جندي » وجهه مدفون في الرمال ، خطيب دم تحيل يصل ما خلف الاذن البسيط والارض الرملية ، في المعدة اما أن يدفن الجثمان أو يعود به ، في السماء ينطلق وهج أبيض تحيل اخترق ضوء النهار ، الى اليمين على بعد حوالي خمسين مترا سكت ايربال قاعدة الصواريخ ، عربة مقلوبة امام الدشمة ، الصواريخ ، مقتادة ، فوق مقذمه احدها تعلق جثمان هامد ، بما كانه محول على مقذمه رمح غليظ هائل غسكه أيد خفية لا ترى ..

---

يشير الى القاعدة ..

سابقى هنا .. اذهب ودمر كل شيء ..

يسرع مصطفى « حذاؤه ينثر الرمل » من بعيد يختلط لون الأشجار بصفة الرمال ، تصاعد النيران من أماكن متفرقة ، عربات نقل دهستها الدبابات ، عربات مدرعة ، تخترق ، ينظر الى السماء ، يندفع على الطائرة ذعر انسان ، من هدير صوتها ادرك أنها ميراج ، ان ثمة احساساً يبدأ لديه ، عندما يشعر في المكان الذي اعتاد عليه انه ليس وحيدا ، وان ثمة غرياء يرصدونه ، لحظات ما قبل اكتشاف الهدف ، تستقر الحواس ، الميج تنقص من أعلى ، لاتزال ظهور الطيران يثير فرحة ، أحاسيس متبق من حرب الاستنزاف ، يتوقف عن التجول بعينيه ، يركز البصر في اتجاه الخضراء ، يفصل عن الاشجار جسم معدن محمد الخطوط واللامع ، تتحرك يده بالمدفع ، ينظر من خلال دائرة التثنين « باتون ٦٠ » تتوقف الدبابة لحظات ، يتحرك البرج بينما ثم يستدير الى الشمال قليلا ، لم تستقر بعد على اتجاه محمد ، كأنها تقسيط توازنها ، من حركة المركبة يستشف ما يدور داخل أفرادها ، هذه الدبابة حذرة ، يبدأ صوت رشاشاتها ، تظهر طريقها ، تتمركز المقدمة داخل اطار التثنين ، يضغط ..

بسرعة يتناول مقدماً آخر ، سخن الماسورة قليلاً لكنها لن تحتاج الى تبريد الا بعد أربع ، خس قذائف ، في البداية ولدة أجزاء من الثانية كان شيئاً لم يحدث ، يغوص النصل في الجسم ثم يتدفق الدم ، الآن ينفجر الهب ، دخان كثيف ، له قوام ، تبتعد عيناه عن الدبابة ، هذه الأرض تخفي آخرين ، تتردد صيحات متباude ، الله أكبر .. الله أكبر .. يمرى مصطفى ، تنفجر دانة

خلفها ، ترتفع حرارة الجو ، يدوى انفجار ازرق هائل ، يتميع لون الفراغ ،  
يفضي الهواء دخان رمادي ، كأن الشمس انشطرت ، فرق قاعدة الصواريخ  
الستة هب بطيبة كأنه حريق في مستودع كيميائي في نفس الوقت يبدأ انفجار ذخيرة  
الدبابة ، ثم تنفجر الدبابة نفسها يقول مصطفى ..

فجرت كل الصواريخ .. احرقت كل الاوراق ..

يصبح الرفاعي ..  
مصطفى ..

من الخضراء تبدو دبابة ، ثم تخرج دبابة أخرى ، ومن الرمال الصفراء المرتفعة  
تطل مقدمة دبابة ، وياجاه القناة تبدو عربة نصف جنزير تحمل مدفع هاون ، وفي  
السيء أزيز طائرة هيلوكبر ، تظهر ثلاث طائرات تطير في خط مستقيم ، من  
مكان ما ينطلق مدفع يشعل النيران في دبابة ستوريون ، لكنها تستمر في  
التقدم ، تتوقف فجأة ، تتجاوزها دبابة ، على مرتفع مجاور تتأثر بثبات  
صحراوية شاحبة في السيء ينطفئ « بريق النهار » يتكلف الدخان حتى يمكن  
النظر إلى قرص الشمس من خلاله ، يضغط الزناد ، يناله مصطفى الدانة  
يدوى صياح جاعي في موقع إلى اليسار ، يرتفع غبار في المواجهة ، تتوالى  
اصوات الرشاشات سريعة ، لا همة كماكيينات خياطة تعمل في ورشة فسيحة بلا  
سقف ، يرتفع صياح من أماكن متعددة « تخترق دبابة أخرى » وفي الفراغ ترتفع  
دانة هاون كرمش العين اذ يهتز بسرعة مطلقة ازيزاً كتحلة ثبو ، ويعيناً يتوارى  
النهار الأزرق الشاحب ..

---

---

البيوم الثاني ..

الثامن عشر من أكتوبر ١٩٧٣

القاهرة .. كما اعتادوا لقاءها ، لكنها تختلف كثيراً تلك الأيام » بعد عودتهم من صفة القناة الشرقية يصر قادة الوحدات على بقائهم ، لكنهم يعتذرون « يحدث هذا العناء السريع » الموجز ، الرجلى ، الحار ، نرجوا أن يرى كل من الآخر » الرمال صفراء » والملابس صفراء ، والخطر فوق الرؤوس ، ونصف المدفعية لا يسبقه انذار ، والأيام كاكية اللون معقبة برائحة الدشم ، واضطراب مياه القناة ، وطفوه مينا بعد كل اشتباك » ثم الطريق الصحراوية » ومواقع الحراسة وبروز عربات النقل عند المنحنيات ، وجندى وحيد يمشى فوق الرمال حاملاً صفيحة مياه » أو طعام أو شاي بينما لا تبدو على مرئى النظر منشآت أو مبان ، حتى ليظن المرء أنه يتوجه بمشيته إلى تلك الصحراء الفسحة ، ساعة

## التكوين

قبل ظهر السبت الحادى عشر من يونيو عام ١٩٦٧ ، وقف النقيب بحرى وسام عباس في منطقة لسان بور توفيق ، حوله تخلخل النظام ، وانفرط « عشرات الضباط والجنود عبروا القناة اما فى قوارب أو سابعين » وفي السويس انشئ مركز لتجميع الشاردين ، فيما بعد استعاد كثيراً هذاناللقط ابن تلك الأيام ، الشاردين في الواحدة ظهروا ، جنديان توقفا فوق مرتفع من الأرض ثم انضم إليهم ثالث فرابع فخامس ، رأى لأول مرة الرزى الاسرائيلي العسكري بلونه الزيتونى ، الاكمام المثلثة حتى متتصف الذراعين « ومن عدستى المنظار رأى وجهها ايضاً ، طويل الشعر » من الخلف دفعوا بطابور من ثمانية أفراد ، يدى كل منهم مربوطة الى الخلف »

أوقفوهم بالقرب من المعدية ، ابتلع النقيب بحري وسام لعابه ، وفي هذه اللحظات عرف قلبه هذه الظاهرة التي أصبحت تلازمه فيما بعد ، دفقات مفاجئة كان دماء مرت من قلبه مرة واحدة ، تصل آثار الخفقة إلى أطرافه ، ويسرى خدر في مؤخرة رأسه ، قال العقيد علاء ان قلبك عصبي وأصحاب هذه القلوب يعيشون طويلاً ، لسبب ما أدرك أن هؤلاء الثمانية حفاة وان اقدامهم متورمة مع انه لم ير ذلك ، طاف العدو حولهم مشهرا رشاشات العوزي ، من الواضح انهم أوقفوهم فوق مكان مرتفع حتى يرahlen كل من يختلس النظر أو يحملق من بور توفيق أو الشاطئ العريض الذي استلقى عارياً من الواقع والدشم والاسلاك الشائكة ، تقدم أحدهم ، كان نحيلاً ، ويدا المشهد كأنه اعد بعناية ، طاف العدو والنحيل حول الثمانية مرتين ، صفع الاول ثم صفع الخامس ، وامام الثامن تراجع قليلاً الى الخلف ، وفي هذه اللحظة رأى النقيب بحري وسام عباس يده ممسكة بمسدس مشهر ، عاد العدو يمر أمامهم وكأنه يستعرضهم ، ثم رفع المسدس الى منتصف جبهة الأول من اليسار .. طلقة .. سقط خطأ خطوة ، طلقة ، سقط الثالث ، طلقة ، سقط الخامس ، طلقة ، آخرست الى الابد الذعر الانسان الذي بدا واضحاً على السابع ، قال النقيب بحري وسام عباس الذي خاض في الدم بعد ذلك خوضاً ، انه ما رأى طوال حياته اشنع من ذلك قط ، اربعة قتلوا بالصدفة وبال اختيار

الحر من العدو ، واربعة بقوا على قيد الحياة بفضل مكان الوقوف ، امسك العدو بوقا يدويا ، وصاح طالبا صناديق الكوكاكولا قال ان هناك عددا من الضباط والجنود ، مقابل كل انسان زجاجة والا سيلقى الجميع مصير هؤلاء الاربعة ، عندما وصل الاربعة الاحياء الى الضفة الشرقية تقدم منهم ، كان أحدهم ينظر في اتجاه واحد ، متهم الوجنتين ، مقدم النظارات ، يستدير كيما يوجه ، يقولون له أمش فيعش ، ويطلبون منه الوقوف فيقف ، اذا ترك مكانه فلا يهتز مقدار شعرة في انتظار من يقول له افعل كذا ، غير ان ما جرى لم يكن النهاية ، حوالي الثانية تجمع عدد كبير من النازحين القادمين من اعماق سيناء ، من غزة والعرش ، مرة أخرى عادت المعدية التابعة ل الهيئة قناة السوس ليفتدى كل انسان بزجاجة كوكاكولا ، لم ينقطع العوبل والصراخ منذ ظهورهم غير أن العوبل الذي ارتفع في الساعة الثانية والثلث اختلف ، كانت الشمس تحولت الى النصف الآخر من السماء فاتاح ضؤها الفرصة لبروز التفاصيل ، او هكذا أدرك عندما بدت مستحبة في شد تلك الفتاة من بين أيدي أربعة عدو ، ارتفع مدحع رشاش وهو فوق جبهة الأم ، وخرس الصراخ المدود ليستمر الصراخ المتقطع ، سحبوا الفتاة الى الكشك من الصفيح المضلع لم يكشف وجوده الا في هذه اللحظة ، لم يدر من أقامه ، ولا لأى غرض ، قبل وصوفهم الى الكشك رفع بندقية تناولها من احد الجنود سدد الفوهه الى

---

رأس جندي عدو ، غير أن يدا امسكت معصميه ، ضابط برتبة مقدم ، طوبل اللحية ، منهك الحدقين ، قال .... سيقتلون كل هؤلاء ، وأشار إلى الواقفين فوق الضفة الشرقية ، وإلى الواقفين فوق الضفة الغربية ، ساد صمت ، كان بداية لهذا الصمت الثقيل الذي استمر يراه كلما اقترب من القناة أو عبرها ، حوالي الثالثة خرجوا بالفتنة ، القرها في قاع المعدية ، جاءت إلى الضفة الغربية بلا أم ، مجزقة ، مستوربة بشال رجل عجوز وبين فخذيها سالت دماء ساهم في نزفها ستة عشر « عدو » عندما نظر إليها رأى وجهها عمره عشرة أو خمسة عشر ، وشفاه لم تلشم ولم تنفتح ، لماذا يحدث هذا للنساء دائمًا في الحروب ؟ لماذا هن الضحية باستمرار ؟

في تلك الأيام كان العقيد علاء يسأل نفسه ، لماذا نفعل ؟ لم يغادر مكتبه بادارة المخابرات لمدة اربعة أيام متصلة ، قرأ تقارير واردة ، وخطابات صادرة ، ونشرات معلومات ، وملفات تتضمن ما قالته الاذاعات المعادية ، الاذاعات الصديقة ، طلب وكرر الطلب لكي يذهب الى الجبهة ، قيل له ان الموقف غامض ، ويجب عليه البقاء لممارسة عمله كطبيب ، أخذنه الضيق حتى كاد يبكي فسب ولعن في غرفته عندما انفرد بنفسه ، وطافت به خواطر قاتمة ، كيف يوجد السبيل لمضييه بمفرده ، يعبر ويقاتل . وتساءل لأول مرة عن جدوى استمرار عمله كطبيب والبلد

---

تدحر ، في تلك الأيام جاءت أبناء غير مطمئنة تقول أن لواء إسرائيلياً مدرعاً يتقدم على الطريق الساحلي المحاذي للبحر الأبيض ، وأهدف ، احتلال مدينة بورفؤاد ، وإن العدو لن يتلزم بوقف إطلاق النار ، لم يكن هناك شيء مؤكّد فعيون الاستطلاع مطفأة في هذا الوقت بتلك المنطقة ، ما من أحد يدرى بحقيقة ما يقال ، وبعد مناقشات واجتماعات تمت في عدة جهات استقر الرأي على دفع دورية استطلاع محدودة العدد لاستطلاع الموقف ، ونقل ما قد يطرأ ، فتجلى الحقيقة ، وتكشف المستور من الأنباء ، وفي نهاية هذه الاجتماعات قال ضابط كبير برتبة لواء رداً على تسؤال حول من يقوم بهذه المهمة ، انه يعرف ضابطاً شجاعاً يلح عليه منذ أيام للقيام بعمل فدائٍ ضد العدو المتقدم على المحاور في سيناء « أبل بلاه حسناً في حرب اليمن ، وحصل على ترقيتين استثنائيتين ، ويحمل وسام النجمة العسكرية » وأسمه معروف لكافة وحدات الصاعقة اذ انه من جيل العلمين الأوائل بها ، وهو ضابط شجاع ، جسور ، قلبه جامد ، تسأله أحد الضباط ، من تقصد يا سيدى ؟ فقال انه يقصد العقيد اركان حرب ابراهيم الرفاعي ، عندئذ أومأ الضباط المجتمعون ، وقالوا ، بل ، لقد سمعنا عنه ، فقال الضباط ، وفي هذه الأيام لا أرى أحسن منه ولا ابدى احداً عنه ، ولا اثق الا به ، ثم انها فرصتي لا تخلص من الحارمه ، وأدفع عن ازعاجه ، اذ انه يود الذهاب الى الميدان ، ولا يقتصر

ما اسند اليه من مهام هنا ، قيل له ، حسنا اخترت ، ليبلغ بالمهمة ، بعد لحظات استدعي الضابط الكبير برتبة اللواء ، الرفاعي ، وعندما جاء بدا حزينا في وقته ، مزموم الشفتين ، منتفي الابتسامة وفي عينيه أسى عظيم ، وكأنه لم يذق النوم من ليال طويلة ، وبدا يخفى من الحديث اكثر مما يقوله حتى لو تكلم ساعات ، قال له الضابط الكبير ، استعد للقيام بهذه ، المطلوب مني الذهاب الى الجبهة ، قال الرفاعي ، بلى فعلت ، قال الضابط الكبير ، جهز نفسك ، ثم بسط له الخريطة وأشار الى الخطوط والمنحنيات ، والدوائر الزرقاء والعلامات الحمراء ، والربعات ، والاسهم ، طلب منه اليقظة والحذر ، وأخبره ان التعليمات تقضي بالاستباق أبدا ، ليستطلع وليرجع بالأخبار ، ليكشف الغموض ، اطرق لحظة ، وقال من ستصحب ؟ فقال الرفاعي إنه سيصحب من يقع عليه الاختيار ، ولكن من ناحيته هو يتقدم باسم الجاويش مصطفى ، أحد جنود الصاعقة الذين حازبوا معه ورافقوه ، فسائل الضابط ، أين هو الآن ، قال الرفاعي إنه بمدرسة الصاعقة ، فرفع الضابط سماعة التليفون وطلب استدعاء مصطفى ، ثم قال إنه يقترح ضابط طيب يعمل هنا في الإداره ، حصل على فرقة صاعقة ، وفرقة استطلاع ، وفرقة غطس ، فعل هذا وهو طيب ، لكن لشغفه بالقتال وحبه للشقاوة يبدو انه نسي الطيب ، ولم يتسنم الرفاعي لدعابة الضابط فلم يكن في صدره مجال

للابتسام في تلك الأيام ، بعد لحظات ، دخل علاء إلى الغرفة تسبّه نظراته الحادة ، وللوجه الأولى أدرك الرفاعي أنه بازاء مقاتل لم يسبق له رؤيته ، لكنه اوى حاسة فريدة ، وقدرة عجيبة على التقاط جوهر الآخرين ، لم يظهر ذلك ابدا ، ولكن عرف هذا عنه ، مد علاء كفان كبيرة ، طوبيلة الاصابع ، صافح الرفاعي ، وقال انه سمع عنه ، لكن لم يسعده الحظ بلقائه ، وهنا قال الضابط كبير الربطة ، ان الوقت يجري ، وعلى الرفاعي أن يعطي « تمام » في الخامسة عليه ان يختار عددا محدودا من الجنود ، وان يحدد معداته ، وان يستعد للتحرك بعد آخر ضوء ، وعندما سأله ، أي طريق سيسلك ؟ قال انه سيتخذ الطريق المحاذى للقتنة ، قاد السيارة عبد المؤمن ، إلى جواره الرفاعي ، وخلفها علاء ، ومصطفى ، وجندى من الصاعقة اسمه أبو الفضل ، وجندى آخر اسمه الجرجاوي ، في تلك الأيام كانت كثافة الحركة تمضي في اتجاه معالكس لطريقهم ، الكل يعود من سيناء ، عربات تحمل معدات مهشمة ، يتعلق بها جنود مرهقون ، لم تخلي احديتهم منذ أيام ، والمدافع مكشوفة الفوهات ، الكل يعود والرفاعي ذاهب ، لم يتبدل كلمات كثيرة مع من صحبوه ، لكنه ادرك أن شيئا بدأ ، وان امرا لا تدركه عين ، ولا يحيط به فهم قد ولد ، لم يدرك طبيعته ، ولم يفسر ماهيته ، لكنه مع الحركة انى حالة التوحد ، وبدأ يقهر الكتابة ، لم يعد يواجه احزانه وحيدا ، كأنه يعرف علاء منذ

سنوات ، عندما عبرا القناة الى بور فؤاد نظر الى الأفق حيث السماء والبحر يلتقيان ، وقال لنفسه ، تلك أيام تقرر فيها المصائر الكبار صباح اليوم. التالي قد ضمن تقريره إلى الضباط كبير الرتبة وعندما آذن لقاؤهما انتهاء ، اقترح اقتراحاً محدداً ، هو القيام بعمليات محدودة شرق القناة ، أعمال في الخفاء ، لكن سترتها القوات المسلحة ، الهدف منها بث قدر من الثقة ، أعمال محدودة لكن خارقة ، ثم قال انه يعرف الرجال الذين سيقومون بها ، اصغى الضابط كبير الرتبة ، وعد بنقل الاقتراح فوراً ، في ذلك اليوم اطل الرفاعي على الصحراء الممتدة ، لكم أحس بالألم عندما خطأ حذرا فوق أرض طالما جال وصال فوقها ، لا يستطيع أن يمضي الآن إليها إلا متسللاً ، سيحول دونه عدو ، لكن الجبهات لا تنتهي بالنسبة للمهزوم ، ما أكثر الجبهات التي يمكنه أن يحارب فيها ، ييلو الجسد هائلاً ، قويًا ، لكن اكتشاف نقاط الوهن وتسييد ما يوجع ويؤلم ويفرى الحشاء ، الصراع لا يدور فقط ضد هيكل خرسانية ، وحصون ، ودبابات ، ومدافع سريعة ، وأخرى ثقيلة ، الصراع يجب أن يشن ضد هذا الخور في النفوس ، الثقة التي اهتزت وتبدلت مهترة في بئر القلوب ، بالأمس قال لضابط برتبة نقيب ، سنقوم من جديد ، نظر اليه الضابط بعينين منكسرتين ، هذه الانحناءة الخفيفة التي تجعل مساحة العنق أكثر مما هي عليه ، ييلو معها متأهباً للصفع ما منع الضابط من الرد الصريح إلا اللياقة

الى تقتضيها التقاليد ، ابدي ما يطيئه في نظرة آلت الرفاعي وحدثت به جرحا لم تسببه اداة من صنع بشر ، اغا احدهه نيزك هوى واحترق به جدار القلب تلك النظرة المنكسرة هدف ، كيف تحول من نقيس الى آخر لكن النظرة وما تعنيه ليست قاصرة على العينين ، الميرها في كل ما يحيطه ، الم ير الشوارع منكفة ، والبيوت مطرفة ولو لا جهد من أعماله الخرسانية لاقع فوق الأرض من المخلج ، الم يتغير لون السماء ، الم يبرد قرص الشمس قبل الأوان ؟ الم تحول سمات يونيوريلية الى وخزات تائى بالضم . وتقنات منها البلايا ، الم يتأثر الود المرسل من العينين الى العينين ؟ المراة في اللقمة ، ورشفة الماء لم تعد مجدية ، كيف يغرس المخجر فيها لا يمسك بيده ، وما يستعصى على الأ بصار ؟ بعد العودة ادرك انه يلوذ بعلاء وأن علاء يستظل به ، أما مصطفى وأبو الفضل فهم ما يشدها اليهما ، هؤلاء هم الذين لا يشعر معهم الانسان بخوف اذا فاجأه الموت ، ما قضوه من وقت في هذه المنطقة التي يحدها البحر المتوسط من ناحية وبحيرة البردويل من ناحية يشبه عمرا ، قال علاء انه ظل طيبا الى اللحظة التي دمر فيها الطيران فوق المرات ، أشار الى الصحراء ، فقال انه متفرغ للعدو ، اما هو واما هم ، وقال ان العالم لا يتسع لوجودهم معه .

في اليوم التالي لليوم التالي لليوم الذي تم فيه الاستطلاع قال الضابط كبير الربطة ان موافقة ميدانية تمت ، يعني ادق ، لقد التقى اقتراحه بالتوصيات

---

الموجودة ، وأن الكثرين أبدوا ارتياحاً لتصدى الرفاعي لهذه المهمة وإن ضيابطاً كبيراً من هيئة الأركان قال إن الرفاعي يحفظ سيناء عن ظهر قلب ، وانه قام بالعديد من الدوريات في صحاري مصر ، وعندما يعرف هضاب الصحراء الشرقية ووديان الصحراء الغربية ، وعندما تتوه دورية في الصحراء فافضل مقتفي للآخر هو الرفاعي ، وانه يعرف المدن من اضوانها عندما تبدو للمحلق بالطائرة ، ومن أهلة مآذنها ومبانيها ، كما يعرف المحافظات من تعرجات النيل وضيق واسع المساحة الخضراء ، في المليو كبر يعرف بعدهم من الثوان ستشهد قمة جبلية ، وأى المرات تخلون من دوامت الماء ، يشم هوب العاصفة ، ويدرك من لون السماء متى يجيئ المطر ؟ قال الضابط بهيئة الأركان ان الرفاعي قلبه اطلس حى مصر .

منذ هذه اللحظة لم يهدأ ، وما اعمد داخله صار يمور خارجه ، بدأ في تحديد الاهداف ، جاء بالخرائط ، والمعدات ، وصبح أحد الايام مضى الى سلاح المهام ، وشرح كل ما يريده ، ورسم بخط يده تصوره لما ستكون عليه ملابس المقاتل جندياً كان أو ضابطاً ، وحدد عدد الجيوب ، وخصص كل جيب لاحتواء شيء من ادوات القتال ، كما أمضى ساعات طوال في مناقشة بعض انواع الاسلحة ، ايهم اصلح للضرب من قريب ، أى الاسلحة اصلح للتصف من بعيد ، وناقش بعض المتخصصين في الكلية الفنية العسكرية وأشار بيده الى أجزاء بعض الاسلحة ، وتساءل :

---

لماذا لا يدل موضع هذه القطعة بذلك ؟ كما درس اجزاء المليو كبر واقتراح اضافة بعض التعديلات الممكن ادخالها على اجسام الطائرات في ورش سلاح الجو ، أثناء ذلك مضى الى سيناء متسللا للمرة الثانية ، وقام مع علاء ومصطفى وابو الفضل وضابط برتبة رائد انضم اليهم اسمه عصام الدالى ، فجرروا خاذن الذخيرة التي تركتها القوات المصرية ، وبدأ الانفجار في البداية كقنبلة ذرية صغيرة ، وشهود اللهب من مسافات بعيدة ، واستمرت الانفجارات ساعات طوالا ، في نفس الوقت اجري اتصالات لضم بعض المقاتلين إليه ، وكان علام مصطفى الضابط في البحرية برتبة مقدم ، اتصل به ، وسعي اليه ، ورشح الضابط شابا ذكيا شجاعا تخصص في عمليات الاستطلاع البحري اسمه وسام عباس ، ومساعد اسمه ابو الحسن ، وصفه بأنه وحش حقيقي ، قوى ، من الناس المكافحين ، الذين بنوا أنفسهم بسوادهم ثحدث عنه ، وأفاض في الحديث ، فقال انه كان غطاسا بشاطئ كيلوباترا ، وكان يراقب البحر حتى لا يتسلل احد المصطافين ، لم يرض عن عمله ، اقترح عليه البعض ان يتقطيع ، فقطع ، حدث هذا منذ عشر سنوات ، وخلال هذه السنوات حصل ابو الحسن على فرقة غطس ، وفرقة ضفادع بشرية ، ويجده استطاع أن يفوز ببطولة القوات المسلحة للياقة البدنية منذ عامين ، وتزوج وانجب طفلة منذ عام واحد .

---

جاء هؤلاء ، وجاء آخرون ، وشد الرفاعي على يد وسام ، وقال له ان العمل سيتم في البحر ، وانه يريد رقبا على البر وعلى البحر ، وراصدا لسرعة الامواج في القناة ، وخليج السويس ، وعالما بالمد والجزر ، ومواقع سفن العدو ، وتصميمات مرافاته ، وما يضفيه الى مراسيه من تحصينات ، ومواعيد تفجير الألغام الليلية المضادة للضفادع البشرية ، كما طلب منه ان يعلم من لا يعلم حركة الموج ، وكيف يعرف الانسان حركة الرياح ، ومواقع النجوم في السماء ، قال انهم لن يصلوا الى العدو عبر فراغ اثنا سيمصارعون امواجا كالجبال وسيحاربون الرياح ، ويحجب الا تضلهم النجوم ، وان يتأخروا مع البرد والحر والجوع ، وان يأ蒙وا المفاجأة ، وان يصغوا الى همس العدو .

في تلك الايام نشط الرفاعي ، وقال ابو الحسن يوما لنفسه ، أنه يريد كإنسان قصير العمر يريد أن ينجز العظيم من الأمور قبل رحيله ، وقال عصام لنفسه إنه إنسان لا يهدأ ، ولا يمكن رؤيته نائما ، في تلك الأيام ضاق صدره لأن الليل لا يتسع ، ولأن النهار لا يؤجل رحيله ، ويدله ان الإنسان منها فعل فلن يوقف أو يبطئ من زحف الساعات وتولى الدقائق ، ادرك انه محصور في مساحة زمنية يجب ان ينجز فيها كل ما قرر ، كان يريد أن يفعل كل شيء في أقصر زمن ، يريد أن يقرأ تقارير الاستطلاع ، ثم يستطيع بنفسه ان يشرف على التدريب ، ويتابع

---

الرجال ، ينتقل ، يهاجم ، يعود كثيرا ما مآل نفسه قبل النوم ، هل يكفي  
العمر لما أريد ؟ كثيرا ما فوجيء بنفسه حائرا لا يدرى بأى شيء يبدأ ،  
كم من تزاحت عليه الأفكار فجأة في لحظة يود لو تمهلت الأيام ، في لحظة  
أخرى تمنى لو أسرع ايقاع الزمن ، في لحظة أخرى تسأله لماذا لا يصبح  
للحين ايقاع متغير فيسريع ويبطيء ، صحب الرجال إلى صحراء دهشور  
والى أماكن لم تطرق من قبل في الصحراء الشرقية ، والى جبال البحر  
الأحمر ، الى جبل الجلاله ، الى الصحراء الغربية ، اشرف على بناء الدشمة  
تشبه تلك الدشمة التي اقامها العدو في منطقة الشط واطلق عليها التبة  
المسحورة ، تم بناء الدشمة على حافة ترعة تشبه القناة بالقرب من القنطر  
الخيرية ، أكد وسام ان سرعة المياه فيها تشبه الى حد كبير سرعة المياه ليلا في  
القناة ، طار معهم في الأليوشن ونزلوا من السفينة الى الأرض غمارا ، وقفزوا  
من الانتينوف في منتصف الليل ، غطسوا الى أعماق البحر الأحمر ، لفت كل منهم  
تلك الوحدة الباردة التي تطبق على الانسان داخل الاعماق الباردة البعيدة  
عندما يصبح عالما مستقلاب ذاته ، عليه تحديد الاتجاه ، واتخاذ القرار ،  
والانتباه الى العمق الذي لا عمق بعده ، وعندما امكن للرجال ان يقفزوا  
من الهليو كيترات بدون ان تلامس العجلات سطح الارض ابدى  
ارتياحا ، وعندما عاد مع وسام الى بور سعيد بعد استطلاع موقع رمانة

وقف يتأمل النواريس البيضاء بعد ان قال له وسام ان النوارس تواجه مهب الرياح وتمكن معرفة مصدر هبوطها من الجهة التي لول النوارس متقاره اليها ، اضمر اعجابا بالنوارس لطول ما تقطعه من مسافات ، امكانيات لا حدود لها تضمها أجسام نحيلة .. وفي يوم آخر طلب من وسام ان يجمع له معلومات عن السفينة بيت شيفع ، ولم يسأل وسام عما لم يحط به على « لماذا بيت شيفع بالذات ؟ على فترات زمنية متباude صار الرفاعي يسأل « ما أخبار بيت شيفع الآن ؟ أين هي ؟ أين ترسو ؟ بعد حوالي سنة اتم خطة محكمة لاغراقها بواسطة اعتراض طريقها بلغم بحرى ثقيل عند نقطة معينة من الخليج اعتادت بيت شيفع التمهيل عندها اثناء رحلاتها المنتظمة من ايالات الى سدر ، غير ان ذلك لم يتم لأسباب ما ، بعد ان تابع حركة الدوريات وتوقيت مرورها بعده نقاط على الطريق الموازي للقناة ، قرر الهجوم على دورية اسرائيلية تتحرك بين نقطة لسان التماسح القوية ونقطة رقم ٦ ، حدد الهدف ، احضار اسير حى ، في الساعة السادسة صباحا وعشرين دقيقة فتحت نيران المدفع الاتوماتيكية اسرع علاء والجرجاوى الى داخل العربية ، في تلك اللحظة قفز جندى « العدو » ضخم الجثة ، بندقية لم تفارق كتفه ، لم يفك فى اشهارها ، في ثبات سريعة لحقة الرفاعي ، لف شعر رأسه الطويل حول يده ، بحبيل قصير أوثق يديه خلف ظهره ، اختلطت ملامح الجندي العدو ، تكسرت كلمات عربية بين شفتىء ،

---

لمجتها شامية » « لا تذهبني بخجر .. اضريني بالرصاص » ، كان صوته أجوف ، باردا ، دفعه الرفاعي باتجاه القناة ، بدأ الدانات الاسرائيلية تنفجر حولهم ، استمر تقدمهم باتجاه المنطقة التي ستأتي اليها القوارب عند صفة القناة المرتفعة وقف الرفاعي الى جواره مصطفى يبحثان عن القارب ، استمر اقتراب علاء والرجال متها ، عندما تأكد الجندي العدو من انها لن يقتلاه ، بدا معروبا من دانات المدفعية الاسرائيلية التي راح بعضها يتسلط في عرض القناة ، تسائل . متى تعبرون إلى الضفة الغربية؟ متى تعودون؟ كان يتعجل العبور معهم التماسا للأمان ، بدا أكثر منهم الحاجا ، عندما رأه الجنود في الواقع المواجهة ، تساءل أحدهم ، كيف احتمل القارب هذا الثقل كله ، اندفع جاويش باتجاهه رافعا قبضته ، زعن الرفاعي آمرا بالعودة ، تعلقت عينا الجندي العدو بالرفاعي ، بعد لحظات همس ضابط الموقع « أعزّرهم يا أفندي » .

حدث مساء اليوم التالي ان جاء جندي اسمه زيتون الى مقر قيادة المجموعة يطلب لقاء الرفاعي ، دخل المقر مبتسميا بهدوء ، وكان كم ستره الايسر الخاوي قد أدخل في جيب بنطلونه ، قال هل نسيتني يا أفندي؟ فقال ، وهل ينسى الرفاعي من عمل معه؟ بسرعة أدرك الرفاعي لماذا جاء زيتون؟ سأله عن أحواله قال زيتون انه يذكر تلك الايام في العريش ومحن

---

اليها ؟ ولكنه يضيق الأن لأنهم في الوحدة يعاملونه كشيء زائد عن الحاجة » قال الرفاعي لنفسه ، ان زيتون يكن الاعتماد عليه » لماذا لم يفكر فيه ؟ لام نفسه لأنه لم يستدع زيتون برغم انه سمع كثيرا في مدرسة الصاعقة عن قدرته على استخدام الخنجر بيده الوحيدة » لن يجعله يصل الى الحظة التي يعرض فيها نفسه » قال بسرعة ،

لماذا لا تجيء معنا ؟  
تابع بسرعة ..

إننا في حاجة إليك هنا .. يجب أن تجيء لتقاتل ..

لأول مرة يخلو وجه زيتون من الابتسامة ، ما فوجيء به لم يدع الفرصة لأى افعال آخر بالنفذ الى ملامحه » قام ، ضرب الأرض بقدمه » رفع يده السليمة بتحية عسكرية ، لم يستدع علاء في هذه اللحظة خشية أى تعليق لا يستطيع ان يمنع نفسه عن ابدائه ، كتب بنفسه خطاب الانذاب » بعد ثلاثة أيام جاء زيتون » في اليوم الأول استدعاء الرفاعي » قال ضاحكا ..

« إن جيئك فأَلْ خير علينا .. سنقوم الليلة بعملية سينحدث عنها الكثيرون فيها بعد .. ستطلع علينا .. » أما أمر هذه العملية فيرجع الى عدة أيام عندما جاءت علة تقارير مختلفة من الجبهة تشير الى ظهور انواع جديدة من الصواريخ لدى العدو ، وان هذه الانواع تثير تساؤلات

---

---

عديدة ، خاصة أنها منصوبة في الخلاء بعيداً عن مواقع العدو الثابتة ، ودشمة ، رفع بيديه الصور الملتقطة ويدت المعلم باهته ، هنا قال الرفاعي ..

« اقترح ان نعبر وان ندرس هذه الصواريخ عن قرب » .. غير ان الرفاعي اضمر في نفسه أمراً ، لم يكشف عنه ، ولم يبع به لأنقرب الناس اليه ، فقد يبدو المدف خيالياً ، من الصعب تحقيقه ، لكن أحوال الناس في حاجة الى أعمال فيها وهج لخيال وجرأة التخطيط ، والقدرة على التنفيذ ، عندما تسرى اخبار عملية كهذه سيفكر هذا الجندي الواقف في قلب الوحشة الجبلية برأس غارب ، قام رجالنا بكلذا ، جرعات من الثقة في شرائين الرجال الذين يسمعون السباب ولا يردون ، ويرون العناق والقبل كل يوم سبت ، وعندما جزى صعيدي على شفيه حتى ادهماها ولم يعد لديه ما يميز عليه سدد الرصاصية ، وضع حداً للنشوة المقصدودة ، حوكم ، وراح الاعتذار تلو الاعتذار عن طريق هيئة الرقابة ، وجاءت التعليمات بضرورة ضبط النفس ، المسموح به الآن هذه الأعمال التي تم سراً ، والتي تذكرها الصحف منسوبة الى منظمة سيناء العربية .

ولما جاء الليل ، وبالقرب من مياه القناة شرح الرفاعي لعلاء وعصام وأبو الفضل ومصطفى وزيتون ما جال بخاطره ، أبدى علاء حماساً ، قال

---

الرفاعي انهم لن يصبحوا أى اسلحة نارية ، كل ما سيأخذونه معهم خنافر ومقصات كبيرة حادة ، الصمت هو ضمان نجاح هذه العملية ، ارتدوا ثياب الصفادع ، في آخر موقع مطل على الماء ، اندفع ضابط شاب ، عائق الرفاعي ، عائق علاء ، قال ، ربنا معكم ، غابوا في الظلام بعد لحظات ، رائحة الرمال القريبة من المياه تختلف عن رائحة الرمال في الاماكن الخلقة من الشاطئ ، تختلف عن رمال الصحراء ، الاندفاع في الماء موقف بالثانية ، كما ان الأحساس بالزمن في البحر مختلف عنه في البر ، حقول الالغام مرصودة لكن المفاجأة قد تحدث في أى لحظة ، الرفاعي تهتدى بالنجوم البعيدة الخير حاد ، لا يحملون أى اسلحة نارية ، الرفاعي يتقدم المجموعة ، كل حواسه موجهة للرصد والانذار ، توقف ، أصوات قريبة تتضح ، حديث متبادل بالعبرية ، صمت ، ضحكة ، عبارة تلفظ ، صمت ، صمت ، صمت ثم شخير ، فوق الارض المستوية بدت الصواريخ ، تدفق الرفاعي منسابة فوق الرمال ، لم يتوقف الا عند السلك المتد الذى يصل الصاروخ بقاعدة الاطلاق ، فتح المقص ، اطبق على السلك ، تقدم وسام ، لم يلق عناء كبيرا في تحريك الصاروخ ثم حله ، ارتفاعه كطفل في التاسعة .

في مقر الوحدة المرابطة على الضفة الغربية حلق الضابط الى الصواريخ الثلاثة ، جلس ابو الفضل وزيتون فوق صندوق ذخيرة فارغ ، رشفوا

الشاي ، الح الضابط الشاب في تقديم عشاء ، لكن الرفاعي قال انهم يتظرون هذه الصواريخ في القاهرة ، خرج من الملجأ الذي اطلق عليه الجنود اسم « الفيلا » في الشرق كانوا معزولين ، يحيطهم عدو ، وصلوا الى الضفة الغربية بدوا كأنهم يدخلون تحت غطاء في ليلة باردة ، تذكر حكاية قرأتها عن القبائل الضاربة في الصحراء بحثا عن الماء ، يتقدمها دليل ينطلي جملا ، عند عثوره على البشر أو النبع يصبح مناديا أهله ، يجب أن يكون حاد البصر ، فذ الملاحظة ، حتى لا تخيل إليه ما هو غير موجود ، عندئذ يهلك القوم ..

في الساعات الاولى من الصباح قال الضابط كبير الربطة .. هذا أمر لا يصدق .. ليت كل القوات المسلحة تعرف ما قمت به ..

في نفس اللحظة اكد جندي استطلاع لزميه ..  
عبروا من هنا .. ورأيتم بالصواريخ عند العودة ..  
بعد يومين سأل الرفاعي وسام ..  
لم يذكروا شيئا بالطبع ..  
ضحك وسام ..  
ماذا سيقولون .. في مثل هذه الأمور تخرس انفاسهم ..  
قال الرفاعي ..

ونحن من تاحيتنا لا حس ولا خبر .. ولا من شاف ولا من دري ..

قال علاء ..

لو اغرنا على الموضع لاحدثنا خسائر لا بأس بها .. سمعت شخير  
النائمين بأذني ..

قال وسام مخاطبا علاء ..

يا سلام يا أفندي لو شفت المنظر في المنطقة صباح اليوم التالي ..  
عربات تروح وعربات تجيء .. وضباط من سلاح المهندسين ،  
يفحصون ، ويتقاشون ، ثم يقفون كعلامات الاستفهام ..

قال علاء مشيرا إلى الخريطة ..

يجب أن يغوصوا حتى الركب في اللدم ..

وحدث في الأيام التالية أن اجرى الرفاعي عدة اتصالات وقرأ عددا من  
التقارير ، واضاف العديد من الملاحظات الى سبعين ملفا في الخزانة  
السرية ، ضمن كل ملف تخطيطا أوليا لعمليات مفترحة ضد هدف معين ،  
وكافة المعلومات المتاحة عن ذلك الهدف ، كما يضم تقارير عن المعدات  
المتوفرة ، وأخرى مطلوبة ، وكفاءة السلاح والتعديلات المفترحة ،  
وكفاءات العربات والمعدات ، أما كفاءة الرجال فهذا ما لم يخطه في ورق ،

احتفظ بذلك لنفسه ، موضع كل منهم في خطط المجموع لم يتعدد تلقائيا ، اما برز عبر قطارات متواالية من الليالي « في الصحراء » في الدوريات ، حول موائد الطعام ، في مداهمات المرض ، في تلك الفترة أصبح عليها بنوعية الآلة التي تصدر عن كل منهم أثناء نومه ، أصبح يدرك ايقاع الخطى في جوف الظلام ، ما يفصل الخطوة عن الخطوة ، اتساع الخدقة اتجاه النزرة ، يعرف من يرهف السمع ، من يندفع قبل الاوان من يخترق التوقيت الفريد ، عند المجموع على نقطة البلاح شرق ، عدم رشاش نصف بوصة بسرعة ، شطح ونطح في الافراد ، اخفى بمهارة كاللحظة التي يتنهى فيها العمر ، والارض التي سيموت فوقها الانسان ولا يدرى اين هي ؟ ارتفعت ذراع علاء ، بدت قامته مكشوفة ، ارتفى عليه ، انبطحا ، صوب القبلة باتجاه المزغل الضيق في مقدمة الدشمة كعين وحيدة في وجه آدمي ، لكل مقاتل مهمة ، وكل تغير طارىء ، موقف يناسبه وانسان يواجهه .

عندما خرج الجميع تقريبا إلى اجازة بعد العودة من طابور سيرفي وادى قنا المزحوم بالعقارب والثعابين لم يتبق إلا وسام كضابط نوبتجى ، وبالجرجاوى المبتسم دائمًا ، غير انه لمح ابو الفضل يعبر أرض الطابور متوجهًا الى عنبر النوم ، بدا وحيدا ، سأله وسام عنه ، قال وسام ان ابو الفضل لن يخرج هذا اليوم ، رفع التليفون ، جاء ضموم نادية هادئا ، اعتذر عن

---

عودته » قال انه سينأخر قليلا ، قالت انها ستتظره » سأل » هل ليل مستيقظة ؟ قالت انها نائمة » قال وسامح ؟ قالت انه يلعب الكرة مع ابناء الجيران امام الشقة ، كان صوتها مستويا كطريق مستقيم مؤد الى هدف واضح » ذات يوم قالت انها تعلمت معه الانتظار » بعد عودته من اليمن رأى علبة سجائر فوق المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير ، فوق العلبة ولاءة مستطيلة الحجم » أمسكها ضاحكا ، قال انه لا يدخن فكيف سيدعوها الى التدخين ؟ انه لا يجيد امساك العلبة ثم طرق عليها بأصبعه حتى تطل منها مقدمة سيجارة » ابتسمت قائلة إن الانتظار مر ، وأن سمير وسامي كانوا لا يمran عليها اياما فتقضي الوقت الى جوار ليل » ترقبها في نومها ، وتداعبها في صحوها ، وأحيانا تلير مؤشر الراديو » وعندما تكتف أصوات العالم بعد منتصف الليل بمسافة يلفها ضيق ، طلبت من سمير الرفاعي ان يأق لها بعلبة سجائر ، سألاها ، أى الانواع تفضلين ، قالت انها لا تدرى ، نزل وعاد بهذا النوع الذى يحوى مذاقه هستة نتعانع ، اهداتها ولاءة ، قالت ضاحكة ، لكنى غير مدمنة ..

وضع السماعة ، يتخيّل ملامحها المادّة ثم جلوسها بركن الصالة واستئناف عملها في البلوف الأخضر ، يذكر انه حدثها عن أبو الفضل ، كان في زيارة لكتيبة صاعقة يقودها عادل زميله ، قدمه عادل قائلا انه وحش حقيقي » بعد خروجه قال عادل انه مقطوع من شجرة ، أجازته

---

---

---

يقضيها في القشلاق وقلبه ميت . الرفاعي لا يعجبه هذا التعبير ، الموصون  
بموت القلب من أكثر خفقا للحياة سعى إلى انضمام أبو الفضل إليه ، قبل  
بعيشه قرأت ملفوظه ، أبو الفضل على سلامه ، من مواليد الطلحيات ، مركز  
طهطا ، التاسع من أبريل عام ألف وتسعين وثمانين وأربعين ، وأربعين ، تاريخ  
التطوع ، ألف وتسعين وثلاثة وستين ، أى عندما اتم السن القانونية  
للتطوع ، الرغبة عند التطوع . الصاعقة . سأله الرفاعي ..

« متى لم ترعم حسين؟ »

« أكثر من سنة .. »

ابدى الرفاعي دهشة ، قال ..

اليس هذا تقصيراً منك؟

لم يجب ، قال الرفاعي ..

كم يوماً تكفيك لتذهب وتعود من دير مواس وتقضى هناك يومين ..  
أسبوعاً مثلاً؟

أو ما أبو الفضل برأسه . قال الرفاعي ..

اعتبر نفسك في اجازة من الليلة .. هناك قطار يقوم في العاشرة ..

مد يده إلى درج المكتب ، سحب عدداً من الأوراق المالية .

---

---

خذ معك «زيارة» جيلة .. وعندما تعود بالفطير احتفظ لي  
بنصيبي ..

بدأ أبو الفضل خجلا ، قال .. لكن يا أفندي . أشار الرفاعي بيد ممتدة  
حاسماً المناقشة ..

إلى أول قطار بلا مناقشة ..

عندما التقى الرفاعي به لأول مرة منذ سنوات طلب منه أن يحدثه عن  
بلدته ، قال الرفاعي انه رأى طهطا لكنه لم ير الطليحات ، عاش في كثير  
من محافظات الوجه القبلي وذلك لعمل والده مفتشاً بوزارة الداخلية وتنقله  
في بلاد مختلفة ، ثم خدمته بوحدات من الجيش تنقلت كثيراً في أنحاء  
مصر ، ولقياً بالعديد من دوريات الاستطلاع ، عندما احسن الرفاعي  
ان الجمود يذوب بين الضابط والجندي سأله عن آخر مرة رأى فيها  
الطليحات ؟ قال أبو الفضل ان ذلك جرى منذ سنوات عديدة ، أكثر من  
خمسة عشر عاما ، قال أبو الفضل انه لم يره ابوه ، غادر الدنيا وله من العمر  
اسبوع ، لهذا لا يعرف أى شيء عن ملامحه ، فالناس وقتئذ لم يعتادوا  
التصوير ، أما أمه فاحتوته حتى التاسعة ، يذكرها وكأنها تقف أمامه الآن ،  
لم تنجب غيره ، رفضت كل من تقدم اليها ، شنع عليها الناس وافترروا  
خاصة اعمامه ، كانت تقول له دائياً احضر اعمامك ، في تلك السنوات

---

سمع انهم ينونون قتله حدث ذلك بسبب فدان ونصف من الطين وبعض نخلات ، بعد رحيل امه خلت الدنيا ، عند عودته من المدفن تحت الجبل ادرك انه بلا صاحب او سند ، وعندما جلس تحت سقف الخوص بكي لأن امه جعلته بيديها ورقت ثقيريا تخللت بين حين وحين ، صباح يوم ثلاثة قال له عمه الكبير ، تعال نذهب الى طهطلالنهي بعض اجراءات الميراث ، أمسك به من يده اليسرى ، مشيا على الطريق المؤدى للنهر ، غير انهم لم يضروا مباشرة الى مرسى القوارب ، عندما ضغطت قبضة عمه على رسفة لغ في قلبه خوف خطر له ان يحاول الافلات ، لكن كيف ، إلى أين ؟ عند منحنى الطريق ظهر فجأة جاويش النقطة ، كان قدما من الجهة المقابلة ممسكا بعصا قصيرة ، تبادل التحية مع عمه ، بعد خطوة التفت الى الخلف ، صرخ ، عم . الحقني يا عم .. تسائل الجاويش ، الى اين ؟ قال العم انها ذاهبان الى أحد الاقارب ، هنا عض ابو الفضل يدعمه وتوارى خلف الجاويش صائحا ، انه ينوى رميء في النهر ، أبدى الجاويش حسين شكا ، صحب أبو الفضل الى النقطة ، تحدثت البلدة فيها جري وقال الناس ان الجاويش ظهر في اللحظة المناسبة وان عمره جديدا كتب لا ابو الفضل ، ولكن الجاويش لا يستطيع حمايته حتى النهاية ، حار فيها يفعل ، ابقاءه في النقطة يومين ، في الفجر صحبه حتى القرية التالية ، أعطاه عشرة جنيهات ، وضعهم في منديل ثم ربطه حول ذراعه ، حذر

---

---

من اولاد الحرام ، قال انه لم ينجب ابدا لكنه يعتبر أبو الفضل ابنه ، ليرسل  
اليه بأخباره بين الحين والآخر ، منذ ذلك اليوم تلقتنه الدنيا ، تقلب في  
مهن عديدة ، لم يعد الى البلدة ، لم يسأل عنه أحد ولم يسأل عن أحد ، قال  
ان عائلته في الدنيا هذا الجاوش الذى احيل الى المعاش منذ سنوات ،  
استقر ببلدته دير مواس يزرع مساحة قليلة من الارض ، يزوره على فترات  
متباينة كلما سمحت الفرصة ..

بعد أن أصغى الرفاعي إليه في تلك الليلة شعر انه يتضمن اليه من  
جديد ، بدأ يعتبره من الرجال الذين سيظلون على مقربة منه لحظة  
الاقتحام ، تماما كمصفوفي الذى تشابكت سنينه مع سنين الرفاعي ، في  
اليوم التالي اتصل بالعقيد علاء ، جاء صوته صاحبا ، حادا ، قال انه  
يدعوه للذهب الى الحسين ، يصليان الجمعة معا ، ثم يجلسان لتناول  
الشاي ، بعد الصلاة يتقدمان الى الضريح ، يعبران رقائق الضوء ،  
يطوفان على مهل بمثوى الشهيد ، ييلدو الضجيج والهم ناثا ، عندما يجيء  
إلى المثوى فإنه يزور مخاريا قدما ، عرف النهاية في الطريق ولم يتراجع خطوة  
واحدة في طريق العودة والأمان ، في الليل يطلب من صاحبه ان ينصرفوا  
عنه فالمقصود هو ، والمهدف هو ، لكنهم يقولون ، يزودون عنه ، سبعون  
واجهوا أربعة آلاف ، يقاتل حتى يقتل ، يمضى بصاحبه علاء الى مقهى  
يطل على الميدان ، يتبعان حركة المارة ، لا تسترخي ملامح علاء ابدا ،

---

---

---

يرى في اصغر المواقف التي تمر بالانسان عناصر معركة ، عندما يشتري الانسان شيئا الا يدور صراع بين البائع والمشتري ، عندما يحب الانسان امرأة ، الا يندفع ، ويهمج ، ويتاور ، ويغضب ، ويرضى ، يقول دائمًا ان الحياة تقال مستمرة ضدآلاف الاشياء ، في هذا الماء اخطار لوعاها البشر لسقطوا هلعا .

قال الرفاعي انه من الضروري الا تأخذهم دوامة التدريبات والعمليات . نظر علاء صامتا وفي عينيه استفهام ؟ قال الرفاعي ان من يواجهون الموت معا يجب ان يعيشوا حياتهم معا ، أوما علاء ، قال الرفاعي انه يجب خروج المجموعة في رحلات ، الاحتفال بأعياد الميلاد . أمور كهذه .. قال علاء ان هذا شيئا فشيئا بشكل تلقائي ، صمت لحظة ثم قال ، هل تعرف ان هناك زوجا سيتيم في المجموعة ، بدت دهشة في عين الرفاعي ، قال علاء ان الجرجاوي سيخطب اخت سعيد ، الجرجاوي من قتنا ، وسعيد يعمل بمصانع اسكون ، عبر الاحاديث المتباينة والمناجاة الليلية التي تسبق النوم ، عرف الجرجاوي ان لسعيد شقيقة ، فرأى الفاتحة وستم الخطوبة قريبا ، قال الرفاعي انه لم يعرف ولم يقل له أحد ، بد سعيد بالخبر ، قال علاء ضاحكا ، وهل تزيد ان تعرف كل شيء ، المجموعة حياة متكاملة الآن ولا يمكن الاحاطة بكل ما في الحياة .. اليك كذلك ؟

---

قاما ، اقترح الرفاعي ان يذهبا الى والد الشهيد عبد الكرييم ، اول شهداء المجموعة فوق الصفة الشرقية بمنطقة جبل مردم امام الاسماعيلية ، تحت مسجد قديم على ناصية حارة الميضة في الجمالية دكان خردوات خرج منه عم مراد العجوز ، قال انه عندما رأها فكانه رأى سعيدا « صاح مناديا احد الصبية ليحضر الشاي ، قال علاء انها قادمين من المقهى .. لكن الرفاعي ابدى رغبة في شرب الشاي مع عم مراد سأله عن أي حاجة لعم مراد يرغب في انجازها ، بعد تردد قال انه لا يستطيع مفارقة الدكان ، كما لا يعرف الطريق الى الادارة المختصة بتجديد البطاقة العلاجية التي تذهب بها والدة عبد الكرييم الى مستشفى غمرة العسكري .. « قاطعه الرفاعي « هل البطاقة معلك ؟ بحث في أدراج المنضدة الخشبية القديمة اخرجها ملفوفة في كيس من النايلون » قال الرفاعي .. اذا لم احضرها انا اليك سأطي بها عبد المؤمن بعد غد ، ابتسם الرجل عند انصافها ، قال .. لا تنسوا عمكم مراد يا أولاد ..

تساءل علاء .. إلى أين ؟ قال الرفاعي .. إلى المجموعة ، في المطر قابليها المقدم توفيق :

« أريد أن القى نظرة على صور الاستطلاع الجوى الأخير .. »

دار توفيق بقامته الفارهة ، الضخمة حول المنضدة ، انه قليل الكلمات لكن اذا نطق فكان سرية باكمالها تصبح ، لهذا يرجو الا يخاطبه

أحد أثناء التسلل على الضفة الأخرى ، لكن في لحظات المجزوم يطلق صياحاً أقسم علاء أنه يشن العدو . من هنا يسهل عليه استعمال خنجره معهم ، وقيل أن سمعته بدأت تنتشر في موقع العدو الأمامية ، المصرى ضخم الحجم ، انه رام عتاز ورصاصته لا تخطى هدفها أبداً ، طلقته والقبر ، عندما بدأ قصف المدفعية المستنظم كمن في مواجهة موقع رقم « ٦ » رصد جندي العدو ذا اللحية الذى لم يكف عن الصياح والصفير والسباب لمدة شهور من فوق برج الملاحظة . عندما تلقي جندي العدو ، قال توفيق لنفسه ، هذه آخر مرة لك . وعندما انكأ على الحاجز الخشبي للبرج ، لم يتبق الا دقيقتين على بداية القصف ، استقرت الدائرة الحمراء على منتصف الجبهة ، ضغط الزناد ، تردد الصدى ، لم يفارق مكانه ، تسلق جنديان السلم الخشبي المؤدى الى البرج . وزعن جندي « عدو » مخاطباً شخصاً ما عبر التليفون ، ثم ساد صمت لا تعرفه الا الاماكن الحدودية ، اصغى توفيق الى احتكاك الموجة بالموجة ، انتابته راحة ، اصر على ان يسقط هذا العدو طوبل اللسان ، دوت ثلاثة انفجارات متالية كأنها طرقات القدر .

قال الرفاعى ان الصور رائعة ، العمل جيد ورائع لا بد ان الطيار عرض نفسه لمخاطر عديدة وقام بمناورات حادة حتى امكنه التقاط هذه الصور ، قواعد الهوك واضحة والطريق الرئيسى ، ومدخل الموقع الامامي .

---

---

والخرج الجانبي ، قال لعلاه انه يجب كتابة خطاب شكر الى قائد الاستطلاع الجوى ، انه لم يعرف هذا الطيار ، وربما لن يراه ، لكن هذا الشاب عرض نفسه للخطر ، انه يتاثر لتلك العلاقات التي تمجد المشاركة ، تهزه هذه العلاقات الخفية بين لا يعرفهم ، يتأمل الناس في الرحام ، يود لو مishi بينهم على مهل ، يتتحدث الى هذا ، ويرد على ذاك ، لكنه دائمًا يعبر الطريق إما متوجهًا لاجاز مهمة أو عائداً من مهمة وتبقى الرغبة مؤجلة ..

بعد ثمانية أيام انطلقت المجموعة باكملها في الفجر والمهدف هذه المنشأة التي حام فوقها الطيار الشجاع والتقط لها تلك الصور ، حدد موعد المجموع في الثامنة والنصف صباحا ، هجوم لن يسبقه تمهيد نيران ، المهدف سبق أن هوجم منذ أربعة أسابيع ، عند نهاية الطريق الصحراوى بدأ الاشجار غارقة في ضباب صباحى مبكر كاللبن ، عند كويرى نفيشه قال ضابط المخابرات الحرية الذى وقف يتنتظرهم ان التقارير الواردة من القاطع الامامية تشير الى حركة غير عادية ، كما صمنت الاتصالات اللاسلكية ، هناك احتمال بان العدو اكتشف المجموعة عند اقترابها من الاسماعيلية .

في مواجهة الصباح الباكر وقف ، يدها تلامسان خصره ، انه اشبه بن يعلو مسافة طويلة ثم يطلب منه التوقف فجأة وخط النهاية على بعد متز

---

واحد . هل يعود الرفاعي والمجموعة بأكملها لأن العدو اكتشفهم ؟ تسائل علاء . ماذا يعني هذا .. هل ترجع ؟ نظر اليه ، قال .. ومتى أتيجنا الى العدو وعدنا من متتصف الطريق ؟ اجري في ذهنه تعديلا طفيفا ، سيم بانزال القوارب من نقطة تقع الى شمال الموقع بحوالي مائة متر . ثم يقتربون بمحاذاة الساتر الرمل . سيتحركون تحت العدو مباشرة . حيث الرؤية بالنسبة له ميتة . من ناحية أخرى يتمركز توفيق مع أربعة جنود من المجموعة في أماكن متفرقة كثناصة . ان القصف المدفعي يعني الآن تأكيد العدو من بدء عملية عبور ، القنص نشاط لا يثير ريبة ، ويُثبت رعبا خاصة في نقاط الملاحظة ..

قال ضابط المدفعية الشاب ..

هناك طائرة مروحية تطير على عمق كيلو متر واحد من الخ الأمامي للعدو ..

في البيروسكوب الأرضي رأى الرفاعي الطائرة ، بدت كذبابة معلقة في الفراغ . فوق الضفة الشرقية قرب المسافة جرار اصفر اللون ذات عجلات كاوتشوك ضخمة ، كان المدورة ثقيلة كأن الحرب نائمة ، وبعد لحظات سيوقفونها ، أما ابراج الملاحظة فبدت كعلامات استفهام في مواجهة النهار الم قبل .. وتسائل الرفاعي عن الحركة منذ أول ضوء ، قال ضابط المدفعية

ان قائد السرية خرج في السادسة والنصف وعاد منذ ربع ساعة ، وهو  
يتناول افطاره الآن ، الجنود في الموقع جدد ، جاءوا منذ ثلاثة ايام ولذلك  
فهم اكثر حذرا ، يتحركون بحساب ، ومعهم جندي اسود ..  
في التليفون ضيحك قائد سرية الدفاع الجوي الملحق بالكتيبة ..  
طبعا ، يمكن تطفيش هذه الدبابة الان ..

سؤال الرفاعى ..

هل اعتدتم اطلاق النار على هذه الطائرات ..  
جاء الصوب عبر التليفون الميداني ..

ليست أول طائرة يتم تطفيشها .. وليست أول طائرة يتم  
اسقاطها ..

قال علاء ..

سيضرها الآن ؟

أوما الرفاعى ثم امتد صمت مصحوب بترقب ، دوت طلقات سريعة  
منفجرة في الفراغ ، المدفعية المضادة ، قال علاء وهو يحرك  
البيروسكوب ..

ابن الكلب جرى .. هرب ..

تم الاستطلاع النهائى ، بدأ التلقين الأخير . جميع أفراد المجموعة  
مخرجون معا ، زيتون يتمتنق بخنزيرين حادين ، عمر الطباخ مع مجموعة  
الاقتحام الثالثة ، جاء الى المجموعة كطباخ ، اسرم ، قصير ، كان يعمل  
بالميلتون . عندما تحدث العقيد سمير عنه ، قال انه سيرسل الى المجموعة  
احسن طباخ في وحدات الصاعقة . لزم عمر المطبخ ، عند عودة الرجال  
يجدون الوجبات الساخنة ، يبدو مستغرقا جدا في عمله ، غير انه بدأ فجأة  
يتذمر ، كيف يخرج الجميع ويبيقى في المطبخ ؟ تقدم اكثر من مرة يطلب  
الاشتراك في العمليات ، منذ اربعة شهور ابلغ بأنه اتم تدريب عدد من  
الجنود على الطهي المتقن ، بدأ يشتراك في تدريبات المجموعة . ارسله  
الرفاعى مع مصطفى الى الضفة الشرقية ، قضيا ليلا كاماًلا ونهارا ، انه  
التدريب في قلب العدو كما يسميه الرفاعى . خلاله لا يخوض الجندي قتالا  
 الا اذا أجبرته الظروف ، ولكنه يتعرف الى الارض والمناخ والشاعر ، بعد  
عودته قال مصطفى ان قلبه جامد ، وجرى ، ابو الفضل يختبر مدفعته ، لم  
تسعفه ذاكرته عندما حاول ان يحدد الزمن الذى تسأله فيه الرفاعى خلال  
حوار جرى مع احد المجندين الجدد ..

كم مرة يموت الانسان .

قال الجندي ..

مرة ..

---

---

امتدت ذراع الرفاعي الى الشرق .. قال  
اذن .. لتكن هذه المرة .

كلما خرج أبو الفضل الى عملية يقول لنفسه ، انها هذه المرة » يومن انه لن يعود وسيصبح جملة في أحاديثهم ، ما يتمناه ان يذكره الرفاعي « كان مقاتلا لا يعرض » قبل استشهاده احدث خسائر فادحة بالعدو ، لم يذهب هدرا ، لن يعبر الدنيا هكذا ، سيترك أثرا لن ينساه الرجال ، قال العقيد علاء ان الانسان لا يختار الطريقة التي يموت بها ، صحيح ، لكنه سيذل كل ما لديه حتى لا يروح في صمت ، وعندما تحيى المرة التي لا تكرار لها فيكتفيه أنه ذهب بين هؤلاء الذين أحبوه ، كأنه سيولد من جديد » لا يخشى الموت » تعرض له مرات عديدة ، وفي كل موقف كان من المفروض ان يغرب تماما ، كل ما يعيشه وقت زائد ، يقول الرفاعي انهم يريدون ان يثبتوا للبلد ولل العدو وللعالم أن مصر انجحت رجالا يعرفون كيف يقاتلون ويستشهدون » وهو سيبت للرفاعي انه من هؤلاء ، لن يتركه ، وهل نسى الرفاعي أحد رجاله يوما ، هل أهل جريحا ؟ لن يتركه فوق أرض يجوس خلاها غريب ، لن يدع العدو يشق بطنه ليحوله الى لغم متفجر ، انها هذه المرة ، في اللحظات الأخيرة التي تسقى اقتراهم من ضفة القناة يسرى مرح رهيف ، مصطفى يمشي على اطراف اصابعه ، كثيرا ما قالوا له ، تبدو وكأنك لا ترتدي حذاء ابدا ، كأنك بلا ظل ، ابو

---

---

---

الحسن في مجموعة القيادة يتلتف حوله ، على شفتي عصام نفس الابتسامة  
الموحية برغبتها في الاقتراب من الآخرين منذ لحظات ضحك عندما قال له  
علاه ان توفيق يمكن صامتا لأنه لو لفظ كلمة واحدة سيرصد العدو  
مكاننا ، تبدو مياه القناة الزرقاء ، منذ شهور عبروا من نفس المنطقة الى  
المهدف ، بعد انتهاء العملية تقدم ضابطا شاب برتبة تقىب « عائق  
الرافعى » قدم اليه شريط كاسبيت صغير قال انه يهدى الى المجموعة ، على  
الشريط اصوات استغاثات قائد موقع العدو ، وقائد موقع « ٦ » يعتذر بأن  
القوات غير كافية للنجدة ..

سلقوا الساتر الترابي ، مصطفى يحمل محبس الالغام ، انفجار ،  
انتشرت المجموعات ، لم تنطلق رصاصة منهم ، التعليمات صارمة ،  
لا اطلاق نار الا على هدف حى ومضمون ، توغلت مجموعات الاقتحام ،  
طلقات متابعة ، رشاشات من طراز جليل نصف بوصة « طلقة دبابة »  
كان جاروفا هائلا قلب الرمال ، سقطت دانة الدبابة في قلب مجموعة  
الهجوم الثالثة ، صاح الرافعى أمرا .. اسحب الشهداء ..

خطا طيف اعدت للغرس في القوايس والعودة بها إلى الضفة  
الأخرى .. واصل تقدمه باتجاه الدشمة الرئيسية ، الاسلاك الشائكة  
اغزر ، أكشف مما تبدو عليه من الضفة الأخرى ، الرمال مغطاة بشر

---

---

---

مجد ، المزاغل المخفة تطلق النيران بلا انقطاع » من عمق الفراغ النهارى جاء صوت موتورات ، بدأت الدبابات ارمى فوق الارض ، زحف فوق جدار الدشمة شبه المنحنى ، اصبح تحت المزاغل الرئيسى الذى يحمى مدخل الدشمة ، مد يده الى أعلى » أمسك فوهه المدفع ارتکز الى الأرض » بسرعة نفذت الحرارة عبر قماش القفاز ، لامست الحرارة ملمس يده لكن الرصاصات اصبحت موجهة إلى الفراغ .

اقتحام ..

علاء ، ابوالحسن ، مصطفى ، زيتون ، اقتحام ، تدفق الى المر »  
البجاوى ، زحف ، رفع يده ، حل مكان الرفاعى ، أمسك الفوهة ،  
تجاوز الرفاعى الرجال ، المر منحنى الى باطن الارض ، نفق ناعم زلق »  
انتهى فجأة ، تتعرج المرات ، بيوت الارانب ، المكان منبع المفاجأة »  
اللحظات منفية ، الاحساس الخفى ينذر ، يتتبه ، التفت الرفاعى »  
التقت عيناه بالعينين المتسعتين ، ثواني المواجهة المصحوبة بالفعل ، يوشك  
الاصبع ان يلامس الزناد ، صرخة ، ثم طعنة تلت قفزة سريعة ، غاص  
من الخنجر في البطلن ، مزع الجلد الى أعلى » طش الدم ، اطلت  
المصارين الزرقاء اللون ..

الدبابات تهاجم ..

---

---

الاقتحام مستمر ، الممرات المتلبة ، أبواب تغلق فجأة ، هب مارق  
عندى الرصاص ، يتوقف عمر لحظة ، يرصد الرفاعى لحظة التردد ،  
يزعن ..

ادخل عليهم .. انت جائى تفرج :

في اللاسلكى يصبح مصطفى ..  
تم سحب الشهداء . عدا شهيد واحد ..  
ابحث عنه .. حول ..  
علاء يتصدى للدببات .  
علم .. حول ..

دخان ، بارود ، لحظة المواجهة تتكرر ، محاولة تصويب ، ضغطة  
الزناد اسرع من الخنجر ، يبدو الاستسلام في العينين ارتخاء الملامع ،  
صرخات ، الفاظ مدغومة ، مدفع عمرو «يُزعَط» في المر الداخل ،  
يلف الرفاعى الشعر الكثيف حول معصم اليد ، في البداية خط اخر يلتف  
حول الرقبة « يتسع ، يتفجر الدم ، في مطبخ الموقع ثمرات بطاطس في  
أناء الومنيوم ، سكين مغروسة في ثمرة لم يتم نقشيرها ، طبق فوق  
الارض » ملاحة من وعائين » زجاجة مياه معدنية ، المطبخ خال ، يحيزمه  
بالالعام ، بوتاجاز مشتعل ، ثلاجة مفتوحة ، تعمل بالكثير وسين ،

---

---

ينغثشون في قلب الموقع ، غرفة الدفن انهيار ، طلقة اربى جي « مكتومة »  
التدفق الى القلب عبر الطرقات الملتوية ، حرق الأوراق ، أبو الحسن يجمع  
كل ما تلمسه أصابعه ، أربع جثث في الممر الرئيسي ، تبادل اطلاق ناري  
كثيف ، انهار الباب الرئيسي ، حزمة ضوء تنفذ الى الغرفة من فتحة  
مستديرة في السقف ، الارادية الزيتوفن تلتجم بالكاكي تستنزف كل  
العضلات ، يد الرفاعي المصابة ثقل من رصاص ، الحزاء يستقر في  
البطن ، يلامس سن الخنجر عظام صلبة ، ثلاثة يتراجعون بعد أن  
جروتهم طلقات سريعة من مسدساتهم ، الرعب جعل الملاحم متشابهة ،  
الخوف مادة صبيعوا منها ..  
ما تخليش حد ..

الضوء والدم ، تكتكات اللاسلكي ، غبار ، اصداء الغرفة الجانبيه  
مستعصية على الاقتحام ، تم تحزيم الموقع كله بالالغام ، أمر  
الانسحاب ، الدبابات تحرك من الخلف ، دمعت عينا الرفاعي عندما  
واجه الضوء ، تتقاطع قذائف الدبابات ، حتى الآن لم يظهر الطيران ،  
علاه يخرج من الموقع المجاور ، يعرج عرجا خفيفا لكنه قادر على السير ،  
من الضفة الغربية يجيء الصوت .. ارجع بالأولاد » ، الى القناة ، ركوب  
القوارب ، تجول عيناه ، يدرك مصطفى ما يبحث عنه ، يقول ان الشهداء  
تم سحبهم كلهم الى الناحية الاخرى .. انفجارات في العمق ..

---

« مدفعتنا اشتغلت » زرقة السماء مصهورة « صرخة من مكان ما » ستار المدفعية النارى ، فوق الرمال ارتعى ابو الفضل ينزف بغزارة « تبل جوربه بالدم » رکع مصطفى بالقرب منه .. « استند على ... ». نظر اليه ابو الفضل بعينين مرهقتين نزف من نظراتهما الى حد الاعياء ، « ابعد .. سيبى ».انا ما عدش فيه فايدة .. » رفع مصطفى ذراع ابو الفضل « صرخ « سيبى ». الحق نفسك انت .. ما تعاملش بطل » .. صالح الرفاعى « ابو الفضل ». استسلم لمصطفى ، فوق الضفة الغربية طاف الرفاعى ، التمام المعتمد الذى لم يستطع أن يقوم به فوق الضفة الشرقية ، الأحياء ، الشهداء بتفصيل أربعة . قال مصطفى .. « سحبنا جميع الشهداء » هذا يعني ان هناك اربعة مصائر على . سففة الأخرى ، انه يكره الاضطراب ، قال الرفاعى وهو يتوجه الى القناة ، « ساعود الى الرجال .. من سبجيء معى ؟ » عاصم ، أبو الحسن ، مصطفى ، علاء ، قال الرفاعى « ابقى هنا يا علاء » ، بدأ عبور القناة في هذه المرة أكثر بطءاً ، وأعمق صمتاً . القذائف تصل ما بين الضفتين ، فوق الضفة الغربية أصعدى رجال المجموعة ، ورجال الواقع الى صوت معدن تحيل ينفذ من خلال الانفجارات والشظايا ، كان الرفاعى يصبح منادياً على رجاله الأربع مستخدماً ميكروفونا يلويها صغيراً « بعد ساعة عرف الرجال أن دبابة اسرائيلية طاردت الجرجاوي ويوسف وعياس والدمياطي ، اتجهوا الى

---

داخل سيناء ، زاغوا بين المرتفعات الصغيرة ، في الطريق فوجشوا بمنخفض ، لم يصدقوا عيونهم ، أمامهم بطارية صواريخ هوك كاملة ، بدت كماكينت ضخم غير حقيقي لأنها مهجورة تماما ، لم يضيئوا لحظة ، ارتفعت السنة اللهب الأصفر اللزج من الصواريخ ، فجرروا عربة الرادار ، ثم كمن مع الرجال بمحاذة مدق رمل قريب حق وصل اليهم نداء الرفاعي ١

غير أن إنسانا لم يستطع الاقتراب من الرفاعي في هذا اليوم لما بدا عليه من صمت غريب ، علاء لم يتحدث إليه ، وعصام لم يقترب منه ، أما توفيق فحمل وجهه صدى الصمت وظل الحزن ، خلا الرفاعي إلى نفسه ، بدا له اليوم رماديا مبللا بالدموع ، اتصلت القيادات للتهنئة ، تم نسف الموقع وتطهيره تماما ، لكنه لم يجب على التليفونات ، طافت بذهنه صور بعيدة ، قطرات الندى الفجرية فوق صخور جبال البحر الأحمر خواص هذه المنطقة ، وما تبعه من احساس بالبعد ، الرغبة في رؤية الأصدقاء عند نزول بلد غريب ، مضى إلى المستشفى ليり جراح الأحباب ، ولبيثت ملامح رفاق السلاح في الذهن المتعب ، ثمانية شهداء ، خلفه الطبيب يishi حذرا ، لم يتزع عنهم الا الأحلية ، ضمدت مواضع الجراح بالشاشة والقطن ، عمر متولد في هلوء كأنه يهم بابلاغه رسالة ما ، أول وأخر عملية ، المسيرى سليم تماما ، ملامح وجهه تحفظ بيقايا الم

---

لحظى صاعق ، نفذت الشفافية الى الرقبة ، اخرى الى داخل الرأس عبر جسده رعدة ، تصلبت قامة ، أدى تعبية عسكرية لانفرضها مراسيم ولم تحدث عنها تقاليد ، في اليوم التالي طلب من السرساوى الضابط الذى يجيد الرسم ان يخط بحروف بارزة اسماء كل من استشهدوا على لوحه مستطيلة ، وان يرسم لهم لوحات ، عرف الحزن طريقه الى المجموعة « خلت اماكن في عناير النوم » ودخلت عبارات لم يلقظها أحد من قبل في الحديث اليومي ، كان السرساوى وهو يخط اسماءهم يقول : « الذين سيقونا » قال الرفاعى ان رحيلهم يعلمنا كيف تحقد أكثر على العنو ، في اليوم الثالث لاقام العملية عصف به غضب « ولم يذكر عبد المؤمن انه رأه هكذا من قبل » بدا على أبو الفضل اعياء شديد ، نقص وزنه بشكل ملحوظ ، توقف الرفاعى أمام السرير الحديلى في العنبر الكبير الشيه بالجراج ملامسا خصره براحتى يديه ، لم يتبادل مع أبو الفضل حدثا منطروقا ، تلاقت عيونهما ، وللة سبع ساعات تالية ، لم يكف عن الحركة بين ادارات مختلفة ، تحملت الى ضباط برتبة لواء « وناقش ضباطا بربطة عميد » ، واحتدى في أحد المقار ، وشرح ما قام أبو الفضل به على مرات ، وانفعل أكثر من مرة حتى تتفق الدم عبر شرايين رقبته الى رأسه ، ولاحظ عبد المؤمن ان أصابع يديه تدور حول بعضها ، لم يتظر المصاعد في بعض الابنية وصعد السلام قفزا ، ابدى ضيقا عندهما تائرا احد الجنود في طبع

---

خطاب كتب من أجل ابو الفضل ، وفي المساء لم ير أحد الاربياح الذى أسدل على ملامحه عندما جاءته مكالمة مختصرة انتظرها طوال الفترة الواقعة بين الرابعة والسادسة ، قال لعلاء وعصام توفيق ووسام « تعالوا الى مستشفى المعادى » في الطابق الرابع لافتة تطلب عدم الازعاج حرصا على راحة المرضى ، على باب الغرفة رقم (١) علقت لافتة تقول ان الزيارة ممنوعة ، قالت المرضية انه نام بعد وصوله ، استيقظ منذ خمس دقائق في انتظار الطبيب المشرف على الحالة . . . في عين ابو الفضل دهشة وخجل وتعبرات تتنفس الى الطفولة المنسية ، هم بالقيام ، وهل هذا معقول والجس يوثقه ، وأشار الرفاعي باصبعه ملامسه فمه ، رفع علاء ابهامه مبتسما « لم ينطق عصام توفيق ، بقى الصمت المعمق بدون خدش ، ثم مضوا الى عدة اماكن بالمستشفى ، الى مكتب الطبيب المشرف والى مكتب ضابط الامن ، والى مكتب الامانات ، والى المشرفة على التغذية ، وعندما وجه الرفاعي سؤالا عن امكانية احضار طعام من الخارج « قيل له ان هذا غير مسموح به تماما ، قال علاء للمشرفة على التمريض ان هذه الحالة تلقى اهتماما من أعلى المستويات ، ابتسمت المشرفة ، نظرت اليهم وقالت ان هذا واضح ، صباح اليوم التالي رن جرس التليفون رنة واحدة مختصرة . .

---

---

---

كان ابو الفضل يصفعى الى ضجة السيارات الخافتة في الطريق : المحاذى للنيل والقادمة عبر النافذة التي فتحت قليلاً . قالت الممرضة « العقيد الرفاعى يسأل عنك » .. بعد ربع ساعة رن الجرس ، قالت الممرضة « الجاوىش مصطفى يسأل عنك » ، ثم أبلغته خلال الساعات التالية باسماء من اتصلوا به ، الرائد وسام ، المقدم توفيق الجرجاوي ، الرائد عصام ، المساعد ابو الحسن وفي مقر المجموعة قال الرفاعى انه سيضيف سنت ساعات الى تصريح اجازة اعتباراً من اليوم لزيارة ابو الفضل ، وقال ان الذين يسافرون الى بلاد بعيدة يمكنهم ارسال خطابات الى ابو الفضل ، وان عبد المؤمن سيقوم يومياً بتوصيل الخطابات المكتوبة من زملاء ابو الفضل اليه ..

في ذلك اليوم ذهب مصطفى الى امه ، سأله عن احواله ، دعت له أن ينجو من الأخطار وان لم تعرف ما يتعرض له من اخطار مضت إلى الدولاب القديم ، أحضرت له البيجامة ، عندما بدأ احتساء كوب الشاي الدافئ ، جلست فوق الأرض ، سأله عن صحته ، ثم سأله عن الرفاعى ، حدثها من قبل ان تراه في فرح فوزية شقيقة مصطفى ، قال لها انه قلب الدنيا من أجل ابو الفضل بعد ان جرح ، رفعت يديها ، دعت له طويلاً ، استفسرت عن صحة أبو الفضل ، قامت في التجر ، خبزت فطيراً ، مضت الى الفرن القريب ، ثم إلى السوق ، اشتريت جينا وعلبة

---

عمل نحل ، قال مصطفى ان الاطباء حددوا أنواع الاكل ، ابتدت غضبا ، قالت ان الانسان اذا سمع كل ما يقوله الاطباء لن ينجو ولن يتمتع بالصحة ، قالت لمصطفى امض الى زميلك وقل له هذا من أملك بخيته وليرمه في البحر بعد ذلك ، في الاجازة التالية ، اعطها دفتر التوفير ، قال انه لو حدث ما تسبب في غيته ، فان الرفاعي سيساعدنا على صرف هذا المبلغ ، اتسعت عيناهما ، ما هذا ؟ ارتبك ، قالت احتفظ شيء لنفسك ، هذا مذا قال سبيء ، اذهب وانتبه لنفسك ، سأزور الحسين وادعو لك وللرفاعي وللكل ، خذ دفترك ، بدت صارمة ، تذكر ملاعها التي اكتسبها بعد وفاة والده ، لم يستطع مجادلتها ، في نفس الليلة جلس فوق السرير بالعنبر ، كتب رسالة الى الرفاعي ، طلب منه ان يجنب امه المتاعب التي قد تترتب على سعيها لصرف معاشه ، قال انه يعرف تماما بأن الرفاعي لن يسمح باى تقصير لكنه يوصيه ، وضع دفتر البريد وصورة له داخل مظروف أصغر ثم وضعه فوق الرف الثالث داخل الدولاب الصغير الخاص به بعد ان كتب عليه « إلى قائدى وصديقى وأخى العميد أركان حرب ابراهيم الرفاعي قائد المجموعة ٣٩ قتال .. »

في يوم الخميس التالي عاد الرفاعي الى بيته مثقلًا بالتعب ، ثلاثة أيام لم ينم ، فوجئت نادية عندما خرج من الحمام ليمرن حلقه الرمادية ، قال ان النوم بالنسبة له مؤجل باستمرار ، انه ماضى الى فرح أحد الرجال ،

---

---

خض عبد المؤمن رأسه حتى يكتمه ان يرى ملامح الطريق في عزبة النخل ، البيت عند اطراف العزبة ، من الترعة القرية على اصولات الليل ، الوقت رباعي والحياة رثة هائلة تنفس بنشاط ، البيت مزدان بمصابيح كهربائية » عبر السور الخارجي ويتجاوزه علاء وتوفين وعصام وعبد المؤمن .. جاء سعيد ، بدا غير مصدق ، عانق الرفاعي ، وقف الرجال في الحجرة الفسيحة التي أضيف إليها مقاعد عديدة ، خرج سعيد وعاد بصحبة المحرجاوى كان يرتدى حلقة سوداء ، وقميصا متين اليادة ، تفوح منه رائحة عطر ، صاح علاء ، .. « انت متنكر » قال الرفاعي « مبروك » ، تعانقا .

في تلك الأيام شعر الرفاعي بدبيب التوفيق عمر المجموعة ، منذ فترة أصبحت تحمل اسمها ، قال الضابط كبير الربطة » حان الوقت لتحمل المجموعة اسمها ، قال الرفاعي .. لقد قمنا حتى الآن بتسع وثلاثين عملية ضد العدو حتى الآن ، اقترح ان نسميها المجموعة » ٣٩ قتال » كان يشعر انه يوزع نفسه على المجموعة ، في كل موقع إليه بسبعين ترك قطعة من جسده » وفي قلب كل رجل صحبه أودع من عمره أيام ، أحزان المجموعة لا يعاني منها فرد ، توزع على الكل ،

بعد العودة من عملية الكارنيشية لم يفارق الرفاعي مكتبة ليلة بأكملها ، ساد هدوء ثقيل ، بدا ضوء المصباح المعلقة أكثر بعدا من ضوء

---

النجوم ، في تلك الليلة تصدر علاء المائدة في المطعم ، ترك مكان الرفاعي في الصدارة حاليا ، على المنضدة صفت أدوات المائدة ، انقبض قلب عبد المؤمن ، هذه اول مرة يخلو فيها مكان الرفاعي بعد اعتذاره عن الحضور ، تم العشاء في صمت ، لم يسمع الا احتكاك الملاعق بالاطباق ، كما ان احدا لم يطلب طعاما اضافيا .

اما مكان الرائد عصام الدالى فلم يستطع احد ان ينظر اليه ، ترك حاليا ، لم توضع مقاعد ، او أدوات مائدة ، بدا شاغرا ، موحشا

في هذه الليلة اصفع الرفاعي الى وسام ، جلس بمسكا بقلم رصاص خطط به أشكالا مجوفة فوق ورقة بيضاء ، حشاما بطلال خفيفة ، ثم من عليها من جديد فازدادت قتامة ، ثم حفر خطوطا غليظة تحملتها دوائر صغيرة ، استمر وسام يحكي بصوت هادئ ، قال الرفاعي يوما لوسام انه يخشى زمان يجيء فيه عن التفكير في احد الذين صحبوه ثم رحلوا ، قال إن الناس يجدون في الزمان عزاء ودواء لخفيف الأحزان ، وهذا حقيقي فأقوى الأشياء لا يصمد للزمن ، لكنه حزين لأن يوما سيجيء فتبهت الذكرى .

قال وسام إنه بعد عودة الرفاعي الى رصيف الكارنتينة الذى سبق تلقيمه ، بدأ العدو في قصف القوارب واطلاق المشاعل المضيئة بدون فرامل زمنية ، عندما تأكد عصام من عودة الرفاعي إلى القارب أشار

بالتحرك ، ضرب وسام الماء بالمجداف ، في مواجهته عصام ، بعد قليل سيتناول منه المجداف ، كان وجهه يبدو واضحا كلما انفجرت قذيفة مضيئة فوق الكارنيتية التي بدأت تبتعد عنها ، عندما برق الضوء الاصفر الفاقع الذي يصهر سواد الليل ، اتسعت عينا وسام ، لم يكن الجسد قد مال عليه بعد ، اليدان مازلا مسكتان بحافتي القارب ، القدمان في وضعهما المثني ، يتنهى الجسد فجأة عند الرقبة ، اللواشر الحمراء ، العروق المشطوفة ، والدم المتدفق يصل إلى جبين السترة ، على مهل مال الجسد حتى استقر فوق صدر وسام ، تسربت إلى جسده حرارة الدم الذي بدأ يتدفق مصحوبا بصوت ، شيئاً فشيئاً ، راح يغرق في دماء صديقه ، وكلما برق ضوء المشاعل رأى الرقبة الفارغة ، الفاغرة والدماء .

هل تعتقد ان المنطة مليئة بالقرش ؟

أو ما وسام جيبيا ، بعد لحظة قال الرفاعي ..

أصبح بيننا وبين العدو دم غزير . لا اتصور ان الزمن سيمحوه ..

في تلك الليلة لم ينم وسام ، عندما بدأ يغفو استعاد الموقف منذ بدايته ، الدم الطرى الحار ، ميل الجسد البطيء وثقله المضاعف عندما استقر فوق صدره ، فارق السرير ، شعر بخوف لم يفاجئه في عرض البحر والوحدة والظلم ، كيف اجتاز هذا ، قبل العملية قال علاء ان افضل طريق الى الموت رصاصات مباشرة في المخ ، قال توفيق إن اقصر الطريق

موته المفجعات ، ان تتفجر بين الديرين فجأة ، قال عصام ان قبلة مباشرة من زنه الألف رطل نعمة من عند الله » قال الرفاعي . يا جماعة اذا طبخ الانسان بعيار أصبح فعلاً ماضياً ، هل سيفكر في الطريقة التي مات بها ؟ الاعمار بيد الله ، تسأله توفيق بصوته الضخم ، هل يتأمل الانسان عند الموت ، قال وسام ، لم تسمع مثل الشعبي « سارقاه السكينة » ؟ قال توفيق ، افضل الموت مستيقظاً ، لم يتباً أحد بالطريقة التي رحل بها عصام ، قدر خفي ارشد الشغطية الحادة المسنونة ، الساخنة الى موضع الرقبة ، لم يسمع وسام آهة الم ، ولم ير الرأس لحظة اندفاعها الى البحر ، سلبهم العدو انتى ما فيهما ، كان لا يتحدث الا عمياً على سؤال ، او شارحاً لفكرة ، يبدو ذاتها مطروقاً ، وفي الاشتباك لا يطلق صرخة ، ولا يبلو عليه الانهاك حتى لو استمر الالتحام ساعات ، تبلو رغبة في افتداء كل من معه ، يعرض نفسه لموقع الخطر ، لم ينافسه في ذلك الا الرفاعي نفسه ، استشهاد عصام مفاجئ ، اصفع الرفاعي الى الليل بعد انصراف وسام ، رأى اطراقة عصام المخجول ، واهتمامه الشديد باسداء خدمة الى الآخرين ، ثم حرارة حديثة المفاجئة وكأنه يود ان يودع أثراً منه لدى كل مستمع له ، استمر الليل ينزف سواداً مستمراً ، بدا الفجر بعيداً ، في المدوء قرض الرفاعي شفتيه ، ستم عملية كبيرة ، عملية عصام الدالى ، سيحدث لهم مذبحة متربوئ في كعبهم .. في هذه اللحظة

---

جسم العقيد علاء تردد « خطأ تجاه مقر الرفاعي الذي لم ينطفئ » ضوءه  
بعد ، طرق الباب ، عندما فتحه وقف متجمدا ، الرفاعي جالس إلى  
مكتبة مرتبها الأفروف ، أصابعه مشابكة قلم رصاص بجوار ورقة بيضاء لم  
ير ما بها ، كان ملفوفا بالوحلة ، غارقا في الغربة ، تلك النمرع ، هل  
كان يذرف دمع المقاتل النادر على كل شهيد ، كم بذلك من جهد حتى  
يسحها على مهل بيته وبين نفسيه ..

غير أن علاء لم يستطع أن يؤجل احزانه في ذلك اليوم الذي جاء بعد  
أكثر من ثلاثة سنوات « بعد أن مضى ثلاثة عشر يوما على السادس من  
أكتوبر » بالضبط يوم الجمعة التاسع عشر من أكتوبر .. جاء إليهم  
الرفاعي بعد لقاء تم بينه وبين رئيس الاركان ، اخرج من جيب سترته  
ورقة كراسة ، الخطوط فيها رسمت بسرعة ، ازيز حاد شرخ السهام  
الزجاجية فوقهم ، في تلك اللحظة ايقن وسام ان شيئا غير عادي جرى ،  
لكنه لم يضع يده عليه ، قال إن المهمة تغيرت ، لن يتوجهوا لنفس معبر  
ال العدو عند الدفرسوار اما سيتشرون جنوب الاسماعيلية ، سيتصدون  
للبابات العدو ، هبت رائحة خريفية ، تختلط برائحة مطاط محروق ،  
وزيت مسكونب ، ورائحة لحم آهي مشوى ، وفي السهام تأثرت كتل  
صغريرة من الدخان تختلف عن انفجار قذائف المدفعية المضادة  
للطائرات ..

---

قال العقيد علاء لنفسه ..  
كيف اقنع الرفاعي بذلك ..  
قال وسام لنفسه ..  
ماذا جرى للرجل .. ماذا يقول لنا ؟

تساءل مصطفى ، لماذا يبدو وكأنه يردد ما سمعه فقط ؟ تذكر اللحظات التي يشرح فيها خططه ، فتلين ملاعنه حينا ، وتشتد حينا آخر .. إن الثقة به غير محدودة ، الثقة بالقائد لا تحتاج الا لتجربة واحدة ، ثم تتوطد وتعيش الى الابد ، ربما هذه الثقة هي ما جعلت كلامهم يشعر ان الحال ليس هو الحال ، وان ثمة تغيرا اطرا .

في الثانية عشرة والربع جاء صوت مصطفى مستنجدا ..  
«انا راجع ومعي رجالنا ...»  
علاء يرد ، يسأل بغمض العينين عن رؤية هب غيف سيخترق عينيه :

«راجع على قدمين»  
انفجارات ، طائرات تروي الارض بالرصاص ، قذائف تزرع المواء بالشظايا ، يتفجر قرص الشمس ، الهواء من هب « كل ما في الكون يحارب ، الصحراء كفن أبدى لا ييل ، صوت مصطفى متقطع كموجات اللاسلكي اللا مرئية ..

« لا .. راجع على ظهر .. »

نافورة صوت هائل متلجم ، موجع ، ينفجر صدر توفيق ، ناظرا الى  
السماء في وضع عمودي ، رافعا قبضته ، لا .. لا .. صرائح مُثُول ،  
عمقه بالسنين ، تغوص قدماه في الرمال ، يضرب صدره . يفرض وسام  
شفته ، لحظة أن رأى عصاها بلا رأس ، الكلاب يربدون أن ينهشوه راقدا  
بعد أن عجزوا عن نهشه مقاتلا ،

يزعن علاء من فصر الحنجرة ، يستفر حياته كلها ، كل منهم عليه أن  
يقاتل ليسترد جزءا من عمره يوشك أن يسلب ، وحنينا ، وأملاء في  
الاحسن ..

« يا رجال .. تعالوا نرجع بالرفاعي . تعالوا نرجع بالرفاعي »

## النشر

(١)

.. الاسكندرية مثوى الذكريات وتابوت صان الايام الجميلة والآن  
فيها منبع الدموع المؤجلة التي لا توقف ولا تكف وعندما وصلت اليه  
وانتظرت عربة تاكسي امام تفتق جرح كاو المب دقات قلبها لن يظهر فجأة  
ولن يقبض يدها عندما تقipض اشواقه فتدرك من صمتها ما لم تدركه من  
نطقه ولأن السندي هو وكل شيء ستقوم هي به ولأن ظلها لن يختلط بظله  
فوق الرصيف المحاذى للبحر ، ولأنه لن يشير الى الأفق الزجاجي ويقول  
ضاحكاً له لويسى الانسان فوق الماء ولأنها لن تصفع الى امنياته ورغباته  
الغامضة ، وعندما جاءت معه الى الاسكندرية اول مرة في الزمن الأول

جاءتوجلة تجده بعد ان نأت عن الأقارب الذين عارضوا ، والأشقاء الذين رفضوا ، وفيها يلى ذلك من سنوات جاءت معه كثيرا الى الاسكندرية المبتلة بقطرات ايامها الأولى والتي تستعيدها الان فترويها بدسموع سخية تسح ولا تشح ابدا لأنها لن تراه ولن تسمع صوته فهو لم يعد يمشي فوق الأرض ولأنها لن ترصد الارهاق الذي لا يروح به ومن كلماته القليلة تجده نفسها لاقتفاء آثار المعانى ولأنه لم يكن يشا أزعاج محبيه بالآلامه ولأنه كان يفيس بالفرح على من حوله ويضمن بالأوجاع والاحزان ، وعندما جاءها الخبر يوم الجمعة حط على كفيها ثقل بغيض وتوقف الزمن في صمت باطر وادركت أنها الخاسرة الأولى في الدنيا ، وبدا البيت عمرا كاماولا وكل ما فيه مضمون بروائحه فكل قطعة اختارها معها وهنا جلس وهنا ضحك وهنا حل ساحما فوق كتفه عندما بلغ من العمر سنة وأمام حجرتها توقف وسأل ، هل نام سامح ؟ هل نامت ليلى ؟ في الصالة انتظرته وخفق قلبها عند سماعها خطوطيه الأخيرتين قبل ولوح المفتاح في الباب ، وعرفت أنها ستعيش انتظارا من نوع آخر لانه طويل المدى ومضن ومرهق للعمر ، وفي كل مرة خرج فيها الى القتال كانت تدق من عودته وتبجلس في الشرفة مع الليل ويعيدا عنها وفوق نقطة معينة من الارض التي يحتلها العدو يتحرك ويضرب ، وكان يقول ان الذهاب الى العدو ومحاربته افضل من البقاء في انتظاره ، وقبل مجىء الفجر تصعدى الى المليو كيلو التي تتجه الى المطار

القريب وفي احدى الليالي قال انه يجب ان يراها بعد عودته ونفذت كلماته حتى اطرافها وعندما جلس مرتديا ثيابه المثقلة بآثار القتال ادركت من اطرافته ونطق كلماته مدى ما اصابه من نجاح ، ولم تكن تضيع ثانية ، اثنا تتحرك في هدوء لعد قربة الماء الساخن وعشاء خفيفاً ، وكان يضيق اذ قال له انها لم تتناول طعامها وتساعده في خلع الافرول ، وعندما بدأت الحرب يوم السبت السادس من اكتوبر ازدحمت الساء باهليو كبرات ولم تدرك اي طائرة هو ؟ ولم تدرك ميعاد عودته وبعد سماع الخبر لم تواجه سامح وليلي اثنا دخلت الى عرفتها وهوت فوق المهد المجاور للسرير ومن كل شيء نفذت اليها رائحته ورأرت بيجامته الشتوية خاوية وزجاجة كولونيا مصرية الصنع لم تفرغ بعد وفوق المنضدة الصغيرة غطاء الرأس العسكري الذي احتوى رائحة شعره وتحته كتاب باللغة الانجليزية ، وبين صفحاته تطل ورقة بيضاء مستطيلة اما مكانه فوق سرير فمستور وتذكره عندما كانت تفتح عينيها فتجده جالسا ومستيقظا قبلها ، وفي تلك اللحظة استقر داخلها ثقل مريض وأدركت انها لن تجرؤ على أن تسند رأسها الى نفس الوسادة لأن الحجرة أصبحت كهفا من الوحيدة وفي الليل الاول جاء كثيرون لكن في لحظة معينة من الليل أغاث عليها خواص ابدي وسقطت في ثلاجة من الاحزان وعندما واجهت القادمين لم تخن رأسها وحدقت في العيون بثبات ولم يفارقها يقين بأنه يراها ويطوف باليت ملتحقا بكل

الألوان التي لا ترى وتتبثث منه رواح لا يعزها انت وأيقنت انهن مبنى  
بالسكتة لانه يراها في النهاية كما عرفها في البداية ، ولأنها استجابت له في  
غيابه فلم تبك كما طلبت منها ، وأدرك انه يطوف بالبيت ، ليطمئن على  
الليام وليسريح ، وطوال العمر القصير تحرك فيه هادتها بلا ضجيج ولم  
يتكلم كثيرا ، وكان ظله خفينا ، ولم يعاند ، ولم يضرب سامح ولم ينهر  
ليل ، ولم تكن له طلبات ، واذا سأله عما يسود ان يأكل يقول لها  
« ما ستأكلينه انت » و اذا احتلم النقاش يقول لها « اخفضي صوتك  
سيسمعك الجيران » ، وعندما تفتح الباب لا تدل ملامحه على الجهة القادمة  
منها ولا الى اى ناحية سيمضي ؟ وبعد رجوعه من ليلي القتال يدخل  
حجرة ليل وسامح على اطراف اصابعه ويتأملها ثم يمبل ليقبلها ويتأني  
ازعاجها وهو الآن يحوم حولها ولا تراه ليل ولا يراه سامح ، وتود ان  
يرضى عنها في غريبته وسبل الاتصال بينها مقطوعة ، وفي اليوم الأول لم  
تبك ابدا قالت لنفسها ان زمان البكاء بدأ ، وان الأيام التي ستبك فيها بلا  
حد ، وفي كل عام ، وفي يوم التاسع عشر من اكتوبر ستبدأ ذرف دموع  
تفيض على امتداد السنة كلها ، وعندما نامت بحمل الساعات والليالي  
والزمن الذي ولـى جاءت الى الاسكندرية كما جاءوا أول مرة ، وبعد  
زواجها قالت امه « خل بالك منها » وصحبها اشقاوها ، سمير وسامح  
وسامي حتى المحطة ، وفي القناه الكبير اشار الى الديزل الذي بدأ

التحرك ، وقال انهم تأخروا نصف دقيقة ، وضحك ، ورددت الطرف  
بينهم حاثرة ، أهي مسئولة عن التأخير؟ وهل استغرقت وقتاً أكثر من  
اللازم في اعداد حقائبها؟ وضغط يدها ، وخرجوا الى الميدان ، وعاد  
سامي ليقول انه عذر على تاكسي سيتحرك بعد قليل وعندما ادار السائق  
المotor لوحراً بآيديهم وفيها بعد حکى لها عن اشقائه ، سمير وسامي  
والمرحوم سامح ، وحکى لها عن انتقال الاسرة من بلد الى آخر ،  
واستيقاظهم مبكرين ليلحقو المدارس البعيدة ، ومشيهم فوق الطريق  
الزراعية ، وحدثها عن الانتقال المفاجيء الى بلد آخر وعند وصولهم الى  
المدرسة الجديدة يجلبون أنفسهم اما قد سبقوا النجع او ان النجع سبقهم كما  
ان الزملاء والاصدقاء يتغيرون ، وفي طنطا توقف التاكسي ودخلوا الى  
استراحة صغيرة وجلسا الى منضدة مستديرة وتعانقت نظراتها ، ومنذ هذه  
اللحظات مشت في وطنه وظللتها غماماته وصارت معه ، ولو عرفت أنها  
ستحاول بعد سبع عشرة سنة استقصاء الاثر لصانت كل ما مرت بهما ،  
ولا حفظت بكل ورقها حرف ولتعلقت بخطوات الزمن حتى تقله فلا  
يمضي ، وعندما مرت أمام الفتق الذي قضيا فيه باكورة العمر الجميل  
توقفت ولم تجرؤ على عبور الطريق اليه وحول البناء رأت الحديقة  
كالسلوى ، والمصابيح الملونة معلقة إلى أعمدة خشبية ، وتذكرت جلوسها  
تحتها ، وابتسامتها ، وهيسمها ، وانحناء المجرسون لها ، وعناقها لزرة

البحر من الشرفة الخشبية القسيحة ، واستنشاقها الهواء القادم من شطآن غير مرئية ، وعندما حدقت طويلا في البحر قال مرحبا « أقدم لك صديقى البحر » وعلى الشاطئ قال لها إنه سيستعجل التجار بعد عودتها لينهى الأثاث » وعند نهاية الرصيف المبلط بقطعة صغيرة من الحجارة توقفا وسألاها ، إلى أين تودين الذهاب ؟ ، ولو حاولت احصاء المرات التي قطعا فيها هذا الطريق لكل ذهنها ، وفوقه مشيا عندما كانت ليل جنينا تطرق ابواب الدنيا من خلال احشائهما وكان الحنو مخدقا منه ، واللهم لا تفارق صوته ، ومنه تسرب اليها رضى احل من الشعور بالأمن » وعندما جاء في الاجازة انحنى فوق المهد ، ورفها يبن يديه ورأى وجهه تحت ظلال خجل غريب مهموس ، والآن تواجهها المدينة بالصمت ، والبحر في حركه الأبدية ، والناس يروحون ويحيثون ورجل يفتح باب سيارة لامرأة ، وامرأة تتأبط رجلا ، وتحشم عليها وحلة بغيةطة في قلب الزحام فتلوذ بأحد الايام البعيدة ، وتذكر اندفاعاته المفاجئة وفي البيت يتأمل الأثاث حيث لكل قطعة حكاية ، وكثيرا ما سألاها « هل تذكرين متى اشترينا هذه الكتبة ؟ » ويدو مرحبا ، وعندئذ ترصد ملامح طفل تحبها ، وفي بداية كل شهر يخرج مظروفا أصفر اللون وتقول ضاحكة ، كم ستأخذ كمحضوف ؟ فقال انه لا يحتاج الى شيء وعندما سيختاج سيسقول لها « وعندما عاد يحمل بعض الشاب قالت ، لم تناقش البائع في الاسعار ، قال بدهشة ، لم أفكرا بذلك

مناقشته .. الاسعار مكتوبة في الفترية ، ثم قال انه لم يعتد المناشة » وفي لحظات اخرى دخل المطبخ وفتح الدولاب وتأمل العلب والصناديق الصغيرة وسأل ، ما هذا ؟ عندئذ تقف ويديها معقدتين أمام صدرها وتتحجّب « صابون » ويسأل مشيرا الى بعض الاكياس ، وهذا ؟ قالت « زبيب من بقایا رمضان » ، وتقديم خطوة لتقول « أنا سارعك . هذا سمن .. وهذا زيت » ضحك وقال « أنا لا أطّالب بالجرد » ، فقالت بدلال « اخرج اذن لو سمحت من المطبخ حتى اعد لك الغداء » ، وهنا انصرف صامتا كأنه لم يدخل ، وكأنه لم يسأل ، وكان هذه الأيام لم تمر ، وكان سكينا هائلا بتر ففصل وابعد ، وفي الزمن النائي تردد صوته في التليفون واضحا واثقا « زوجي منك معركة ولا يمكن ان اخسرها » قالت بصوت خافت محاذرة الا يسمعها احد » .. هل تعتبرن علوا ؟ » وعندما خرج يوم السبت السادس من اكتوبر كتب اليها رسالة موجزة « .. عندما يصلك خطابي هذا اكون ماضيا لقتال العدو ، قولي لمن تلتقي به ان في مصر رجالا قادرين على هزيمة العدو .. » وها هو كل شيء يفلت ويولى وعندما جاءها معا الى هذا المطعم الذي لا تحرّك على دخوله لأن كان المطر يهطل بغزارة وعبر المسافة الفاصلة بين السيارة والباب قفزا ، وعندما دخلا نظرا الى المناشد الحالية ، وأوريا الى منضدة مستديرة وجلسا وقال كل منها انطبعه للآخر وكان يتسلل من السقف اوراق ملونة ومصابيح كثيرة وفي

الركن شجرة عيد الميلاد خضراء وقال لها ، كل سنة وانت طيبة » ولـ ذلك العام » واعوام كثيرة يعلـه » وستجـيء سنين اكـثر بدونـه ، وستخلـو كل الاـيام من مشارـيعها معاـ » وخطـاباته ومراتـ صـمتـه التي اعتـادـتها ولـن تعدـ له مفاجـأة يوم عـيد مـيلـادـه ، اـحتـفال بـسيـطـ في بيـتها لـانـه لم يـعـد هـنـاك اـعيـادـ للـمـيلـادـ ولا مـكانـ للـبـهـجةـ ، اـنـما سـتـحـاـصـرـها ايـامـ الـبـكـاءـ الطـوـرـيـلـةـ باـحزـانـ وـآلامـ وـوـحـدـةـ ، هيـ الـخـاسـرـةـ الـاـولـىـ ، وـكـثـيرـ ماـ يـأـخـذـهاـ الفـكـرـ فـلاـ تـصـدقـ انـهـ لـنـ يـعـودـ ، المـ يـواجهـ بـلـاـ حدـ ، وـعـادـ سـالـاـ » وـكـثـيرـ ماـ هـافـاـ قـبـلـهاـ وـاستـولـتـ عـلـيـهاـ حـالـةـ اـنتـظـارـ لـسـمـاعـ خـطـوـاتـهـ الـاخـيـرـةـ قـبـلـ التـوقـفـ اـمامـ الـبـيـتـ ، وـعـنـدـمـاـ فـتـحـ عـيـنـيـهاـ فـيـ ذـلـكـ الصـبـاحـ تـقـصـتـهاـ لـحظـاتـ ولـتـ ، وـعـنـدـمـاـ كـانـتـ تـفـتـحـ عـيـنـيـهاـ فـتـجـدـهـ بـجـوارـهاـ ، وـتـدـرـكـ انـ الـيـومـ اـجـازـةـ ، وـانـهـ سـيـقـىـ مـعـهـمـ » وـانـهـ سـيـخـرـجـ بـسـامـحـ ، وـانـهـ سـيـدـاعـبـ لـبـلـ ، وـعـنـدـذـ تـغـمـرـهـاـ رـاحـةـ ، وـتـنـظـرـ الـىـ وـجـهـ الـهـادـيـ اـحـلـوـ الـآمـنـ التـقـاطـيـعـ وـالـوـدـيـعـ الـلـامـعـ ، وـتـنـفـسـهـ الـبـطـيـءـ فـتـقـولـ بـصـوتـ خـافـتـ ، «ـ يـاـ حـبـيـبيـ »ـ غـيرـانـ لـحظـةـ الـوعـىـ اـدـرـكـتـهاـ كـانـقـضـاـضـ صـاعـقـ ، فـادـرـكـتـ اـنـهاـ وـحـيـلةـ ، وـانـهـ لاـ يـتـمـددـ بـجـوارـهاـ ، وـانـهـ لـيـسـ فـيـ الـبـيـتـ ، وـلـاـ فـيـ مـصـرـ ، وـلـاـ فـيـ الـعـالـمـ ، وـانـ الـحـجـرةـ غـيرـ حـجـرـتـهاـ فـمـنـذـ ايـامـ اـفـسـحـتـ مـكـانـاـ لـلـكـبـنةـ فـيـ غـرـفـةـ الـأـوـلـادـ وـاصـبـحـ دـخـوـلـهـاـ إـلـىـ غـرـفـتـهاـ صـعبـاـ وـنبـشـاـ لـشـجـونـ ايـامـ الـخـلـوةـ ، تـنـامـ معـ لـبـلـ وـسـامـحـ »ـ فـيـ ذـلـكـ الصـبـاحـ بـكـتـ وجـرـىـ الدـمـعـ سـخـياـ وـعـنـدـمـاـ خـشـيـتـ

---

استيقاظ ليلي وسامح ورؤيتها هكذا خرجت على مهل الى الصالون وفيه استسلمت اسيرة للأحزان ونظرت الى صورته ، وهمست باعتذار لأنها لم تستطع التصدى للبكاء ، لكنها لم تبك ولم تظهر ضعفا امام سامح وليل ، وفي الاسكندرية طافت تحاول اقتناء الاثر ، وكانت ملائمه في الطرقات ، عند التواصى ، وفي المقاهى التي جلسوا اليها يوما ، وايقنت انه يراقبها ومن كل مكان يرمقها وفي الليل تتعلق بالسيء وتتعلم ملائمه من اعمق النجوم ، وعندما فتحت الباب رأته يمسك بيد ابو الفضل الذي بدا خجلا ، لكنه ابدى ترحيبا به ، وقام وتناول طبق المكرونة الكبير وعندئذ وقف ابو الفضل فضحك طالبا منه الجلوس وقال له « انت ضيف » ثم ازاح الشوك والسكاكين جانبا ونظر اليها قائلا « نحن مقاتلان ونفضل البساطة » وفي رمضان كان يطلب منها ان تحجز نصيب ابو الفضل من الكتفا ، وفي العيد يعد له الكعك ، وكان يقول انه من الواجب ان نخفف الوحدة عن الانسان الذي ابلى بالوحدة فلا ام ولا اب ولا اسرة له الا المجموعة وهذا هي تفضي الان وحيدة ولا يظللها بجناحه ولا يخفي عنها بهمسة وتمر من بعيد بحدائق المتنزه ولا تعبر الباب ولا تتخبط السور وعندما جاء مصطفى قال بصوت باك ان الاكل الذى كانت تعدد له بعد اصابته بالقرحة كان يقتسمه معه ، وفي كل صباح يجيء صوت مصطفى عبر التليفون متسائلا « الا تحتاجون الى شيء ؟ » وجاء عبد المؤمن يقود

---

السيارة الميكروباس البيضاء وامسك بيد سامح عند نزول السلم وفي  
الظهيرة عاد به وسأل ، الا تحتاجون الى شيء ؟ وجاء وسام وجاء علاء  
وجاء السرساوى يحمل صورة زيتية للحبيب الغالى « وضعتها بين صور  
عاصم الدالى وعمر وسعيد وبقية شهداء المجموعة والذين علق صورهم  
بنفسه في الصالون ، أما ابو الفضل فلم تره » وقالوا لها ان خدمته انتهت ،  
وانه لم يتصل باحد منهم « ولم يره أحد ، وانه رحل الى اماكن لا يعرفها  
احد ، والتتحقق كل فرد من المجموعة بوحدة » وفي حديث لمصطفى قال ان  
الكثيرين جاءوا الى مقر الحبيب ليروا اين عاش ؟ وain فكر ؟ وain وضع  
خطط المجموع ؟ وقال مصطفى انهم ضباط وجندول لم يرهم ابدا ولم يسمع  
عنهم وبعضهم لم ير الرفاعي ولم يلتقي به ، وجاءت أم مصطفى وقالت أنها  
لم تره الا ليلة فرح ابتها ، لكنها احبته كمصطفى ، وتساءلت .. الا  
تحتاجين الى شيء ؟ قولي ولا تخجل ومع مضى الايام تتبع المسافات ،  
وتصبح الوحيدة عمرا وتطول لحظات اصمت ، وفي الليل تتأكد من اغلاق  
النواخذ ، والترباس النحاسى المتن الذى اضافته الى الباب وعندما يدق  
الجرس تنظر من العين السحرية ولا تفتح الا إذا استوثقت من القادم ؟ وفي  
جوف الليل تصفعى الى برودة البيت ، وترحل عبر سنوات العمر ، تلملم  
الذكرى من كل عام ، وتلتجأ الى الدفء فى الاحاديث التى لم يدهمها  
النسوان ، وتصغى الى خطوات العائدين بعد منتصف الليل ، والى شظايا

---

---

ضحكات بعيدة مجهولة المصدر ، وإلى عبور عجلات المترو لفواصل ما بين  
القضبان . وإذا عجزت عن استعاده قلمح أو عبارة قيلت يوماً ،  
تبكي ...

.. ما بين اليقظة والنوم تهادى الموجودات . تلين البوابس وتتدافع سيارات في صخب غير محسوس ، ويتعلق جندي بعربة نقل ، وترتفع معاعول . وتلمع الشمس فوق حديد ملقي في العراء ، ويبدو الرفاعي ماشيا ، ويبدو مبتسا ، ثم يرى واقفا ، وجالسا داخل هيلو كبر . وتطير شطيبة في حجم صومعة قمح ، ويظهر جنود من تحت الأرض يهد كل منهم يده حاملا رسالة ، والرفاعي يجمع الرسائل وفي المقابل يلصق الطوابع ويقف جندي أمام الميكروفون يتلو شعرا ، وتعبث الرياح في شوارع خالية ، اين الرفاعي ؟

يهوى ثقل داخل الصدر ، تتعثر دقات القلب ، بدايات غثيان . لحظات ما قبل القى ، الجسم يفرغ من الروح ، يقوم متسارع الأنفاس ، والوخز يفرض صدره ، يجلس في الفراش ، الآن ، في هذه اللحظة ، التالية ، لن تمضى لحظات الا ويسقط ما واجهه طويلا ، ما نجا منه ، ما أفلت منه ، الدوار خفيف هازى يقف في وسط الغرفة ، أى مواجهة هذه ؟ أى خلل طرأ على القلب ؟ أى قوة تباغته ؟ العالم كله سبولي ، سيموت . الآن ، الآن ، الدقيقة التالية ، الخمس دقائق

---

التالية الدقائق الثلاث التي انقضت فعلاً ، ينفرد به في مكان مغلق ، يدفع  
مصارعي الشرفة ، المدينة هاجعة والشوارع خالية تنسحب الطريق أمام  
الموت القادم ، سألت زوجته بخوف .

مالك .. مالك يا علاء ؟

سيوسع هذا كله ، سيغادر البيت ، والطرقات ، والعالم ، يشحب ،  
ييف لعايه ، تتسارع دقات قلبه ، يود الأفلات من اسas الجسد ، من  
تصور ان الموت سينصب له هذا الكمين ؟ هذا الوخز البطيء الذي تحدثه  
ايد خفية غير منظورة ، الوخز الذي يسبق التوقف النهائي ، الوخز الذي  
يصبح تباطؤ الدقات ، القلب ضئين بما يدفعه من دماء الى سائر أنحاء  
الجسم ، تضيق به الشرفة ، يستند الى المصراع الخشبي ، يدخل ، الفزع  
يكسو وجه امرأته ، اختصر الرفاعي وعصام و عمر وعبد الكريم الطريق ،  
تعود بكوب ماء ، يرفعه الى شفتيه ، اشهد أن لا إله الا الله ، تصرخ  
زوجته ، علاء ، للهاء مذاق غامض ، اهكذا ، لم يجد له الموت اثناء القتال  
والدوريات وعبور الالغام والتزول الى قلب الواقع المعادية ، ثم يحييه فجأة  
بين جدران مشيلة ، جاء سالكا عرات وعرة الى روحه ، يبدأ هذا الاتهار  
البطيء الذي لا صوت له ، تتسائل بفزع ... ماذا أفعل ؟ تمكك كوب  
الماء الفارغ ، لن يوقف احد هذا الزحف البطيء الذي أصبح الان  
مصحوبا بهدير خافت وحلقات غير مرئية تدور داخل الرأس ، يحكم

---

---

الحصار حول روحه ولا يجهز عليه في ضربة مختصرة واحدة ، والليل يثقل ، والنهر قد يحيى ، ولا يحيى ، ولن يذهب الى السرير « لو أغمض عينيه فلن يفتحها قط » وفي السويس قال جندي مطافق يقف بجوار نجبا المحافظة ، « جاءت الشظية في حجم رأس الدبوس ، آه يا كبدى » لم يحط منطق « وفي طريق المعادى قال لنفسه » لو جرحت ، سارقد في هذه المستشفى ، أو أحد المستشفيات العسكرية » ، في حديقة المستشفى رأى مصابا يرقد فوق سرير متحرك « يتلقي من تحت الغطاء خرطوم نحيل من البلاستيك يصب في زجاجة مستديرة امتلاً نصفها بالبول ، قال لنفسه « اكره ان تدعيني يارب » .

تقول امرأة ..  
يجب أن نستدعي طبيبا ..

ينظر إليها صامتا ، موجوعا ، محاصرا ، ماذا يشكوا ؟ هل استقرت شظية في جسده ؟ هل ينزف دما ؟ هل غارت في عروقه رصاصة ؟ تزييفه الحالى لا تراه عيون ، ولا ترصده أجهزة ، تزييف الحزن مستمر « داخلى ، لا ي BIN ، إنه الآن فى هذته مؤقتة مع هجوم الموت المbagt الذى لم يجهز عليه » في صغره ، قال والله ان ملاك الموت كان يحيى الى أمة محمد قبل ارساله إليها بحسدا « وعندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام رجا الله ان يرحم امته من هذا المول ، فبدأ عزراائيل يحيى متحفيا لا يظهر الا لن

---

سيقبض روحه ، إنه لم يظهر له حتى الآن ، لكنه يحوم ، ماذا سيقول للطبيب وهو الطبيب السابق ، لو يطلع النهار ، لويرى الحركة ، ويستنشق الروائح ، يدرك أن حياته انقسمت منذ الليلة إلى قسمين ، الأول عاشه وولي ، كان مفعماً بالحركة والقتال والرفاعي والزماء الذين مضى كل منهم الآن إلى مكان غير المكان ، والثاني بدأ ، المجهول ، انه يمسك بلحظة تولد فيها التجعدة وتبقي لا تفارق الوجه ، عندما اتصل به أحد الصحفيين في الظهيرة وطلب منه ان يقابلته ليحدثه عن الرفاعي اعتذر ، قال الصحفي انه سيعذر سبع حلقات إذاعية عن الرفاعي ، لم يسمع باطلة عمر الحديث ، انا انتهي في جفاء ، ماذا يريدون ان يفعلوا بالرفاعي ؟ حلقات إذاعية ؟ رواية ؟ قصة ؟ فيلم سينمائى ؟ هل يتسع احد هذه الأشياء للرفاعي ؟ لهذا العمر كله ، لو اتصل به احدهم مرة أخرى سيصبح فيه . يا لصور من كنوز المقابر .. اتركون واتركوا الرفاعي في حاله ، لا يود رؤية نابشى السيرة الفضوليون ، المتطفلون ، كأنهم يتحلقون به في هذا الليل ، يخشى الليل الآن ، انه يتلمس المعدنة من الرفاعي ، لم يخلق من لا يخاف ، إنه لا يخشى عدوا معروفا ، إن مهاجمه لا يرصد ، لا تخترقه الرصاصات ، ولا يناله سن الخنجر ، في قلب الانفجارات واللهب ظهر الجمعة التاسع عشر من أكتوبر انجلى بأذنه فوق الصدر العريض الذي احتوى البلد ومن فيها سنتين طويلة ثم سكت من

أجلها بعد ان خفق وتحقق لها ، عبأا حاول التقاط أى اشارة مرسلة من القلب ، الجسد سليم ، اليدان تلامسان الخصر ، كأنه سيقف بعد اغماضه عين ليرصد ، ويرقب ، ثم يعطي إشارة الهجوم ، غير أن الظهر احتوى الملاك التحيل ، في مستشفى النحاسين قال الأطباء ان الشظية نفذت الى القلب تماما ، سلكت طریقاً دق من مشرط الطبيب لوسد الى مركز القلب ، قالوا انه لم يتم ، فتسائل ، لكنه لماذا يضغط شفته بأسنانه ؟ اثناء عودته بالجثمان لم يبك ، عندما ظهر الطيران مده ورقد فوقه ، يجمى الجثمان من خطر آخر محروم او شظية غشومة ، لامس وجهه جبهة الرفاعي وعيشه وذقنه الخلقة ، من ملائحة كانت تولد ابتسامة من قلب الموت كما تنمو الزهور فوق المقابر ، وعندما رأه عبد المؤمن بكاه صارخا . « كالقمر » وعندما عاد يحمله لم يدر ، هل يغلق عينيه ، ام يتركها على حاليها ؟ لم يدر إلا شيئا واحدا ، أن يعود بالرفاعي ، لو ان الرفاعي سمع له بالتقدم بدلا منه لكان مستريحا الآن ، انه حزين من أجل نفسه ، الا يختار الموت الا هذه الطريقة الغامضة في الهجوم عليه ؟ يكاد يدمع حزنا على ذاته المحاصرة ، على الفراق الطويل البطئ ، لا يرغب في البقاء بالبيت ، لا يرغب في التزول الى الشارع ، لا يود محادثة أحد ، إلى من يتكلم ؟ تقطع الحيوط واحدة اثر اخرى قتعت الامواج بالعمر ، لماذا لم تbagنه النهاية في لسان التمساح ، في بلاعيم ، في الطور ، في جبل مريم ،

---

---

في شلاطيم لوحده لوحده من يرثيه ، ومحزن من أجله ، ويذكره ، ويعلق  
صورته في بيته ، ويطلق اسمه على احدى العمليات ، لكنها هو الفناء  
يرأوه ، يهدمه في كل لحظة جزءاً حقي يجهز عليه في ضربة مbagha ، بأي  
مكان يتحصن ، والى اي موقع يلتجأ ؟ انه يسع دموعاً جرى ، اين الرفاعي  
ليشكوا له ما جرى ، ليحدثه عن هذا الاحتضار الطويل الذي بدأ ، قد  
يستغرق ثوان ، وقد يطول إلى سنوات ، أين هو أين ؟

« . . . إلى الصعيد وإلى الوجه البحري وإلى المدن المحاذية للبحرين الأبيض والأحمر وإلى القرى المطلة على رمال الصحراء رحل أبو الفضل ، لم يستقر في مكان ، ولم يأو إلى بيت ، ولم يهجر إلى إنسان . فوق الطرق الزراعية المرصوفة والترية نزل الليل عليه » وقرب سمالوط هاش بعضا من جريد النخل على الكلاب عندما حاولت النيل منه ، ورأى أضواء مدينة ادفو الليل مقترب ، ومن الحقول شاهد مبانى الاسكندرية مضمنة بالغريب والسحب ، تعلق بالقطارات الراحلة بين المدن والقرى » وعبر النيل في القوارب الصغيرة والراكب الكبيرة ، وعمل حالا مع جماعة ينقلون الأحمال ، وعاملوا في رصف الطرق » وبواباً لوابور طحين ومعيناً لاكاس البصل ، دخل بعض القرى والمدن مع بدايات النهار » وأوى إلى المساجد المفتوحة في قلب الليل ، ونزل ضيفاً على كثيرين لا زالوا يقدمون العون إلى الغريب في ذلك الزمان ، في قرية دراو بالقرب من أسوان سأله الفلاحون في السوق بعد أن بدأ كلامه ، من هو الرفاعي ؟ فقال إنه من الناس الذين لا يحيطون مرتين في الزمن الواحد ، جاء إلى الدنيا وقضى عدداً من السنين محدوداً » وحمل البلد وهو مها فوق رأسه ، وحارب من أجل الناس ، الناس الذين يعرقهم ، والناس الذين لم يرهم » والذين

---

مضوا ، والذين بقوا ، والذين لم يأتوا ، قال إنه الآن طائر من بين الناس ،  
وأنه علا كا لصقر ولم يعد فوق الأرض إلى حين .

وفي الرقازيق حدث الناس في مقهى كبير عن جلوس الرفاعي إلى  
الجند وحديثه عليهم ، وحديثهم إليه ، وطلبه منهم أن يتحدثوا عن  
بلادهم وعن قراهم ، وعن الوان الزرع على مدار السنة ، وكيفية حمارية  
الآفات ، وزمن نضج المحصول ، وكل ما صار وما سيصير ، وفي كفر  
صقر قال لعمال ملحظ القطن إن الرفاعي لم يكف عن توجيه الأسئلة إلى  
الجند ومنهم استوحى الخطط ، وأنه كان هادئاً بالبال ، طويل النفس في  
محاورة الصغير والكبير ، وحكي لهم ما جرى بالقرب من القناة يوماً ،  
عندما قال ضابط احتياط من حملة المؤهلات أن مستقبله ضائع بسبب  
الجيش وأنه كان مرشحاً لبعثة إلى أوروبا ، فاشترى الرفاعي إلى الشرق  
وسأله ، من يطرد هؤلاء ؟ ثم قال ، هل تستورد رجالاً ليحاربوا لنا ؟ ثم  
قال ، لو تركنا العدو فلن يظل مكانه ، إنما سيجيء لاته يطمئن في هذا  
الفول الأخضر ، ومد يده واقتلع عوداً من النبات الأخضر ، سأله  
الرفاعي ، هل تنسى كلنا وترتكب بعضى إلى بيتك وبيتك واحتلوك واحتقي ،  
قال الشاب ، لا .. قال الرفاعي ، انت قلتها لنفسك .

---

ومضى أبو الفضل إلى كفر صقر وإلى السنبلاويين ، وقال لل فلاحين في  
حقول الأرز المغمورة بالمياه أن الرفاعي كان هادئاً ويسقطها وتفسخ حلقة ولم

---

يتعال على مخلوق ولم يجح انسانا يلفظ ولم يخدش اذنا بكلمة ، وقال إنه كان قاسيا فيها يتعلن بالقتال ، يوقع الجزاء على الجندي ويضعه في السجن ثم يستقصى أحواله من بعيد ليعرف اذا ما كان حبسه سيؤثر على نفسه عند الخروج للاققاء العدو ؟ ، وفي أحد الأيام زعن لاحدهم لأن زرار قميصه مقطوع ، قال ان من ينسى زرار القميص فإنه ينسى تركيب كبسولة التفجير ، هكذا يروح الجهد ويضيع .

في قرية العنائم قبل لقاب ابو الفضل ، وفي البدارى تحدث الى الناس تحت سقف الليل ، وفي الحواتكة جلس على محطة السكك الحديدية ، وفي القطار طاف بر Kapoor الدرجة الثالثة ، وفي جهة قضى يوما بسوق الاثنين ، وفي مغاغة قضى يوما آخر بسوق الأربعاء ، حدث الخلق عن الخروج مع الرفاعى ، واحساسه الخفى بقرب ظهور العدو وامره بالتوقف عندئذ ، حدثهم عن انواع الضوء ، الأضواء الفامضة في عمق الصحراء ، وكشافات الطائرات المقتربة من مرات المبوط ، وتلاقيها مع اصداء الاضواء الخافتة الصادرة من النجوم البعيدة ، ومشاعل العدو التي تصهر الليل ، الطلقات الكاشفة لمدفعية المهاون وارتفاعها المتهلل البطيء ، واللهب المنبعث من فوهه مدفع ميدان ومشاعل الطائرات التي تعرى المدن والواقع ، حدثهم عن انفجار القذائف ، عن نفاذ الرفاعى بين الشطوية والشطوية ، عن حضبه لهم على مواجهة الموت وعدم الخوف منه

---

والسعى اليه لأنه ينال من يخاف ويباغت من يتغشى ، حدثهم عن تقدم الرفاعي بطوله وعدم انحنائه لحظات الهجوم وعنت قبضته عند الالتحام ، وحدثهم عن لحظات المرح في قلب موقع العدو ، عندما اصروا على التقاط صورة في عتمة الليل ، واصطفوا حول الرفاعي ، ويريق ضوء آلة التصوير ، قال علاء ان العدو سيرصد هذا الضوء ويحارق تفسيره ، ربا ظنه سلاحا جديدا ، حدثهم عن مواجهة الليل مع الرفاعي ، والصمت حولهم لحظات الخطر الخدر الى العدو ، والغموض ، ومعرفة الرفاعي باوضاع الهجوم وقوله ان ما بيننا وبين العدو دماء كثيرة وان نصف جيشه لا يكفي للثأر لاحدر جاهلي ، وقوله انهم يجب ان يأخذوا من العدو احسن ما عنده ، لكن لا يعاملونه بنفس اسلوبه القذر ، فلا يهينون اسيرا حيا ، ولا يلغمون جثة ميت ، ولا يمثلون بجثة ، وعن قوله انه يجب تعدد الطرق التي يسلكونها الى العدو ، وان الطريق الذي يعبرون من خلاله لا يستخدم الا مرة »

في قنا أقام أبو الفضل ضريحا من الكلمات ومزارا لا يزار ، قال لن قابلوه انه لا يبغى مكانا للمبيت فالمجموعة كانت بيته ، وأخر البيت ، وانه لا يريد شيئا لانه نذر أيامه ليطرح في كل بلد غرسا ، ولوضع في كل قلب مقدارا ، حدث الناس عن اقتقاء الرفاعي للأثر ، قال ان من عدمه اقتقاء الأثر رجل عجوز من بدوي سيبة تجاوز المائة ، كان يخلو الى الرفاعي

---

فقط ، ثم يأوى الى ركن ناء قريب من مكان نومه ، يضغط عمامته فوق رأسه ، يدخل يديه في اكمام جلبابه الواسع ، ثم يطرق محملا الى الأرض بثبات عجيب ، يبدو كأنه قادم من أيام منسية ، قيل انه علم الرفاعي كيف يقرأ الرمال ، وان يطلع على مكنون الصخر ، وان يعرف الزمن الذي انقضى على مرور الانسان ، وماذا يحمل ؟ ومقدار ثقله ، علمه ان يعرف جنس الثعبان من شكل الخطوط ، وأين يختفي ثعبان الطريشة ، والى اين يتوجه العقرب ؟

قال ابو الفضل انه في يوم من أيام هذه الدنيا سيجيء من يمشي على قدميه من جديد فيقطع المسافة من التبع الى المصب ، فيلملم ويجمع ، سينظر الرفاعي الى أضحة أبو الفضل وشواهده التي أقامها في كل البلاد ، فيذكره عندئذ بالخير ، وسيقول لنفسه ، شاء أحد رجال الا يضيع دمنا هدرا ..

سيمشي الرفاعي فاردا طوله ومتطلعا الى الأمام ، واضعا نفسه في أكثر الاماكن تعرضا للخطر عندما يجيء الخطر ، سيمشي ليجادل هذا ويکاحر مع ذلك ليعود بحق ولو ضليل لاحد الرجال ، وليمضي الى الشكالى ، يخفف عنهم البلايا ، ويقضى الحوائج النسية ، وبيؤكد وعوده بالثار للقلوب المجرورة بسبب رحيل الأحباب ، ولتعلم الناس لغة العدو فیأمنون الخطر المباغت ، وليرفوا ما سيفعل ، وما سيأق به إلى الغد ،

---

---

---

ومن قبل ذلك يعلمهم لغتهم فيمحو أمية كل من خاصمه الزمن ،  
سيحمل البلد فوق رأسه ، سيقتفي آثار من ضلوا ليعود بهم ، سيُسعي  
خلف كل من يهدده الفتاء في الصحراء ..

بالقرب من كفر الزيات قضى ليته في الحقول ، أصغى إلى النباح  
والصرير وهمس النجوم ، مع بداية النهار حام حول مرسى المراكب  
النيلية ، حسم تردد ، تقدم من المعلم الذي يرتدي جلباباً بلدياً واسع  
الأكمام ..

أحل معكم الطوب ..

قال المعلم ..

العمل شاق

أوما أبو الفضل ، قال المعلم :

كل مائة حجر بقرش ..

خلع جلبابه ، بعد لحظات بدأ يقطع المسافة الفاصلة بين الشاطئ  
والمركب الكبيرة فوق سقالة الخشب التحيلة ، في الليل قال للمراكبيه ..

أقضى الليل معكم ..

مد يديه ليتدفأ بالنار ، شم رائحة الحطب ، وتذكر المائدة التي جمعتهم  
يوماً في قلب ميدان الحسين والافطار رمضان عادة كل ستة ، وتذكر

---

---

---

ضحكات الود وحرارة الأيام ورفة القتال ولحظة تواجده بعنبر النوم ثم مرور الرفاعي وطريقه بباب العنبر قبل دخوله على الجنزد ، وقوفة بينهم قبل التحرك إلى الجبهة ، والتماس الراحة بعد العودة .

فِي الصُّبَاحِ قَالَ الْمَرَاكِبَةِ لِأَبِي الْفَضْلِ ..

ابن معنا .. لا تفارقنا ..

قال انه سيجر معهم المركب في المياه الشحيحة » وسيرفع القلوع عند جفاف الرياح ، وسينشرها ويتعلق بها عند سخائها ، بعد البحار ربط الحبل في وسطه ومشي فوق الشاطئِ التراب ، يصارع ثقل المركب ، يثبت قدميه في الأرض ثم ينقلهما ، وعلى الجانبيين تمت خصيصة ، وتهتز فروع نبات ، وتترقر، أمواج .

زعق مصارعا الأرض والأمواج التي تحاول ان توثق حركة المركب ، ليصفع اليه الناس ، ولتسمعه الموجودات ، ويحدث آثارا لا تغنى في اللون الأخضر ، ما بين الظل والشمس ، وفي الموضع الذي تشق فيه مقدمة القوارب النهر والبحر ، لكم قال الخبراء وعلماء البحر إن الرياح عتيقة والبحار مستحيل ، ولم يشن هذا الرفاعي « من كل لحظة في عمر هذه الدنيا سيجني » سيدو للكل ، من رأهم ، ومن سيعمل معهم ، ومن سيلتقى بهم على غير اتفاق ، سيظهر في الجهات الأربع الأصلية ، ويسرى

---

---

---

إلى الكل ، عندئذ سيمضون إليه ، فواحد يمتهن عليه ، يضممه ، وأخر  
برداء الحرب يظلله ، وأخر بالصمت ينظر إلى وجهه ، وأخر في المجموع  
يفديه ، وأخر قبل الاقتحام يستأذنه ، وأخر بعد الجرح يلوذ بجانبه ، وأخر  
يقول نأيت عنا زمانا طويلا ولم نعتد منك البعد ، فيقول أبو الفضل عندئذ ،  
كان سكته في العمر ، وضربيه في قلبي ..

ذکر ماحرومی

## ما جرى للأرض الوادى

.. لا يدرى إنسان متى بدأ ذلك ؟ لا يمكن تحديد سنة معينة أو تاريخ محدد . لكن يذكر الكثيرون أن القلق كبرى، النقوس بعد صدور المجموعة الثانية من الصياغات الاجرائية والتى أباحت حق تملك الأرضى بالنسبة للأغراض ، ارتفعت أصوات بالاحتجاج . فى مواجهتها نشر العديد من المقالات فى جميع الصحف على اختلاف اتجاهاتها ، أقيمت محاضرات ، ظهرت رسوم كاريكاتير ، وأفلام قصيرة تعرض فى دور السينما قبل الأفلام الطويلة ، هوجم المشككون ومشيراً للاعتراضات . فى نفس الوقت سارت حركة بيع الأرضى جنباً إلى جنب مع الأمور الأخرى ، وبعد إعادة جميع وثائق هذه السنين ، وإعادة طبع الدوريات والنشرات الصادرة فى الزمن القديم وتحرييرها ، وتغييرها بما يتمشى مع الأحداث التى جرت بعد ذلك ، ضاعت كل التفاصيل ، لكن وصلت إلى العديد من دراسة

لا يعرف من كاتبها ؟ قيل أنه شخص لا وجود له ، وأن بعض السكان الأصليين أعدوها بعد طلوعهم إلى الجبل ، وقال آخرون أنها شهادة من الأيام ، ولم تطبع في كتب ، كل النسخ التي تم تداولها مكتوبة بخطوط يدوية ، بعضها أنيق ، منها المتعثر ، كأنه لأطفال في الابتدائية ، أو لكبار لم يكملوا تعليمهم ، وجدت محتوياتها منقوشة على الصخور ، وعندما تهدى الأم طفلها فإنها تذكر له عبارات منها ، وتحكي ما جرى ، ولا يدرى أحد من يدفع إلى ذلك ، ومن يقى التفاصيل في أذهان الخلق ، لكن إذا قبل أحد السكان الأصليين الإجابة يقول ، حتى لا ينسى مخلوق ما جرى لأرض الوادي ، وحتى يتوجه الجميع إلى أرض مصر ..

ملخص لما جاء في الدراسة المعنونة :

أرض الوادي .. تاريخ وحقائق ..

.. في البداية بيعت الشقق ، والدكاكين الصغيرة ، وأرصفة الشوارع<sup>(١)</sup> تناقل الناس الأرقام الضخمة التي دفعت بالعملات الصعبة ،

(١) ظهر بيع الأرصفة في نهاية العقد الماضي ، عندما قام أحد الأغرب بشراء الرصيف الأيمن للشارع الرئيسي للإسكندرية ومنع الناس من المشي فوقه ، ثم أحاطه بسياج حديدي أزاله بعد فترة ، ثم بدأ يؤجر الرصيف إلى الباعة الجائلين – الأغرب أيضاً – وحدد الأيجار على أساس مائة جنيه للبلاطة الواحدة من الرصيف ٢٥ سم × ٢٥ سم .

---

---

إما كتمن مباشر ، أو كخلو ، يبعث شقق عمارات بأكملها ، ثم  
مجموعات مبان ، ثم رقع مختلفة من الأرض ، إذن معنـى معدل الاقبال على  
الشراء بتأثير عوامل عديدة منها :

- الخطوات التأمينية التي اتخذت ، مجموعة الأبحاث التعديلية  
والإجراءات المكملة لها .

- رخص ثمن الأراضي في الوادي ، ويرغم ارتفاع الأسعار حتى  
وصل سعر المتر في المدينة ، وبالقرب من النهر أكثر من مائة جنيه أجنبي ،  
فإن هذه الأسعار تعد ضئيلة للغاية إذا قيست بلندن أو باريس ، أو سيدني  
باستراليا ..

- السماح بشراء أي مساحة ، وترك الباب مفتوحاً لمن يرغب .

عادة تمضي فترة بين صدور الإجراء وترجمته إلى واقع ، بعد شهور من  
صدور السماح لبيع المال بالعمل في الوادي لاحظ المارة الراغبون ،  
وركاب الأتوبيسات الصغيرة التي يسمح لها بالمرور وسط المدينة ،  
والأهاليون من الملل ، والباحثون عن السلوى ولقاء الصدفة في الطرقات ،  
أن ثمة حركة تجاري في المبنى القديم المعروف باسم « برج السبع طوابق »  
أقيم حاجز خشبي حوله استغل المعلنون لعرض ملصقات ، بعد أسبوعين  
أزيلت الحاجز ، رفعت السقالات ، ظهر مدخل أنيق ولافتات متحركة

---

تحتوى على ثلاث لغات ، الإنجليزية والعربية والاسبانى ، تعلن عن بيت عالى متخصص فى العملات الصعبه ، أطلق عليه أهالى الوادى « بيت السبعة طوابق » أصبح أمراً عادياً أن تجد إعلاناً عن بيع شقة أو سيارة . وطلب دفع قيمتها بالعملات المعروفة كالاستكالش<sup>(١)</sup> والرويانز<sup>(٢)</sup> والماكرول بنوعيه<sup>(٣)</sup> ، بيع نوع من الخبز لا يسبب السمنة وغير مضر بمرضى السكر بالعملة ، تندر البعض على الخبز المستطيل ، إسطواني القوام ، بني اللون ، هكذا وجد نوعان « خبز محسن للأغراض » ، وعادى ردئ للأهالى ، أقدم البعض على شراء مساحات شاسعة من الصحراء ، لم يقدر أحد خطورة بيعها في البداية ، تذكر بعض العجائز أراضي واقعة على حدود المدينة بيعت في أوائل القرن بأسعار بخسة ثم تضاعف سعر المتر المربع منها آلاف المرات ، وضع البعض تحليلات نظرية للبواعث الخفية الكامنة وراء هذا الشراء ، نشر آخرون تحليلات مضادة في محتواها ، عرفت تلك الفترة بمرحلة التحليلات المتناقضه ، لكن لم يصدر إجراء

(١) الاستكالش : العملة الخاصة بالabad الدول الرأسمالية ، والاستكالش الواحد يوازي جنحين من العملة المحلية المقرضة .

(٢) الرويانز : عملة الدول الوسطى ، قيمته العالمية أقل .

(٣) الماكرول : عملة الدول الاشتراكية المرحلة قبل انقسامها ، أصبح هناك نوعان بعد ظهور المخلاف .

---

---

عملٍ ، أو برنامجٍ محدد لانقاذ أرض الوادي ، أشار البعض إلى ما تبنته الصحاري ، الفوسفات ، الحديد ، الماس ، الفيروز ، الرخام النقي الذي لا مثيل له ، في نهاية العام الثاني المنقضى على الشراء قام ملاك الصحراء الثانية بإقامة سور عظيم يحيط بالصحراء من جميع الجهات ، سور من الحجارة ، لا يرتفع كثيراً عن الأرض ، بلغ متوسط ارتفاعه مائة وثمانين سنتيمتراً ، تم وضع طبقة أسمنت أعلاه رشقت فيها شظايا زجاج مكسور ومسامير مدبية لمنع تسليقه أو عبوره ، تخللت بابات ، وأبراج خشبية مزودة بكشافات كهربائية متصلة بمحطة قوى خاصة في نفس الوقت استمرت حركة بيع الأراضي الممتازة ، بدءاً من المناطق المحجوة بضفتى النهر ، أزال الأغраб المبانى التي عدت يوماً فاخراً ، إختفت العشش والقصور القديمة ، ومراسى المراكب ، وموانئ تفريغ الغلال ، وتخزين الأواني الفخارية ، ونوادي التجديف والرياضية ، وجموعة من التماثيل ، بعد فترة ظهرت مبانٍ جديدة ، غريبة عن الطراز السائد في البلاد ، مبانٍ مستطيلة ، حادة كأنها بنيت من المعدن ، بلا نوافذ أو شرفات ، برغم ضخامتها لم يستغرق تشييدها وقتاً طويلاً ، جاءت أوناش ضخمة ، جرارات هائلة ، في صباح معين يستيقظ الأهالى على اكتمال أحد هذه المبانى ، لم يعرف ماذا يجرى فيها ، قيل أنها تضم حياة كاملة تغنى بالأغраб ، عن الاختلاط بأهالى الوادى ، تضم دور سينما ، وحمامات ،

---

ومطارات صغيرة لكن لم ير أحد طائرات تقلع أو تهبط فوقها ، ذكرت الشائعات أنها تضم أجهزة معينة تطلق أشعة غامضة تمنع السكان الأصليين من التفكير ، سبب هذا هياجاً ووجه بعنابة ، نشرت الصحف صور من قالت أنهم معرضون ومعطلون ، بعد فترة منع أهالي الوادي من التجول في أحياه كاملة أصبحت ملكاً للأغраб ، غير أن الأمور جرت بأسرع مما يتصور البعض في الريف ، وتفصيل ذلك كما يلى : أباحت الإجراءات تملك مزارع الفاكهة ، ثم أراضي الخضروات ، ثم أطلقت أيديهم بلا مانع ، وفيها يلى النسب المئوية لما يبع في السنوات الثلاث الأولى :

– المحافظات الشمالية ٧٥ %

– محافظات الوسط ٥٥ %

– محافظات الصعيد الأعلى ٢٥ %

– محافظات الأطراف ٩٠ %

لاقت حركة الشراء مقاومة عنيفة خاصة في الصعيد ، عندما أقدم أحد الأغраб على شراء شبكة الطرق الترابية والمسفلة ، قام برصيفها ثم قرر المزور فوقها مقابل رسم معين قدره قرش صاغ واحد للفرد ولمسافة كيلو متر مئوي ، بشرط إرتداء الإنسان المار لحذاء من نوع خاص ينتجه أحد المالك

الأغراض ، ومنع مرور الحيوانات في البداية » وبعد وساطات عديلة سمح للحمير بالمشي » في بداية العام الرابع عرض أحد هم ثمناً – أعتبر مرتفعاً وقتئذ – مقابل شراء المحافظات الساحلية ، قيل أنه سيحول الشواطئ إلى مصايف ومشائى ، سيقوم باستغلال الثروة السمكية والتي تضمها مساحة عمقها أربعة عشر ميلاً بحرياً » أعلن أنه سيغرق الدنيا بالبلطي والقاروصى والبياض الأصلى ، صرخ بأن وجود السكان الأصليين يعوق مشروعاته ، طالب بترحيل عدد كبير منهم إلى المحافظات الداخلية ، بالفعل بدأت إجراءات محددة تهدف إلى ترحيل سكان الأطراف ، وذلك لتخفيف الكثافة السكانية للمساعدة في خلق مناخ مناسب للاستثمار » استمرت التحليلات السياسية المتناقضة ، والتي انهمكت فيها جماعات منقسمة ، أصدر كل منها تحليلاً ، احتدم النقاش » هل هو تهجير أم ترحيل ؟ وللأسف استغرق تحديد المعنى اللغوى لهذين اللفظين زمناً جرى فيه ما جرى . في بداية السنة الرابعة أصبحت محافظات الأطراف مناطق مغلقة تماماً ، ثم بيعت أكبر محافظات الشمال ، بدأ المالك فى رصف عدة طرق » أقام عدداً هائلاً من المربعات المكانية يضم كل منها حوض سباحة » وبيتاً صغيراً من الحجارة ، غرسآلاف الأشجار ، في جميع البلاد ظهرت إعلانات بمختلف اللغات تدعى لزيارة أضخم مجمع لحمامات السباحة في الدنيا » باستطاعه أى عاشقين استئجار كوخ وحمام ،

كما توجد مربعات سرية يتعدى الوصول إليها إلا من استاجرها ، ومزودة بأجهزة تفسد أي محاولة لتصوير من يقيم بها سواء تم التصوير بالآلات عادية من الأرض ، أو بواسطة الأقمار الصناعية الخاصة التي تعمل لحساب بعض المكاتب الفرعية في أوروبا وأمريكا ، أنشأ هذا المالك محطة إذاعة بث ارسالها على ثلاث موجات متوسطة وقصيرة ، موسيقاها تختلف طبقاً لوقع الساعة من النهار ، راح يذيع نشرة أخبار خاصة تتضمن اعلاناً بوصول بعض السائعين الراغبين في إذاعة اسمائهم مقابل اضافة بسيطة إلى إيجور الإقامة تختلف حسب عدد كلمات الخبر وموقعه من النشرة ، كما أذاع أخبار الطقس داخل المحافظة ، ودرجة حرارة المياه في أحواض السباحة ، واتخذ على بلون السماء بيته حوض سباحة مليء بالمياه وحسناء تدل ساقيها فيها ، واعتبرت تلك الإجراءات بداية لأندر النظائرات وبعد هذا المالك شديد الخبر ، إذ صرخ في أكثر من مناسبة أنه لن يطالب بتهجير السكان لكنه في الواقع أرغم الآلاف على ترك بيوتهم ، استبقي الفتيات الجميلات للخدمة في المؤسسات والشاليهات ، أرغم الأهل على حفر قبور أجدادهم وحمل عظام موتاهم ، ردم قنوات الري ، الترع الرئيسية ، الجسور الخشبية ، نسف ساعات العصاري ، اجتث ظلال أشجار التوت والجميز ، أحرق حديد السوقى ، أباد أبراج الحمام ، أطلقت صحف المجموعة الرأسمالية الأولى على المحافظة ، «ماوى عشاق العالم» ، ذكر

أحد الصحفيين أنه يمكن للعاشق ركوب طائرة خاصة مع حبيبته في الصباح ليقضيا يوماً والعودة قبل المساء إلى أي مكان أقلعا منه في أوروبا ، أنشأ إدارة الصحة وتحتفل بفوائح الشهية الجنسية ، ضمت فرعاً للبحوث العلمية مزوجاً استحداثات وسائل زيادة المتعة ، كما طبق أضخم نظام للتكييف في العالم . عندما استخدم طرقاً مستحدثة لتوليد غاز الغريون في الهواء مباشرة ، وصرح المشرفون بأنه سيتم الاستغناء عن الوسائل الصناعية بعد أربع سنوات من التكييف المتصل لأن مناخ المحافظة سيتغير جذرياً ، ثم قام هذا المالك بشراء جميع أماكن العشاق في الوادي ، الأركان الظليلية ، والحدائق النائية ، والشوارع خلفية الضوء والشواطئ ، الماء المحادية للنيل ، وضاق الأمر بالمحبين من أهل الوادي ، وعزت العواطف جداً ، وطوردت الأسواق ، وحرم على الشاب أن يمسك بيده فتاته إلا في الأماكن التي اشتراها المالك حيث يصعب دفع تكاليفها ، وطالبت إحدى الصحف وقتئذ بإغاثة الفرصة أمام الحب المحلي ، لكن لم يصح أحد إلى ذلك ، وسار الحال على ما هو عليه ، بعد شهور يبعث المحافظات الرابعة ، والسادسة والسابعة التي تضم ضريح أكبر الأولياء في البلاد وحاميها ورعايتها وقبلة المظلومين ، أقام الأهالي ضريحاً بديلاً في الأماكن النائية ، نشرت صور توقيع الاتفاques حيث يجلس الغريب مبتسمًا بينما ينحني أحد المؤذنين ينساب مسحيات الإنسان . أتلى سائق المخانقة أربعة بنصريح

نسمة كالأي :

«يسعدني أن أعلن نتني في إنشاء أضخم الغابات المتخصصة في زراعة المانجو، ستنتج أنواعاً خالية من القشر أو النوى».

ثني المزارعون القدامى أصحابهم النحيلة، قطعوا عليهم عماولين تصور الربح الضخم الذى سيعود على المالك حافظة المانجو بالقياس إلى إيراد الفدان الواحد فى الزمن الماضى، منها أرهقا عقولهم فلن يصلوا إلى الرقم资料ى، لأنهم يحسبون بالعملة المحلية المنقرضة، ومن الصعب عليهم تصور الأنواع المختلفة التي سطروها الأراضى فى عهدها الجديد لأن الانتاج كله سيخصص للتصدير ورداً على سؤال وجه إلى المالك الغريب قال أنه لن يحرم أهالى البلاد بالطبع، فهم منه أن الأنواع التي ستطرح من ثمار أصحابها التلف، أو شدت أحجامها عن الشمار المتخصصة للتصدير، والتي أقصى على كل منها ورقة مستديرة تحمل اسم المالك باللغات الحية، فى منتصف العام الخامس قام أحد الملوك الأغраб بشراء أراضى محافظتين كاملتين، لم يفصح عن نواياه، قيل أنه شخص ثرى جداً، يمتلك طائرات وسفناً لانتقلاته وغواصات جدرانها من زجاج يقضى فيها بعض أوقاته تحت سطح المحيط يتسلى بمشاهدة غرائب البحر، قيل أنه يبوى شراء الأراضى فقط ورفع اسمه عليها، والمجرى كل سنة يوماً أو يومين، يمشى، في كل لحظة يردد بصوت عالٍ «هذه أرضى أنا، وأن

حلمه الأكبر شراء الكثرة الأرضية وطرد الجنس البشري منها إلى الفضاء الخارجي ، وهو أعزب ، لا ابن له ، والعجيب أنه صك عملة محلية خاصة ليبدأوا لها العدد القليل المتبقى لأغراض الحراسة ، وتتردد أنه عرض شراء شعب القارة الهندية ، ولم يعرف حقيقة ذلك ، ومن أغرب الملاك الذين عرفتهم البلاد مشترى دورات المياه العامة ، إذ أعلن في نهاية العقد الرابع أن جميع دورات المياه العامة المشتركة في الميادين ، ودور السينما ، والمساجد ، وأبنية المحاكم ، أصبحت ملكاً لشخص أعلن عن اهتمامه بإعادة بنائها ، وتنظيفها المستمر ، وتوفير سبل الراحة فيها ، وقيل أنه تعرض يوماً لتابع هضمية أثناء سيره وافتقد دورة مياه مما سبب له حرجاً بالغاً ، مما جعله ينذر على نفسه ضرورة شراء جميع مراحيس العالم ، وبالطبع جعل الدخول إليها مقابل رسم معين لا يقدر على دفعه إلا فقراء الأغرب ، وضاقت الحال بفقراء الوادي جداً ، ثم قام أحد المستمرين بشراء المصارف والترع ، والقنطر ، والأهوسه ، قررت تطوير نظم الري ، والحقيقة أنه وجه المياه خدمة أراضي الأغرب بالدرجة الأولى ، أعقب ذلك الدعوة إلى مزاد على لبيع النيل ، حدد تاريخ الجلسة بعد حملة إعلانية هائلة ، حدد مبلغاً معيناً يدفع كتأمين ، وبهذه المناسبة الفريدة ظهرت كتب عن النهر ، ومسلسلات إذاعية ، وأخرى تليفزيونية ، تحكي تاريخه ، وفوائده ومتانعه ، والحضارات التي نشأت على ضفتيه ، وتحليل

لياوه ، وأهميته الإستراتيجية ، وأعيد طبع كتاب إميل لودفيج ، وكتاب الدكتور محمد عوض محمد ، كما ظهرت طبعات أخرى من « النيل في المكتبة العربية » ، و « النيل عبر العصور » وغيرها ، كما عرض فيلم تسجيلي أعده منذ سنوات طويلة مخرج كندي اسمه « جون فيني » واستخدم كمادة للدعاية ، بعد الإعلان عن بيع النهر وقعت أحداث يطول شرحها ، لكن في النهاية أن المزاد لم يستغرق أكثر من نصف ساعة . رسا في النهاية على نفس المستمر الذي اشتري شبكة الترع والقنوات الزراعية مما دعا البعض إلى الظن بأن ثمة ملعاوباً جرى ، وأن البعض تقاضى عمولات طائلة ، والمزاد لندر الرماد في العيون ، بعد بيع النهر بإسبوع تم تشكيل « إتحاد ملاك مصر »<sup>(١)</sup> ويعتبر المؤرخون العلميون أن المزاد هو

(١) قال المبررون أنه لا يجب إطلاق لفظ الأغраб على الملاك الجدد ، لأنهم محبين للبلاد ودليل ذلك ما أحضروه من أموال بغية الاستثمار ، كما أنهم سيصبحون بعد فترة مصرين أكثر من الذين عاشواآلاف السنين على سقفي النيل ، تلك خاصية مصر التي تستوعب كل القادمين إليها تذيهم فيها ، كما أعدت دراسة عن خصائص الامتصاص في الوادي . وكيف ستزداد لديهم روح المواطنـة . وقلـوا أن أرض الوادي أكثر ملـكت أكثر من مرة إلى أشخاص ، تحدثـوا عن الفرعون والكتـبة ، والرومـان ، والفرسـ، وركـوا على العـصر الملـوكـ عندما قـسم السلاطـن مصر إلى أربـعة وعشـرين قـيراطاً توزـع عـلـيهـم وعلـى الـأـمـراء وـالـأـجـانـدـ ، وـعـنـدـما توـلى مـحـمـدـ عـلـى باـشاـ الحـكـمـ استـولـى عـلـى الـأـرـضـ كـلـهاـ ، وزـعـهـا عـلـى رـجـالـهـ ، ولـلـأـسـفـ لمـيـتـقـنـ نـصـرـ . واحدـ منـ الـبـيـدـ الـتوـ سـهـرـتـ عـلـى هـذـهـ التـبـيرـاتـ .

---

---

الحد الفاصل بين حقبتين ، وليس كما ادعى البعض أنه اليوم الذى وقف  
فيه ممثلو اتحاد الملاك أمام المجلس الأعلى لميثة الأمم مطالبًا بخلاء السكان  
الأصليين ..

« نظراً لأهمية الجلسة التاريخية ، وما ترتب عليها ، نورد تفصيلاً بعض ما  
جرى فيها »

في تمام الساعة العاشرة سمع بدخول المراسلين الأجانب إلى  
القاعة ، جلسوا في الشرفة الدائرية بالمكان ، نزل إلى القاعة مصور واحد  
من كل صحيفة ، أجرى تفتيش ذاتي عليهم ، إلى اليمين خصصت شرفة  
لكبار المدعين ومعظمهم أغرباء ، إلى اليسار ، علقت خريطة ضخمة  
مجسمة للنهر ، بدا بمجرأه التحيل وفرعيه كصورة بالأشعة لهيكل عظيم ،  
علقت صور فوتografية كبيرة الحجم تتمثل مناظر مختلفة على ضفتي النهر ،  
في مواجهة شرفة الصحفيين علقت لافتات كتبت بلغات عدة .

---

---

---

### سطور من اللافته لأولى :

ـ عرف النيل في فجر التاريخ باسم « حاب ». ظل يعبد حتى آخر عصور الوثنية ، كثيراً ما أطلق عليه المصريون القدماء اسم « يارعو » أي النهر العظيم .

ـ تطلق التوراة على النيل اسم « بِ أور » .

ـ في الأوديسة يطلق على النيل اسم « إيجيتوس » .

ـ عبر القرآن الكريم عن النيل باليم فقال .. « فَأَلْقِهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تُخَافِ وَلَا تُخَزِّنِ » .

### سطور من اللافته الثانية :

ـ مساحة حوض النيل من المصب إلى المصب ٧١٨ ، ٢٠٨٦٧ كيلومتراً ، أي ٢٢٧ ، ٢٠٧ ، ١ ميلاً .

---

ثم معلومات أخرى عن الوادي ، ومنابع النهر ، ومجراه ، وروافده ،  
والسدود المقامة عليه ، وحوت اللافتة الثالثة عبارة واحدة : « من يشرب  
ماء النيل لا بد أن يعود إليه ثانية ». وعدت اللافتة دعاية سياحية ، دخل  
المزايدون ، وقفوا حول دائرة مسورة داخلها مكتب صغير مرتفع القوائم  
وقف خلفه الشمن العالمي « خبير أنهار معروف » ، في الأركان أربع منصات  
رئيسية فرق كل منها كاميرا تليفزيونية ، بخلاف آلات التصوير  
السينمائي ، ألقى الشمن كلمة عن خواص النيل ، مزاياه ، موقعه بين  
أنهار الدنيا ، وعندما أفضى وصف المذيع ما يهربى ..

سيداتي ، سادقي ، نشهد في هذه اللحظات التاريخية ، الرائعة بداية  
الحدث الكبير ...

قال الشمن ان البيع سيشمل مياه النهر الجاري من الوادي حتى  
المصب ، وسيبيع المالك المياه إلى جميع المحافظات والأقسام « من حقه  
تحديد الشمن والكميات .

وجه مراسل صحيفة ستاكونزا نيوز سؤالاً عن الثروة السمكية ؟  
قال الشمن ان الأسماك في باطن النهر تتبع المالك ، كذلك النباتات  
والأعشاب التي تنمو على جانبيه بعمق متراً واحداً « ومن حقه مصادرة ومنع  
الراكب الشراعية والقوارب التي تسحب فوقه ومنع السكان الأصليين من

---

---

الصيد ، والزهـة .

سـؤـال من مـندـوب إـذـاعـة كـولـونـيا عـنـ القـنـاطـرـ والـسـدـودـ :

أـعـلـنـ المـشـمـنـ أـنـ كـلـ حـجـرـ مـقـامـ فـوـقـ النـهـرـ يـتـبعـ الـمـالـكـ الـجـدـيدـ .

مـحـرـ الشـئـونـ الـعـلـمـيـ بـمـجـلـةـ يـاتـاـ الـعـلـمـيـةـ الـمـتـخـصـصـةـ يـسـأـلـ عـنـ الـجـزـرـ الـوـاقـعـةـ دـاخـلـ النـيلـ ؟

قال المشمن ان جميع الاراضي الواقعه بين الضفتين من نصيب المالك النهر ، وأى زيادة في المجرى تتبع المالك ، أى جزر جديدة ستظهر ستتصبح ملكاً له ، له الحق في حماية نهره بكلفة الوسائل ويضم إليه كافة المشتآت الواقعه في حدود عمق متر واحد يمتد بطول الضفتين ، أى أن الكورنيش الذي يربط الوادي من أقصاه إلى أدنائه سيتبعه أيضاً .

سـؤـالـ مـرـاسـلـ وـكـالـةـ روـيـرـ عـنـ الـشـرـوـعـاتـ الـتـيـ قدـ يـحـدـثـ اـعـتـراـضـ عـلـىـ إـقـامـهـ ؟ـ :

ضـحـكـ المشـمـنـ العـجـوزـ تـسـأـلـ عـنـ نـوـعـيـةـ الـمـعـرـضـ ، لـلـمـالـكـ مـطـلـقـ الـحـرـيـةـ فـيـ التـصـرـفـ كـمـاـ يـبـرـويـ .

بدأ بـيعـ النـهـرـ ، أـعـلـنـ المشـمـنـ رـقـمـ مـبـدـئـيـاـ ، سـادـ القـاعـةـ سـكـونـ ، وـقـعـ صـمـتـ ثـقـيلـ فـيـ سـائـرـ أـنـحـاءـ الـوـادـيـ ، التـفـ النـاسـ حـولـ السـمـاعـاتـ

---

---

---

الاليكترونية ، يقول المعمرون أن ريحًا ساخنة هبت محملة بتراب ناعم آخر  
اللون أحالت السماء إلى ما يشبه الحريق ، سمع لها صوت كالعوبل ، ضجع  
لناس وسقط بعضهم لحظة زعف الشمن ..

« أكبر أنهار الدنيا ، من يشتري؟ ..

سمع السكان الأصليون صوتاً يصبح بالإنجليزية ، بعده صاح  
الشمن ..

« فرصة تاريخية » من ي يريد ، نهر أنشأ حضارات متواالية ، هو الحياة  
نفسها » .

زعق صوت آخر ، انفعل صوت المذيع :  
« أنظروا يا أهالي الوادي إلى قيمة نهركم » ..

تردد صوت باللغة المحلية ، ذكر رقمًا ، سمع بعد حوالي ثلاثة  
دقائق ، رأه مشاهدو التليفزيون ، رصدوا ملاحمه ، إنه الوحيد من السكان  
الأصليين الذي يحضر المزاد ، تسائل الكثيرون عن شخصيته ، من هو؟  
كيف وصل إلى المزاد؟ من أين له بالمال؟ « بعد نطقه مباشرة سمع صوت  
واشق يذكر رقمًا فاق كل ما قيل ..

الأؤنا .. ألا دوى .. ألا ترى ..

---

---

يزعن المذيع بينما تهوى المطرقة الصغيرة عاجية المقبس فوق  
المنضدة ..

« إنها لحظات تاريخية لم يسبق لها مثيل » ..

لعت آلات التصوير ، ابتسم مالك النهر للصحفيين ، غادر سكرتير مؤسسة العملة الصعبة<sup>(١)</sup> مقصورته صافح المالك ، عانقه ، في نفس اللحظة فشا في الوادي حزن ، أصبح الناس في هياج عظيم ، وزعم البعض أن الماقي ضجوا في قبورهم ، سمعت أناهم في الليل ، ارتفع مستوى النيل بافاض فيه من دموع ، قيل لن يسمح لأحد ببرؤيته إلا بتصریح خاص ، مياده ستبغى زجاجات وتصدر ، ولن يلجمأ إلى شاطئه المهومن والمكريون والماريون من الضفى والضيق ، على السكان الأصليين البحث عن مصادر مياه أخرى لإرواء ظمائمهم وقضاء حاجاتهم . تحدثت صحف المساء عن الحدث الكبير ، حذرت من المبللين وقصار النظر ، في المساء غطى الوادي ألم ، فاض صمت ..

---

(١) لمعرفة دور هذه المؤسسة ومسئوليتها لما جرى للوادي ، راجع « تاريخ العملة الصعبة في مصر » .

---

---

---

## «نص المذكورة المرفوعة من اتحاد ملاك مصر إلى المجلس الأعلى ليبة الأمم»

.. نحن اتحاد ملاك مصر ، نرفع دعوى إخلاء ضد سكان الوادي وذلك لما يلي :

.. منذ فترة طويلة انتقلت ملكية عموم أراضي الوادي إلى الموقعين أدناه ، أصبح ملكاً لهم بدون استثناء شبر واحد ، على الفور بدأنا تنفيذ العديد من المشروعات التي تهيج الإنسانية ، لكن ظهرت متاعب تعود ما نمضي فيه ، كثكاثر السكان بسرعة مما يشكل عبئاً على الحالات المحلية طاقات التصدير ، رفض السكان تنفيذ أية مقترنات للحد من تناسلهم مما اضطر مالك المحافظة السابعة إلى اتخاذ قراره الخاص بتعقيم كل رجل يبقى في المحافظة ، قبيل هذا باستخفاف ، وعمليات تخريب متعمدة ، كما أصبح الأمر صعباً في محافظة أحواض السباحة العالمية حيث نظمت أعمال عدوانية ، كمحاولة التلصص على المستحبين ، وسرقة بقايا الأطعمة ، وترويج كتب مضادة ، والتهديد بعمليات إجرامية ، اعترف أحدهم بـ«أمراة لتسيميم مياه النيل» ، أمكن ضبط المساد التي سيتم استخدامها ، لدينا صور لهذا المخطط الاجرامي سنعرضها على حضراتكم عقب انتهاء عرض الدعوى ، كيف يقوم السلام إذن بين الملاك

---

والسكان ؟ ورداً على بعض الحجاج القائلة ان مالك النهر قد منع الماء عن السكان الأصليين نزد بان النهر يعتبر ملكاً خالصاً له ، دفع ثمنه بالعملة الصعبة « الاستكالش » . شيك رقم ٨٩٨٣٨٥٢ ، مسحوب على بنك انترناسيونال كورياتيف أوف بنك ليمنتد - فرع باريس ، لقد تم تهديب الضفتين ، وتعبئة مياه النيل في زجاجات بلاستيك عبوة واحد لتر وتصديرها إلى جميع أنحاء العالم بأسعار رمزية بالقياس إلى تكاليف الانتاج ، وبعد اكتشاف الخواص الصحية الفريدة لمياه النيل لم يستطع هؤلاء السكان اكتشافها عبر آلاف السنين وإفادة العالم منها ، برغم ذلك استجاب سعادته للنداء الانسان الذى وجهته الدول الكبرى ، قرر منع السكان كمية من مياه الشرب لمدة عام واحد اعتباراً من الشهر الماضي<sup>(١)</sup> ،

(١) من الضروري ايضاح ذلك ، بعد أن قطع مالك النهر المياه عن سكان الوادي ، انتشر المرض ، مات ألف ألف ، وقتل كل الجهد لإيجاد مصادر بديلة ، مما دعى مجموعة الدول الاشتراكية الأولى إلى المأساة أمام المجلس الأعلى لبيبة الأمم ، لكن مجموعة الدول الاشتراكية الثانية هددت باستخدام فيتو ضد مناقشة الموضوع ، ولا يعني هذا اتخاذ موقف معاذ للسكان الأصليين ، إنما يرجع هذا إلى الخلاف العقائدي الذي قسم المعسكر الاشتراكي إلى فريقين متناوئين : ( يتخذ كل منها موقفه في ضوء هذا الخلاف بغض النظر عن آية اعتبارات أخرى ) أثناء المناقشة وصلت رسالة من مالك النهر يعلن استجاباته للداء الانساني ، وانهز ليعلن من فوق النهر العالى عن مشروعاته التي أنجزها ، أذاع أسعار زجاجات الشرب ، والمبيت في الفنادق العائمة ودعا كافة الأعضاء لزيارة النهر ، وفيما بعد أعلن مندوب كلية متذويب أربعة عشر دولة ، قالوا ان مخابرات بلادهم لديها معلومات مختلفة .

وحق تدبير مصادر أخرى لمياه الشرب والاستحمام ، ومع أن ضياع نقطة واحدة ينقص العائد عليه ، ولا يخفى أن ازدحام السكان في مناطق محدودة<sup>(١)</sup> يتبع الفرصة لتكاثر الأوبئة مما يهدد الصحة العالمية ، ويهدد مشروعاتنا ، لهذا أصبح ضرورياً اخلاء هذه الأعداد الضخمة وترحيلهم إلى مناطق أخرى من العالم تحتاج إلى طاقتهم وتستوعب أعدادهم ، وما يدعم مطلبنا تلك الاكتشافات العلمية الحديثة ، حيث اتضحت عمق الأصول التاريخية لملوك مصر ، حاول بعض سكان الوادي نشر دعایات يقول ان الملوك أغраб عن الوادي ، بغض النظر عن حق الملكية المقدس ، نعلن من هنا ملخص تلك الاكتشافات التي ثبت أن ملوك مصر أقدم من هؤلاء الذين يطلق عليهم البعض « السكان الأصليين » . لم يكن الأمر من قبيل الصدفة عندما قام كل مالك بهجرة البلد التي ولد فيها وجاء إلى مصر يشتري أرضاً ، أو يستثمر مالاً ، أو ينشئ مشروعًا ، سعى كل منهم إلى استرداد موطن أجداده ، تلك حقيقة يجب أن يعيها العالم جيداً ، أن أكبر مالك في الوادي ، صاحب النيل ، والترع ، والمصارف ، والقنطر والسدود ، تنتهي أصوله البعيدة إلى أحد أفراد الأسرة الرابعة في الدولة القديمة التي عاشت على ضففي الوادي منذ ستة آلاف سنة ، جده في

(١) بعد تشكيله انعدم ملوك مصر ، وبهذه عمليات الاخلاط الواسعة من المناطق المباعة ، حدّدت اقامة السكان في مناطق معينة ، لا ينتظرون خارجها إلا بتصریح خاصة .

هذا الزمان النائي عنخ - مت رئيس الديوان ، والشرف على شئون الري في الوادى ، إليكم صورة من اللوحة التي عثرت عليهابعثة الأثرية برئاسة متري ماد المصريوجي الكبير ، والتي قامت بعمليات بحث وتنقيب استمرت عامين كاملين في منطقة الأهرامات المعروفة بعد انتقال ملكيتها إلى صاحب المحافظة الثانية ، تضم اللوحة أسماء أسرة عنخ - مت ، التي تولت رئاسة الديوان والاشراف على الري حتى العصر الاغريقي ، ومع اضمحلال الحضارة الفرعونية ، هاجر جزء من العائلة إلى فينيقية ، ثم إلى بلاد عديدة آخرها التي قدم منها مالك النيل الحالى ، ويحتفظ سعادته بعدد كبير من لغات البردي المتوازنة جيلاً بعد جيل ، تلخص هدف أسرته النبيل ، استرداد المجد القديم ، وتوجد وثائق أخرى هامة سنعرضها على لجنة تقصي الحقائق التي ينوى مجلسكم الأعلى إرسالها ، وبغض النظر عن القيمة القانونية لهذه الوثائق العلمية ، فلا شك أنها سوف تحدث انقلاباً كبيراً في علم التاريخ ، وستغير كثيراً من المعلومات الخاطئة التي سادت كتب التاريخ حتى الآن<sup>(١)</sup> .

(١) قدم مندوب الاتحاد عدة صور لللوحة أثرية ، يتوسطها رسم عبارة عن خرطوشة مستطيلة ، داخلها حروف هيروغليفية ، على جانبها وقف شخصان بالوضع المعروف في الرسومات المصرية القديمة ، حيث الجسم بالواجهة ، أما الرأس فيتخذ الوضع الجانبي ، كل منها يهد يديه ليansom الخرطوشة ، تبدو على قدمي الرجل الواقع إلى اليسار آثار ألوان حمراء باهتة من الواضح أنها تأثرت بفعل الزمن .

---

---

لجميع الأسباب المتقدم ذكرها ، نطالب نحن ملاك مصر بإخلاء  
ما يسمى بالسكان الأصليين . حتى يعود الحق إلى أصحابه .

### ﴿ وقائع تلك ذلك ﴾

بعد مداولات ، ومناقشات اتفعل خلاها أحد الأعضاء ودق بيده على  
المنضدة ، ألقى سماعات الترجمة الفورية غصباً ، أصدر المجلس قراراً بإخلاء  
السكان الأصليين من الوادي كله . ويتم نقلهم إلى أماكن نائية من العالم ،  
على ألا يزيد عدد المنقول منهم إلى مكان واحد عن عدد معين ، وأن يتحمل  
الأعضاء التكاليف ، استند المجلس إلى وثائق عددة ، منها تقرير قدمته  
مخابرات الدول الرأسمالية الأولى ، عرف باسم « تقرير الاخلاء » ، وإلى  
الحجج الصياغية البليغة التي وضعها اتحاد ملاك مصر ، بعد صدور القرار  
خرج مندوبي المجموعة الاشتراكية الثانية احتجاجاً ، على الرغم من  
معارضتهم المجموعة الاشتراكية الأولى في الجلسات السابقة ، في هذه المرة  
بقي ممثلو المجموعة الأولى - تطبيقاً لتقالييد الخلاف العقائدي - مما عد  
ذلك موافقة منهم على القرار ، في نفس اليوم اتخذت إجراءات تنفيذية أولها  
تشكيل لجنة يرأسها وزير خارجية إحدى الدول الكبرى المحايدة باعتباره  
« محضراً » دولياً ، ومهمة اللجنة جرد السكان تمهدأ لنقل ما يستحق ،  
ضمت إلى جانبها لجنة فرعية لأعمال السكرتارية ، وهيئة فنية خاصة تضم

مثليين وخبراء في شؤون السكان ، والصحة ، والنقل ، بعد أسبوعين باشرت هذه اللجنة عملها في الوادي ، وخلال إقامتها استنفرت جميع أجهزة الأمن الخاصة التي أنشأها كل مالك في قسمه ، وبعد شهر تخلله مقابلات وحركة ، ومعاينة ، أعد محضر رفع إلى المجلس الأعلى .

#### « محضر جرد مصر »

« فيما يلي بيان تفصيلي بما وجدناه :

#### عدد

الصنف

٧٠ مليون شعب الوادي ، يشمل هذا الرقم الرجال والنساء والأطفال ، منهم ٤٠ مليون أنثى ( ١٥ مليون عذراء ، و ١٥ مليون امرأة ، وخمسة ملايين تجاوزن سن اليأس ) و ٣٠ مليون ذكر ( ١٥ مليون يصلحون لأداء جميع الأعمال الشاقة ، كالقتال وال الحرب ، والعمل ، في المناجم ، وقطع الحجارة من الجبال ، إلى جانب الأعمال الذهنية العنيفة ، قاموا بأعمال تخريبية واسعة ، قتل منهم عدد كبير ، و ١٥ مليون طفل وفتى ) .

الأرقام التالية لا تضاف إلى الرقم الإجمالي لـ تعداد شعب الوادي .

لكنها توضح أهم الفئات وعدها :

الصنف

عدد

مليون مهندس ، طبيب ، محاسب ويباحث في مختلف المجالات العلمية ، أضطر هؤلاء إلى ممارسة أعمال لا علاقة لها بهنهم الأصلية بعد بجيء ، أعداد كبيرة من حملة نفس التخصصات مع ملايين مصر .

سبعون ألف من حفظة الشعر ، والمواويل ، وباعثي الآهات ، وغالقى التهدبات ، معظمهم أنشد شعراً بعد بيع النيل ، أشهرهم عازف رياضة ضرير يرتدي الجلباب ، صوته قوى ، إذا وقف عند طرف الوادي في المساء يسمع طرفه الآخر ، سمعنا أنه ينشد مواويل تتضمن سائر من حكموا مصر ، والولاة وكراماتهم ، والقديسين ، كلهم أزيالت مدافنهم في السنوات الأخيرة .

بضعة آلاف كتاب مسرح ، رواة ومفكرين .

آلاف نساك ، ودراويش زاهدون ، وبحارة ، ونوتية ، وقباطنة .

آلاف صياغ فضة ، ونقاشون ، بناء عمائر ودباغو جلود ومنمنمون وخراطون ، إخصائيون في تربية زهور البنفسج وتنسيق الحدائق وتنمية الياسمين وزراعة الصنفاص والكافور والجميز .

---

---

والزيتون ، وتعريشات الكروم وتلقيح النخيل وتخضير الطين بجموعة  
آلاف خيامية ، سروجية ، صدفجية ، بناة منائر وقباب ومساجد ، صناع  
أهلة معدنية وشمومس بيارق وأجراس كنائس ، عاريب صلاة ، مصمموا  
نحف ، نساج صوف وحرير طبيعي وموسلين ..

ومئات مئات يتقنون صهر الصلب وإذابة الحديد وتشكيل المعادن .  
وشق القنوات ، مد الكبارى ، حفر الأنفاق ، فلق جذوع النخيل ،  
الملاحة الجوية ، تطهير الأرض من الآفات ، التنبؤ بما ستصير إليه  
الأحوال ، الغوص في مناجم الفحم ومجاهل الفوسفات وسائل قطارات  
ويصاصون وكتبة تقارير .

هذا ما يشمل بني الإنسان ، وإذا انتقلنا إلى جرد المباني والممتلكات ،  
وجدنا أعداداً لا حصر لها من البيوت على اختلاف أنواعها ، بيوت متعددة  
الطوابق ، قصور قدية ، حدائق ، آلاف المنازل المبنية من الطين ،  
أضرحة للأولياء والصالحين ، معابد للقراء ، تكايا ، أحرامات ، معابد  
أثرية من عصور جاهلية ، وفرعونية ، واغريقية ، ورومانية ، وقبطية ،  
 ولوحات ، ومومياءات وملابس من آلاف السنين كأنها نسجت بالأمس ،  
ومغارات في بطن الجبل منقوشة الجدران ، ملايين من جذوع النخيل  
مشقوقة ، مستخدمة كجسور فوق ترع بعيدة ، أو أعمدة تستند السقوف ،  
ومقاعد ، وأثاث ، وأسوار ، توجد أفران ، وقوارب ، وصنادل بحرية

---

ومراسى ، ومؤلفات أدبية ، أشعار من مختلف العصور والأوزان  
والبحور ، كميات لا حصر لها من الفلكلور والتراجم والمعتقدات ،  
الحان ، وأغان شعبية ، وعدد لا حصر له من الحيوانات المستأنسة  
استخدمت في الزراعة خلال السنوات التي قام فيها السكان بزراعة  
الأرض ، كالأبقار والجحوميس ، والحمير ، والجمال ، والكلاب ،  
والقطط ، وفي المناطق النائية العديد من الأنواع الوحشية والتي يجري  
إبادتها من قبل إتحاد الملاك ..

هذا ما اطلعنا عليه ، ووجب إثباته ، قبل نقل السكان وبده عمليات  
الإخلاء ..

(لجنة جرد مصر)

### بعض من أحداث وقعت بأرض الوادي

.. يمكن القول أن ردود فعل السكان الأصليين اختلفت كثيراً بعد  
بيع النيل ، اعتبرت ذكرى المزاد مناحة ، انطلقت نار في نفوس الفلاحين  
بعد طردتهم إلى أطراف الوادي ، أهاجهم الحزن على النهر ، الترع  
المصارف ، بدر الحب ، ثمو الزرع ، مشى العصاري فوق الجسور ،  
رائحة الخبيز وقت الظهيرة ، نداءات الطيور والضفادع ، فرحة مجىء  
الأعياد ، الطلوع لزيارة المقابر ، نكت التراب بالعصى عند جلوس

القرفصاء ، شد الشواديف ، صرير السواقي ، اهتزاز سعف النخيل<sup>(١)</sup> ، صفير ماكينات الطحين المتقطع ، رائحة التين عند منحنيات الطرق ، أنسد الأميون شعراً يسيل الدمع من العيون ، دعا البعض إلى سد النهر ب أجسادهم ، تسأعلوا : هل هل سيوف النيل كعادته كل عام بعد أن بيع ؟ عظم الجوع ، صار الأب يحاول بيع ابنه مقابل كيس طحين ولا من مشترى ، قوبيل بيع النهر بمقاومة سلمية وأخرى عنفية ، نظم شباب الوادى حملة جمع مبلغ ضخم يمكنهم من دخول المزيد وإبقاء النهر ملكاً لهم ، حروي ذلك هدفاً أبعد ، لو احتفظوا بالنيل أمكنهم التحكم في ممتلكات الأغраб ، وعلى الرغم من انشغال الجماعات السياسية في خلافاتها ، ومحاولة كل منها لتحديد المفاهيم ، غير أن كافة الخلق ( باستثناء السمسارة والبورصجية ) ، والذين تخنسوا بجنسيات غريبة ليسثمروا أموالهم منذ قصر حق أقامة المشروعات على الأغраб ) اشتركوا في حملة إنقاذ النيل ، كل الناس ، المثقفون ، العلماء ، الطيبون ، الجالسون أمام الأبواب يقاسون عناء الغد ، الواقعون تحت البراميل والبالات وسائر أنواع الحمولات ، الذين إسود لونهم من تعاقب البرد والحر على أجسادهم العارية ، الذين جروا المراكب بأيديهم ، من رصوا الطوية فوق الطوبة

(١) بعد بيع الوادى تم استئصال جميع أشجار النخيل والدومن وقلعها من جذورها ، ولم يعرف سبباً لذلك .

ليرتفع جدار ، من اعتلو السقالات ، من عزقوا الأرض بالعرق ، تفاوتت قيمة المبالغ المدفوعة ، من قروش معدودة إلى مليون دولار أرسلها بعض الأبناء المغتربين من السكان الأصليين ، تقدم أحد الشبان يوم المزيد ، دفع التأمين المطلوب ، لم يعرف حتى الآن كيف توفر لديه هذا المبلغ الضخم من العملة الصعبة ؟ لا زال الأمر سراً يحير إتحاد المالك الأغراب ، حتى الآن يدور البحث عن هذا الشاب الذي تكلم باللغة المحلية في قلب جلسة المزيد ، يقولون انه ذكي جداً ، يتحدث ثمان لغات ، المعلومات التي أدلّ بها عن نفسه غير حقيقة ، كافة الوثائق التي أعدت له قام بطبعها مزور عظيم من السكان الأصليين ، تردد صوته ثلاث مرات ، الأولى بعد استطلاعه لمستوى المبالغ المدفوعة ، الثانية عندما زاد زيادة طفيفة ، بعد أربعة عشرة دقيقة من بدء المزيد ، أعقبه المالك الحال للنهر ، المرة الأخيرة بعد ستة عشرة دقيقة من بدء المزيد عندما زاد رقباً يعتقد المحللون أنه آخر مالمديه ، إنسحب واختفى ، منع من الخروج فمن تعليمات المزيد عدم مغادرة القاعة إلا بعد انتهاء تمامًا ، لم تذكره صحف المساء أو الصباح بكلمة ، إدعت كل من الجامعات السياسية المتظاهرة أنه يتمنى إليها ، حذفت كلماته من مضيطة الجلسة ، من الوصف التسجيل أيضاً ، ترددت أقاويل كثيرة عن طلوعه إلى الجبل ليقود رجالاً أشداء لا يقهرون أبداً سيسترون النيل عنوة ، لم يدر أحد كيف سيعتم التصرف في

---

---

المبالغ المجموعة وأثار هذا قلقاً لدى اتحاد ملاك مصر ، تبع ذلك أعمال عنف غامضة ، ظهرت فرق الصدام التي ضمت رجالاً ونساء اقتنعوا بعدم جدواي حياتهم بعد بيع التيل وموت أسرهم ظمماً ، هاجروا الأرض المباعة .

أشعلوا النار في أنفسهم ، إقتحموا المنشآت ، في فترة حبس ماء النهر عن السكان صار يموت يومياً ألف ألف إنسان والناس لا تفنى ، قام عدد من أبناء الوادي الذين سافروا على فترات بجهود ضخمة للفت أنظار الدنيا ، بلثت حلتهم ذروتها في نفس الوقت الذي فرغ فيه علماء الآثار التابعين لاتحاد الملاك من تغيير التاريخ المعروف للوادي ، لدرجة إعادة اكتشاف اللغة الاهيروغليفية من جديد ، وإسقاط ما توصل إلى شامبليون بعد اكتشافه حجر رشيد ، واستندوا في ذلك إلى انقرانين المتكلمين بها ومن ثم عدم ثبات المعنى ، كما فرغ مالك المحافظة التاسعة (سوهاج سابقاً) من مشروعه الخاص بإنشاء جبل صناعي أعلن أنه سيكسوه بالثلوج والغازات ، وسيصبح من أجمل مصايف العالم ، رصد جائزة قدرها مليون إستكالش لصاحب أجمل تصميم . في نفس الفترة تزوج ابن مالك المحافظة الرابعة من ابنة مالك المحافظة الثانية ، غير أن حملة أبناء الوادي أدركهم جميعاً بما كانوا عنه غافلين ..

---

## نصن ما أذيع

نهى إلى الدنيا ما يل :

منذ فترة رفع اتحاد الملاك الأغراض قضية أمام المجلس الأعلى هيئة الأمم مطالبين شعبنا بإخلاء الوادي ، وبغض النظر عن تزوير الدعوى وتحوير الفتاوى ، وتزييف التاريخ والقول بأسبقية وجودهم نعلن بطلان الحجة القانونية التي استندوا إليها في إقامة دعوى الإخلاء ، إذعوا أن الوادي كله أصبح ملكاً لهم ، وأنهم اقتطعوا جزءاً من أملاكهم ليقيم عليه ، ما تبقى من السكان « على حد تعبيرهم نقول إن هذه الدعوى باطلة ، الحقيقة أن أرض الوادي ليست ملكاً لهم بأكملها » يوجد فدان واحد لا زال ملكاً لصاحبه ، وموقعه في الصعيد الأعلى ، يتعرض مالكه لضغوط ، وإغراءات بلا حصر ، لكنه محى الآن بأهل مصر المحروسة ، ويعرف بين الجميع بـ : « أرض مصر » ومها تضاءلت مساحة الأرض فإن هذا يفسد ما ارتكز إليه الأغراض عنا ، ويبطل دعوى الإخلاء . . .

## أرض مصر

لم يمثل إعلان أبناء الوادي مقاجحة لكثirين من شعب الوادي ، منذ فترة ترددت أقوال عديدة حول ذلك الفدان ، بدأ الأمر كوهم ، كإشاعة ، ثم تزايد الهمس بعد بيع النيل ، قال سكان الصعيد الأعلى إنهم يعرفون

---

هذا الفلاح صاحب «أرض مصر المحروسة» ، فقير ، لا يمتلك إلا هذه المساحة التي آلت إليه جيلاً بعد جيل ، رب أسرة كبيرة ، معمراً لا يدرى أحد حقيقة سنه ، يزعمون أنه تخطى المائة والخمسين عاماً ، لا زال شعره أسود وقامته متتصبة وأسنانه لم تساقط بعد ، يعمل يومياً ، يبذل الحب ، يسوى الأرض ، يقتلع الحشائش الضارة ، قالوا إن الشيب لم يدركه لأنه لا يعبس قط ولا يحمل هماً ، يحفظ الحكايات ، يروي النوازل ، يعرف بلاد الوادي وقراه ، أسر الوادي وأفرادها والأماكن المستقررين بها أو رحلوا إليها ، ذريته لا تمحى ، عاش حتى رأى أحفاد أحفاده ، لا زال قادرًا على الإنجاب ، إذا احتضن جذع التخلة يمكنه اقتلاعه ، منذ أعوام فاجأاته أوجاع ، ذهب إلى طبيب ، قال إنها البروستاتا ، إذا كنت قادرًا لن تستصلها لك ، تحمل وسأعطيك دواء يخفف عنك ، بالكشف عليه وجد الطبيب أنه قادر على إخضاب فتاة في الرابعة عشرة إمراة في آخر العمر ، تردد أنه متزوج من أربعة والفدان ملك أولهن ، نفي الكثيرون ذلك ، قيل أن أبناءه محاربون أشداء ، يقودون عمليات عنف ، يستثفون الناس ، أنه يقيم مناحة عظمى في ذكرى بيع النيل ، اتجه الناس إلى أرض مصر لحمايتها حتى شكلوا سياجاً من أجسادهم حولها .

عندما قام الملائكة الأغراب بقطع المياه حتى يموت الزرع ويتجف الخضراء ، قام عشرات من أبناء الوادي الحاصلين على شهادات زراعية

---

رفيعة في الزمن المنقضى بالتوجه إلى الفدان «أرض مصر» استحدثوا وسائل عديدة لضمان استمرار الرى . لم يعرف ما عملوه ، لكن قيل ان بعماً تفجر يسقى الزرع وأصحابه ومن يحمون الأرض ، الشمار تنمو مكتوب عليها «حى الله أرض مصر» ، اذا اهتز الشجر يصدر وشوشة أو حفيقاً إنما يسمع دعاء «حى الله أرض مصر» .

إذا هبت العاصفة من الجبل تحول عن طريقها فوق الفدان ، تصفو من ذرات الرمال ، وفي وهج الشمس يحيى غمام يلقى ظلاً فوق الفدان اليتيم الباقى .

عندما قامت طائرات الأغرايب برش المزروعات ، حللت الريح الماد السامة بعيداً ، أحضر العلماء من أبناء الوادى مواد تفسد تأثير السموم ، لم تعرف الآفات طريقها إلى «أرض مصر» ، دودة القطن رآها الكثيرون تحييد بعيداً ، عندما عرض الملائكة الأغرايب ثمناً خيالياً على العجوز ، ومنحه أرضاً في أي مكان بالعالم ، ومواشى حديثة ، وماكينة لتفرير الخيش ، وأخرى لخض الزبد ، رفض عندما أرسلوا القتلة والمخربين قولهوا بعنف «شلت أيديهم ، هجر بعض أبناء الوادى مواقعهم في أنحاء مختلفة من العالم ، جاءوا إلى الفدان : «أرض مصر» ، عندما قام الملائكة الأغرايب بفتح جميع عيون القنطر القرية ذات ليلة وأحدثوا ثغرة في الجسر المحاذى للفردان «أرض مصر» ، اتجه عدد لا يعرف مقداره بالضبط ،

---

---

---

ضم رجالاً مسنين ، شباباً ، أطفالاً ، وعدد لا يحصى من نساء يحملن  
أطفالاً رضيع على صدورهن « تجاوروا ، أمسك كل منهم بذراع الآخر »  
قيل ان بعض الأمهات حملن أطفالهن بيد وألقمنهن أندائهن بينما تلحنن  
بجيئاًهن « دفعوا بأجسادهم إلى الخلف ليسدوا الثغرة ويحوشوا ماء  
الغرق ... »

١٩٧٥ يوليو

الترام

〈 ٥٣٩ 〉

.. في مقابلة أجرتها إحدى المذيعات بالقناة الثانية ، قدمت بروح فكهة رجلا قال إنه مؤسس جمعية أصدقاء الترام ، حدث ذلك خلال برنامج مسائي يقدم شخصيات يتم اللقاء بها بدون ترتيب مسبق ، تجاوز الرجل الستين ، قال أنه عمل موظفاً بوزارة التموين حتى أحيل إلى المعاش بدون توقيع أي جزاء عليه طوال مدة خدمته . يسكن الضواحي ويمتلك بيته مستقلاً من طابق واحد تحيطه حديقة يزرع فيها كل ما يحتاجه . وبرغم سنته العالية وعدم إضطراره إلى ركوب المواصلات فمنذ فترة لا يستطيع تحديدها بالضبط لم يكف عن التفكير في الترام ، خلال نزوله المدينة اقترب كثيراً من مركبات الترام ، هاله ما رأى ، ما وصل إليه الحال من إهمال .  
ولأن الترام أقدم وسائل المواصلات في القاهرة والإسكندرية ، وأنه دخل البلاد قبل سائر المواصلات الأخرى فيجب ألا ندعه هكذا ، سألته المذيعة عن طبيعة العمل الذي ينوي من خلاله إعادة اعتبار الترام ، قال انه أنشأ بالفعل جمعية لأصدقاء الترام ، تتلخص أهدافها في الدعوة إلى ركوب الترامويات ، والعناية بها ، والارتفاع بمستوى السائقين والمحاسبين والمفتشين والفنانين ، ثم وجه دعوة إلى جميع المواطنين للاشتراك في الجمعية . أنهت المذيعة اللقاء بمشاركة توجيه الدعوة ، ولابد أن

الشاهدين في هذه الليلة هزوا رؤوسهم لدى الميافة التي وصلت إليها برامج التليفزيون ، رعيا بقى في الأذهان ملامح باهته للرجل ، اضطراره إلى بلع ريقه مرتين ، بما حاولوا إستعادة كلماته عندما أشارت إفتتاحية الأهرام إلى حديث العجوز صباح اليوم التالي . جاء بها أن مختلف ما يجري علياً وعالمياً يجب ألا يشغلنا عن أمور جوهرية في حياتنا ، ان التأمل لوضع الترام يجد أنه قد وصل إلى حد من المهانة المؤلمة ، أي نظرة إلى الترام تكشف هذا . طلاء جميع العربات لم يجدد منذ سنوات ، المقاعد الجلدية قطعتها أمواس الصبية الذين لم يبصروا أحد في نفوسهم حب الترام ، إذ لم يضع التربويون مناهج تربط النشء بتاريخ الترام ، تبرز فوائده وأهميته ، أن المركبات متشققة ، متعبة خاصة القديم منها ، أما ما وصلت إليه « السنجلات » ، فأمر يرثى له ، لا توجد ستجة واحدة تستمر معلقة إلى أسلاك الكهرباء لمدة خمس دقائق ، يضطر الكمساري إلى النزول ، أو يتطوع أحد العابرين بإعادتها إلى مكانها ، إن الترام هو المركبة الوحيدة التي يمكن إيقافها برغم ألف السائقين وذلك بشد « السنجة » ، نلاحظ أيضاً أن سائق الترام هو الوحيد في البلاد الذي يقف على قدميه طوال نوبته ، بعض الدول المتقدمة تكتيكياً ، أضافت مقعداً صغيراً للسائقين ، وخطت دول أخرى إلى ما هو أبعد فخصصت كائنات صغيرة تعزل السائقين عن زحام الركاب ، لكن تظل الغالية المستخدمة في بلادنا من النوع الأول .

إن الإعفاء سمة مشتركة لسائقى الترام ، انحنت جذوعهم ، تقوست أقدامهم ، غلظت أطرافهم ، أضفى هذا على كل منهم ملامح خاصة توحى لمن يراهم لأول مرة ويدون معرفة مسبقة بأن المائل أمامه ، سائق ترام ، لا يفكر أحد ما وصل إليه حال المرفق من تدهور ، من هنا يجب التقاط الدعوة إلى تطويره وتدعيمها ، إنفتحت افتتاحية الأهرام بدون حث القراء على خطوة محددة ، ولوحظ أن هذه الافتتاحية أذيعت عقب نشرة أخبار الظهيرة ، كما صدر تعليم علوي من التنظيم السياسي بمناقشتها في جميع الاجتماعات التي عقدت خلال اليوم فيسائر الوحدات الانتاجية والأقسام الإدارية والمناطق التابعة ، وحتى يظل التليفزيون محتفظاً بسبقه إلى الدعوة فقد خصص برنامج يومي يذاع بعد أخبار التاسعة والنصف ومدته عشر دقائق ، ويتضمن رسائل المشاهدين ، ولقاءات مع المعمرين الذين شاهدوا دخول الترام لمصر ، وأحاديث مع بعض الصحفيين الذين زاروا بلاداً بعيدة واطلعوا على النظم المختلفة للعناية بال ترام ، كما تضمنت الحلقة الأولى رسالة من المواطن على النافوري ، دعا فيها إلى إنشاء الهيئة القومية للنهوض بال ترام ، وفي اليوم التالي قرأت المذيعة العديد من الأسماء التي تويد أصحابها الدعوة ، كما أذاعت تصريحات من وزارة الداخلية لم تبد فيه اعترافها على تشكيل هيئة قومية للنهوض بال ترام طالما أن نشاط الهيئة لم يتعرض لأسس المجتمع وقيمه وأمنه ، واشترطت تسجيل العضوية

في أقسام الشرطة ، في تلك الليلة يمكن القول ان الموضوع أثير على نطاق واسع ، بين أفراد العائلات وبين رواد المقامي ، كما تحدث بعض الأقارب والمعارف إلى بعضهم تليفونياً ، ناقشوا موضوعات عامة أو خاصة ، لكن الحديث عن الترام والاهتمام المفاجيء به تخلل معظم الأحاديث ، وعندما أطبق الملايين من أهل البلاد جفونهم استعداداً للنوم احتل الترام في أذهان معظمهم صورة من تلك الصور التي تتوالى قبل النوم ، كثيرون تأملوا مركبات الترام صباح اليوم التالي ، لوحظ زحام غير عادي على محطات الترام ، هذا لا يعني زيادة عدد الركاب زيادة غير عادية ، لكن المثير أن أعداداً كبيرة من المواطنين تأملوا المركبات التي تسعى في شوارع مدبرتهم منذ سنين طويلة وكأنهم يكتشفونها لأول مرة ، بدت المركبات شائخة ، تهتز في اندفاعها فوق القصبان اهتزازات خفيفة إلى اليمين ، إلى الشمال ، كأنها سفلت من أسر القصبان الحديدية ، الطلاء بدا شاحباً في كثير من المواقع ، أما المركبات الحديثة التي ظهرت منذ عامين فقط في شوارع المدينة فلاحظ الأهالي أن ثمة تغيرات طرأت عليها إلى جانب الإهمال ، ييدو أن الفنانين لم يحترموا الأجهزة الحديثة بها فأبدلوا بعضها بأخرى أكثر تخلفاً وربما لم يتيسر إبادتها بمشلاها نظراً لنقص العملة الصعبة المخصصة لاستيراد قطع الغيار ، كثير من المصايد الزجاجية الأمامية تحطم ، مقاعد البلاستيك تكسرت حواها .

في صحيفة الأخبار نشر تحقيق عن الجلوس داخل الترام ، وقال التحقيق ان راكب الترام يواجه الحالس أمامه ، ويتلاحم بالمجاور له ، وهذا ما لا يرى في الأوتوبوسات ، سئل بعض علماء الاجتماع الذين أبرزوا الجوانب الإيجابية والأثار المترتبة ، وتعزيز المشاعر الإنسانية والروح الاجتماعية في عصر توشك فيه الآلة على إفساد كل ما هو إنسان وجميل ، وقال أحد أساتذة الفلسفة بجامعة عين شمس ، ان الجلوس في الترام ينفي عنصر الاغتراب لدى الإنسان ، وركز علماء النفس على الآثار السيكلولوجية المترتبة على تقارب الناس ، وشعورهم بإيقاع السير البطيء وعلاقة ذلك بالحد من نسبة القلق والشعور بالاكتئاب ، وتحدث أحد أطباء القلب عن علاقة إيقاع السير البطيء للتрам وضمان عدم توقفه المفاجئ بسلامة القلب ، وأكد أن الانتقال بالتрам أفضل وسيلة لمرضى القلب ، ونشر صورتين علميتين ، الأولى لقلب مريض استخدم وسائل المواصلات كلها عدا الترام ، والثانية لقلب رجل لم يركب إلا الترام .

وفي جريدة الجمهورية نشر تصريح لمدير إحدى شركات الإعلان الكبرى التي بدأت تعمل أخيراً برأس مال مصرى - غربى مشترك ، قال إن الترام يعد من أفضل أماكن الإعلان ، إذ توجد به مساحات عريضة على جانبيه ، كما يمكن تعليق لافتات بكلفة الأحجام فوقه ، ويمكن إبراز الشيء المعلن عنه بوضوح . والمادة المصنوع منها جسم الترام تتقبل أي لون .

---

---

وتحتفظ بمقوماته الأصلية ، بالإضافة إلى نقطة هامة للغاية « إنها سير الترام البطيء » ، يمكن للماشى على قدميه أو الجالس في شرفة أو المطل من نافذة أو مدخل الترجميلة أمام أى سقى من قراءة الإعلان ، في نفس الجريدة أجرت إحدى الصحفيات مقابلة مع تاجر لعب أطفال ، قال ان أجمل النماذج التي يبيعها للأولاد من مختلف الأعمار هو الترام ، وقال ان رجال الجيل الحالى يتذكرون تلك اللعب الصغيرة أثناء طفولتهم والتي تمثل مركبات الترام المفتوحة والقديمة ، وخلال السنوات الأخيرة ظهرت مركبات متطرفة من الترام وعرض نماذج مصغرة لها فى متجره ، وقال ان الترام كلعبة يفتح مدارك الطفل ويشير في خياله العديد من الصور ، ويفتح أمامه آفاقاً عديدة خاصة فيما يتعلق بافاقهم الكهربائية .

كما صرح قائد شرطة آداب البلاد بأن حوادث النشل تقل كثيراً بال ترام ، وذلك لاتساع أماكن الوقوف وعدم إتاحة الفرصة لاهتزازات كبيرة تتبع الاحتكاك ، كما أن خدش حياء الإناث يقل كثيراً ، وقال أن عربات الترام حافظت على قيم المجتمع ومثله عنيد خصوصاً عربة للحرير ، لا يمكن لرجل أن يركب بها أو يقف أمامها ، وقال ان بعض العجائز يجدن فيه متسعأً ومكاناً مريحاً ، يقدعون فوق أرضية المركبات ويستندون ما يحملونه أمامهم .

---

وفي بداية اجتماع كبير قال وكيل وزارة الاقتصاد المختص ان اقتصاديات تشغيل الترام أقل من أي وسيلة أخرى ، والتمسك بها ، وعميمها سيؤدي إلى وفر في الميزانية يساعد البلد على التصدي لمسؤوليات أخرى جسيمة يتطلبها الموقف الذي يمتاز به اقتصادنا ، في نفس اليوم تحدث أحد أساتذة التاريخ المصري المعاصر إلى طلبه ، وقال ان الدور الوطني لل ترام لا يقتصر على مدى الوفر الذي يمكن أن يتحقق في ميزانية البلاد ، ان هذه نظرة قاصرة وتغفل الاقتصاد عن بقية الجوانب العلمية الأخرى ، أنه بصدق وضع مؤلف يتناول ، الذي ... ، « ترام منذ ظهوره » ثم تحدث عن ذلك عما ... واستخدمي الترام الذين كافحوا ضد أصحاب شركات الترام الأجانب في بداية القرن ، ثم أسهب في الحديث عن الإضراب العمال الكبير الذي جرى عام ١٩٠٨ ، وذهب عاثلات المصريين إلى الورش والمركبات ومشاركتهم الفعالة ، ثم تكرار هذه الإضرابات « التراموية » التي ساهمت في توعية العمال بحقوقهم من ناحية ، وببلورة الشعور القومي من ناحية أخرى مما أوجد رافداً هاماً إلى ثورة ١٩١٩ ، ولا يقتصر دور الترام على ذلك فقط ، بل تصلدت مركباته للإنجليز عندما قلبها المتظاهرون واستخدموها كمتاريس ، ثم قدم إلى الطلبة صوراً نادرة تؤكد الدور الوطني المباشر لل ترام .

فـاليوم التالي عقد اجتماع موسع بالقر العام للمنظـمات الشـبابية ،  
وأعلن المقرر العام اتخاذ قرار يقضي بـمشاركة جـماهـير الشـباب الطـلـابـية  
والـعـمـالـيـة وـشـبـابـ الـموظـفـينـ فيـ حـمـلةـ وـاسـعـةـ منـ أـجـلـ إـعادـةـ طـلـاءـ مـرـكـباتـ  
التـرامـ ، وـتـنـظـيفـ القـضـبـانـ ، وـسـتـقـدـمـ درـوـعـ وـكـشـوـسـ لأـقـدـمـ العـاـمـلـينـ  
بـالـمـرـفـقـ .

علـقـ الـمواـطـنـونـ عـلـىـ ذـكـ الـاـهـتمـامـ الـواـسـعـ بـالـتـرامـ أـثـنـاءـ وـقـوفـهـ فـيـ  
غـنـفـ الطـوـايـرـ ، أـمـامـ مـكـاتـبـ الـجـواـزـاتـ ، الـجـمـعـيـاتـ التـعـاـونـيـةـ نـوـافـدـ  
الـحـجـزـ ، بـنـوـكـ الـعـمـلـاتـ الـمـحلـيـةـ وـالـأـجـنبـيـةـ ، مـكـاتـبـ السـجـلـاتـ الـمـدـنـيـةـ ،  
كمـ جـرـتـ مـنـاقـشـاتـ هـامـةـ فـيـ الـمـنـاطـقـ الـحـرـةـ بـالـبـلـادـ ، وـالـمـقـاهـيـ الـأـفـرـنجـيـةـ الـتـيـ  
تـقـدـمـ الـمـشـروـيـاتـ السـاخـنـةـ وـالـجـلـاسـ وـقـطـعـ الـخـلـويـ الصـغـيـرـ وـالـمـشـهـيـاتـ ،  
وـفـيـ الـمـقـاهـيـ الـشـعـبـيـةـ ، وـمـقـارـنـاتـ الـمـهـنـيـةـ ، الـعـمـالـيـةـ ، وـقـالـ الـبعـضـ  
إـنـاـ مـحاـولـةـ لـحـرـفـ أـنـظـارـ النـاسـ عـنـ الـمـشاـكـلـ الـحـقـيقـيـةـ ، اـعـتـرـضـ آخـرـونـ  
وـقـالـوـاـ إـنـ الـمـوـضـوـعـ يـتـمـ بـشـكـلـ تـلـقـائـيـ ، وـيـشـارـكـ فـيـ فـيـشـاتـ عـدـيـدةـ ،  
وـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـصـلـ إـلـىـ هـذـاـ الشـكـلـ لـوـ أـنـ الـأـمـرـ مدـبـرـ أوـ مـخـطـطـ لـهـ مـنـ قـبـلـ  
إـحـدـىـ الـهـيـثـاتـ ، لـكـنـ بـعـضـ الـقـوـيـ الـمعـنـيـةـ الـتـيـ تـقـوـمـ دـائـيـاـ بـالـمـعـارـضـةـ مـنـ  
أـجـلـ الـمـعـارـضـةـ لـمـ تـخـفـ اـمـتـاعـضـهاـ إـزـاءـ تـلـكـ الـأـمـيـةـ الـمـتـزاـيدـةـ وـالـمـوـجـةـ نـحـوـ  
الـتـرامـ ، حـاـوـلـتـ تـلـكـ الـقـوـيـ تـروـيجـ إـشـاعـاتـ مـعـيـنةـ ، وـنـكـتـ تـدـورـ حـولـ  
الـتـرامـ ، وـهدـدـتـ الـمـبـاحـثـ الـعـامـةـ أـنـهـ سـيـتـمـ الـفـرـبـ بـشـلـةـ عـلـىـ أـيـلـىـ كـلـ مـنـ

---

يحاول الخروج بمعارضته عن حيز القول والإحتجاج ، ولم يفهم ما المقصود بذلك ، كما أن موقف أجهزة الأمن المختلفة من الترام ، وقد تعود الناس أن هذه الأجهزة لها موقف من كل الأمور الصغيرة والكبيرة ، موقف خفى غير معلن لكنه يعرف لدى الناس بالإحساس ، بوسائل ما ، ثمة حكاية تروى ربما أوضحت بعض ما خفى ـ أثناء قيام رجال المباحث بالتحقيق مع خلية سرية من الشبان الصغار ـ صفع الضابط المحقق أحد الشبان وخطبه قائلاً : لماذا تتوجهون إلى العمل السرى وأمامكم العديد من النشاطات التى يمكن لكم الاشتراك فيها ، لماذا لا تعبرون عن رأيكم فيما يجرى حول الترام ؟ .

يمكن القول انه بعد عدة أيام ثما شعور بين جميع الفئات بالتعاطف مع الترام ـ حتى أصحاب السيارات الذين اعتدوا كثيراً على المجارى الخاصة بال ترام ، في وسط الطريق عندما يشد الزحام ، وبلغ شعور التعاطف قمته في شارع الأزهر الرئيسى الذى أزيل منه الترام ـ منذ عشر سنوات ، أقام أحد تجار المانيفاتوررة سرادقاً ضخماً يتسع لآلاف شخص ودعا إليه ثلاثة من المقربين الكبار ، وبعد انتهاء المشايخ الثلاثة من التلاوة الكريمة خطب التجار في المحتشدين سمع صوته في أقصى الشارع بواسطة مكبرات الصوت المصرح له باستخدامها ، أعلن أنه يحيى الليلة ذكرى اليوم الذى أزيلت فيه مركبات الترام من شارع الأزهر ، قال أن ذلك من السلبيات

---

---

---

التي جرت ، أثير انتهاء كلمته قام البعض بتحرير صيغة برقية على الجالسين  
مرسلة إلى كافة المسؤولين لإعادة الترام إلى شارع الأزهر ، كما تقرر إحياء  
ذكرى انتزاع الخط سنوياً ، حتى في حالة إعادة الخط القديم .

ورشحت جريدة « الأخبار » رجلاً تجاوز السبعين ، أطلقت عليه  
لقب « راكب الترام الأول » ، أدلى بحديث طويل روى فيه ذكرياته عن  
ال ترام التي تمتد إلى نشأته الأولى ، لم يستخدم غير الترام وسيلة لانتقاله ،  
قال إن عدداً كبيراً من الكمسارية والساقيين القدامي يعرفونه « كثيراً  
ما تبادل معهم الحديث خلال الزمن الرائق ، الجميل ، المولى ، كما تبادل  
معهم السجائر ، قال انه يعتبر ركوبه الترام فقط أحد الأسباب التي أدت  
إلى إطالة عمره .

وقد حكى بعضاً من ذكرياته ، عندما افتتح أول خط لل ترام « أثناء  
مروره أمام مقهى شعبي ، قام الجالسون فرعاً ظناً منهم بأن المركبة وحش  
غامض ، ولفترة تلت هذه الحادثة استمر رواد المقاهي التي يمر بها الترام  
يقومون حاملين مقاعدهم ويتوارون داخل المقاهي .

في اليوم التالي دعى « راكب الترام الأول » إلى إلقاء محاضرة بمدرسة  
البنات الثانوية بشبرا ، أجاب على أسئلة الطالبات ، إقترح أحد القراء  
تكريمه في حفل قومي يدعى إليه كبار المسؤولين ، ويهدى إليه درعاً جديداً

---

إسمه « ترع الترام » ، غير أن الدولة أخذت المبادرة ، أعلن عن إنشاء وسام جديد ، وسام الترام ، حددت أنواعه بثلاث طبقات ..

- وسام الترام من الطبقة الأولى .
- \* وسام الترام من الطبقة الثانية .
- وسام الترام من الطبقة الثالثة .

ويمثل شكل الوسام عربة ترام قديمة من النوع الذى استعمل لأول مرة في العاصمة ، تشع منها أضواء جسدت بالفضة بينما جسم الترام نفسه من الذهب ، أما المصابيح الأمامية فمن الماس النقى ، ولا تختلف الطبقة الأولى عن الطبقتين الأخريين إلا في نوعية المعدن المصنوع منه جسم الترام ، تصاعد الاهتمام بال ترام إلى حد كبير فيها تل ذلك من أيام ، عقد العديد من الندوات لإحياء دور الترام التاريخي ، أجرى عدد من الساسة القدامى اتصالات مكثفة لإنشاء « الهيئة القومية العليا للترام » والتي دعا إليها ذلك الراكب المجهول والذي اختفى تماماً بعد أن أدى بحديثه التليفزيونى ، اعترض بعض الشباب على انفراد الساسة بالعمل وأصدروا بياناً دعوا فيه إلى ضرورة الإصغاء إلى رأى المستقبل ، كما جرت مناقشات عديدة منظمة وتلقائية ، وتمت الأخيرة في وسائل المواصلات ، خاصة القطارات التي تستغرق وقتاً ، وبعى المواطنون بعض الوجوه التي تقلصت

ملاحمها أثناء الحديث عن الترام ، وقبضات الأيدي المضمومة الملوجة في الهواء ، والأصابع المتوردة المشدودة إذ تشير مهددة ، والأسنان التي تعس على الشفاه ، وصرخات التعجب التي تخخلل الأحاديث ، كتبت مقالات عديدة يتسعى أصحابها عن المقصود بال ترام ؟ لا تدخل مركبات المترو الحديثة في نوعية الترام ، بل هذه المركبات التراموية الحديثة المستوردة من البلاد الشرقية ، الامتن بصلة إلى جنس الترام ؟ والترولى باس ... إلى أي جنس يتنسى ؟ ..

كلمات كثيرة حول هذه القضية ، تليت من الإذاعة والتليفزيون ، وقيلت حول موائد مستديرة وداخل حجرات مقابلة وفي اجتماعات عامة ، وفي سرادقات منصوبة من القماش ، ودون المستمعون إليها آلاف الملاحظات ب مختلف أنواع الأفلام ، وشرب قائلوها أكواب ماء كثيرة أثناء حديثهم وجربت الميكروفونات المستعملة مئات المرات بتق الأصابع عليها أو نفخ الأنفواه فيها ، كما قيلت عبارات مثل « سيداق آنساق سادق » .. « مساء الخير أيها المستمعون الكرام » .. آلاف المرات ، كما استهلكت كميات لا حصر لها من الورق ، والدفاتر ، والدبابيس التي ثبت بها البعض ملاحظاتهم المرفقة بالنصوص الأصلية ، وازداد الأمر عندما أدى وزير التربية والتعليم العالي والمتوسط بيان أعلن فيه دخول الترام كمادة دراسة أساسية يشترط النجاح فيها للانتقال من مرحلة إلى أخرى ، حدد

---

---

محتوى هذه المادة في رسالة أذاعتها وسائل الإعلام إلى أبنائه الطلاب ، وتضمنت دراسة أنواع الترام وأشهر المصانع المتخصصة فيه ، ودراسة أجزائه ، وشبكات الكهرباء التي تقوم بتغذيته وخلال امتحانات النقل بالمنطقة الوسطى ورد سؤال في التعبير نصه كما يلى :

« اكتب خمسة عشر سطراً حول الترام موضحاً به عدد العجلات بالمركبة الواحدة ومقدار المسافة الفاصلة بين العجلة والأخرى » .

وأعلنت المكاتب الأساسية بالبلاد عن عزمها إرسال وفود متالية من مثل المينات البرلمانية والشعبية إلى مدينة شارلروا ، البلجيكية باعتبارها أكبر مدن العالم لصناعة الترامبيات ، في نفس الوقت انهالت برقائق عديدة من سكان مختلف المدن مطالبين بإدخال الترام ، ودعا أحد الكتاب في مجلة العلوم الثقافية إلى تمجيد فكرة الترام ، وقررت مصلحة صك التقويد إصدار عملة تذكارية خاصة عليها صورة ترام ، أعلن رؤساء التحرير الثلاثة معارضتهم وطالبو بإصدار عملة دائمة للtram ، وعد مدبر مصلحة الصك بدراسة الفكرة وتأثيرها على النقد المتداول وحجمه ، كما ظهر إعلان من هيئة الإسطوانات يحذر المقلدين من تزييف إسطوانات الترام والكاسيت التي انتشرت في البلاد ، وتتضمن هذه التسجيلات أصواتاً مختلفة لأجراس الترام من مختلف الأنواع ، وأصوات احتكاك العجلات بالقضبان ، وصوت الفرامل لحظة أن تقبض على العجلات »

---

والصريح عند المحننات » وتقسم الإعلان عزم الهيئة على طبع إسطوانات تحوى صوت سريان الكهرباء في الأسلام ، وهذا ما لم يتم من قبل ، وتقدم أحد المشغلين بالسياسة للحصول على ترخيص بإصدار صحيفة اسمها « الترام » لقد نظمت ندوات وأعلن أنه سيجرى جمع اللغة العربية بحثاً عن إضافة لفظ « الترام » إلى القاموس الفصحى المعتمد ، وقامت بعض المصانع بطبع ميداليات صغيرة تعلق إلى الصدر أو تتدلى من الأحزنة مثل الترام في أوضاعه المختلفة ، وزعت هذه الميداليات على أعضاء الوفود الأجنبية التي بدأت في الوصول وتدللت من صدورهم » كما أعلن عالم مصرولوجي اكتشاف رسم على جدران معبد فرعون قديم يشبه الترام وتساءل ، هل عرف الفراعنة الترام ، وقال انه سيعقد اجتماعاً يجيب فيه على ذلك ، غير أن المعارضين بدأوا التحرك ، وفي الفترة الأخيرة وقع منشور سرى من إحدى الجماعات التي تعمل تحت الأرض في أيدي رجال المباحث والتحري ، دعا المنشور إلى اليقظة والحذر ، وزع المنشور في بعض مركبات الترام ، عقد مدير هيئة قمع المعارضة مؤتمراً أذاع فيه نص المنشور ، واتهم بعض الدول الأجنبية ، واعترف بوجود معارضه للأهداف القومية المؤيدة للتрам والتي عبرت عنها الجماهير تعبيراً أذهل العدو قبل الصديق ، وقال إن تلك الأهداف تلقى تأييداً واسعاً من

---

---

شعبنا » للدرجة أن كثيرا من الآباء أنجبوا مواليد في الفترة الأخيرة » أطلقوا  
على أبنائهم اسم واحد ترجم ..

مايو ١٩٧٦

**الفندق**

〈 ٥٥٥ 〉

.. غير أن ما لفت الأنظار تلك الإعلانات التي بدأت تظهر خلال الشهر الأخير عن مهرجان مصر العالمي للفنون السينمائية ، والذى سيقام تحت رعاية فندق التى ق . تسأله كثيرون ، ما هي علاقة الفنادق بمهرجان يحمل اسم مصر ؟ تسأله بعض الناس في أحدياتهم العادلة عن سر تبني الفندق لهذا المهرجان ؟ ولما أجبوا بأنها الدعاية ، تعجبوا ، وهل يحتاج الأمر إلى دعاية ؟ في أي شارع تقع العين على لا بد تحمل اسم الفنادق ، أو أحد مطاعم الفنادق ، أو شاب وفتاة يرتدي كل منها قميصاً عليه شعار الفنادق ، أو دكان حلوى يبيع جيلاتي الفنادق .

عبر أحد الكتاب عما يساوره من قلق خاصية مع الدعاية المكثفة لهذا المهرجان ، لكن هاجته أفلام عديدة ، وقال موظف كبير لزميله أثناء حديث تليفون ، إن أمثل هذا الكاتب يشوه وجه مصر ، كما كتب ناقد في قائلًا ، يكفي مصر فخرًا أن العديد من المجلات العالمية ستذكر اسم مصر عند نشر أخبار المهرجان ، وأن مجلة نيوزويك التي تطبع عشرة ملايين نسخة ستخصص ربع صفحة في عددها الصادر يوم افتتاح المهرجان وهذه خير دعاية لمصر ، كما أن الصحف التابعة لمؤسسة الفنادق ستتصدر أعداداً خاصة عن المهرجان ، وقال نجم سينمائى معروف أثناء

---

---

حديثه إلى متجر كبير في نادى التى ق الأوسط ، حان لمصر أن تلتحق بركب المهرجانات السينمائية ، بعد طول انغلاق ، وقالت نجمة معروفة في حفلة خاصة ، يكفى أن الجمهور المصرى سيشهد عن قرب صدر كلوديا ، وعيون آلان ديلون ، من ناحية أخرى أرسل مدير العلاقات العامة للقى نسخاً عديدة من خطاب وجده إلى الصحف ، وإلى كبار الموظفين ، والمديرين ، والوكلاء ، وبعض الأطباء المشاهير ، ورؤساء النوادي ، ومديري المدارس الأجنبية ، وبعض الطلبة في مراحل التعليم المختلفة ، وأشار فيه إلى الأصوات الحرة التي تقف إلى جانب المهرجان ، وأكد أن كل شيء س يتم في موعده المحدد ..

سرت الدهشة بين الناس ، وتعجب المواطنون ، وأبدى معظمهم أسفًا ، والحقيقة أن الأمر بدأ قبل المهرجان ، بالتحديد منذ بداية السستينيات ، عندما بدأ ارتفاع الميكل الخرسانى للقى ق . فشل الكثيرون في عد الطوابق ، يتظملون حتى الثان والثلاثين أو الرابع والخمسين ثم تتوه نظراتهم في الأعمدة الخشبية المتشابكة ، المتداخلة ، ثم بدا الميكل يتعرى من السفالات وكلما أزيح جانب منها يبلو جزء من الطلاء الناصع البياض المشوب بزرقة خفيفة ، ومن أى مكان في القاهرة يبدو المبنى ، إذا وقفت في الأزهر سيبدو شاهق الارتفاع في مكانه قرب الجزيرة ، بل أن أهالى عين شمس ، ومصر الجديدة ، تابعوا خطوات بنائه من شرفاتهم ، وفي حدائق القنطر

---

---

الخيرية أمكن للمتذهين رؤية المبنى عند الأفق ، قيل ان المهندس الذى صممه راعى أن يبدو واضحاً من جميع الانحاء منها على المبنى فى المستقبل . فى تلك الفترة جرى نشاط كبير في البلاد ، ولو رصد أحد الباحثين نوعية الانتاج وفتش لوجد أن قطاعاً ضخماً منه وجه إلى التى ق . خصصت مصانع التكيف انتاجها كله للفندق . أيضاً ورش السجاد البدوى التى انهمكت فى صناعة سجاد ذى مواصفات موحدة . استورد صوف برتقالى خصيصاً . أما المصنوع المركزى بدمونهور فقد تفرع تماماً لإنجاز عدةآلاف من الأمتار التى مستخدم كمشابيات بين الطرقات الرئيسية والفرعية . تفرغت أيضاً مصانع الزجاج ، ومصانع الشوك والملاعق ، وطفايات السجائر ، وأدوات الطعام كافة ، ومصانع المشاجب ، ومقابض ، الأبواب ، والأدوات الصحية ..

عرف حرص الشركة على تنفيذ معظم احتياجات الفندق في السوق المحلية طبقاً لمواصفاتها الخاصة ، وذلك لرخص الخامات ، والأيدي العاملة ، فيما عدا الوسائد ، والمراتب ، والنجم ، والأجراس الموسيقية ، والرخام الملون ، وبعض أنواع الفيشان . وأطعم الفضة الخاصة باستعمال كبار الشخصيات . تم استيراد هذا من الخارج .

في أوائل السبعينيات بدأت الصحف اليومية تنشر اعلانات كبيرة عن نشاط شركة التي ق في المجال الفندقي . هكذا فرأ الناس معلومات عن ق

---

ق البحرين ، ورأوا صوراً للقى بورما ، وقى نيويورك ، وقى سيدنى ، لوحظ أن كل ق يشبه مدينة صغيرة ، جاء في اعلان قى داكار أنه يوجد قطار خاص بالقى . ينقل التزلاء إلى مختلف أنحاء السنغال ، وفي قى هونج كونج محطة ارسال تليفزيونية مدير القى في سيدنى بعقد مؤتمر صحفياً أسبوعياً يدلل فيه برأيه في الحوادث العالمية وال محلية ، ويهدى بقطيع معونة شركات القى عن بعض البلاد الصغيرة الفقيرة . وفي طهران قام القى بنشاط ضخم في مجال البحث عن الآثار الفارسية القديمة ، كما ساهم في حل المشكلات التموينية .

ثم بدأت تظهر في الصور اعلانات يحتل منها ربع صفحة فارغة إلا من كلمتين فقط : «ق .. ق» . استمر ذلك لمدة عشرة أيام ، ثم أضيفت كلمتان : «ترقبوا .. تبي .. القاهرة» . بعد أسبوعين حدثت ظاهرة في مجال الفن الاعلاني ، إذ ان شركة القى ق نشرت إعلاناً ضخماً في جميع الجرائد الصادرة استغرق كافة صفحاتها . وتلك سابقة اعلانية لم تحدث ، اضطررت الأهرام إلى إصدار ملحق من صفحتين تضمن اخبار الدولة والعالم تسائل أحد أساتذة كلية الأعلام أثناء القائه محاضرة عن معنى ذلك ؟ . في ذلك اليوم أضيفت لافتة ضخمة زرقاء اللون فوق أعلى نقطة بمبنى القى . وأضيفت فوقها مصابيح حمراء تحذير الطائرات خوفاً من الاصطدام بها ، أصبحت اللافتة من العلامات الأرضية المميزة للقاهرة ،

---

---

ظهرت في الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية التابعة للدولتين الأعظم ، كما حرص الطيارون على التباهي إليها في الميكروفون الداخلي ، : « يمكنكم أن تروا إلى اليمين فندق التي ق » . وقيل إنهم يقبضون مقابل هذه العبارة ..

في ليلة الافتتاح ألقى المدير العام لقى ق القاهرة كلمة أعلن فيها أن الشركة حريصة على تقارب المجتمع الانساني ، وشعارها قى لكل بلد . أبدى اعجابه بالآثار المصرية ، ثم وعد بأنه سيضغط في اجتماع مجلس الإدارة العالمي القادم من أجل طباعة صورة الأهرام في مكتب الدعاية السنوى الذى تصدره مجموعة التي ق .

بعد افتتاح الفندق خصص عمود كامل في جريدة الأخبار والأهرام تحت عنوان : « يوميات التي ق » ، يتضمن أهم الشخصيات التي وصلت ، أو انتهت اقامتها ، أو تقيم ، والمؤتمرات التي تعقد ، وحفلات المؤسسات ، والأعراس ، والأفلام والمسرحيات المعروضة أو التي ستعرض .

يمكن القول ان هذه الأخبار هي مصدر المعلومات الوحيد المتاح ، من خلالها يمكن معرفة بعض التفاصيل ، تبين أن الفندق يضم سبعة حمامات سباحة ، أولها في الطابق السادس وتحيط به حديقة صناعية كبيرة ،

---

---

به أربع قاعات للجتماعات ، مزودة بأجهزة الترجمة الفورية ، وسبع عشرة قاعة للاحفلات ، لا تشبه واحدة الأخرى ، وعدة ملامي ليلية ، وكازينو للعب القمار ، وملعب صغير للتزلج على الجليد في الطابق الخمسين . وقاعة للعروض المسرحية . وقاعة أوبرا صغيرة وقاعات للعروض السينمائية ، ومطار صغير معد لاستقبال طائرات الميلوكتر .

تلك بعض المعلومات التي عرفت ، لكن المؤكد أنه ما من نزيل ألم بكل جوانب التي ت ، قيل باستحالة ذلك لتشعبه واتساعه . وتزعم بعض المبالغات أن كثيرين من موظفى التي ت محروم عليهم مفارقة موقع عملهم ، ويتناقضى هؤلاء الموظفون مرتبات كبيرة ، حتى أشيع أن أحد وكلاء الوزارات استقال من منصبه ليعمل موظفاً للألة الكاتبة وذلك بعد أن هان منصب وكيل الوزارة ، وأصبح لكل واحدة أربعين أو خمسين وكيلاً . أصبحت التي ت المكان المفضل للثفات الراقية التي أبدت ارتياحها لارتفاع الأسعار مما يعجز كثيرون عن ارتياه . أصبحت التي ت ملجأهم بعد ازدحام كافيتريا الميلتون بكل من هب ودب . للدرجة مشاهدة بعض الطلبة مع صديقاتهم ، وصغار الموظفين ، وأصحاب الملامح المرهقة والذين تتسع ياقات قمصانهم بعد أول مرة يرتلونها ، لقد تسلى بعض هؤلاء إلى فندق الميرديان الحديث والمرتفع الأسعار ، وذلك عن طريق دعوات الغذاء التي تقيمها إدارات العلاقات العامة بالصالح والشركات لبعض الخبراء

---

الأجانب . أحياناً يدعى خير واحد وأق معه خسون موظفاً يحفون به ، ويتأملون بعيون زائفة قوائم الطعام وأصنافه . أن الجد الأدنى للطلب في التي ق سبعة دولارات ، ويخضع نظام الطلبات لترتيب معين يقضى بتجديده المشروب كل ساعة . لم يحدث منذ الافتتاح حتى الآن أن خلت منضدة واحدة من الرواد ، المجز لابد أن يتم مقدماً ، قاعات مشغولة كل الليالي . اشتهرت العائلات التي تزوج أبناؤها في التي ق . طبعوا على بطاقاتهم الخاصة ما يفيد أنه تم زفافهم في التي ق ، وحضرت إدارة التي ق أي شخص يقوم بتزيف بطاقة من هذا النوع بعرض تسهيل أعماله ، أو المخاده مظهراً اجتماعياً معيناً . كما حدث كثيراً في الأسر الثرية أن اضطجع بعض الآباء أو الأمهات في مقاعدتهم . ثم قالوا للمتقديمين إلى بناتهم : « .. من شروطنا أن يتم الزفاف في التي ق .. » شيئاً فشيئاً تشكلت في المجتمع فئة التي ق ، ظهرت محليلات عديدة لتنظيمات سياسية ، اعتبرها البعض فئة ، واعتبرها البعض الآخر طبقة ، ولانضمام عائلة إلى هذه الفئة أو الطبقة لابد من تردد جميع أفرادها على التي ق بانتظام ، وأن تسم زيجاتها في قاعاته ، ويمكن لأفراد هذه العائلات السفر بنصف القيمة على طائرات التي ق . أو على خطوط التي ق الملاحية . كما يسمح لهم بارتداء الشارة البرتقالية وتلك تسهل تعارف الرواد في جميع أنحاء العالم .

اعتداد رجال الأعمال الذين نمت ثرواتهم في الفترة الأخيرة عقد صفقاتهم في النبيذ . إن مجرد دعوتهم لعملائهم كي يتناولوا الغذاء في الفندق تكفي لبعث الثقة في مركزهم المالي ..

اعتداد أطفال الرواد على حداائق النبيذ حيث تتغير اللعبة كل نصف ساعة . ويتربّق أولياء أمورهم بلهفة اليوم الذي يسمع فيه النبيذ بافتتاح فروع لمدارسه الابتدائية والثانوية في القطر ، كما تكون جهوراً خاصاً بالعروض المسرحية ، توجد عدّة فرق خاصة بالنبيذ تنتقل بين العواصم المختلفة ، إذا افترضنا أن فرقة النبيذ للغناء الصيفي تقدم عروضها في القاهرة هذا الأسبوع فإنها سترحل إلى النبيذ قرطاج خلال الأسبوع التالي لتجيء فرقة أخرى . لا يعني هذا عدم وجود فرقة فنية مقيمة ، توجد فرقة للفنون الشعبية المحلية تعرض يومياً ، وقد وعدت الإدارة بانتقال هذه الفرقة إلى فروع النبيذ . وهكذا ساهم النبيذ في انتشار الفولكلور المصري عالمياً ، كما تم التعاقد مع أشهر راقصتين مصرتين على الإقامة الكاملة والرقص يومياً

في منتصف العام الحالى ، وقبل الشروع في المهرجان السينمائى . أعلن في اليوميات أن النبيذ قرر تخصيص عدّة عربات حديثة مستوردة من ولاية فرجينيا لتنظيف الشوارع ، وهذه العربات تقوم بالشفط ، والكنس ، لاقى هذا ترحيباً ، وقال البعض أن هذا ليس إلا شيئاً مما

---

---

سيقدمه التي ق ، ثم اعتاد أهالى المناطق المجاورة ظهور هذه السيارات بررتقالية اللون عندما تجول فى الصباح الباكر وتمد خراطيم بلاستيكية ومتصلة بالأترية والقادورات المستعصية . ثم تمسح الإسفلت بفرشاة ضخمة دائيرية . بعد ذلك بيومين أعلن فى سطر واحد عن اجتماع اللجنة التحضيرية لمهرجان مصر السينمائى ، لم يتبعه أحد . وظن أن اللجنة تتخذ من الفندق مقراً .

وبعد أيام أعلن أنه سيتم تشغيل خط أوتوبيس خاص لنقل الزلازل من المطار ، ومساهمة في حل أزمة المواصلات سيسمح للأفراد العاديين بالركوب مقابل دولار واحد . في الفترة التالية لفتت هذه الأتوبيسات الأنظار بإنفاقها واسترخاء الركاب فيها . تمنى أحد الفنانين أن يرى أتوبيسات القاهرة كلها بهذا الشكل . وعلى الفور عقد مدير التي ق مؤتمراً قال في بدايته أن ما تمناه المطرب الفنان ليس بعيد . وإن التي ق تقدم بمشروع متكامل إلى وزارة النقل . ومحافظة القاهرة ، والجهات المعنية ، يتضمن تسخير عدة خطوط تربط القاهرة ربطاً متكاملاً ، محكماً ، كما أعلن عن استعداد التي ق لتقديم خبرته في المرور . ودعا المتخصصين إلى تناول الغذاء ، ومشاهدة الدقة الفائقة في تطبيق أحدث نظم المرور بالشوارع المؤدية إلى التي ق إذ يتردد على الفندق أربعة أو خمسة آلاف سيارة يومياً ولا يحدث أى اضطراب .

---

---

---

علق أحد الكتاب قائلاً : إن هذا تدخل لا يليق ، وتهديد للسلام الاجتماعي .

رد عليه مدير العلاقات العامة بالقى قى . قال : إنه ليس يستغرب اعتراض هذا الكاتب المعروف لونه جيداً ، صاحب الأفكار المستوردة ، إن الذى قى حريص على حل مشاكل الناس .

بدا أكثر الناس دهشة من نشاط الذى قى أصحاب الفنادق المحلية المنتشرة في باب الحديد ، وشارع كلوب بك ، وحول مسجد الحسين . إن الفندق يعني بالنسبة اليهم مكان ينام فيه الناس ليلاً ، بعض أصحاب الفنادق أضافوا مطاعم لكنها ليست القاعدة معظم الفنادق ترسل في طلب الوجبات من المطاعم القرية ، استرجع صاحب فندق دار السلام بالحسين ذكرياته . قال : إن اللوكالنة التى اجتذبت رواداً في غير مجال النوم هي الكلوب العصرى ، عام ١٩١٠ خصصت مساحة لعرض بعض الأفلام الصامتة . لكن هذا لم يستمر . إن أصحاب فنادق الدرجة الأولى أيضاً لا يخفون دهشتهم مما يجريه الذى قى . يقال ان الوزراء الأجانب يتحركون داخله كأى أشخاص عاديين ، لا يلقى أحد إليهم بالاً ، لأن كل زياراً يفوق الآخر أهمية ، تسأله بعض المواطنين عما ينفق فيه يومياً من أموال ، وكم من المصائر قررت داخل قاعاته ، وكم من الصفقات عقدت ، وفكـ

---

---

أحد المخرجين أن يتبع فلماً تدور أحدهاته في التي ق . لكن الإدارة لديها شركة انتاج خاصة تستغل ديكورات التي ق ، وطرقاته ، وحجراته ، وانشاءاته .

غير أن الاعلان عن اشراف التي ق على المهرجان يحمل اسم مصر ييلو أنه النقطة التي تراكمت عندها كل الأشياء ، خاصة أن الاشاعات سرت في نفس الوقت عن إصدار جريدة باسم التي ق ، وانشاء سترايال خاص به . وذلك بعد شكوى رجال الأعمال من الخطوط المحلية ، لم يصمت مدير التي ق ، إنما أدل بتصريح أعلن فيه رغبة التي ق في تخفيف العبء ، عن الأجهزة الرسمية ، ثم وجه تحذيراً إلى الأصوات التي تهاجم المهرجان ، وقال انه سيعقد مؤتمراً يكشف فيه حقيقتها ..

أحدث ذلك ضجة ، لكن الاستعدادات استمرت ، ورأى المواطنون أنواعاً حديثة من الأقواس ، بعضها على هيئة كاميرات سينمائية . وتتضمن قوساً أقيم بالقرب من المبنى شاشة سينمائية تعرض لقطات من الأفلام . أدى هذا إلى تجمع الناس ، مما دعى إدارة المرور إلى كتابة خطاب رسمي إلى التي ق تطلب إزالة القوس أو إبطال آلة العرض ، رد المدير قائلاً إنه حصل على تصريح خاص من إدارة الزينة والأقواس . وأن التجمهر يمكن فضه بواسطة قوى الأمن ، وبهذه المناسبة فإن ثمة موضوعاً يرغب في إثارته

---

مع المسؤولين .. في تلك الليلة التي سبقت افتتاح المهرجان حل مدير التي  
ق عدّة مذكريات من أصل وبضعة صور . بدأ سلسلة من الاتصالات .  
عرف فيها بعد أنه طلب تدعيم قوات الأمن الموجودة حول التي ق ، مع  
السماح لقوة أمن التي ق الخاصة بممارسة واجباتها في الشوارع المؤدية إليه  
إلى جانب عملها داخله ، خاصة وأن حادثاً وقع صباح اليوم أدى إلى  
ضرورة ذلك ، إذ عثر في شارع ضيق جانبي هادي « قريب من التي ق »  
على جثة فتى يرتدي جلباباً من الدبور ، نحيل الرقبة ، بارز عظام  
الرجحتين ، والضلوع ، يبدو أنه قادم من إحدى قرى الصعيد الأعلى ،  
وجد إلى جواره منديل به رغيف ذره وجبن قديم ، وبقايا بصلة خضراء ،  
وقليل من الملح المخلوط بالكمون ، وتذكرة أوتوبيس بقرش ، وفردة  
أستيك ، وعنوان مكتوب بالكتابية الباهتة على ورقة قبض عليها بيده  
اليمني ، بهت حروف الكلمات فلم يمكن الاستدلال على تفاصيلها ،  
حول ذراعه ربط منديل آخر به خمسة عشر قرشاً وحجاجب مثلث قديم «  
لا يرتدي أحذية ، أو ملابس صوفية ، أدى ذلك إلى تجمده بربما كأثبت  
الطيب ..

ماذا يصبح الموقف لو رأى أحد النزلاء تلك الجثة ؟

---

---

كيف يسرر التي ق أمام أعضاء المهرجان وجود الجثة لولحها  
بعضهم !!

١٩٧٦ اكتوبر ١

الزهور تتفتح

〈 ٥٦٩ 〉

---

---

بعد رحيل ماوتسى تونج بشهور ، مضى شاعر شاب جاء من الأقاليم الجنوبية إلى رئيس تحرير جريدة « الكفاح » الذى تصدر بعدة لغات تتحدث بها القوميات المتاخمة فى الصين ، قدم قصيدة فى رثاء الزعيم ماو . قرأها رئيس التحرير . ثم ابتسم ، قال انه يحيى وفاء الشاعر لزعيمه الخالد ، كما أن القصيدة تتم عن موهبة لا شك فيها . لكن ..

أصغرى الشاعر بأدب عاقدا ذراعيه أمام صدره ، قال رئيس التحرير ان المبالغة في التعبير عن الحزن تعطل الشعب عن أداء أعماله ، تعيشه في مناخ قاتم ، لهذا يتمنى لو خفف الشاعر قليلا من حدة حزنه المشروع في القصيدة . ولم تنشر القصيدة في أي جريدة أو مجلة أخرى ، منذ وقت ليس ببعيد كفت الصحف عن نشر المرانى والقصائد التى تمجد ماو ، آخر ما نشر في هذا المجال دعوة الكاتب الكبير « تنج بنج » إلى إشتراك الشعب في إقامة تمثال ضخم لماو فوق القاعدة الخالية بميدان « تيان آن مين » اقترح أن يصل طول التمثال إلى مائة وعشرين مترا بحيث يستطيع ركاب الطائرات الذين يعبرون سياء بكين أن يروا ذراع ماو تشير إليهم ، ودعا إلى جماعية الخلق ، بحيث لا ينفرد فنان واحد بعمله . اقترح جمع التبرعات حتى يشعر كل صيني أنه شارك في إقامته . على ما يذكر القراء فإن هذه

---

---

---

المقالة اختتمت بسلسلة من المرائي ، أما الاقتراح فبقي معلقا ، لا يطلع إلى سماء أو ينزل إلى أرض لم يدر أحدكم من الوقت مر عندما سرت إشاعة شاحبة حول مخطوط يتداول سرا ، يتناول ماو بهجة نقدية » وهذا ما لم يتصور إنسان حدوثه في يوم ما ، قال شبان شاركوا في الثورة الثقافية ان القوى المضادة بدأت التحرك ، ولا بد من اليقظة تجاه هذه الزنانير التي عشت طويلا ثم تخرج الآن لطن وتفزع ، وتحدثت صحف حائط عن الأفاعي التي باتت بيانا شتويا مدليدا ثم تفج الآن ..

في أحد الاجتماعات الخزينة بشنغنهاي وجه بعض الشباب سؤالا إلى كادر حزبي حول صحة ما يقال حول هذه المخطوطة ، قال الكادر إن الأمر تصضم أكثر مما يجب ، العصفور المزيل يظنه البعض نساجارحا ، والنعم الاهتمام بيرى البعض فيه أنينا وقواطع ، صمت لحظة ثم قال ، هناك فعلا مخطوطة متداولة منذ فترة » يقول كاتبها إن سحر الزعيم غير فوق عينيه ، هذا التفرد ألقى وعيه ظلا طوال السينين الماضية ، بعد الرحيل الأبدى زالت الغشاوة ، رأى ما يستحق النقد دون مذكرات خاصة عنوانها : « استرداد الوعي » ، سألت إحدى الفتيات « من هذا الكاتب ؟ لم يجب الكادر فورا ، إنما أجري اتصالا عاد بعده ليقول انه ، « تنج بنج » ..

---

---

تدفق غضب المجتمعين . أصغوا إلى ما لم يتوقع أحدهم سماعه يوما .

قال الكادر ان الصين راسخة كالجبل » وكتاب واحد لن يهز ربع سكان الكوكب ، لقد بلغوا سن الرشد الذى يسمح بظهور أي رأى ، وتفتح كل زهرة ، ورؤيه كل أشعة الشمس ، طلب منهم الرد على « نج بنج » ، خرج المجتمعون وفقل في دروب التفوس .

للحظ في الأيام التالية أن المقال الافتتاحي لجريدة الكفاح تضمن هجوما حادا على السياسة الزراعية ، في اليوم التالي نشر مقال بتوقيع « مراقب » جاء فيه : إن الجبل شامخ ، والرياح التي تهب لا تزيده إلا رسوخا وما من شيء فوق الجبل إلا الجبل نفسه .

أحيانا يتمرد . يطرد أعمى الصخور إلى الوادي ، قال ماو يوما لندع مائة زهرة تفتح ، وهو هو الأوان الحقيقى لفتح الأزهار . » .

إن العبارة الأخيرة قطعت الشك باليقين ، ثمة غبار يشار حول الرعيم ، غيوم رمادية فاتحة ، الخطى تضطرب ، والإيقاع يختل ، بعد وفاة ماو بدأت « الكفاح » تنشر حولها على هيئة غصى زيتون « مؤسس الصين الحديثة » ، ظن الجميع أن الصورة ستستمر إلى الأبد ، ولكنها اختفت ورحيل ماو لم يمض عليه إلا أربعة شهور ، في نفس الوقت طبع « استرداد

---

---

---

الوعي » بكميات كبيرة . هدد الشبان بحرق نسخه ، رفض باعة الصحف توزيعه ، قال أحدهم لراسل الوكالة الفرنسية :

« لقد علمت ماو ، أدخل ابنى الكلية العسكرية . وزاد جبات الأرض التي يأكلها أطفالى ، كيف أهابه بتوزيع هذا الكتاب ؟ » .

قيل للشبان ان التيار الكبير يتطلع خيوط الماء النجيلة ، والبحر يخفي عذوبة الأنهر ، ردوا على تنعج بنعج ، بعد أساسين ظهر كتاب الله البعض ، أطلقوا عليه « الوعي الضائع » ، جاءوا بفقرات عديدة مجد فيها ماو . لقد رسمت صور كاريكاتورية لبنج ، صور يمشي عاريا في الأسواق ، رسم على هيئة حرباء ، لكن ثمة مرارة ترسّبت في التفوس ، هل تخبيء لحظة من الزمان يضطر فيها البعض إلى الدفاع عن ماو ؟ كما أبدى البعض أسفًا على ما يصيب الإنسان من تغير وتدهور . يبدو أن رد الفعل بلغ من الحدة درجة أسلكت الأصوات التي حاولت مد مظلة النقد إلى شخص ماو . لكن الناس راحوا يرقبون بحذر ، ويفين خفى لديهم أن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، مع صنمت الصحف بدأوا يوصلون علة ظواهر كاختفاء صور ماو من مكاتب بعض الموظفين ، أصبح طبيعيا أن يسأل شخص ما ..

« هل رأيت صورة ماو عندما ذهبت لتقضى مصلحتك ؟ ... »

علقت المرأة في الأفواه « هذا سؤال لم يتصور إنسان نطقه يوماً . قال أحد عمال المناجم أنه برغم مضي شهور قليلة على رحيل ماو لكن عندما يذكر اسمه يخيل إليه إنه عاش في حقبة بعيدة .. بعيدة جداً . بعض المعمرين قالوا ان الأيام تأس بالعجب والحقيل لا يستمر أخضر أبداً ، البحار مختلف عمقها من موضع إلى آخر ، والعلم الحديث يقول أن القارات الخمس تتحرك من أماكنها ، كما ان الماء لم يوجد على حاله واحدة ، هناك ماء البحر ، وماء التبر ، والماء الأسن ، والماء الراكد ، والماء الحارى ، والماء المتساقط مطرًا ، وهكذا حال الزمن ، لقد لا حظ الناس عدم إذاعة صور ما في التليفزيون وانخفاض صوته من الإذاعة ، أصبح العثور على اسطوانة تحمل إحدى خطبه كالعثور على زهرة الصقبح ، كما قل المعروض من الكتاب الأخر ، وظهرت دعوى تقول بإباحة الفرصة للأفكار الجديدة » كما لاحظ القرؤيون أن الحراسة على الأماكن التاريخية التي عاش فيها الزعيم قد خفضت ثم اختفت « أصبح أي إنسان يمكنه الدخول إليها ، كما أن الوارد الأجنبي لم تعد ثات لانخفاض الأماكن من برامج زيارتها ، ومع ضياع بعض الأدوات التي استخدمنها ماو من هذه الأماكن قيل ان القرؤين شكلوا حرساً ذاتياً منهم يبقى طوال الليل إلى جوار المسakens والمكاتب والأكواخ والواقع والخنادق التي عاش بها ماو ، ويدفعون للصوص الذين بدأوا يظهرون أخيراً في الريف الصيني ..

وأنخفق الجميع أسي ، هل جاء الزمن الذى يضطرون فيه إلى حماية بقىابا ماو بأنفسهم ، هل حل الوقت الذى يستشكون فيه رائحة صورة ملاو ، أو كلمة بصوته ؟

مع حصاد محصول القمح بدأ زيد الموجة التالية للهجوم على مأوى في  
مقال افتتاحي نشر بجريدة «الكافح» قيل أن الثورة الثقافية بدت  
ضرورية وقت حلولها لتجديد شباب البلاد ، ولكن ثمة تجاوزات  
وقدت ، وستنشر تحقيقات يومية حول هذه التجاوزات ..

أدى المقال إلى ظهور ملصقات جدارية تهاجم الاتجاهات الرجعية التي تسبر حماولة تشویه الثورة ، غير أن جمع البلديات أصدر أمراً يمنع الكتابة على الجدران ، لابد من المحافظة على نظافة الجدران ، حرصاً على رونق المدينة في عيون الأجانب ..

فِي الْيَوْمِ الثَّانِي نَشَرَ أُولُو تَحْقِيقَاتِ الْكَفَاحِ عَنِ السِّجْنِ الْجَمَاعِيَّةِ الَّتِي أَقِيمَتْ لِلْمُعَارِضِينَ فِي زَمْنِ الْفَتَرَةِ التَّقَافِيَّةِ الْأُولَى ، نَشَرَتْ صُورَ لِزَنَازِينَ لَا تَنْسَعُ إِلَّا لِعَشْرَةِ أَفْرَادٍ وَضَعَ بِهَا الْمَثَاثِلَ لِمَ يَكُنُوهُمُ النَّوْمُ إِلَّا بِالْتَّابُورِ بِحِيثِ يَقْفَ الْبَعْضُ وَيَنْتَامُ الْآخَرُونَ ۔ نَشَرَتْ صُورَةً لِعَجْزِ صَيْفِي وَتَحْتَهَا تَعْلِيَقٌ « أَصِيبُ بِالْأَرْقِ لِعدْمِ ثِكَرِهِ مِنِ النَّوْمِ » ، صُورَةً لِرَجُلِ آخَرِ شَمَرٍ عَنِ سَاقِهِ وَتَحْتَهَا :

---

---

« سلخوا جلد ساقه بعد أن رفض الكلام »

وصورة رجل آخر قصير بدين .

« بصفوا في وجهه . وصفعوه على قفاه »

رجل آخر متوسط العمر :

« أحرقوا حيته ، وشلوا من عضوه . . . . »

لم تسكت جريدة الشعب الرسمية ، هاجت هذه الحملات الصحفية ، قالت ان الرجعيين لو تمكنوا من البلاد للبحوا ملايين الرؤوس ، وللثورة الثقافية انجازات يجب أن تذكر .

غير أن الفلاحين في المناطق النائية والقريبة تأملوا ما يكتب ، ثم همس بعضهم ، هذه أدوار موزعة ، وتساءل البعض ، لا يمكن منع « الكفاح » من نشر هذه التحقيقات ؟ وقال البعض إن هذا يمكن بالتليفون ، ورفع المسؤولون شعار أن الصين راسخة وقوية ولن تهزها الحملات أو الشائعات وذكري ما وفى القلوب ، رد الشباب في التجمعات والمؤتمرات طبعوا المنشورات ، أبدى بعضهم ألا « هاهم يعيشون الزمن الأسود الذي تلوث فيه ذكري ماو . . قال البعض ، ليقدموا ما شاعوا لكن هناك أمرين لا يمكن أن يمس فيها ماو ، هما المال والنساء .

---

---

---

في الأيام التالية توقفت جريدة الأنبياء وجريدة الكفاح ، ونشرت جريدة الشعب صورة كبيرة لماو - لأول مرة منذ مدة - وتحتها تعليق «لتتخذ القدوة والمثل منه» . لكن الرثيّة لم تفارق القلوب ، وتساءل البعض ، ترى ماذا يدبر هذا الزمن الذي قدر لنا أن نعيش ماو؟

بعد أربعة أيام أعلنت صحيفة إقليمية في إقليم الغرب عن مفاجأة مذهلة ، نشرت صورة امرأة تجاوزت الأربعين » أجرت الصحيفة حديثا مطولا معها » قالت إن ماو تعرف إليها بعد وصول الشيوعيين إلى السلطة عام ١٩٤٩ ، أحبتها وأحبته ، ثم عاشرها كالأزواج » وأنجب منها ثلاثة أطفال ، وقالت انه كان يهوى الفتيات الصغيرات ، ولديها رسائل بخطه ثبت كل شيء ، إنها لا تطلب إلا أمرا واحدا هو إثبات نسب هؤلاء الأطفال إلى والدهم العظيم وأعلنت أنها ستسليم إلى السلطات مليون دولار احتجزها ماو لنفسه من أموال الثورة أثناء المسيرة الكبرى ، وأعطاهما لها لتنفق منها على الأولاد ، ولكن ضميرها يؤنبها ...

تناقلت الوكالات الخبر ، كتبت تعليقات عديدة أذيعت من كافة الإذاعات ، وأحرق أحد الشباب الذين ولدوا عام ١٩٤٩ نفسه احتجاجا على تلویث ماو » وأكد رفاق ماو أنه لم يعرف هذه المرأة ولم يعش إلى هذه البلدة ، أما المليون دولار فامر لا يستحق الرد ، وشكك أحدهم في وجود المرأة نفسها .

---

---

وقال شاعر شاب قصيدة مطلعها :

أنهى إلى ذلك الزمان أهله . . . .

وفي الريف بدا الفلاحون وكأنهم لا يصنفون إلى ضجيج المدن  
الصغيرة والكبيرة ، رحلوا فرادى وجماعات لزيارة قبر ماو ، وذات يوم  
تعطلت سيارة تقل أحد الصحفيين الأجانب في منطقة تقع بأقصى الجنوب  
الشاسع . وقف بعض الأطفال يرقبون بعيون ضيقية ودهشة ، بدا غريبا  
بحجمه الكبير ، ولون بشرته الأبيض ، دعاهم العجوز إلى دخول بيته ، تلفت  
المرافق إلى ظماً الضيف الأجنبي ، دعاهم العجوز إلى إحناء رأسه ، جلس  
 فوق دكة من الطين تعلو فرنا باردا ، أبدى رغبة في غسل وجهه ، دعاه  
العجز إلى الداخل . قبل أن تقع عيناً الضيف على الوعاء الفخاري  
القديم للماء ، حانت منه التفاتة إلى حجرة داخلية ، إن ثمة ضوءاً ينبعث  
من شمعة غليظة يلمس صورة متوسطة لماو ، إحدى صوره الملقطة في  
الأربعينيات أو الثلاثينيات ، يبدو مبتسمًا ، مرتدية خوذة قتال ، عيناه  
متطلعتان إلى بعيد ، وكأنهما ترقبان من زمن آت . . .

أكتوبر ١٩٧٦

في الخط

〈 ٥٧٩ 〉

---

---

عقد الاجتماع في القاعة الرئيسية ، بعد التصفيق الحاد ، وحرص كل شخص على الوقوف في موضع بحيث يمكن أن يرى بوضوح لسيادته ، ثم تقدم أحد العاملين بإدارة الميزانية وهتف ثلاث مرات بحياة الخط ، وقف رئيس مجلس الادارة فشكر أبناء المؤسسة وأثنى عليهم ، قال إن القضية ستنتظر بعد أسبوع ، وأن ابداء الآراء سيتم في حرية تامة ، من الضروري أن تضرب المؤسسة مثلاً في تمسكها بالخط ، بحيث تفرض احترامها على المستشارين ، وأعضاء لجان تقنين المعان ، وخبراء الحشيات .

أطرق مقدار لحظة ، ثم قال إن خط المؤسسة واضح وصريح ومتين . وإنه ملتزم بالخط في أدق تفاصيل حياته ، ولعل البعض رأى مكتبه بعد إعادة تنسيقه وفقاً للخط ، ولكنه يرى من واجبه تحذير العاملين من بعض الذين قد يتصلون بهم من خارج المؤسسة ومحاولون تشكيكهم .

وهنا حرص البعض على كتابة هذه الملاحظة مع أنه يمكن تذكرها بسهولة ، كما بذل آخرون جهداً للمبالغة في إظهار الامتعاض على وجوههم كل الشفاه أو مطها . وإصدار أصوات الاحتجاج ، أو التراجع

---

---

---

بالرأس احتجاجاً ، أمّا معقول .. هل يمكن لقوة في العالم أن تؤثر على أحدهم ..

بعد انتهاء الكلمة خرج رئيس مجلس الإدارة يتبعه (س) . إن نجم (س) يتألق في مثل هذه الظروف لقدرته على متابعة التزام العاملين ، في المرات التي اقترح رئيس القسم الداخلي إرسال برقية إلى مجلس الإدارة ، وهنا قال (ى) لنفسه ، ما الداعي إلى إرسال برقية والطابق المخصص لمجلس الإدارة على بعد درجات قليلة في نفس المبنى ، إن المسافة حتى مكتب التلفراف بعيدة جداً ، مع ذلك لو طلب منه التوقيع على البرقية لن يرفض ، ربما ظنوه خارجاً ..

في نفس اللحظة التقى (س) بالسيدة (ك) وسألها ضاحكاً عن ذهابها إلى كواifer غير ملتزم . أبدت ازعاجها ، وقالت إن هذه الوشایات الرخيصة ضدها لن تهدأ - إن زوجها يحتل منصباً حساساً ، وهذا يتطلب منها حساساً غير عادي . وهنا تقدم (ى) بخطواته المداثة ، رفع إصبعه مستأذناً ، تسأله عن عنوان الكواifer المناسب حتى يسمع لزوجته وابنته بالذهاب إليه ، قال (س) بدون النظر إلى (ى) إن العنوان سيعمل بلوحة الإعلانات غداً في المدخل الرئيسي ، انحنى (ى) وانسحب بعيداً .

---

في اليوم نفسه رصد عامل التحويلة عددة مكالمات اشتبه في عدم التزامها بالخط ، قام العامل بإبلاغ نصوصها إلى (س) . كما قدم تقريراً عن العاملين الذين تحدثوا وذكر الخط صراحة في مكالماتهم وأعلنوا إلتزامهم به ، كما قدم تقريراً عن مدى حماس كل منهم عند ذكر أي كلمات تتعلق بالخط . قال ان التليفون مرشح جيد للأصوات ويكشف أي مهتر أو خائن ، كما اتصل معهدي البوفيه بالسيد (س) وأخبره بالتزامه فيما يقدم من مشروبات إلى العاملين . قال انه طلب من شركة الحزف المتحدة تصميم فناجين وطبقات تحمل كل منها مقططفات مؤيدة ، وترددت أخبار وأقاويل عما سيتحقق للمخلصين بعد نظر القضية ، ستنظم الرحلات إلى الخارج . ستوزع الدوافع المذبحة أسبوعياً بالأسعار الرسمية ، كذلك الكبد والقوانين ، والأسماك من جميع الأنواع الاستهلاكية . وسيشهد جراج فسيح فوق قطعة الأرض الفضاء ، وستذاع أسماء الملتزمين في برنامج ما يطلبه المستمعون ، وسيتم تخصيص باب جانبي للدخولهم إلى حدائق الحيوانات في الأعياد والمواسم ، كما سيبيع إليهم الخيار والملوخية الخضراء عند أول ظهورها بنفس السعر الذي يباعان به في نهاية الموسم .

في الثانية حدث ما عكر (س) أخبره رئيس مجلس الادارة أن أمراً مزعجاً حدث ، خرج (ى) عن الخط ، وقف على ناصية شارع فرعى قريب ومخاطب أحد إعلانات السينما قائلاً انه من المصلحة ارتفاع صوت مغایر

---

---

عند نظر القضية ، قال سعادته إن كل التقارير تؤكد إخلاص (ى) والتزامه منذ إنشاء المؤسسة ، كما إنه كان يقع شهرياً في كشف المرتبات مؤيداً ، يجب كشف حقيقة ما جرى ، هل تعرض (ى) لمؤثرات صادرة عن قلة منحرفة ؟ طالب سعادته بالتزام الخبر ، وسرعة معالجة الموقف ، وعلى الرغم من تكتم النبا إلا أنه عرف بين العاملين ..

قالت السيدة (ك) لزميلتها إن زوجها من خلال عمله الحساس يكتنه معرفة ما يدور في المؤسسة ، أخبرها أن البعض يطن ما لا يظهر ، وإن اجتماعاً جرى ليلة أمس في بيت رئيس مجلس الإدارة ضم رؤساء الأقسام ، والأمناء ، وأقسموا على الوقوف يداً واحدة ..

أبدى (ى) دهشة ، كيف يمكن اعتباره خارجاً ؟ لقد خدم المؤسسة سنوات طويلة ، ولو طلب الآن إحالته إلى المعاش لتغاضي مستحقاته كاملة ، ثم أنه يربى ولدًا ويتنا ، من أجلهما لا يؤمّن إلا بما تجمع عليه الأغلبية ، كما أنه ألحقهما بمدرسة يتم فيها تشريحها لللخط ، بعد حوار قصير أبدى (س) الرضا ، قال أين (ى) ابن حقيقي للمؤسسة ، هنا وقف (ى) أعلن أنه على استعداد لتوقيع إقرار كتابي من أصل وصوريتين يثبت إيمانه ، وعلى استعداد لتوقيع إقرار كتابي من أصل وصوريتين يثبت إيمانه ، على استعداد لاقتراض مبلغ من مرتبه لينشر في الصحف إعلاناً أو تهنتة ، مد

---

---

(س) يده مهنتا مصافحا ، سيعمل كل كلمة ، سيعمل من جانبه على إزالة سوء الفهم ، ولا شك أن هذا الموقف سيصبح عمل اعتبار عند نظر العلاوات الاختيارية التي يمنحها سعادته بعيداً عن اللائحة » أكد (ى) أنه لا يمكن أن يفكر أبداً في تعطيل المسيرة » انصرف (ى) نظر إليه البعض « كيف يخرج إنسان مثلهم عن الخط ؟ كيف يعرض نفسه لاحتمال الفصل ؟ لعدم صعوده إلى الخزانة أول كل شهر ، ألا يفكر في أولاده ؟ لماذا تزوج وربط إليه مصير إحدى بنات الناس » كيف فكر في الزواج من ينوى الخروج عن الخط ؟ وإذا حدث وقبلته إحدى المختلات فكيف أنجبا ؟ هل ينجب من يخرج عن الخط ؟ عجيب والله ।

في اليوم التالي ارتجف (س) حنقاً وغيطاً بعد قيامه بال تمام اليومي للتأكد من التزام العاملين ، جاء (ى) في ساعة مبكرة ، بدا متربحاً لا يقدر على الوقوف تحدث إلى عمال النظافة الذين يغسلون سلام المؤسسة بالصابون وينفضون الغبار عن المكاتب .

قال إنهم سيفهمون » سيفهمون إليه لأن كل منهم يطعن غير ما يعلن ، وهو أيضاً جبان ، « نعم .. أنا جبان .. بالأمس أرسلت برقية لا أعني ما قلته بها » إن كل ما يمرى بيمين عليه ، مقزز ، منفر ، إنه يفكر

---

في المиграة ، لقد خطأ في سبيل ذلك خطوة عملية ، اشتري استثمارات استخراج جواز السفر في غفلة من الأعين ، دس يده في جيبي الآمين ١ أطرق ، فتش جيبي الآيسر ، مط شفتيه ، قال انه سيبوح بالحقيقة ، لم يشر الاستثمارات ، خاف ، لكن لم يحزنه ، ما يفكرون في الخروج ، لم يفكر في مفارقة هذه البلاد الغالية عليه مثل الولد ، قضى عمره في الحى القديم ، يتغذى وينمو من هوائه ، وترابه ويتشنى عند مفارق طرقاته ، ويأنس إلى مقاهيه ، وتنكى ذكريات عمره على شرفات بيته ، لكنه يضيق الأن ، لماذا يجبرونه ؟ لماذا يضغطون على عنقه ؟ لماذا يهددون كمية الهواء المتدقق إلى رئتيه والدم الذى يضخه قلبه ؟ لماذا لا يقول رأيه منفردا عند نظر القضية ؟ بدا حزينا ، منكسرًا ، مضى متزنحا إلى مكتبة ، عقد يديه فوق اللوح الزجاجي ، راح في نوم لم يوقظه منه إلا زميله ، تلفت حوله ، خجلًا بينها المرئيات تهتز وتختلط ، دخل دورة المياه المخصصة للرجال ، غسل وجهه ، جففه بمنديله ، عاد مبتسمًا ، تسأله — « ما أخبار الخط » ؟

ضاق صدر (س) . الأمر خطير ، رأيا تضمن ملعوبا خفياً أعلمه الخارجون ، ربما عبثوا بعقل (ى) ، ربما غسلوا منه في الليل ، أرجأ أمر (ى) حتى متتصف التهار ، بعد نصف ساعة تثارت إشاعات عديدة ، بصيغ مختلفة ، قيل إن (ى) فاسق عجوز ، اغتصب في شبابه فتاة يتيمة ،

---

---

وأنه ابن عائلة فقيرة ، أبوه عمل في تسلیک مجازی العاصمه ، كما أنه عمل في صباح مبیضا للنحاس قبل انتشار الالومنيوم وانقراض هذه المنهة ، إنه يضرب أمرأته ، كما شوهدت ابنته تتحدث إلى باائع بمكتبة تبيع المجالات الأجنبية ..

قال (س) ..  
إنك في موقف لا تخسد عليه ..

ارتعد (ي) بأسره ، قال انه سيرد على من يدسون له ، أنه قادر على منازلتهم والتصدى لهم ، سيتخذ عدة اجراءات علنية أولية تثبت إخلاصه ، سيطبع بطاقات خاصة ، سيكتب تحت اسمه عباره « مؤمن بالخط » ، كما سيضيفها إلى اللافته الخشبية البيضاوية المعلقة إلى باب بيته ، سيكتب على جدران المدينة « عاش الخط » ، سيحد من استهلاك المياه طبقاً لآخر التوجهات .

غير أن رئيس مجلس الادارة لم يقتعن ، اتهم (س) بعجزه عن جمع المعلومات ، لقد حدث تطور لم يلحظه قسم متابعة العاملين ، بدأ (ي) العاقل ، المترن ، التردد على مجال شرب الكيف ، في الأسبوع الأخير بدأ يشرب في البيت قبيل شروق الشمس ، قبل تغير طعم ريقه ، وعندما يبدأ مغيب وعيه ، يخرج البطاقة التي صرفت له أخيراً والدالة على التزامه ،

---

يضعها أمامه ويدأ لفظ كلمات السباب ، وليلة أول أمس وقف أمام التمثال التاريخي بالميدان الرئيسي ، وقال بصوت عال إنه لم يذق الخمر أبدا ، لكنه اضطر بسبب هذا الخط اللعين ، ثم خفض صوته وقال باكيا في محاولة مكشوفة لاستدار العطف ، تساءل — هل يدرى الناس كم مرة ردد عبارات التأييد ؟ كم مرة حفظ فيها مقالات الصحف المؤيدة ، ودرءا لأى شبّهات ، كم توقيع خطه على لافتة تحمل عبارات من الخط ، كم مرة حرص على إبراز تعبيرات وجهه الموالية في أحديثه إلى العاملين من زملائه ليثبت ولويشيع عنه أنه أكثر إخلاصا ، سكت ثم زعن بأنه لن يقبل التعامل مع المتاجر التي حددتها الخط ، ولن يرتدى الأزياء المطابقة للخط .

قال سيادته ، لابد من إحكام الرقابة على (ى) وإلا حدثت فضيحة يوم نظر القضية ..

اقتراح (من) إرهاق (ى) بمزيد من الأعمال الإضافية حق لا يجد الوقت الكافي للشرب ، لكن سيادته استبعد ذلك ، ربما جأ إلى الشرب في المؤسسة ، كما لا يمكنه الغاء تغيير النظم خاصة وأن المؤسسة تفخر بالغاء نظام التوقيع لاثبات الحضور والانصراف ، اقترح إيفاد (ى) إلى إحدى المحافظات النائية في مهمة ، اعتراض سيادته ، ربما فقد وعيه ، عندئذ يصطاده أحد مندوبي الوكالات الأجنبية الاخبارية الذين يتذدون على تلك المحافظات لزيارة الآثار .

اقتراح (س) تلقيق تهمة ، كدس قطعة مخدرات في مكتبه .

قال سعادته إن تلك الاساليب البالية استخدمت في السبعينات .

أطرق ، ثم راح ، وجاء ، قال انه من الهم إحكام الرقابة عليه خاصة يوم نظر القضية ، وإرهابه في الأيام السابقة على ذلك ، إنه حل صعب لكنه الممكن الآن ، وبعد نظر القضية ستتخذ الاجراءات المناسبة ..

في الصباح التالي تبأت السيدة (ك) بآن خطوات حاسمة ستم تجاه من يشتبه في عدم إخلاصهم التام ، علم زوجها بذلك من خلال موقعها المساس .

عند الانصراف نزل (ى) السلم متزنا ، متمهلا ، عد الدرجات التي تصل الطابق الثاني بالطابق الثالث ، قال لنفسه ، الا توجد حياة غير الحياة ؟ أهذا هو الشكل الوحيد المتاح ؟ . توقف عند الباب ليفسح الطريق أمام السيدة (ك) ، أو مات إليه بخير ، أسرعت غير أنه مشى حاذيا لها ، وقال إن العقاب يجب أن يجل ... ، تساءلت (ك) بدهشة ، ضد من ؟ قال ، ضد المخالفين طبعا ... ، أخذت دهشة لأنها سمعت بوقوفه في أحد الميادين ضاحكا وباكيًا ثم صاثحا يلعن الخط . استمر (ى) في سيره حتى التقى برئيس قسم الاستماع فوق رصيف المترو ، قال انه سيسيع من خلال أصدقائه الفنانين الذين يعرفهم من المقهى إلى تأليف أغنية . وطبع

كتب يضم لوحات مؤيدة ، في المترو التقى برئيس شئون العاملين « طلب منه ايفادا » لو أرسل برقية يستنكر فيها أي تشكيك ، هل سيضم إلى ملف خدمته الرسمي ؟ ثم أبدى ضحكة حاول تثبيتها إلى وجهه أطول مدة ممكنة ليرى محدثه افتقاعه ، في المساء نزل متديلا ملابسه الكاملة ، اتصل تليفونيا بمنزل (س) اقترح عليه جمع مبلغ صغير من كل فرد لإقامة حفل شاي يعبر عن وحدة العاملين وعدم خروج أحدهم من الخظيرة التي تضم الكل ، شكره (س) على هذه الروح ، طلب منه الحضور غدا في وقت مبكر لتتكليفه بمهام خاصة تسبيق الاجتماع المقرر عقده أثناء وقوف (ي) حرص على الحديث بصوت مرتفع ليسمعه الواقعون حوله في انتظار انتهاءه من المكالمة ليتحدثوا في التليفون ، ربما أصفعى إليه أحدهم عمدا لينقل عنه ، وعند النهاية داهمه حزن ، وتساءل بأسى ، أين البهجة ؟ ألا يمكن له أن « يمشي ، يمشي وتتغير المرئيات باستمرار ، لا تقع العين على شيء واحد مرتين ؟ يضحك متى جاءته الرغبة في الضحك ، ويقول ما يخطر له من كلمات ، بدون أن يقصد إرضاء محدثه ، أو الحرص على توصيل معنى ، ألا يمكن أن يتوقف عندما يرغب ، ويجلس عندما يشعر بالرغبة في الجلوس ، طافت عيناه بالفترارين المضاء بوهن ، وزحام المارة فوق الرصيف ، حركة السيقان الآلية التي تدفع بالأجسام إلى الأمام ، ألا يمكن استبدال الحركة إلى الوراء بدون أن يحيط الدوار ، فوق المدينة خيمت

---

---

العتمة ، لماذا تبدو السماء سوداء في الليل ؟ توقف ، نظر حوله ، ثم خلفه ، أين توارت البهجة ؟ ..

في الصباح التالي جرى الإعداد للجتماع بعنایة . تم تجميع عدد من المقاعد يوازي العاملين ، جرى التصفيق وفقا للاصول المرعية . قام سعادته ، في البداية تقدم على مرأى من العاملين كلهم ، قام باخاد بعض الاشاعات التي ترددت ، أخفى (س) فلقا ، لم يظهر (ى) حتى الان ، أبلغ الحرس بضرورة احتجازه إذا ظهر في حالة سيئة .

أكذ سعادته سلامه الخط ، يسره التكافف الواضح ، قال إن إجراءات حازمة ستتخذ حتى لا يتخلل أحد العاملين عن الحضور ، تم تقسيم المدينة إلى دوائر ومربيات ، ستمر السيارات على العاملين ، عمال التحويلة سيوقظون من لديهم تليفونات مع أول ضوء ، من لا يمتلكون تليفونات سيدذهب إليهم النوبتجية ، أعلن أن عددا من العاملين الأصلين المعارضين إلى البلاد المجاورة أرسلوا برقيات يعلنون تأييدهم ، كما أن بعضهم سيصل الليلة لحضور نظر القضية وهكذا يقف الجميع يدا واحدة ، لا يشد منهم أحد .

في هذه اللحظة تقدم أحد السعاة من (س) ، مال هاما ، عضن (س) شفته السفل ، أهذا ما حدث إذن ؟ ..

---

---

---

خرج (ى) صباح اليوم من باب بيته منحنياً ، يكاد رأسه أن يلامس الأرض ، نزل من فرق الرصيف إلى الطريق ، حوله صباح رمادي مشبع بدخان سيارات ، وضباب مجهول المصدر وضجيج ، أطل سائق نقل لف رأسه بقطاء من الصوف ، سب بصوت عالٍ ، اضطر إلى التوقف فجأة ، بدا (ى) غير مصنوع ، استمر في رسم خط أبيض واضح فوق الأرض مستعملاً قطعة ضخمة من الطباشير ويدخل حلقة غصة وعلى مشارف عينيه دموع ، ألقى سيدة من نافذة سيارتها منديلاً ورقياً تخطت فيه ، صاحت غاضبة ، أصوات احتجاج ، اضطرب المرور ، فقه شبان يتعلقون بسلم أتوبيس ، اتسعت عيون من الدهشة ، استقام (ى) واقفاً ، على مهل رفع ساقه اليمنى ، بحذر أثزّها حتى لا مس طرف قدمه الخط الأبيض ، رفع اليسرى ارتجفت قليلاً قبل أن تلامس الأرض ، بدا وكأنه يمشي فوق حبل معلق ، توقف لحظة ليحفظ توازنه وحق لا يجيد ، شفاته منفرجةتان وعيناه معلقتان إلى الفراغ الرمادي . . .

أبريل ١٩٧٧

الثلاثون .. من فبراير

〈 ٥٩٣ 〉

جمال النبطان

---

---

### حوار - ١

امرأتان ، تقفان فوق سطح أحد البيوت بالحي القديم ، الأولى بدينة قصيرة تقوم بجمع الغسيل ، والثانية بدينة طويلة تحمل طفلها فوق ذراعها ، صعدت به إلى السطح لترضيه للهواء بعد أن ذبلت عيناه وجف عوده في المندرة المظلمة تحت السلم .. قالت المرأة الثانية ..

— يقولون إنهم سيجعلون تذكرة الأوتوبوس بتعريفة ..

قالت الأولى :

— ربنا يصلح الأحوال ..

قالت الثانية :

— أكد لي زوجي بعد أن سمع نشرة الأخبار عند الحلاق أنهم سيصرفون الدواء مجانا ..

تهجدت المرأة الأولى :

— ربنا يصلح الأحوال ..

---

---

## حوار - ٢ -

في نقابة المدافعين عن الحقوق الإنسانية ، دخل إلى الغرفة عضو مجلس الإدارة التحيل ، حمل معطفه ، فوق ذراعه ، يمسك بين أصابعه سيجاراً ضخماً ، صاح المجتمعون انهم بحثوا عنه ثلاثة ساعات . قال بهدوء :

إخوان ، يجب أن نرفع برقية تأييد الآن ..

ساد صمت ، فكر شاب من الحاضرين ، ما دام اقترح ذلك فلا بد أن الأمور استتب ..

### منظر

مدخل المدينة الرئيسى ، طابور من عربات النقل الضخمة ، تحمل كل منها عشرات الأشخاص ، تم حشدهم عندما دقت الثانية ظهراً بعد أن خطب فيهم المديرون ، وتم توزيع ثلاث ساندوتشات على كل منهم ، جبن أبيض ، وجبن رومى ، ومبلاط خمسة وعشرين قرشاً لكل منهم كمحضروف جيب ، في الطريق ظهرت لافتات من القماش ، وسعف تخيل ، ودقates طبول ، وزغاريد نسائية ، ورقص البعض ..

- بالروح .. بالدم .. تفديك يا فبراير ..

---

---

جزء من مقال افتتاحي :

هكذا كان من المحتم أن يظهر الثلاثون من فبراير إلى مسرح تاريخنا المعاصر ، لقد جاء لتبدأ المسيرة ، ولتحقق المكاسب ، إن روح الثلاثين من فبراير يجب أن تسود كل الواقع . . . .

قرار :

نهى إلى جاهير أمتنا العظيمة ما يلي :

تقرر اعتبار الثلاثين من فبراير يوم أجازة رسمية .

برقية :

العاملون بالدوائر الثابتة يحيون الخطوة المباركة بجعل يوم الثلاثين من فبراير إجازة رسمية .

تعديل :

في القاعة الملحة بالكتاب الرئيسى ، قال رئيس الشبراء . . .

– قبل بدء المناقشة اقترح ارسال برقية نعلن فيها وقوفنا صفا واحدا ..

صدق الحاضرون علامه المواقفة الجماعية . . ثم تحدث أستاذ التاريخ الحى ..

---

---

— آن الأوان لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي قد تضر بالجيل الجديد ، لا شك أننا نتفق على وجود جذور الثلاثين من فبراير في تاريخ أمتنا . ربما يسألني البعض ، ماذا تقصد ؟ أقول ببساطة إن هذا التاريخ المجيد يجسد روح شعبنا الأصيلة الموجلة في أعماق التاريخ . إذن يجب أن يتضح هذا التاريخ العظيم في كل مراحلنا حتى تلك السابقة عليه ، نعم .. يجب تعديل كل ما دون من قبل .

برق الزجاج الذي يغطي منضدة الاجتماع عندما أضيئت المصايب  
المثبتة في الزوايا ، دون البعض ملاحظات قصيرة ، أو مـًا استاذ أصلع  
يرتدى نظارة طبية إطاراتها من المعدن الأبيض التحيل ، قال ..  
إن المهام الملقاة على عاتقنا أكثر من أن نتصورها ..

صحح رئيس اللجنة العبارة قائلا ..

— أثقل يا سيدى .. أثقل ..

حديث في الصفحة الأدبية :

« .. يتساءل القراء ، أين أدب الثلاثين من فبراير ؟ أجاب أديب  
العاصمة الأول : »

---

---

---

— لا شك أن ما جرى ستكون له آثار بعيدة المدى ، لكن الأدب  
يستوعب الأحداث على مهل .

أما أديب المحافظات الشمالية المعتمدة فقد أجاب :

— إن هذا الأدب سيظهر من هنا ، لعمق التحولات التي سيبدو وأثرها  
بلا شك خلال الفترة المقبلة ..

غير أن وزير الشؤون التموينية الثقافية قال ..

— إن كتابنا لا يواكبون المسيرة ، إنهم أسرى أبراجهم العاجية ، إن  
ما عرف عنى عدم كتابة القصة أو الدعاية ، لكن ما جرى ، في فبراير فجر  
لدى ينابيع الخلق ، أعلن أنني سأنتهي من كتابة أول ثلاثة تجسد روح  
الثلاثين من فبراير .

خبر أدب :

صرح وكيل أول وزارة الشؤون التموينية الثقافية أنه انتهى فعلاً من  
كتابه رواية ثنائية « من جزئين ». كذلك علم مندوبياً الثقافي أن مدير  
التقنيات الفنية انتهى من كتابة رواية تقع في جزء واحد وتتناول الظروف  
السيئة التي عانى منها شعبنا قبل بدء المسيرة ..

---

---

---

### رسائل القراء :

« لماذا لا نغير اسم العاصمة ، ونطلق عليها الثلاثين من فبراير ؟ »

« عبدة اليماني »

يجب اقصاءعارضين سرا للثلاثين من فبراير . ثم تحريسهم علينا في  
الشوارع .

« محمود القطران »

« المتآمرون يعيشون في الظلم ، انتبهوا » .

« فتحى القاونجي »

« أنجبنا ابنا ، أسميتها ( الثلاثين من فبراير ) ، وطفلنا أطلقت عليها  
( مسيرة ) . . . »

« الصاوي با عيسى »

### إعتقال :

في الفجر اندرق الدم بسرعة من قلب المواطن جلال الرويس وسرى  
في عاصمه الفقرى ساخنا ؟ من عبر الغرفة إلى الصالة حانيا ، خلفه زوجته  
منفوشه الشعر ، ترتدى قميص نومها القصير . .

---

---

— افتح باسم الثلاثين من فبراير ..

اندفع المخبرون الثلاثة ، وقف الضابط شاهراً مسدسه ، بكت الزوجة ، قالت عندما ألقى المخبرون بمجموعة من الروايات الأدبية تحت قدمي الضابط ..

— إن زوجي من المخلصين للثلاثين من فبراير ..

جزء من الجريدة الناطقة :

المنظر : ماكينات نسيج ، عامل يراقب الخيوط التي تهتز برتابة ، يمد يده ، ليعدل وضع المكوك .

صوت من خارج الكادر : وبعد الثلاثين من فبراير قلت نسبة الاخطاء في النسيج ..

تصريح لرئيس شركة المعلمات :

« أمكن إنتاج وجبة غذائية جاهزة بفضل الروح الخلقة للثلاثين من فبراير ، تحتوى العلبة الواحدة على مائتين وخمسين جراما من اللحم ، وثلاثمائة جرام خضراوات مشكل .. »

---

---

---

بيان هام :

» .. منذ بدء المسيرة والقوى المعادية تحيك المؤامرات ، استطاعت النفاذ إلى بعض ذوى التفوس الضعيفة ، لقد تم كشفهم وتطهير الصحف من الزمرة المتآمرة » .

صورة بتها وكالة الأنباء :

« الصورة ملتقطة من أعلى مبنى بالميدان الرئيسي ، آلاف الرؤوس الصغيرة ، أيدي تلوح ، أعلام ، لافتات ، تعليق : الجماهير تدين الزمرة العميلة » ..

إعلان :

« العاملون بشركة التنمية يقفون وراء القيادة المخلصة ، ويهشون بالقضاء على الزمرة » .

بيان هام :

يا جماهير أمتنا العظيمة ، ما أحبل وحدة الصف ، ما أعظم التسامح ، إن المساح كريم ذاتها ، إن الزمرة لم تعد متآمرة ، لقد عادت إلى الخزيرية ..

---

---

---

### مشهد انتخابي :

بعد بدء الاجتماع ، واتكمال النصاب القانوني لأعضاء النقابة المهنية ، وقف أحد الأعضاء ، يرتدي حلقة كاملة ، ييدو وأضاحا رثاثة قميصه من الخيط الرمادي المحاذى لحافة اليافة والذي تكون نتيجة للعرق المستمر واختلاطه بندرات غبار ناعمة تلتصق بالبشرة التي بدت غامقة عند الرقبة ، وقف منفرج الساقين ، اتسعت عيناه ، أشار إلى أربعة يجلسون في الصف الثالث ، زأر صارخا ..

— اكتشفوهم .. اتخذوا ضدهم الاجراءات .. أرادوا أن يؤثروا على .. برقـت عيناه ، دار حوله بنظراته ، ارتفع كتفه الأيمن أثناء الحديث ثم انخفض ليترفع كتفه الأيسر ..  
أرادوا تشكيكى ..

### سطر من تذكرة سينما :

تضاف خمسة مليمات إلى ثمن التذكرة تخصص لحصيلة صندوق احتفالات الثلاثين من فبراير ..

### من وصف مباراة لكرة القدم :

الصحف تشتعل في المدرجات ، الحمام يطلق في الهواء ، جنود قوات الأمن يصطفون ، الفرقة الموسيقية تتقدم إلى متصرف الملعب ، سيداق

---

---

سادق ، هذا يوم جديد يضاف إلى انتصاراتنا ، لقد ارتفعت كل الرؤوس .

بيان تاريخي :

« يا جاهيرنا العظيمة التي خرجت اليوم عن بكرة أبيها معبرة عن فرحتها بالخلاص من الكابوس ، الظلام الذي بدأ في الثلاثين من فبراير ، الظلم الذي تحكم في مقدراتنا ، لقد بدأ التاريخ لأمتنا اليوم والموافق ...

مقتطف من مقال افتتاحي :

إن التركة الثقيلة التي لدينا الآن تختتم بذلك المزيد من المجهود ، والتصدى بكل حسم لمن يريد تعطيل المسيرة ، تلك المسيرة التي تعطلت منذ الثلاثين من فبراير ... .

حوار - ٣

أمام غرفتها جلست تشم الهواء وتألّع عينيها بالضوء ، احتضنت طفلها الذي يقترب الآن من عامه الثالث ، لم ينتصب واقفا على ساقيه بعد ، من يَرَهُ لا يقدر عمره بأكثر من خمسة شهور ، شعر الرأس خفيف ، العينان عجوزتان ، الرقبة نحيلة ، نظرت أمّه إلى جارتها التي تسكن الطابق العلوي ، وقفت تحمل سلة بها قرطاس ملء بالطماطم الطيرية ،

---

---

---

وعيدان جرجير ، ولفافة ورق صغيرة ، قالت ..

— تتعدين والدنيا مقلوبة في الشوارع والميادين ..

— أخيرا ؟

— الافتاف للسماء .. والعربات محملة بالجدعان ..

رفعت طفلها « ربيت ظهره بيدها .

— يقولون انهم سيجعلون تذكرة الأوتوبس بقرشين ..

قالت الجارة وهي تلملم طرف ملائتها ..

— ربنا يصلح الأحوال ..

مايو ١٩٧٧

کریستال

〈 ٦٠٥ 〉

---

---

.. في صالة السفر بمطار العاصمة البعيدة ، مال الموظف الكبير على زميله هامساً بأنها عضوان في الوفد الرسمي ، وان حقائبها لن تفتح في الجمرك . هذا يعني خروجهما بما اشترياه من كريستال بدون دفع أي رسوم ، الكريستال من المنتجات النادرة ، ولا يسمح بالخروج به الا بعد دفع الضريبة الجمركية بالدولار ، هز الموظف الكبير ثان رأسه ، انبسطت ملامحه لأن حقائبه لن تفتح في الجمرك ..

في الطريق المحاذى للبحر اقترب رجل يرتدى جلبابا من شاب وفتاة ، فجأة فتح لفافة من ورق الصحف ، برق الضوء وتناثر في شطايا رفيعة سريعة من خلال التنوءات والمضللات والمثلثات والزوايا .

— كريستال ..

هز الشاب رأسه ، ابتعد الرجل .

هل تعتقد أننا سنعيش إلى اليوم الذي نقتني فيه قطعة كهذه ؟

ضحك الشاب ..

— أولاً يجب أن نجد البيت الذي سنضع فيه الكريستال ..

---

---

برقت آلات التصوير ، وشرع الصحفيون أقلامهم ، وانخذل الوزير المسئول أفضل وضع يمكن للتصوير ، ثم بدأ يرد على الاستجواب المقدم من أحد أعضاء البرلمان ..

— طال الحerman طال ، وحان الوقت لتنقول كفى .. كفى للحerman ،  
كفى للانغلاق .

أتعهد في نطاق اختصاصي باغراق السوق بالكريستال .. وليخرس المتقولون .. وليصمت المشوشون ..

فـ السادسة والربع تحدث رئيس مجلس الاستيراد في التليفون .  
— عندي أخبار عظيمة

— خير ..

— شوف يا سيدى .. بعد جهود كبيرة استوردنـا أول صفقة ..

— لا .. لا .. غير معقول ..

— صدقنى .. أول صفقة كريستال تدخل البلاد .

— هل ستعلنون عنها ..؟

— ولماذا نكلف أنفسنا وندفع أجور الإعلانات ، عشاق الكريستال

---

---

سيشمون رائحته .. اتصلت بك لتجهز ما ت يريد .. تعال عندنا لترى  
الكتالوجات ..

في كابينة مساعد القطار ، جلس الكمساري يتحدث إلى صديقه الذي لمحه فوق الرصيف فدعاه إلى الركوب بعيداً عن الزحام ، قال الكمساري إن الله وفقه تماماً مع زوجته الثانية ، الخير تدفق اليه مع ظهورها في حياته ، انه الآن يتغاضى مرتباً أساسياً قدره ثلاثون جنيهاً ، ويحصل على عشرين أخرى نظير مكافآت التطوير التي تحيى نتيجة لركوب الكثريين بدون قطع التذكرة من المحطة ، وبعد هذه السنين من الزواج تمكن أن يكون نفسه ، فلديه الآن ثلاثة حجرات ، وعندئ بتوجاز ، وثلاثة صغيرة تزين البيت ، صمت لحظات ثم قال انه طالما يعيش مع امرأته الثانية هذه فسيحصل على تلك القطعة ، سيمكن من شرائها يوماً .. وفي مكتب بأحد الأدارات الخاصة ، قال الرجل صاحب المسئولية لأحد أصحابه : الحمد لله ، أنا وصلت ، غيري تخرج بعدى بسنوات ، ولم يصل بعد ، أنا الآن في حجرة خاصة بي ، عندي تليفون مباشر ، وموحة ، ولدى ساعي ، حتى الكريستال تجده في بيتي ..

.. في المذيع الداخلي أعلنت المضيفة الأرضية عن وصول الطائرة التي كان من المفروض أن تصلك في السابعة صباحاً ، وعندما فتح الباب

---

---

كانت السيدة التي ترتدي فستاناً أزرقَ أول من ينزل السلم ، إنها مشغولة بعدها أمور ، جاءت معها بالعديد من المدaiا الصغيرة ، وآنية كريستال واحدة ، كريستال أزرق مشوب بخضرة مثبت إلى قاعدة من سن الفيل ، ستمضي غداً إلى رئيس الهيئة ، عندما تراه ستلقى بما لديها في تلك النظرة ، لن تطلب ما جاءت من أجله ، تعرف اللحظة التي ستقدم فيها علبة القطيفة الحمراء الضخمة التي تضم آنية الكريستال المخروطية الشكل ، عندما تلين ملامحه ، وترتجى شفاته وتتلاحم أنفاسه ، ويبدو فرحاً بجسدها العاري ، في اليوم الرابع أو الخامس ستمضي إلى الهيئة لطمئن إلى صدور قرار بجد عمل زوجها كملحق بالسفارة لمدة عامين آخرين في عاصمة تلك الدولة المشهورة بانتاج الكريستال الملون ، سيرسلان المزيد منه ، سيمتلئ المتجر بأندر الأنواع سيزداد رصيدهما ، وعندما يعودان يوماً سيعجان ثروة تؤمنها ضد أحطر الزمان ..

وخطط المحامي في قاعة المحكمة الخاصة المنضدة بقضية يده ، ثم أشار إلى المتهم ..

— كيف يتم موكلي باعتناق الأفكار المدama ولديه مجموعة من أندر أنواع الكريستال ..

---

— وفي تمام الساعة الثانية وصل الزوج من سفر طويل وفي صالة البيت ، بعد العناق ، وأشواق التلاقي بدأ يفتح الحقائب ، أبدت زوجته تهلاً بالفستان الجاهزة ، وقماش الحرير الطبيعي ، وقالت انه لم ينزل الى السوق بعد ، وتأملت لوحات الخشب المحفور ، وأساور زينة من العاج ، وعندما أصبحت الحقائب فارغة تماماً ابتسمت بإيجاز ، قالت أنها ستدخل إلى حجرة النوم لتحضير شيئاً من الداخل ، جلست ، فوق المهد المواجه للمرأة ، دار إيمانها حول بعضها البعض شفتها ، لم يفكرا في احضار قطعة كريستال واحدة .. ماذا تقول لأمها ، ماذا تقول لصويخاتها ..

بعد خروج الريض قرر الطبيب النفسي أن يخلو إلى نفسه لمدة أربع دقائق قبل أن يسمع الريض الثاني ، نفث دخان سيجارة ، لكم تتواضع آمال الإنسان ، عندما جاءه هذا الريض منذ عام كان أبرز آماله امتلاك نجفة من الكريستال ، ومع وطأة المرض ، وتواتي الأيام ، راح طموحه يغدو شيئاً فشيئاً ، حتى ان الطبيب سأله منذ لحظات عن منفعة السجائر التي رغب في شرائها بدلًا من النجفة ، فقال ببرارة ، وماذا يعني الكريستال بالنسبة لي ؟

وفى اللجنة التي عقدت لمناقشة البند التاسع ، أبدى البعض تحفظاً حول النية المتوجهة إلى تخصيص جزء كبير من الاعتماد لاستيراد أنواع

---

---

متقدمة تكنولوجيا من الكريستال » قال أستاذ جامعي سابق وهو الآن خبير استشاري ان المواد الغذائية يجب أن تحظى بالأولوية » اعترض أكثر من عضو قالوا ان التركيز على استيراد المواد الغذائية من الخارج يظهر الشعب كأنه جائع ، ويعلمه لا تقبله أبدا ، ان هذا يهز ثقة رجال الأعمال والمستثمرين الأجانب في متانة الاقتصاد القومي » ان استيراد هذه الكمية من الكريستال النادر سوف توجه للمرأكز المالية المختلفة بrossخ حسابات الميزانية العامة وضيق بند الصرف ، واتساع دائرة التمويل » هنا قال الأستاذ الجامعي السابق والخبير بيده بما يوحى إلى الأستاذ أن يدع الأمور ثم ، قاله ان الناس يجب أن تشعر بتغيير حقيقي .

وفي الأيام الخريفية الأولى بعد أن خفت حدة الحر ظهر في الفنادق أعداد كبيرة من أطقم الكريستال الأخضر الفضليع » وسررت اشاعة قوية حول وصول غرف نوم من الكريستال الأزرق الشفاف شبيه البحر في لحظات صفات ، قام المسؤولون عن مقاومة الحقد الكريستالي باجراء اتصالات ودية مع المستوردين لعدم الاعلان عنها تليفزيونيا » وسينمائيا » لأن ذلك سيستفز الناس خاصة الأعداد التي تتزايد يوما بعد يوم ولا أمل لها في لمس كوب كريستالي » لكنهم أصرروا على ممارسة الحقوق الإعلانية التي كفلها الدستور » والمواثيق الدولية ، وحقوق الإنسان ، وبعد أخذلورد تم

---

---

---

التوصل إلى حل يرضي جميع الأطراف ، وهو عدم التصدى للحقوق الإعلانية ، لكن يراعى عدم ذكر السعر الباهظ للحجرة الواحدة .

وتقىد إلى إدارة الرقابة على المصنفات الانتاجية أحد المستمرين يطلب الترخيص بانتاج نوع مقلد من الكريستال ، وأبدت الأوساط المتتبعة للاتجاهات الاجتماعية ترحيبها البالغ لأن هذا سيتيح لفئات عديدة امتلاك ما يشبه الكريستال ، غير أن أحد ذوى النفوذ أبدى امتعاضا ، اقترح الدراسة الثانية قبل النظر في أمر هذا الترخيص ، لأن انتاج هذا المصنوع سيخلط الحقيقى بالزائف ، والأصل بالظل ، وربما ياخ بعض التجار الذين لا ضمير لهم الكريستال المقلد على أنه حقيقى ، وهذا سيرفع معدل الجريمة ، وهنا قال الخبراء الفنيون التطبيقيون ، وأين نحن إذن ؟ أليست مهمتنا اكتشاف الحقيقى من الزائف ، ثم أن قيامهم بعشل هذه الفحوص سيسخلق مجالات عمل أمام الخريجين الذين لا يجدون فرضا للعمل .

فـ البرلمان قال الوزير المختص ان الرخاء عم والدليل أمام كل العيون « يكفى البلاد فخرا أن معارض الكريستال » في ازيداد مستمر ..

صباح الجمعة نشرت الجريدة الرئيسية قصيدة مطلعها ..  
يا كريستالية العينين تلألي ..

---

---

---

في حجرة المستشفى الأبيض الشاحب ، توالى الصور على عقل  
المحتضر ، هل سببه الأمر ، يموت ، ويفارق هذه الدنيا المليئة  
بالكريستال . . .

أغسطس ١٩٧٧

\* \* \*

الغرق في البر

〈 ٦١٥ 〉

---

---

قال المهندس العجوز في اللحظة الأولى للعشور عليه ، « .. مل جرى » . ثم صمت ..

لكن كيف تم الوصول إليه ؟ قيل ان الفضل يرجع إلى مواطن صالح يعيش في عمارة على طراز البلجيكي ، أما البيان الرسمي ، فأفاد بأنه قمت تحريرات واسعة بناء على توجيهات مدير الأمن العام ، الذي تلقى تعليمات مدير عام قوى البحث والتجري ، الذي صدرت اليه توجيهات مدير عام العاصمة الذي أخذ اللازم بناء على الخطوط العريضة التي رسمها الوزير المختص بقلم أحمر ، وعندما خرج المهندس من شقته رأه الواقفون رجلا نحيلا ، نظارته اطارها معدن ، فضم إلى صدره ثلاث اسطوانات ورقية ، وقطعة سجاد قديمة حمراء من طراز بخاري ، اقترح خبراء الاعلام التزيم قطع البرامج وبيث الخبر ، لكن المسؤول الإعلامي أمر بغير ذلك

---

فجاء ترتيب الخبر بعد المقابلات والبرقيات الواردة والصادرة ، مع أن  
الخلق لم يشغلهم الا الحديث عنه ، بدا لهم شعاع منأمل منذ أن توالت  
الأيام الثقيلة ، والكوارث العظيمة ، وبداية ذلك عندما شاع أمر اختفاء  
الناس أثناء عبورهم برك المياه الراكدة التي طفت في الشوارع والميادين ،  
أدرك الناس أنه من الممكن أن يغوص أحدهم ولا يطفو ، عندذلك لن  
تستخرج شهادة وفاة تمكن أسرة المختفى من صرف المستحقات الرسمية ،  
تردد الخلق في الخروج ، قل رواد المقاهي ، وقيل أن أحد الصالحين أوقف  
ثلاثة أفنون يملكونها لا قامة معاير من الحجارة بعد أن حوصلت البيوت بمياه  
راكدة ، خضراء أو رمادية ثقيلة الرائحة ، وقال العابثون إن الغرق في البر  
أشد وأنكى من الغرق في اليم ، المأساة هنا مضاعفة ، الموت والرائحة  
الفظيعة ، ولا يستطيع انسان تحديد الفترة الفاصلة بين وقوع أول حادثة  
غرق في البر وبين انعقاد ذلك المؤتمر الواسع الذي عقد في المقر المؤقت  
للبلدية ، وضم خلاصة العقول الهندسية في البلاد ، وبعد مناقشات  
اضافية صدر بيان صريح بذلك ، واستخدم في كتابته أحدث وسائل التورية  
اللغوية المستوردة خصيصا ، استعرض تاريخ شبكة المجرى حيث أنها  
شركة فرنسية عام ١٩١٣ ، صنمت لتخدم العاصمة حتى اتساعها لليون  
شخص ، وحدد عمرها بخمسين سنة ، لكن ظروفها عديدة لا داعي  
للحوض فيها الآن حالت دون تجديدها ، ومع تكبد السكان طرأ تغير

---

---

على الشبكة بعد أن استندت كافة أشكال الطفح المتعارف عليها ، تحولت جدرانها إلى مواد رخوة ، اختلطت فروعها ، ارتحت القشرة الأرضية ، حدثت تغيرات خفية ، وانهيارات تحتية ، ورأى المهندسون المخلصون ضرورة حقن الشبكة بكميات من الاسمنت الخديدي ، ثم الاتصال بأحد بيوت الخبرة الأجنبية ، وطلب بيت الخبرة المحترم تصميمات الشبكة .. وبالبحث والتحرى اتضح أنه لا توجد تصميمات في أي إدارة مختصة ، تم تشكيل وفد موسع للسفر إلى باريس للحصول على التصميمات من الشركة التي قامت بالتنفيذ ، لم تدع كل التفاصيل ، غير أن قدرات الناس على النشر تنمو في مثل هذه الظروف ، هكذا أيدن الأهالى أنهم يعيشون فوق أرض رخوة ، وعندما وقع أول غرق جاعي سرى الرعب في الأفلدة ، إذ غاصت عربة أوتوبيس مفصلية صناعة مجرية في بركة مياه راكدة منذ شهور ، أقسم شهود العيان أن الأرض تحركت كما لو كانت تتهدى ثم ابتلعت العربة ، وفي الأيام التالية غرفت عدة دراجات براكبيها ، و سيارة نصف نقل ، وأحد أعضاء جمعية أنصار الأرجح ، وأصدر اتحاد الطيارين الدولي بياناً أعرب فيه عن قلقه لظهور برك مياه بالقرب من محركات المبوط ، حلقت الصحف المحلية وقالت إن الاتحاد خاضع لضغوط بعض الدول ذات الاتجاه السياسي المعين ، في الشوارع على الوجوه صفرة الرعب ،

كما قلت ساعات النوم وكثير انها في البيوت في الحى القديم ، وحاول البعض تحديد مسئولية ما جرى ، قال فريق انه العهد البائد ، عندئذ مزق بعض الموظفين صور العهد البائد ، رعا نقل عنهم ذلك فتحسن صورتهم لدى الجهات المعنية ، وتساءل الناس عن الوفد الذى سافر إلى باريس ، بعد يومين نشرت الصحف برقية من رئيس الوفد يعلن فيها تأييده التام ، ويعتذر بازدحام الطائرات المتوجهة إلى البلاد ، عندئذ أرسل مندوب العلاقات العامة لشركة الطيران تكذيبا ، قال فيه إن حركة السفر انخفضت ، وانهوى السياح بسبب ما أشيع عن اختفاء الناس في مياه البحار ، غير أن الانظار تعلقت بالوفد الذى عاد وأعلن رئيسه في الطار اختفاء الشركة المصممة للشبكة ، لكن الوفد بذلك جهودا مضنية في غير أوقات العمل الرسمية مما يجعله مستحقا لأجور اضافية ، حتى أمكن التوصل إلى حقيقة هامة وهي أن أحد المهندين الذين شاركوا في بناء الشبكة لا زال على قيد الحياة ، وإن ؟ هنا في العاصمه ، بدأ البحث ، وتزايد السفر إلى الخارج ، وأغلقت دور السينما والمسرح ، وأبطلت أضواء النيون ، وانهوى جزء من سور القديم في المياه العطنية فتشاءم الناس وقالوا ليقنعوا حدث عظيم ، غير أن العثور على المهندس جذب كل انتباه ، هجت الألسن بالبشرى ، وتم طرح كميات اضافية من الاشعاعات المتنفسة لتهيئة الخواطر ، سيتم الليلة معرفة تصميم الشبكة ، ستستخدم المياه

---

---

العطنة كسماد ، ستنمو الاشجار وتتفتح الأزهار وتغزو الأطيار ويأكل  
الفقراء اللحم و «المبار» .

تم نقل المهندس في سيارة خاصة إلى استراحة معدة فوق المضبة  
الجنوبية ، أعد نظام دقيق للتكييف ، نقل أحدث جهاز لانعاش القلب ،  
وعدة خيام أكسجين ، كما وقع عدد من الأدباء والمفكرين ينادون فيها  
الدكتور عجدي يعقوب بالحضور للإشراف على أثمن رجل الآن ، تم  
استدعاء أطباء عاليين من كل التخصصات ، ركبت أجهزة تسجيل ،  
حساسة للغاية لالتقط أي عبارة ، أو همامة ، أو لفظ يفوته به المهندس ،  
قيل انه لا يتكلم الا في الأوقات التي تأتي فيها الشغالة ، كما أنه يحدث نفسه  
أحياناً ، لكن متى .. لا أحد يدرى .

أحد كميين حكم للشغالة ثم نقلت إلى الاستراحة ، استجوبت  
بدقة ، أمكن معرفة معلومات قيمة ، منها أنواع الطعام الذي اعتاد أن  
يأكلها ، الزبادي ، قطع الخيار المخلل ، عسل النحل .

والترمس ، كذلك حبه الشديد للنظام ، وجلوسه أمام النافذة لمدة  
ساعة أو ساعتين ، واستمعاه إلى نشرة الأخبار من إذاعة لندن فقط ، كما  
أنه يكره طلاء الدوكو ، في تلك الليلة جاءت الأخبار إلى الاستراحة بفرق  
الحديقة الوحيدة المتبقية في العاصمة ، اختفت الحشائش والزهور .

---

والمقاعد الحجرية ، والطربات الضيقة المرصوفة بالزلط الملون ، كما  
تشققت مبانى المصالح الحكومية ، وظهر شرخ يتسع لمرور الرجل البالغ في  
واجهة مبنى السترانل الفرعى ، ومن ادارة حفظ الوثائق القديمة انبثت  
نافورة مياه سوداء عطنة تشم رائحتها على بعد كبير ، غرفت كل الملفات ،  
وقيل ان البلاد فقدت بذلك جزءا من ذاكرتها ، وظهرت مساحات واسعة  
من المياه ، وبلغ من غلط الرائحة أن العيون كانت تراها فى الهواء ، وأكمل  
الذين اعتادوا السهر أثمن شاهدوا فوق البيوت غلالات خضراء فى الصباح  
الباكر ، وأعلنت الولايات المتحدة عن اتجاه حاملة الطائرات انتر برايز إلى  
جهة غير معلومة ، وفي المساء أعلن المتحدث الرسمي أن المهندس  
محمد ، فقال للمرة الثانية ، « هل جرى ما جرى ؟ ». على الفور دخل  
كبار اخصائين الطب النفسي في البلاد الحارة ، والخائز على الدكتوراه  
العلمية من جامعة أدنبرة وزميل كلية الطب النفسي بها رولد تاون ، وقيمة  
الكشف العادى خمسة جنيهات وعشرة كشف مستعجل ، وعشرون فى  
البيت ، وثلاثون فى الضواحي والاستقبالات بمواعيد سابقة يتفق عليها مع  
التمورجي ، وبعد حوار قصير ، ومدخل تمهدى لابد منه ، وتنبیعات  
على ايقاع واحد ، هز المهندس رأسه ، وقال على مهل ، انه من الطبيعي  
حدوث الغرق لأن آخر الزمان اقترب ، أبدى المراقبون ارتياحا ، يبدو  
حديث العجوز مرتبأ ، والفاظه سليمة .

---

---

سكت المهندس لحظات ، قال انه من الغريب أن يبدأ الغرق بسبب الشبكة التي هي تحفة في تصميمها ، شارك في كل الخطوات ، شهد له الأجانب بالكفاءة . جاءه إليه كبير مهندسي الشركة في موقع العمل ، كان يرتدي قبعة عريضة لأن الأجانب لا يختملون شمس مصر . صحيح أنهن تغزلوا فيها ، لكن تلك شمس الشتاء ، وليس شمس الصيف . ولكن ، لماذا يجب الإنسان الجلوس في الشمس شتاء ويكره ذلك صيفا ؟

توقف عن الحديث ، قال كبير الأخصائيين مبتسمًا بتودد ؟

سؤال قيم بالفعل .

صاح المهندس مباغتا :

لكن كيف يحدث هذا وأرصفة الترام لا تزال أقل ارتفاعا من أرصفة القطار . كيف يمكن ضبط ارتفاعات الأبواب بحيث تجيئ متوازية مع الأرصفة ؟ ولحساب من يحدث هذه ؟

في تلك اللحظة دق التليفون في غرفة المراقبة المركزية . وأعلن المتكلم أن الحيوانات في السيرك تحاول منذ العصر الالفات ، الأسد روميو نفع رأسه في القصبان محاولا الانتحار ، أطلقت عليه رصاصات مخدرة ، القرود مدلاة الأسنان ، وعيونها متسعة فرعا وفي أماكن عديدة من العاشرة لم تهدا العصافير ، وعلى الرغم من نزول الليل فانها لم تهجر بعد إلى أعلى

---

---

البيوت وقمم الأشجار وأعمدة التليفونات ، كما أن أسراب الحمام التي انطلقت من الأبراج ترفض العودة على الرغم من تلويح أصحابها برياحات مختلفة الألوان ، وسقط عديد من اليمام مجهاً ينتقض فوق الأرض لكن الأسراب الباقية لم ترُسْ ولم تأو .

قال المهندس :

لماذا اخترع الإنسان أنواعاً من الجبن ، جبن قريش وجبن روكتور وجبن رومي ، ما هذه الفرضيّة ؟ وهذا الورق المفضض كم يستهلك الإنسان منه يومياً في تغليف السجائر ؟ بدا المهندس صارماً ، ابتلع كبير الأخصائين لعباته بصعوبة ، استدعي إلى ذهنه ما قرأه في المراجع الطبية والقواميس التي يعلن عنها يومياً بعد نشرة التاسعة عندما صمت المهندس لحظة اضطر إلى توجيه سؤال مباشر غالفاً كل قواعد الاستجراب .

لكن لماذا عن التصنيمات الخاصة بالشبكة ؟؟

جهلت عيناً المهندس باشواف مفاجئة .

شبكة ؟ أي شبكة ؟ ماذا يعرف هذا الجيل عن الشبكة ؟ من يدرى بالمعاناة التي بذلت من أجل الشبكة ؟؟  
مط شفتيه ، ثم رشف جرعات متتالية من الماء بصوت مرتفع جعل الاخصائى يقشعر تقرزاً ، غير أنه خالب ضيقه وسأل ..

---

من أين بدأتم الحفر؟

من الميدان الفرعى بالحى القديم ، استمر الحفر أسبوعاً ، وكان الناس يجيشون ليتسرجوا على الآلات الحديثة ، في البداية حفرت بشر عميقه . ثم قناة عريضة في الاتجاه الشمالى الشرقي تم الحفر بدقة ، وقف المهندس французى إلى جوارى ، قال لي .. أنتم أذكياء ، لكننى تساءلت عن الشخص الذى اخترع جوازات السفر ، وحدقت عليه ، لكنها أشارت إلى « كان شعرها قصيراً ، وهل يفهم الناس الآن معنى الشعر القصير فى زماننا ، لم أدر جنسيتها لم أعرف كلمة واحدة من لغتها ، لكن عيوننا اتصلت وتم كل شيء بسهولة لم تتكرر خلال سنوات عمرى التالية ، جرى ذلك خلف كومة حبال كبيرة وضخمة ، لوحظت لي ولا أدرى أين هى الآن ولست أدرى أين رست أول سفينة فى العالم ، لكن صاحبى أخرج ورقة معدنية بها عشرة أقراص ، قلت مبتسمـاً ، أهذه مقويات؟ قال بعد أن شربنا وأكلنا .. أكلنا ماذا؟ مع كل كأس وي Sik حضرروا عشرين طبقاً من المخللات وأصابع الكفتة وسمك الباساريا والسردين وفول .. هذا كله مقابل قرشين فقط ونصف قرش للجرسوـن يجعله ينحني لك حتى وصولك إلى البيت ..

.. في التاسعة وعشرة دقائق رصدت أجهزة الشرطة النهرية ، والصيادون الفقراء الذين ينامون في القوارب طفو أعداد كثيفة من السمك

---

الميت ، أسماك مختلفة الأحجام غطت سطح النهر ، وقيل أن الشبكة ربما رسبت في النهر مياهاها العكرة ، وخلد المسؤولون بالمرفق الاداري لمياه الشرب لن يجدوا قطرة يشربونها وذلك لعجز كافة وسائل الترويق والترسيب المتاحة ، وفي تلك الليلة لحظ تساقط الأوراق الخضراء لما تبقى من أشجار ، ونضج الماء من جذوع عتيقة تجاوز عمر بعضها اربعين عام ، وفوق الحى القديم علت سحابة من غبار عندما انها صفت كاملا من البيوت ، وتعدد على الشفه سؤال محير ، إلى أين نذهب ؟

من أنت ؟

قفز بعض الجالسين من الغيط في غرفة الاستماع ، صاح المشرف العام على عملية الاستجواب .. هل هناك طريقة لتخديره وانتزاع ما نريده ، لكن كبير الاطباء قال انه تجاوز السبعين ولا يتحمل أى نوع من التخدير .

قال المهندس متمهلا ..

كانت الخضراء في كل مكان ، وللأعياد فرحة وللحياة مذاق حتى في ساعات الضيق ، لماذا تهاجون العهد البائد ، أريد أن أسمع بيانا ينهي حملات الهجوم ..

أو ما كبير الاخصائين بعد أن رأى فرصة متاحة للحوار .

---

---

---

ستسمع البيان .. لكن ، هل تذكر إلى أين امتد النفق الثاني ؟

أجاب المهندس :

طبعا ، وهل هذا شيء ينسى ؟

في غرفة الانصات بدت حيرة أى ماضى يقصده ؟ أهو القريب أم البعيد ؟ أهو الماضي التام أو الماضي المستمر ؟ في فترة هوجم الماضي الوسيط وامتدح الماضي البعيد ، وفي مرحلة أخرى هوجم الماضي البعيد وأعيد الاعتبار إلى الماضي القريب ، قال المشرف العام انه سيلغى المسؤولين في وزارة الدعاية ولি�تصرفا ، لم يرد التليفون « لم يجب أحد » اعترض المسؤول الأمني ، قال ان ما يطلبه المهندس فيه رائحة لا تخفي وخطوط مضادة للسياسة التي أقرها الحزب الحاكم ، انه يشك في جنون هذا المهندس ويطلب الكشف عليه باشعة الليزر ، صاح كبير الاطباء طالبا من المسؤول الأمني التزام حدوده وعدم الخوض في أى أمر طيب ، أكد المشرف العام أنه لا يعرف الا مسئولية واحدة وهي الاطلاع على تصميم الشبكة وكل ما سيجعل المهندس يتذكر التصميم لا بد من القيام به .

في هذه اللحظة أعلن مسئول الاتصالات السلكية واللاسلكية أن مياه الطفح أغمرت استوديوهات الإذاعة ، وأفسدت الأجهزة الإلكترونية ، وأغرقت استوديو التليفزيون رقم ٩ المخصص لتسجيل

---

---

---

الحلقات التمثيلية السباعية كما أن الشروخ دبت في المبنى وتسعم منه على فترات متباينة طقطقة وكركبة ، تلقت الصحف تعليمات بإصدار نشرة كل نصف ساعة ، وذلك حتى يتم تشغيل محطة الإذاعة الاحتياطية ، وفي مبني الصلب الموحد الذي لا تخترقه المياه والمعالج بطلاء « كورامات » الذي يباع لدى الصيدليات الكبرى وفي فروع البقالة الكبرى والشركات المساهمة « كورامات » الطلاء العجيب الذي عاد أخيرا إلى الأسواق بعد طول احتجاب ، ننصحكم باستعمال كورامات ، في المبنى المعالج بهذا الطلاء اجتمع خبراء الاعلام وراحوا يبحثون كيفية تغيير الصورة .

اجتمع الخبراء حول نموذج جسم من الجبس للواقع ، ثم بدأوا مقترنات القلب والتغيير ، كما تم فرز الاشاعات في آلة خاصة لاختيار الصالحة منها ، وفي اليوم التالي تم ابراز دقائق حياة المهندس ، كما كتب رئيس التحرير فصلا عن نبوغه المبكر ، وكتب رئيس اتحاد الكتاب المعتمدين رسميا والخائزين على صماماته لمدة عشرة سنوات قابلة للتتجديد دراسة عن جبه للجلوس في الصفوف الخلفية أثناء دراسته الابتدائية ، وأعلن عن أخبار هامة ستذاع خلال ساعات سويسريه الصنع .

إلى جانب ذلك تم نشر أسماء بعض الأماكن التي غمرتها مياه الطفح ، ولم يأت أحد على ذكر عرق مستشفى الولادة الرئيسي ، وضياع صيحات .

---

---

عشرات الأطفال الراغبين في أسرتهم المغطاة بستائر وردية في الدرجة الأولى ، والملتصقين بصدر أمهاتهم في الطابق الأرضي بالدرجة الثالثة ، وقيل ان الماء اندفع على شكل نافورة هائلة أسرف الضغط الناتج عنها عن تحطيم زجاج النوافذ في الشوان الأولى ثم غمر المرات وغرف الولادة والمرضيات والأطباء الرئيسيين والآخرين المتأثرين ، وعندما دنا الوقت من الأصيل سأله المهندس :

عندما تبدأ المشي ، هل تخطو بقدمك اليمنى أو اليسرى ؟

ابتسم كبار الأخصائين بعصبية ، أطرق كأنه ووجه بسؤال عريض « لكته وجد نفسه يتساءل ، بأى قدم يخطو ؟ ثم قام ومشى في الحجرة بينما حلق المهندس الى السقف ، في هذه الائتمان أفلعت من المطار آخر طائرة قبل إغلاقه بعد أن تصدعت مراته ، داخل الطائرة تناول أصحاب الأموال الخارجية قطعة الحلوى التي تمنع دوران الجو ، وابتسموا للمضيفة التي راحت تشرح كيفية استعمال حزام النجاة وكمامات الأكسجين عند الطيران على ارتفاعات عالية لقد انتابهم راحة لأن فلوضاعهم مرتبة في عواصم الدنيا ، أما أصحاب الأموال الداخلية فراحوا يبحثون عن قطع الأرض المرتفعة والتي أصبحت الآن ممتازة بعد أن كانت لا تساوى شيئاً منذ أسبوع واحد ويمتلكها البشر بوضع اليد ، في المساء تم طرح كميات اضافية من الاشاعات المعدة جيداً والمحفوظة ، مضمون احدها أنه تم التقاط صور

---

---

---

بواسطة قمر صناعي أمريكي يتم دورة حول الكروة الأرضية كل نصف ساعة للشبكة ، وانصح منها أن هناك اتفاق هائلة تحت الأرض تشبه المدينة الضخمة ، وثبت توفر كميات الاكسجين ، لهذا فان الغوص في المجرى لا يعني الموت ، ثمة حياة أخرى تتضرر من يغرقون ، المهم هو التكيف معها ، وتجربى حاليا محاولات جادة للاتصال بالمواطنين الذين ذهبوا إلى الشبكة ، وفي اشاعة أخرى تم تداوهما بشدة أنه تم تحقيق الاتصال فعلا وان الاجابة جاءت ايجابية .

في هذه اللحظة تخلى كبير الاخصائين عن كل وسائله العلمية وأساليب توجيه الحديث ، ركع أمام المهندس ، قال :

سأفضل من عمل لو أنك لم تخربني بتصميم الشبكة ، سيرشد اولادى ..

ثم تصنع الأغماء ليستدر الشفقة .

قال المهندس انه يجب على كل طبيب القاء التحية عند دخوله من باب العيادة على مرضاه ، والغاء الأسوار المحيطة بمدارس البنات ، وتقشير الخيار قبل أكله ، واثبات البكاراة بشهادة رسمية ، وتعيم الكشرى ، والاعلان العالمي عن حقوق الأطفال في رؤية الحيوانات حرة طليقة ،

---

---

---

والاكثر من القوارب الشراعية ، والتصدى بحزم لأشجار الكافور ،  
والضرب بشدة على غصون الصفصاف ..

نزل غم فوق المدينة ، وخيمت رواح كرها سرت أقوال خبيثة بأنها  
مشبعة السماد الطبيعي وأن الفراغ سينبت أعشابا وسيختفي التنفس ،  
لكن تم طرح اشاعات مضادة ، إلى الاستراحة وصل أحد المسؤولين  
بالأجهزة الشرعية ، قال إن ثمة أخباراً مؤكدة حول الاتصال بين ابنتهما  
الشبكة ، وإن أحد المفاهيم التقط رسالة صوتية من تحت لا يشكوا صاحبها  
إلا من الظلام الكثيف ، لكنه يقول إن كل شيء على ما يرام ويبلغ سلامه  
إلى الأهل والأحباب ويعلن تأييده التام . . . .

نوفمبر - ١٩٧٧

---

---

## فهرس

٧	أرض .. أرض .. ■
٩	وقف الزمن ..
١٣	أرض .. أرض ..
٣٩	إجازة .. ٧٢
٦٣	عصفور الشتاء المهاجر ..
٨١	الظمآن ..
٩١	المغول ..
١٢٧	مناجاة ليلية تحت هدير المدافع ..
١٤٥	شكواوى الجندي الفصيح ..
١٧٣	حكايات الغريب .. ■
١٧٥	اجراء من سيرة عبد الله القلعاوى ..
٢٠٩	السبوبة ..
٢٢٥	جهود حربى ..
٢٥١	الوجبة ..
٢٧٥	حكايات الغريب ..
٢٩١	طين ..
٣٠١	ربيع الجبل ..

---

---



---

٣٦٣	■ الرفاعي .....
٣٦٥	العد الشنازلى .....
٤٢٥	الشكورين .....
٥٠٣	■ ذكر ما جرى .....
٥٠٥	ما جرى لأرض الوادى .....
٥٣٩	الترام .....
٥٥٥	الفندق .....
٥٧٩	الزهور تفتح .....
٥٧٩	في الخط .....
٥٩٣	الثلاثون من فبراير .....
٦١٥	كريستال .....
٦١٥	الفرق في البر .....

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩١ / ٣٨٢١

ISBN 977-01-2755-8

---